مكتبة الدراسات الأدبية

٢٣

الدكتور زكى المحاسنى

شعر الحرب فى أدب العرب

فى العصرين الأموىّ والعبّاسىّ إلى عهد سيف الدّولة

دار المعارف

شعر الحرب في أدب العرب

في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة

مكتبة الدراسات الأدبية
٢٣

شعر الحرب في أدب العرب

في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة

بقلم
الدكتور زكي المحاسني

دار المعارف بمصر
١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – شارع كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

فاتحة الكتاب

باسم الله ، قد اخترتُ موضوع هذا الكتاب « شعر الحرب فى أدب العرب ، فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة » ، وهو موضوع يتناول البحث الفنى فى شعر الحرب الذى قالته العرب فى عصور مجدها تصف فيه بأس أبطالها فى حومات الوغى وفروسيتهم فى زحمات القتال ، وبلاءهم فى أشرف أيامهم وأروعها ، وأشد حروبهم وأقساها ، حين كان بعضهم يغير على بعض أو يجتاز حدود بلاده للفتوح فى صدر الإسلام ، أو يحارب جيوش البيزنطيين فى زمن المعتصم أو عهد سيف الدولة .

وقد عُنيت فى هذا الموضوع باستجلاء مظاهر الحماسة فى شعر العرب فى الفترة التى أبحثها منذ منتصف القرن الأول للهجرة حتى منتصف القرن الرابع ، وهى فسحة الزمن الذى غلى فيه شعر الحماسة كمراجل تستعر ، فتوخيت إلى تلك العناية أن أعرض شعر الحرب عند العرب فى معارض شتى أجىء بها حيناً مكسوة بالسياسة وآونة محفوفة بالتاريخ ، إذ لم أجد الفن وحده راضياً باحتضانها . وما كان أدب العرب ولا شعرهم فى زمن من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم ، إن كل قصيدة من قصائدهم مربوطة بحادث يمت إلى التاريخ ويمسه من قريب أو بعيد . وقد كانت منازع الأحزاب وسطوة التاريخ على شعر الحماسة العربية فى العصر الأموى أقوى مما كانت عليه فى العصر العباسى ، ولذلك جاء موضوع كتابى فى العصر العباسى متسماً بمياسم الفن بنصيب أوفى من اتسامه بالتاريخ ، لأن شعراء العصر العباسى كانوا قد تحرروا من ربقة التقليد التاريخى وانطلقوا منذ بشار وأبى نواس فى أجواء الفن الصافى ، ولا أعنى بذلك أنه لم يكن لحوادث التاريخ سلطان عليهم ، وإنما أرمى إلى أنهم أصبحوا فى طور من الاستقلال الفنى يصلهم بالتاريخ فى بواعثه وغاياته ، لكن قوام قصائدهم كان لوجه الفن ، فكم من فارق فى شعر الحماسة والحرب ، أو الفخر والهجاء بين قصائد الفحول كالفرزدق وصاحبيه جرير والأخطل وقصائد أبى تمام والبحترى والمتنبى شعراء الحماسة الأخيرة . فإن أولئك كانوا مسوقين بنداء السياسة والتاريخ ليقولوا ما قالوه

فكان ذلك مزاج قصائدهم ، وهؤلاء على ما كانوا عليه من صلة بسبب التاريخ أو غايته ، كانوا يجرون أشعارهم فى مضمار الفن يطاردون بها قنائص الصور الجميلة وروائع الخيال فى تحاسينهم المعنوية واللفظية .

وإذا كان شعر الحرب فى الأدب العربى هو أقوى ما نظم الشعراء وأبقى على ترادف الأحقاب لأنه يتصل بالأمة فيضم مجد ماضيها إلى عزة حاضرها ، وهو وحده سجل فخرها وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها ، فقد اخترت أن أؤلف كتابى فيه . وسدد عزيمتى بذلك الحرب العالمية الثانية التى وضعت أوزارها على مناكب الإنسانية الحديثة ، وما زال دهاقين ساستها إلى اليوم ، بعد اندحار أعدائهم ، يتعاورون ما بينهم حرباً فى خبايا النفوس بعد أن اقتسموا الأسلاب والمغانم ، فأهاجت عندى الحرب بويل آلاتها ، وبطش دهاتها ، تلك الحرب العربية الغابرة التى اتخذت شعر العرب وصفاً لها ومجلى لوقائعها وكان أبطالها الكماة المناجيد ، أحلاس الخيل وأعلام الشجاعة ، يجمعون إلى الفروسية والبطولة فنون الشعر وسحر البيان .

وقد اتخذت لبحثى النهج الجامعى فى التبويب والتفصيل والترقيم ، معتمداً على التحليل والتركيب حيناً والمقارنة والنقد حيناً آخر لاستكشاف الظواهر الأدبية الحماسية وربطها — إذا دعا الأمر — بأسباب السياسة أو التاريخ ، ونظرت إلى موضوعى الذى آثرته وارتضيته فوجدت الشروع فيه من العصر الأموى يستدعى التمهيد له بالملاحم والقصص الحربى فى الآداب العالمية والعربية ، وبعد أن استقصيت ما عند الأمم كافة — فى القديم والحديث — من ملاحم وقصص حرب ، منذ عام ١٩٤٧ حين حصولى على الدكتوراه فى الآداب العربية من جامعة القاهرة ، نقبت عن الملحمة العربية ، وعرضت بالبحث والدرس إلى عرب الجاهلية ، فتناولت طائفة من أروع حروبهم التى كانوا يسمونها أياماً ووقائع ، وخرجت من ذلك بعد الاستقراء والاستقصاء إلى أن العرب أمة حرب فى فطرتها . وكان طبيعيًّا أن أخلص فى أعقاب هذا التمهيد إلى لغة الحرب لأنها لغة الشعر الحربى الذى أكببت على دراسته فى موضوع رسالتى . فتتبعت هذه اللغة من شعرها الأول متقرياً ألفاظها وقد رددتها فى غالبها إلى الحرب منذ عهد امرئ القيس إلى زمن شوقى .

وحين أقبلت على دراسة الشعر الحربى فى العصر الأموى ، وجدته يصور الحماسة

العربية فى أصدق مظاهرها وأروع بيئاتها ، مسكوباً عليه لونان من العبقرية ، أحدهما عربى صميم فى باديته وإبله وخشونته وبأسه ، والثانى إسلامى دينى فى روحه وبواعثه وثوابه وآخرته . وملكت شعورى بطولة الخوارج التى رأيتها تبذ فروسية أبطال الأساطير الذين حدثنا عنهم هوميروس ، ورق قلبى لأحزان الشيعة التى شاعت فى حميتهم وفدائهم ، معتزاً بحماسة الأمويين ومعجباً بشعراء الفخر والهجاء .

وكان نهجى فى بحث شعر الحرب فى العصر الأموى خاضعاً للتيارات الأدبية فى النوازع الحزبية والسياسية ، إذ كان الشعراء قد ذهبوا شيعاً متحيزين حسبما دعت الأيام والبيئات ، وعلى مقتضى الأساليب التى كان يريدها الساسة والحكام ووفق التنابذ القبلى وعصبية النسب التى كانت بين اليمانية والعدنانية والتغلبية والقيسية .

وفى العصر العباسى غالبتنى الطريقة الفنية التى يقتضيها الشعر العباسى وحده لضعف السياسة يومئذ وتوزع السلطان ، فكنت أحاول ما استطعت أن ألفت أعنة الشعر الحماسى الفنى إلى أسباب التاريخ ودواعى السياسة ، حتى أوفيت على زمن المعتصم وسيف الدولة فأخضعت البحث للنص إذ أخرجت من دواوين البحترى وأبى تمام والمتنبى وأبى فراس ، حوادث البطولة وأوصاف الحروب التى سكت التاريخ عن كثير منها أو تغافل .

ونظرت فيمن سبقنى إلى هذا الموضوع فوجدت المتقدمين من العرب قد عالجوه لا بسبيل الفن وإنما فعلوا ذلك لغاية التاريخ وفى مطالب اللغة لتفسير كلماتها أو للإعراب ، فى مناقشة وجوهه ، كما فعل أبو زكريا التبريزى فى شرح حماسة أبى تمام وما صنعه أبو الفتح عثمان بن جنى فى إعرابه لشواهد الحماسة الطائية أو نقده اللغوى . وقد استطاع الخالديان وهما شاعران أديبان كانا فى بلاط سيف الدولة أن يصنفا كتابهما الحماسة الخالدية المعروفة بالأشباه والنظائر وقد أوجدا فيه روحاً فنية بدائية للبحث والتنقير فى بعض أبيات الحماسة .

وكان هؤلاء السابقون لمعالجة شعر الحماسة وأضرابهم من المؤلفين القدامى مولعين بجمع الشعر الحماسى جمعاً فحسب بعد أن يتخيروا أحسنه ، لا يعنون فيه بتصنيف أو تنسيق ينتمى إلى التاريخ أو إلى الفن ، وكان دأبهم أن يبرزوا مختاراتهم فى مجموعات لا يربط بين أجزائها رابط سوى تشابه الموضوع .

وقد عمموا كلمة الحماسة على كل شعر وجدوا فيه قوة وروعة ، وجزالة وأسراً ، ولذ

نرى أبا تمام الطائى يحشد فى كتابيه « الحماسة الكبرى » و « كتاب الوحشيات » المعروف بالحماسة الصغرى ما راقه مما قيل فى روائع الشعر منذ العصر الجاهلى إلى زمنه ، فى أبواب يخرج فيها من الحماسة إلى الغزل والوصف والمديح وذم النساء وذكر الشيب وغير ذلك من أبواب الشعر وفنونه . وقد فعل ذلك أمثاله كالخالديين اللذين جاءا فى أواسط القرن الرابع للهجرة .

وهم فى عملهم هذا قد وسّعوا معنى الحماسة وبسطوا من شمولها وآفاقها ، ولا أنسى ما سرده أبو عبيدة من نقائض جرير والفرزدق وما شرحه أبو تمام فى نقائض جرير والأخطل ، وكل ذلك لا يخرج عما سلف ، وإنه ليزيد بذكره أيام العرب وروايتها رواية تاريخية بغير نقاش أو تحليل شأن الكثير من أدبائنا الأقدمين .

إذن لا أستطيع أن أجد فى الأوائل من نهج مثل طريقتى أو أجرى التأليف فى شعر الحرب فيما نهجت وأجريت ، لأنى وقفت عند كلمة الحماسة بمعناها الحربى (Bravoure) أى الشجاعة والبأس والضرب والطعان . وأنشأت كتابى على الحماسة الحربية عند العرب فى مظاهرها التاريخية والفنية منذ صدر الإسلام إلى أيام أبى فراس الحمدانى . وأحببت فى ذلك أن أعالج ضرباً من البحث ما عولج قبلى فى ميسمه الفنى أو التاريخى ، متوصلا بذلك إلى ذكر حقائق ونصوص صحيحة ودقائق تاريخية وفنية ، تلقى نوراً جديداً على الحروب العربية البيزنطية طوال القرنين التاسع والعاشر للميلاد . وقد كان لى فى ذلك شرف البحث والسبق إليه فى لغة العرب مستعيناً بالوثائق البيزنطية التى وضعت فى العصرين العاشر والحادى عشر بأيدى المؤرخين البيزنطيين وفيهم سيد رينوس وليون الشماس ونقلها إلى العالم الحديث علماء التاريخ البيزنطى أمثال الأستاذين العظيمين « شلمبرجه » و « فاسيلييف » ، وهذا ما يتطلبه مثل هذا الكتاب من ابتكار فى الموضوع واستجلاء للنصوص والحقائق التى لم يسبق كشفها ونشرها ، وبذلك عرّفت بما عند البيزنطيين عن العرب مما خلا منه تاريخنا .

أما المؤلفون المحدثون فلم أجد من عالج فيهم موضوعى . وقد وجدت الأستاذ المرصفى من أدباء النهضة الفائتة بمصر قد صنف الحماسة الطائية تصنيفاً خاصًّا وشرحها ، وأتم رواية أبياتها فى كتابه « أسرار الحماسة » . وكان من حظ الأدب المعاصر أن يضع فيه الأستاذ

أحمد الشايب كتابه عن تاريخ الشعر السياسي في الأدب العربي إلى منتصف القرن الثاني للهجرة . فقد أخذ بجذور البحث حتى مضى إلى ثماره ، عارضاً كتابه كله في معرض السياسة ، مستدلا بالشعر على الميول الحزبية والنزعات السياسية في عصور الأدب العربي ، رابطاً الشعر السياسي بأطوار الزمن وعوامل الحضارة . وقد أفدت من دراسته الجديدة وقدرت له إنارة الطريق أمام الباحثين ، وكنت أود لو عالج الشعر الحماسي فصنف فيه كما صنف في الشعر السياسي ، إذ ليس كل شعر سياسي شعراً حماسياً .

وكانت غايتي من هذا الموضوع حين رميت فيه إلى دراسة جامعية جديدة ، أن أدخل به زاوية « شاغرة » من زوايا أدبنا العربي . فإن تكن لي أمنية في هذا الجهد فلا أكثر من أن أسعد بها في بحث يجيء جديداً ، وفي هذا راحة الجاهد وغبطة الباحث ، ولقد قال أبو العباس النامي في « أبي الطيب » :

«كان بقي من الشعر زاوية دخلها أبو الطيب » . فهل لي أن أقول ، وقد اتسعت في عصرنا آفاق الثقافة وآماد البحث : ما أكثر الزوايا الشاغرة في أدبنا المعاصر تلقاء الدراسة الجامعية الحديثة . وذلك مما يحفزني لإعداد دراسات جديدة في الأدب الحماسي أرجو أن يكون هذا الكتاب سبيلا إليها ، وما توفيقي إلا بالله .

القاهرة — زكي المحاسني

تمهيد

الملاحم والقصص الحربى

١) الملاحم فى آداب الأمم القديمة والحديثة :

قلت حين انتهيت من قراءة الإلياذة : « إن على حسام آشيل نقش هوميروس آداب أمته ».

فكانت الملاحم فروسية وأدباً فى سجل واحد ، الأدب أسلوبها ونسيجها ، والحرب موضوعها ومعانيها . وكأنه بات لزاماً على الأمم أن يتيح لها دهرها شاعراً من بنيها ، يعرف تاريخها وأنسابها ويخفق قلبه بهواها فينظم من أجلها « أنشودة حربية » تبقى على الزمان ، يتداولها الناس جيلا بعد جيل ، يحشد فيها كبريات الحوادث التى تعاورت على هذه الأمة ويحشر إليها سيرة حرب جاحمة سفك فيها الأبطال دماءهم ليدرؤوا بها عارهم ويكسبوا فخارهم ، ويكبتوا عدوهم ، ويحفظوا عليهم ديارهم وأموالهم .

ومن عجب أن يخلق الإنسان وحب الحرب غريزة فيه ، منذ كان على الأرض إلى اليوم ، فقد وجد قطرة الدم بلسماً لنزوة الغضب ، وكان من مقدور طباعه ، وقضاء خلقه أن ركبت فيه نوازعه التى تحمله على حب الحياة فكانت الأثرة فى نفسه داعية لظلمه أو تظلمه . فهو إما هاجم على غيره أو مهجوم عليه ، وكان لا بد من الدفاع فنشب فى كلا الحالين خصام أو جلاد ، وحرب أو قتال ، فإذا أباد القوى الضعيف أو تصالح الخصمان ، بات الشر مستسرًّا إلى حين . ثم ثار أو انطوى فى حنايا النفوس .

وما عرف الدهر قوماً سكنوا الدنيا ، ولم يقتتلوا ما بينهم ، أو لم يحاربوا جيرانهم فكان إذن حتماً لزاماً أن تنشأ حوادث حربية فى الأمم . لها صلة بماضيها وحاضرها ، تضم فى غضونها فظيع الويلات ودامى الذكريات ، وتلف فى ثناياها روائع المشاهد وخوارق الصور ، لبطولات رجالها ونسائها الذين على صفحات سلاحهم بياض مجدها ، وفى رواية شجاعتهم لهيب عزمها ، وبترداد سيرتهم نشوة حياتها . وقد أجاب شعراء تلك الأقوام داعى شعورها فكانوا صدى لصيحات مجدهم الغابر ومآثرهم الحاضرة ، فأوحت إليهم أن ينظموا الملحمة ، التى سكبوا فيها نجيع أكبادهم وسطروا فيها كل خصال العظمة التى ورثتها أمتهم . فعمدوا إلى أفدح الخطوب التى أنزلوها بخصومهم وأروع المعارك التى دافعوا بها أعداءهم فى الحصار ، أو

لاحموهم بالحديد والنار ، فجعلوها موضوع الملاحم . ولم يدخر هؤلاء الشعراء وسعاً فى تسجيل الحرب ومراحلها ووصف أبطالهم وصولاتهم ، وكيف أداروا غمار الوقيعة حتى كتب لهم النصر ، ولأعدائهم الخذلان .

ولم يأل هؤلاء الشعراء جهداً فى الإجادة بالحكمة الغالية وبالموعظة الباقية ، يجعلونهما ديدناً لأحكام الحوادث وسفراً لإقالة العثرات ؛ ولم يدعوا سبيلا فى أن يمزجوا أخبار الحرب بأفانين الحب ، وخفقات القلوب فى الخصام بخفقاتها فى الغرام ، فنسجوا من لواعج الشوق ولهفات البعاد قصصاً للمغرمين والمتدلهين خلدت بخلود الحوادث وكانت ترفيهاً للحس من التأثر بالأحزان التى تبعثها سيرة الويلات وسبيلا للإغراء بقراءة الملاحم .

وقد ألهم الفن أولئك الشعراء الأفذاذ الذين نظموا الملاحم أن يجعلوها أناشيد من صحيح الشعر فى مختلف ألوان سحره ، فهو إما مقطعات من الشعر مسرودة أو أغان محبوكة آخذ بعضها برقاب بعض ، أو فصول إذا انتهى منها واحد كان ابتداء الآخر حتى يكون الختام .

وكان من سر خلودها وأسباب نضرتها أن تصاغ شعراً لتعيش الدهر ، تتخذ منها النساء ترنيماً لتنويم الأطفال ، ويجعل منها الرجال أناشيد العزة والفخار ، ويجد فيها المحاربون مثاراً للحمية ، والأدباء شاحذاً للقرائح . ويتنغم بألحانها الشبان إذ يجدونها هدهدة فى جوانحهم للهوى والشباب والأمل المنشود .

فكانت « الإلياذة والأوديسة » أعتق الملاحم المكتوبة. على أن الإلياذة أُمٌّ والأوديسة بنتها . وكان من فضل الإلياذة على الإغريق أن يجعل هوميروس مجدها مكتوباً على الورق كما كتبته على الحجر .

فمنظومة هوميروس بضعة عشر ألف بيت من الشعر ، متسلسلة الحوادث ، فى موضوع واحد . هو ماجريات الحرب الطروادية . وذلك أن نفراً من اليونان جفت عليهم أخلاف الرزق فى أرضهم وكانوا يسكنون « بيلوبونيز » وجزءاً من اليونان الوسطى . فنزحوا قبل اثنى عشر قرناً من الميلاد عن ديارهم هاربين من جور الوطن. فكانت وجهتهم الشمال الشرقى من آسيا الوسطى . فنزلوا على شعب قوى الشكيمة ، صعب المراس هو « الدرونيون » أو « الطرواديون »[1] فحاصروه وراء أسوار مدينته العصماء « طروادة »[2] .

---

(١) كتاب « صفحات مختارة من الأدباء اليونان العظام » بالفرنسية تأليف موريس كروازى الطبعة السابعة لأرمان كولان بباريس سنة ١٩٢٢ ص ١٠ .

(٢) إيليوس .

وكان ملكه البطل « برْيام » ذا حفاظ على مجد قومه ، فآثر الصمود للغزاة الذين أجهدهم البلاء فى الليل والنهار دون أن يستطيعوا دكـًا للحصن أو فتحـًا لأبوابه . وأخجلهم الارتداد بدون مغنم ، وما وراءهم إذا ارتدوا سوى الجوع والدمار .

لقد جعل « هوميروس » موضوع ملحمته هؤلاء الفاتحين ومن نزلوا بساحتهم . وأدار حوادث هذه الحرب بين أبطال أقرام من كلا الجانبين . فكان من الدهاة المناجيد فى فريق اليونان : أغاممنون وآشيل وعُولِس وديوميد وأجاكس وهيلين .. وفى أبطال الطرواديين : بريام وولده هيكتور وباريس وهيكوب وأندروماك .

فاستحر الخصام بين الجانبين من رجال أجلاد يتناضحون بالنبال ويصطفقون بالعُمُد والسيوف ويتطاعنون بالأسنّة ، ونساء يؤرّثن الفتنة أو يحضُضْن على حماية الذّمار . ووقع الخلاف بين الغزاة أنفسهم فكان من جملة أسبابه فتاة حسناء سباها آشيل فغالبه عليها أغاممنون وابتزها منه . فحرد الفتى آشيل عن الحرب ، وظل قابعاً تحت خيمته ، حتى كاد جيشه يندحر ويكتب على قومه الخيبة والعار . وكان له صديق من خلصائه الأصفياء جعل يسترضيه ليرجعه إلى الحرب فلم يرض ، وآثر حب الفتاة المغصوبة منه ، على حب الظفر لقومه ودرء العار عنهم ، ولما يئس منه صديقه أخذ لأْمَتهُ فلبسها وسلاحه فحمله ، وصاح فى وجه الطرواديين فردهم إلى أسوارهم ولكنه قتل . وإذ بلغ مقتله آشيل توقد الحزن عليه فى قلبه فأحرق حُبَّ الفتاة المسلوبة وطهر ذلك الفؤاد . فهب آشيل إلى سلاحه فلبسه وثار فى وجه الأعداء ثورة مجنونة فردهم على أعقابهم وغيّبهم السورُ إلا هيكتور ، فقد ظل خارجه وحده فانقض عليه آشيل . وكان بريام أبو هيكتور وأمه ينظران إليه من شرفات الحصن وقلباهما يخفقان من شدة الجزع عليه . فحمل آشيل على ألد خصومه وطعنه فى مقتله . فسأله المطعون إن مات أن لا يمثل بجثته ، فأبى واستكبر وربط جثته إلى مركبته الظافرة ودار حول السور أشواطاً والنساء من قومه نوّاحات عليه من أعالى السور ، والرجال رُماةٌ بالنبل لتصمى آشيل الجبار . وكان الملك بريام وزوجه ساعتئذ فى غيبوبة كالفناء .

ها هنا ينشد « هوميروس » بمقتل هيكتور . النشيد الثانى والعشرين ، ويندفع على نهاية الإلياذة فيروى كيف اتخذ اليونان الخديعة وسيلة إلى فتح الحصون بجوادٍ هيْكلٍ هائلٍ من خشب ، فقتلوا بريام واسترقّوا زوجته ونهبوا البلد ثم أحرقوها وانكفؤوا إلى بلادهم ضالين ، تائهين فى عرض البحار .

وكل هاتيك الحوادث لا يقوم بها الإنسان وحده وإنما تشركه فيها الآلهة والأعوان من أرباب وربات. وهذه الآلهة تتمثل حيناً بشراً سوياً تحارب مع المحاربين وحيناً وحياً يدب فى القلوب فينفخ فيها القوة أو أشباحاً تلوح بالتشجيع للمحاربين .

ولم يترك « هوميروس » قومه هدراً فى عرض اليم ، وإنما نظم بعودتهم أناشيد « الأوديسة » فصور « آغاممنون » يؤوب مجروحاً ، فيجد زوجته قد غدرت به فى غيابته فعشقت صديقه . وعولس ضل السبيل فى البحر فعطفت به الرياح وبصحبه على جزيرة وحش ضخم رائع على هيئة إنسان له عين واحدة فى جبينه . فكاد يأكله وصحبه لولا خمور إسبرطة التى كانت معهم فأسكروه بها وفروا بمركب قيضه لهم الحظ وضاعوا فى اليم سنين حتى عادوا إلى الوطن ، فوجد عولس زوجته مقيمة على العهد حافظة للعفاف ، فشكت إليه رجالا أحاطوا بها يتربصون ، فقتلهم . ثم مات هو مقتولا فى معركة بيد ابنه الذى كان يجهل أنه أبوه .

تلك أناشيد قيل إن « هوميروس » الضرير كان ينشدها قبل مولد المسيح بتسعة قرون[١] يستجدى بها فيكسب خبز يومه على نحو ما كان يفعل شعراء الإغريق الأقدمون الذين جعلوا الشعر سبيلا للتكسب . ثم حفظ بعد موته كثير من الشعراء المنشدين أشعاره فأنشدوها مثله . وشاعت فى عرض البلاد اليونانية وطولها حتى كان عصر الكتابة فكتبت . وغلا فيها اليونان فادعت سبع مدن أن « هوميروس » ولد فيها منها إزمير وردس وسلامين وأثينا[٢] .

واختلف علماء الفرنجة فى حقيقة الإلياذة ونسب أناشيدها وأنكر بعضهم وجود « هوميروس » وسفه هذا البعض علماء آخرون[٣] فأقروا بوجوده ووجود أناشيده .

وعمت الإلياذة الآفاق فترجمت إلى كل اللغات الحية ونقلها شعراً إلى لغة الضاد المرحوم سليمان البستانى سنة ١٩٠٤ وكتب لها مقدمة أعدها فاتحة التجديد فى أدبنا الحديث .

وقال نفر إن هذه الأناشيد أسطورية لما فيها من ذكر الآلهة والأخيلة والهواتف واستحالة الإنسان هباء أو تجسد الخيال إنساناً . وقال آخرون بل هى حقائق نسج عليها الشاعر رداءً من الأساطير . فإن « هيرودوتس » المؤرخ الذى ولد بعد هوميروس بأربعمئة عام كان

---

(١) الإلياذة ترجمة البستانى ص ١٩ ، حسب التحقيق فى قطع من المرمر منقوش فيه أنساب يونانية عتيقة محفوظة فى مكتبة أكسفورد .

(٢) رسالة عن الإلياذة بترجمة جوركان بالفرنسية طبعة الكلاسيك لهاتيه بباريس ص ٧ .

(٣) كروازى فى كتابه السابق ص ٨ .

يستشهد بأشعاره على حوادث كثيرة من التاريخ وإن يكن هوميروس .« قد اخترع كثيراً من الحوادث الأخرى » فهو بهذا الاعتبار أول المؤرخين فى قومه[١] بشعر الحرب ، وخلدت الإلياذة على ترادف الأحقاب وكرور العصور غير عابئة بالنكبات التى أتت على الإغريق الأقدمين وتعاورت بالبلوى والقضاء على أعقابهم المحدثين . وبقيت منبعاً فى ديار الغرب يرتوى به الأدب ومشحذة تنصقل بها العزائم حتى قال أحد قياصرة الفرنج المحدثين . دعوا الأساتذة يكثروا من تلقين شعر هوميروس فإن الأمة التى يرسخ فى ذهنها وصف صبا الأمم على نحو ما يبسطه « هوميروس» لا يسارع إليها العجز والهرم . وقال « أرنست رينان»: إذا مر على عهدنا ألف عام انقرضت جميع التآليف التى بين أيدينا ولم يبق إلا كتاب واحد هو ديوان هوميروس[٢] .

وكيف لا يكتب لها بقاء الذكر وقد حوت إلى حوادث التاريخ روائع فى وصف المعارك وخوارق البطولة ، وضمت فلسفة وحكمة وآدابًا ومعارف جمة فى الطب والفلك وفن الحرب وفى شؤون السياسة وإدارة الحكومة .

أما الرومان فقد قلدوا اليونان فى ملاحمهم فأنشأ شاعرهم « فرجيل » ملحمة سماها « الإنيادة » فخرج بها عن طوق « هوميروس» . فهى لم تكن يوماً من الأيام فى وجه التاريخ ، إنما نسجها بخياله وأوهامه ، فجعل حوادثها مغامرات البطل « إنياس » وهو الذى سميت باسمه الإنيادة ، وكان أكبر زعيم من حلفاء الطرواديين هب مع صحبه إلى قرطاجنة فملكها ثم جاء « إيتاليا » فتزوج بابنة ملكها ، وملك بعده فكان من صلبه « روموس » و « رومولوس » اللذان تروى الأساطير الإيتالية أنهما كانا يرتضعان من أطباء ذئبة حنت عليهما ثم شبا واختصما على الملك .

ثم إن الأمم الغربية التى ابتليت بالحرب وعرفت الفروسة وكان فى طباعها حب الجلاد مضت على سنن الإغريق فى شعر الحرب فكان لها ملاحم كبرى . . فلدى الأمة الألمانية ملحمة « النيبيلونغانليد » أو قصيدة النيبيلونغين ، وهى منظومة حربية كتبت حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد وتشتمل على قسمين أصليين : سيغفريد وثأركراميلد . وكلمة فحواها أن الفتى المغوار « سيغفريد » بعد أن ذاع صيته بالبطولة واشتهرت فى القوم غزواته تعشق الفتاة

---

(١) إلياذة البستانى ص ٥٨ من المقدمة .

(٢) المقدمة السابقة ص ٢٤ .

الحسناء كراميلد أخت الملك « غونتير » ملك البورغوند ولما عرف هذا العاهل بهوى البطل أراد أن يجعل صداق أخته عليه قتل ملكة إيزلاندة فقال له: إن أنت أعنتنى فى حرب هذه الملكة الغاشمة فدككت عرشها أظفرتك ببغيتك وزوجتك أختى .

فجدَّ « سيغفريد » فى حربه وقيض له العزم بعد أن أبلى البلاء الحسن أن يجىء بملكة إيزلندة صاغرة إلى مولاه فنال هو بغيته واشترى ببطولته وظفره عروسه الحسناء ، لكن ملكة « إيزلاندة » تأبت على الملك « غونتير » وآثرت أن تكون فى سباياه بين عبيده على أن تكون له عروساً . فحازها غصباً حتى تطامنت ثم اطمأنت . وحين طلع جمالها على عرشها تضاءل أمامه جمال كل امرأة فى القصر . فكان أسبق المليحات إلى حسدها « كراميلد » زوجة سيغفريد وعيرتها بأنها كانت حظوة زوجها يوم جاء بها أسيرة قبل أن تزف إلى الملك . فغضبت الملكة وسول لها كيد النساء أن تضمر للمنافسة شرًّا فأرسلت أحد رجالها فقتل من أجلها الفتى البرىء « سيغفريد » .

فحلفت زوجته « كراميلد » التى كان مهرها غالياً أن تثأر لزوجها القتيل المغدور وأن تسلط كيدها هى على عدوتها الظلوم . . . وكان الملك « أتيلا » ملك الهون راغباً بها يتمنى لو كانت له زوجاً فأرسلت إليه من دعاه إلى خطبتها فرضيت به . وبعد حين استطاعت بما أوتيت من سحر ودهاء أن تحمل زوجها على أن يدعو إليه الملك « غونتير » وزوجته وحاشيته ليقتلهم جميعاً إبان المأدبة . وحين حلوا بساحتها وجلسوا إلى مائدتها انقض عليهم الجنود من كل صوب فأخذوهم بالسيوف وقتلوهم جميعاً . وقطعت كراميلد بيدها عنق الذى قتل زوجها .

تلك قصة ملحمة دارت حوادثها فى القرن السادس الميلادى وهى سيرة ناس كانوا يعيشون على ضفاف الرين ، فباتت من ذلك اليوم ملحمة الأمة الجرمانية فى قديمها وحديثها ، وذاع لها بين ظهرانيها صيت عظيم . وقد ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ونقلت إلى اللغة الفرنسية مرتين واحدة سنة ١٩٠٩ وثانية سنة ١٩٢٣[١] .

وذاع بين الفرنسيين منذ سنة ٧٧٨ للميلاد ملحمتهم التى يحدبون على مجدها ويحنون إلى عهدها ، وهى أنشودة رولان التى يقول ناظمها : إنه بينما كان الإمبراطور « شارلمان » عائداً من مغزاة فى شمال إسبانيا فى فتح خائب فآب وعسكره محفوفين بالخسارة فجعل يجتاز

---

(١) معلمة القرن العشرين بالفرنسية لبول أوجه بمادة نيبيلو نغانليد .

بفلول جنوده جبال « البيرينيه » فهبط على مؤخرة جيشه نزلاء الوادى من سلبة العابرين وكانوا يسمون « رونسوفو » فنهبوا قافلته وذبحوا عسكره ذبح النعاج .

فتغنى الفرنسيون منذ ذلك العهد بفروسة هؤلاء المحاربين ، وجعلوا هذه الموقعة شاحذة لقواهم فكانت أناشيدها الأولى وليدة البلاد التى عاش فيها رولان حفيد شارلمان فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد على مقاطعتى « مين » و « أنجو » فسميت هذه الملحمة باسمه ونمت أبياتها وتضاعفت مقطوعاتها حتى ضمت مجد فرنسة فى أوائل العصور فى حربها وقتالها . وبهذه الأنشودة غدا شارلمان ورولان أعظم جبابرة الحرب فى القصص الحربى الفرنسى .

ولم تلبث هذه الأنشودة الحماسية أن عبرت إلى إيطاليا فكان بحارة البندقية يترنمون بألحانها ويرددون بالأنغام مقاطيعها . ولقد كانت موضوعاً ووحياً لكثير من المؤلفين المسرحيين ، فوضعوا روايات تمثيلية جسموا فيها للنظارة بطولة الكارولنجيين ، وعظمتهم الحربية فى عهد البداوة الفرنسية[1] . . .

وعطفت الأمة الإيتالية على مهزلة « دانتى » التى نظمها عن نفسه بأنه شهد الجنة والنار وكان فرجيل قائده إليهما فى مركب يعوم على نهر الجحيم فأطل منه على شقوة الإنسان الذى يتلظى . وخرج من سياحته الموهومة وقد هاله ما رأى من مظالم الوجود .

وحدبت الأمة الإنكليزية على شاعرها « جون ملتون » فجعلت من قصيدته الكبرى التى سماها الفردوس المفقود ملحمة لها ، تجد فى أبياتها صدى مجدها الأدبى ، منسوجاً عليه ثوب دينى لأن « ملتون » كان فى ملحمته يبكى ضيعة الفردوس من يد الإنسان الفانى ، وهبوطه إلى الأرض بعد أن أغواه الشيطان .

والصحيح أن ملتون إنما بكى فردوسه هو المفقود ، فقد أصابه العمى وماتت زوجته الأولى فأخذ ينظم هذه الملحمة من دم قلبه ويبكى حظ الإنسان وحظه معاً على الأرض الفانية ، فأكسبته هذه القصيدة الرائعة بعد موته ذكراً لا يبلى . ولقد أعطى أمته ملحمة الفردوس المفقود ، فأعطته فردوس الخلود .

* * *

---

(١) الموسوعة الفرنسية الكبرى لبرتللو وجماعته الجزء ٢٨ نقلا عن كتابى غوبيه « أنشودة رولان وكتاب الملاحم الفرنسية » .

وتاريخ الأدب الفرنسى لدوميك طبع باريس سنة ١٩١١ مكتبة دولا بلان ص ١٣ .

وما كان الشرقيون أقل حفاوة بشعر الحرب من الغربيين ولا دونهم فى الفروسية والبطولة وسرد القصص عن الأهوال ، فإن عندهم ملاحم كبرى نظموها مزيجاً من الحقيقة والخيال ومن الوهم والواقع وجعلوا ترداد فصولها تذكيراً بالمجد ، وتأريثاً للثأر وحفزاً للعزيمة ؛ فكان لليابان والصين منظومات حربية . وذاعت منظومة « الرامايانا » التى وضعها الشاعر الهندى « ڤالميكى » قبل المسيح بأربعة عصور . وتكاد تكون فى عمرها وعتقها تالية للإلياذة . وهى قصة مزيجها الأسطورة تبلغ ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر . نظم معظمها شاعر واحد فجعل بطلها « راما » ابن ملك أوده الذى رباه أبوه بالنعمة وحسن الخلق لكنه حين اشتد ساعده وفاض شبابه تعشق أم أخيه « بهراتا » فغضب عليه أبوه، ونفاه من البلاد فهام على وجهه أربعة عشر عاماً فى غابات « دانداكا » ثم عاد ليتولى الملك . وكان للأمير راما زوجة حسناء اسمها سيتا فأحبها ملك الجن فى جزيرة سيلان واسمه « راڤانا » فاختطفها فهب « راما » فى طلبها مستعيناً بملك القرود حتى قتل ملك الجن واستخلص زوجته وترك على عرش الجن أخا الملك الذى كان له عوناً على قتل أخيه ونصيراً .

كذلك عاد راما وزوجه إلى بلادهما فى ظفر ثم عرج راما إلى السماء فغاب فيها .

وهذه الملحمة تشير فى كثير من مواقفها إلى تاريخ الهند العتيقة . أهم ما تذكره غزوة إرياس لجنوب الهند . وفى هذه الملحمة مشابهة بالإلياذة فى أساطيرها ، فكما كانت الآلهة تمد « آغاممنون » وجمعه بالأسلحة فكذلك كانت الآلهة تمد بسلاحها الفتى « راما » وإن فى حلفه مع الجن والقرود لما يجعلها فى أساطيرها وخرافتها مشبهة لبعض حوادث الإلياذة فى صدد الجن والمسوخ .

وللهنود ملحمة ثانية هى قصيدة « المهابهارته » وتقع فى نحو المائة ألف بيت . فحواها تنافس أبناء العم على الملك وانقسامهم شطرين فى خصام يؤدى إلى فناء أحدهما ثم يخلف الآخر بعده ويدركه الفناء فيتبعه .

* * *

وللعبرانيين ما يشبه الملاحم . لكنها منسوجة بالوهم والخديعة كشأنهم فى مقومات حياتهم فيها أعمال الغانية « جوديت » التى جزت رأس « هولوفيرن » الرومانى إذ كان محاصراً لبيت المقدس فتسللت بالمكيدة إليه ليلا وسقته خمراً ومكراً . فهب جمعه فى الصباح ، وقد وجدوه مقتولا فتفرقوا ووقع بينهم الخذلان فانصرفوا عن

أسوار المدينة . ونظم شعراء اليهود هذه الحوادث فى شعر يردد عندهم بعد التوراة . وقد حوت التوراة جانباً من ملاحمهم ، «كسفر أيوب» الذى يذهب بعض الباحثين إلى أن أصله عربى . وهو يحتوى على ملحمة شعرية عربية فى وقائعها وأخبارها ، وأن التوراة نقلت هذه الملحمة إلى العبرية. فإذا ثبت ذلك كان العرب قد سبقوا اليونان والرومان والهند بأعصر إلى وضع الملحمة المثلى التى نتفقدها اليوم فى أدبنا فلا نجدها فى قديمه أو حديثه .

ولكن هذا الرأى ما يزال مضعوفاً «لم تنهض عليه أدلة علمية إلى اليوم . ولم يعدُ أن يكون ظنًّا من الظنون أو افتراضاً » .

وإن فى مباكى التوراة وتناوحها لكثيرًا من أقوال تلك الملاحم . وكفى بالنبى سليمان وأبيه داود أن يضفيا عليها بالشعر « سفر المزامير » و « أنشودة الأناشيد » .

* * *

أما الفرس فأجدر بهم أن يكون من حقهم حمل لواء الملحمة فى الآداب الشرقية ، فقد قيض الزمن لهم فى العصر الرابع للهجرة شاعرهم الأعظم « أبا القاسم الفردوسى » فنظم الشاهنامة التى كانت سفر الأمة الفارسية منذ ذلك العهد، جمعت تاريخ أكاسرتها فذكرت أسرهم ووصفت فوادح الحوادث فى عهودهم ، وكانت بذلك جارية على منهج منفرد عن سائر الملاحم التى سبقتها فهى تروى أحداث ما يقارب أربعة آلاف عام من عمر الفرس ، حكم فيها أربع دول حتى عهد الدولة الساسانية .

وهذه المنظومة هى التى بنت فى التاريخ الفارسى مجد الأمة بعد أن حطمه الإسكندر المقدونى بفتحه لفارس — فأحيت مجد العجم وأقامت الذكرى لشعائر الدين الزارد شتى . وقد أدخل مؤلفها الفردوسى شخصه فى ثناياها — فكان بذلك منفرداً أيضا — فهو يذكر نفسه فى بعض فصولها عند الفاتحة أو الخاتمة كأن يذكر من روى القصة له أو ينوه بفضله فى الشعر وبراعته فى نظم هذه الحوادث أو يتشكى ضعف الجسم وهجمة الشيخوخة أو يمدح السلطان « محمود بن سبكتكين » الذى صنف من أجله هذه المنظومة[١] .

وفى الشاهنامة يظهر الفردوسى بطولات الفارسيين فى الحرب ومكانتهم فى السلم وأعظم الأبطال الذين دارت عليهم حوادث هذه الملحمة « كيخسرو » و « بهرام كور » الملك الساسانى و « بهرام جوبين » القائد و « كيو » و« رستم » و « الإسفنديار » جبار الأبطال .

---

(١) الشاهنامة مقدمة الدكتور عبد الوهاب عزام ص ١٥ و ٨٩ .

ولم يستطع الفردوسى أن يبرئ الشاهنامة من النعرة الفارسية التى كانت شعور كل شعبه، معززاً بذلك مذهب الشعوبيين الذين لا يرون من فضل للعرب. وهاج أحقاده الموروثة فتح المسلمين لبلاده فرمى العرب بسهم من سهام الشاهنامة فقال بلسان رستم[١] «وقد بلغ الأمر بالعربى من شرب لبن الإبل وأكل الضباب حتى طمح إلى تاج الكيانيين فأف لك يا فلك السماء».

وقد عرف العرب الشاهنامة بعد عصر الفردوسى، فوصفها ابن الأثير بأنها شعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو عندهم قرآنهم. وقد ترجمها إلى العربية فحاد بها عن الشعر «قوام الدين البندارى» زمن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى أوائل القرن السابع الهجرى وقد تصرف فى ترجمتها فزاد بها ونقص منها واقتفى بمؤلفها فى أثرة شخصه فأدخل نفسه هو فى ذكرها. وكان عنده الملك العادل أجدر بأن يذكر من السلطان محمود الذى نظمت من أجله، فامتدحه بقصيدة مطولة ذكرها فى متن الملحمة، ثم عاد إلى إتمام فصولها.

٢ ــ الشعر الحربى والشعر القصصى:

لم يفرق نقاد الأدب العربى بين الملاحم والشعر القصصى، بل مزجوا بينهما فى باب واحد وحسبوا كلا منهما مثل الآخر. على أن الملحمة كما عرفها نقاد الغرب[٢]: قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة.

وقد تضم الشعر القصصى، ولكن ليس كل شعر قصصى ملحمة. ففى أدبنا وآداب الأمم شعر قصصى كثير يكون فيه رواية حب، أو سيرة زورة، كما فعل امرؤ القيس فى كثير من شعره. وكما جرى فى سرد أخبار النساء عمر بن أبى ربيعة. وليس شعرهما هذا من لحمة الملاحم ولا يمت إليها بأى سبب فإذا جاز أن نسمى كل ملحمة شعراً قصصياً فلا يجوز أن نسمى كل شعر قصصى ملحمة.

والشعر الحربى قديم فى الدهر. فقد كان يسمى الشاعر الحربى فى الأدب الفرنسى فى القرون الوسطى «مغنياً أو منشداً»[٣] يمضى من مدينة إلى مدينة على غرار ما كان يفعل الشعراء المسمون «التروفير» فى القرون الوسطى فى أوربا. فكان ينزل هذا الشاعر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) كتاب الأدب الفرنسى تأليف جول بيديه طبعة لاروس ص ٢٨٥.

(٣) Aéde ou chanteur

ضيفاً على الكبراء والأمراء فيكون زينة مجالسهم وموائدهم ، كذلك فعل الشاعر اليونانى القديم «ديمودوكوس»عند « عولس » ملك جزر « إيتاكه ». كان صاحب الإلياذة هوميروس نفسه من هؤلاء الشعراء المرتزقين ينشد مقاطع قصائده وحده على مشهد من عامة الناس ليجود عليه السامعون . ولما مات خلف شعره بين أيدى الشعراء المكتسبين من أمثاله فجعلوه مورداً لرزقهم وطفقوا ينشدونه الناس على غرار صاحبه، ويذهبون به فى البلاد فيكونون به زينة المحافل ، فسماهم الناس الشعراء الهوميريين . وظل حبل هؤلاء الشعراء موصولا إلى عصر أفلاطون . وكان لهم لباس خاص بألوان مختلفات يرتدونه عند الإنشاد وعلى رءوسهم أكاليل من الذهب . وإلى جانب الشعر الحربى نشأ فى أدب الإنسان القصص الحربى وهو روايات وقصص أكثرها النثر وأقلها الشعر .

٣ – الملحمة فى الأدب العربى :

حين نقل العرب فلسفة يونان كانوا فى فتنة من عقولهم وخصومة من جدالهم فتفرغوا لمنطق أرسطو وقياس أفلاطون ونقد فيثاغور . وغلوا فى أحكام مزجوا فيها الإلحاد بالدين والسياسة بالتعصب ، حتى نزلت المحنة من جراء ذلك بعلماء أعلام فجلسوا على النطع وأصلتت على أعناقهم السيوف بعد أن تربعوا للمناظرة على بسط الحرير وبأيديهم الأقلام لا تفتر عن الكتابة . وكان المأمون يؤرث حومة جدالهم فيخلع عمامته ويضعها جانباً . . ثم يقبل على معشره من الفقهاء ويقول :

– إنما بعثت إليكم للمناظرة . . .

فأفاد الإسلام من فلسفة الإغريق حتى غدت له فلسفة ، لها أعلامها وأساطينها ، كابن سينا وابن رشد والفارابى ، ممن كانت قضاياهم العقلية مبنية على قواعد الحكمة اليونانية وكان لها من الفضل أن شاركت فى بعث الفلسفة الحديثة بأوربا .

وراقت المسلمين الفلسفة فاشتغل بها العرب والعجم وطال فيما بينهم المناهدة بالاستقراء والأدلة حتى غدت شغلهم الشاغل فى كل حفل أو كتاب وطغى على بعضهم فساد العقائد فزوروا بهارجها بزخارف أقوالهم ، ونشأ فيهم « إخوان الصفاء » فشغلت مجالسهم الخاصة ألباب القوم وأحاط الإخوان علمهم بنطاق من الأسرار فكان الحس والمحسوس والعقل والمعقول ديدن تفكيرهم ونقاشهم. وقد ظلت هذه المذاهب الفلسفية والآراء المنطقية تتضاعف بين المسلمين بعضها ببعض كأعداد الحساب حتى غدت لا تعرف من هول خطرها وغموضها ،

وقد أحصى أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » والشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » وابن حزم فى « الفصل فى الملل والأهواء » ما لم يكن لأمة على الأرض مثله من المذاهب فى الفكر والاعتقاد .

فذاع فى الثقافة العربية منذ استهلال العصر العباسى أسماء أولئك الفلاسفة اليونان الأقدمين .وظل اسم هوميروس بينهم مستسراً إلا عند نفر من حذاق اليونانية أو ممن عرف بآدابها أو ذكر فنونها . وبالاستدلال بأقوال ابن أبى أصيبعة وابن خلدون[1] يعلم بأن هوميروس وإلياذته كانا معروفين لدى العرب بعد نهضة الترجمة فى المئة الثانية للهجرة . وقد قال الشهرستانى صاحب « الملل والنحل »[2] : « أوميروس » الشاعر وهو من القدماء الكبار ، الذى يجريه أفلاطون وأرسطاطيس فى أعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان يجمع فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأى وجزالة اللفظ ثم ترجم له مقطعات من أشعاره بجمل معقودة الكلم على المواعظ والحكم مثل قوله :

« إن الأدب للإنسان ذخر لا يسلب . إن كنت ميتاً فلا تحقر عداوة من لا يموت . إن الكلام فى غير وقته يفسد العمر كله » . وقال الشهرستانى فى آخر هذه الجمل وهى كثيرة وفى موضوعات أشتات من الاجتماع والأخلاق والأدب : « وإن وجود الشعر فى أمة اليونان كان قبل الفلسفة وإنما أبدعه أوميروس »[3] .

وقد ترجم الإلياذة إلى السريانية بأيام المهدى أحد المعروفين فى عهده ، وهو تيوفيل الرهاوى ، غير أن نقل الإلياذة إلى العربية لم يكن لدى المسلمين يومئذ أمراً هيناً ، لما فيها من ذكر الأوثان التى جاء الإسلام بتحطيمها . كما تجهم الزميتون للنقش والتصوير . وكان جل الأدب اليونانى ممزوجاً بالوثنية فحرمت العربية يومئذ من درة الأدب الإغريقى القديم وديوان أخباره ، فلم يكن فيها قبس من هذا الشعر الغزير فى وصف الحروب وما إليها من أخبار الأبطال ، كما خلا أدبنا القديم من القصص التمثيلى ، وكان شائعاً عند اليونان على يد « سوفوكل » ومثاله ، وكان شأنه فى الوثنية شأن الإلياذة .

---

(١) المقدمة طبع بيروت ص ٥٢١ . . . وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة الطبعة الأولى الذهبية سنة ١٨٨٢ جـ ١ ص ١٨٤ .

(٢) الملل والنحل بهامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء لابن حزم الطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ الجزء الثالث ص ١٩ .

(٣) وذكر القفطى فى كتابيه « تاريخ الحكماء » و « أخبار الحكماء » أن حنين بن إسحق كان ينشد أشعاراً بالرومية لأوميروس رئيس شعراء الروم . أخبار الحكماء طبع السعادة بمصر ص ١١٩ . تاريخ الحكماء طبع أوربا ص ٦٧ .

ولو نقل العرب هاتيك الأعلاق إلى آدابهم وعنوا بها عنايتهم بالفلسفة لكان فى أدبهم من ثمار القرائح ما أغناهم عن التشهى إلى أمثالها عند غيرهم . على أنى لا أرى أدبهم خالياً من الملاحم ، ولا ينبغى أن نعنتهم ، فنطلب إليهم أن يكون لديهم ملحمة كالملحمة اليونانية فى أناشيدها وموضوعها وحديثها . إذ ليس شرطاً فى كل ملحمة أن تحتذى الإلياذة أو سواها من ملاحم الأمم العتيقة أو الحديثة .

وعندى أن كل شعر طال أو قصر ، وقد وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ورويت فيه ملاحمات الجلاد ، هو من شعر الملاحم .

غير أن الذين يجعلون القصص الشعرى ملحمة ، يجدون فى الأدب العربى ما لا ينقضى جماله من هذا القصص الكثير . ولكن علامَ لم يعمد العرب الأوائل واللاحقون إلى نظم ملحمة كبرى تجىء فى آلاف الأبيات كالإلياذة والشاهنامة فتجمع تاريخ الأمة العربية وتخلد مجدها الكبير فى حربها وسلمها ، وتكون قدوة الحماسة ومناط العزيمة . على حين نجد تاريخهم مملوءًا بالغير والأهوال ، ويكاد يكتب الكاتب وقائعهم بمداد من الدم ، فلقد عرفوا القتال والنزال من سحيق الجاهلية حتى عصورهم الأخيرة .

فمثل هذا التاريخ الحافل ينادى شاعر الأمة العربية لمنظومتها الكبرى ، ويحمل الأدباء على تسجيله وتصويره ليكون للمعاصرين ولمن يأتى بعدهم كتاب فخر ، وسفر مجد ، يتلوه الأبناء بعد الآباء .

أما العرب فى جاهليتهم فلم يحاربوا قوماً خارجاً عنهم ، فما عرف التاريخ أنهم جهزوا جيشاً لمحاربة فارس والروم خارج الجزيرة إلا بعد الإسلام . وإن يكن فى حروب المناذرة والغساسنة ما لا يشفع لهم بالتقصير فى نظم الملاحم الفنية ، وإنما كانت حروب الجاهلية بين قبائلها فحسب ، ولو كان أمر الملاحم الفنية لديهم مألوفاً ؛ لورثنا عنهم كثيراً منها .

ولعل حبهم للقافية الواحدة يجرى عليها روى القصيدة ، زهدهم فى الملحمة إذ كانت تقتضى آلاف الأبيات ، ومن لهم بروى واحد يجرى به الكلام ألفاً فى لغة العرب أو فى أية لغة فى الأرض ، على أن الشعراء الجاهليين لم يحاولوا إلا فى القليل زيادة أبيات المطولات على المئة بيت .

وقد استغرب ابن الأثير فى خاتمة المثل السائر « أن لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، منظومة كالشاهنامة ، على أن لغة العجم بالنسبة إليها

كقطرة فى بحرها » وكان ابن الأثير يرى أن « العجم يفضلون العرب فى الإسهاب » .

ويبدو لى ذلك أن ميل العرب إلى الإيجاز ، وغلوهم فى اختصار الكلم ، والتزامهم مقاطع الجمل الضيقة التى تحمل غزير المعانى ، قد يكون السبب الذى صرفهم عن نظم الملاحم وقصر منظوماتهم — مهما زادت — على تلك المطولات التى ألفوها .

وإنى وإن قلت إن الأدب العربى قد حرم الملحمة المشبهة بملاحم الأمم المشهورة التى أسميها الملحمة المثلى فإنى أعدّ الشعر الجاهلى الذى قاله أصحابه فى أيام العَرَب « ملحمة كبرى » ولكنها مقطعة الأوصال قد اشترك فى وضعها نفر لا يحصى عددهم من الشعراء ، وما أجد علىّ من ضير فى هذا الرأى فإن ملحمة هوميروس ليست له كلها ، وقد أنكر النقادة « وولف » وجوده[١] وزعم غير « وولف » نفر من العلماء النقادين ، أن اسم هوميروس عنوان فحسب للطائفة الشعرية التى جمعت من أفواه الأقدمين دون معرفة قائلها ، وسميت بالإلياذة[٢] . . . وإن فى المعلقات الجاهلية العشر ، وفى سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت فى الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن العبد مقطوعات فى معان جاء بمثلها امرؤ القيس كما أن لديه أبياتا هى ذاتها عند ضريعه تتغير قوافيها فحسب ، وإن فى وحدة معايشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق الرمل بين أعينهم وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفى الوبر ، لما طبعهم جميعًا على غرار واحد ، فألف بين منالات معانيهم وخواطرهم ، وضروب تصورهم مع اختلاف قليل فى أساليبهم . على أن البصير فى أساليب المعلقات العشر ، واجد فيها شبهًا فى النسج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التى أقول فيها باحتمال التأليف لملحمة عربية جاهلية ، تؤخذ من الشعر الجاهلى فتنتخب من مقاطع وقصائد ، لكل شاعر ، تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب ، وتسجل ذكر أبطالها وبطولتهم الفائقة التى ما كان الأدب اليونانى القديم ليبزهم فيها عند ذكر أبطاله وتصوير غاراتهم وخوارق بطولاتهم وسداد آرائهم فى الحرب وطرائق خدعتهم فى الهجمات والمبارزة والحصار والمناجزة ، فللعرب فى جاهليتهم وإسلامهم مواقف قل مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفى تشمير الجاهليين للحرب ليل

---

(١) نخبة من إلياذة هوميروس ترجمة جوركان ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

نهار ، وغاراتهم الهاجمة التى ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التى عاصرتهم ، أو تقدمتهم فى الزمن .

وإذا كانت ملحمة اليونان تقوم على عقل عولس ، ودهاء آغاممنون وبطولة آشيل ، فإن للعرب الأقدمين عنترة الفوارس بن شداد العبسى الذى ملأ دنيا الحروب الجاهلية ، وشغل الناس إلى اليوم بقصة أهواله وضروب شجاعته . وعند العرب جساس بن مرة وكليب ابن ربيعة والحارث بن ظالم، وفى آل عبس وذبيان وبكر بن وائل وتغلب وغيرهم من بطون العرب وقبيلها لما يكاثرون به الأمم .

ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربى الذى نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح فى ديار فارس ، وأرض الروم وسائر الأقطار التى بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع سلطانهم فى أواخر العصور .

ولو أننا توخينا القصد فى هذا الرأى والتمهل فى شموله لوجدنا بين أيدينا قصائد عربية لا يذهب بها شىء عن أن تكون جزءاً مقطوعاً من ملحمة العربى يماثل مثله من أجزاء الملاحم التى لدى غيرهم ، حوى وصف المعارك ، وتزجية العسكر وفورة العدو ، واستجاشة العدة ، تلمع أسنة فرسانه على صهوات جياده . ويتألب عليه العدو وجمعه ، ويدمر عليه بالشدة والبأس ، فيكون الالتحام ويكون الكر والفر ، والإقبال والإدبار ، والرمى بالنبل والحجر والطعن بالسيف والرمح والخبط بالأعمدة . . ثم ينكشف القتال عن قهر أو ظفر ويندفع الغالبون فائزين بالغنيمة والفخر ، وينطوى الخاسرون على تضميد الجراح وإعداد الثأر .

ولا بد للأدب العربى من يوم ينهض فيه أقوامه إلى جمع ما تشتت من قصائد الشعراء، فى وصف الحروب العربية والمعارك ، وما لابس ذلك من وشائج الحياة والموت فى السلم والحرب فتؤلف الملحمة الكبرى بعون ذلك الشعر ، أو يصف شاعرها الموعود فى ملحمته بطولة العرب فى الجاهلية وجهادهم فى الإسلام وما خالج حياتهم من شؤون وشجون وحب وبغضاء وكيد وأخبار وسير ودولات وغيرها تبين فيها نخوات الجاهلية وعبقرية الحماسة التى خفقت بها قلوب العرب والسماحة الإسلامية، ونشدان العدل ورحمة الفاتح ، وكيف مشى سلطان

العرب إلى آفاق المشرق وآماد المغرب ، حتى لاحت على الصين أعلامهم وصفقت صفاة الأندلس سنابك خيولهم ، وعبروا إلى فرنسة فركزوا رماحهم فى پواتييه ، وقد انحدروا نحو الجنوب بجيوشهم حيث تلألأت سمرة وجوههم تحت الشمس الإفريقية .

ولا بأس على ناظم ملحمتهم بعد ذلك بالبكاء شفاء للغليل ، فلقد علم امرؤ القيس الشعراء البكاء فى مثل هذا الشقاء . وكيف لا يُبكى على مجد للعرب قد دثر ، وعهود لهم بادت وضاعت بين سمع الزمان وبصره . وانقضوا وكأنهم ما كانوا ثم أصار الدهر أخلافهم فى أعقاب الأمم فحملوا عبء المظلمة ودهمهم الفاتحون .

وقد استيقظوا فى يومهم هذا وفى أيديهم حفنات من تراب ، هى بقية الصرح الممرد الذى بناه على الأرض الجدود ، وبناه لهم الله ، حين سمك السماء ليكون أعز وأطول .

ولكى يكون بهذا البكاء وقْد لعزمهم الخامد ، وتأريث لنارهم الخابية فيستعيدوا مجدهم الآفل ، ويكشفوا عن بنائهم الدارس ، فيقيموه حديثاً ويلحقوا قافلة المجد فى الأمم التى تسير اليوم قدُماً ، باذلة فى سبيله العقل والروح ، والسلاح والنشب ، والعلوم والفنون .

وكان الأمل أن ينظم الملحمة العربية شعراء الأندلس ، الذين أظلتهم آفاق تمزجهم بالفرنجة فيكون منهم شاعر ينظم الملحمة الأندلسية ، لتاريخ خطوه بدمهم وبلاد فتحوها . البحر من ورائهم والعدو من أمامهم . وقد خلفوا فى المشرق أجساد أهليهم الأمويين صريعة مجزوزة الرءوس . أديرت عليها صنوف المثلة . فكانوا أشجع فى كل ذلك من اليونان الذين حاصروا طروادة وأحسن عقبى .

ولكن أديبهم الأخبارى أحمد بن عبد ربه قد نهض ببعض هذا الشرف ، وكان يود أن يكون سهمه فيه أبعد وأسد ، فنظر إلى أعظم ملوكهم ، أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد أول من تسمى بالخليفة ، وتطلع إلى غزواته فوجد أنه[1] « لم يكن مثل هذه الغزاة لملك من الملوك فى الجاهلية والإسلام » فنظم أرجوزة فى أربعمئة وخمسين بيتاً ذكر فيها حروبه مع الإسبان وفتوحه وأيامه ووقائعه مع بنى قومه حسب السنين من سنة إحدى وثلثمئة حين اختلفوا ودبّ بينهم الشقاق على الولاية ، وعصى منهم بعض الأعوان وشق عصا الطاعة بعض العمال .

وإنى لأعدها ملحمة صغرى على الرغم من سهولة أسلوبها ولين شعرها وفهاهة بحرها

(١) العقد الفريد طبعة سنة ١٩٥٣ جـ ٣ ص ٢١٥ .

ولو أن أديب الأندلس ابن عبد ربه أطال نفس شعره فبدأ قصيدته منذ عبد الرحمن الداخل الفاتح الثانى للأندلس لجاءت ملحمته الصغيرة أوفى بالغرض .

٤ — العرب أمة حرب :

لم تخل أمة من حرب ، وهى إما أن تكون لها مع الجار أو مع من فى الدار . ولقد ابتلى الدهر الشعوب وفق شرعته التى سنتها الطبيعة ، فكتب عليهم أن يقتتلوا ما بينهم حتى إذا كانت الغلبة لفريق على فريق ، هب من ملك الزمام فخرج بالحرب إلى ما كان فى جواره .

كذلك ضرب لنا التاريخ الأمثال فلم نجد أمة أصبحت غالبة أو مغلوبة إلا كانت الحرب شغلها الشاغل ، فلقد كان الإسبارطيون فى سجال حرب مع الأثينيين ، فى أيامهم وأعوامهم وهم أبناء جلدة واحدة ولغة واحدة .

وقامت الحرب الأمريكية بين أهل الشمال وأهل الجنوب حيناً من الدهر . شاب لهولها الأطفال ، وشغلت الأمة الفرنسية حروبها الأهلية فكانت ثورتها الكبرى أفدح مذابح الإنسان لأخيه الإنسان ، فى دار واحدة وحرم واحد . وكذلك احتدمت الحرب الأهلية فى رحاب الصين وبلاد الإسبان .

وكان لليونان قتال مع جيرانها والبعداء عنها وكان مثل ذلك للأمريكيين والفرنسيين وأضرابهم من الأمم مما يعيا بذكره المؤرخون .

فلا تثريب إذن على العرب القدامى أن يقتتلوا ما بينهم أحر قتال . وأن تكون الحرب فى دارهم سجالا وهم الأمة الوحيدة التى عاشت زمناً مديداً مشتغلة بنفسها غنية عن جيرانها . وكانت فى بهرة الحلقة من أمم متحضرة .

ففى مترامى شماليها بلاد الفرس وديار الروم وفى شرقيها الهند وعلى غربيها أرض النيل . وكان مالها الأنعام تسومها المرعى فى واد غير ذى زرع ، وسهل يخالط السراب فيه الكلأ . فإذا جف ضرع الأرض وأتى أهلها وقطعانهم على الماء الذى خلفته الأمطار والأعشاب التى أنبتتها الدمن ، ارتحلوا عنه يضربون فى مجاهل الصحراء . حتى يرى رائدهم نجعة ينجعونها ، فإذا بلغوها وقد بلغ منهم الجهد ، عرفوا قيمة الماء وفداحة العطش وأدركوا أن بالكلأ حياة الماشية ، فهالهم أن يدمر عليهم جار غاصب فيشركهم فى ماء سبقوه إليه أو كلأ أحرزوه دونه فيدفعونه . فإذا أبى قاتلوه وسقط فى الموقعة القتيل أو الجريح ، فيكون ذلك

مولد الثأر وتكون بعده العدة للانتقام .

وكان طبيعياً بعد انحسار المقاتلين أو انكسار العادين أن ينصرف كل فريق إلى أحلافه من قبائل العرب وبطونهم . أو أن يكون للقتيل أو الجريح أشياع وأتباع فى القبيل والبطون فينهض كل فريق لنجدة فريقه وتكون حرب جديدة ، ويوم آخر مشهود .

وكان يحملهم على هذا الفناء غير النعم والمال ، فلقد نشأت حروبهم من جراء الحفاظ على الشرف فإذا سبى عاشق معشوقته هال أهليها العار ، فهبوا لدفعه وغسله ونشب من ذلك القتال بين أهل الفريقين وتوالدت منه وقائع وثارات .

وكانت إجارة المستجير تكفى للمحاربة فى سبيل إيوائه أو الخفر بذمته . وكان يتفق أن يستجير القاتل بأبى المقتول وهما لا يتعارفان فإذا بلغ الأب الخبر هدر دم ابنه لذمة عنده لا تخفر وشرف لا يهان. وكانوا يوقدون نار الحرب فى سبيل حق مهضوم أو خدعة بُيِّتت.

ولم يكونوا زاهدين فى الشهرة والزعامة وحب التسلط ، فإن كثيراً من ساداتهم وغطاريفهم شنوا الحرب من جراء الإمارة . وكانوا كغيرهم من الأمم يتغلب فيهم القوى على الضعيف ولا يُحمى لديهم الذمار إلا بحد السيوف .

وكانوا لا يدفنون غضباً ولا يغسلون دماً إذا وجدوا على أنفسهم بذلك غضاضة . ولم تكن الديات عندهم سوى كفكفة دموع . وإرضاء للضعاف ، وإنما كان الثأر لديهم شعاراً للحروب .

فإذا قتل رباح بن الأسل الغنوى شاس بن زهير بن حذيفة العبسى ، ثارت قيس فكان « يوم الردهة » وذاقت فيه قيس قهراً وويلا . فهب خالد بن جعفر ومعه رهطه بنو عامر ابن صعصعة، وصخر بن الشريد فارس المرات ، ومعاوية الأخيل جد الشاعرة ليلى فقاتلوا عبساً فى « يوم النقراوات » . ولم يهدأ جأش خالد بن جعفر حتى قتل رباحاً الغنوى ، قاتل شاس العبسى فتسلل بعد هذا اليوم الحارث بن ظالم داهية السياسة الجاهلية ، فنزل ضيفاً على الأسود بن المنذر أخى النعمان بن المنذر ، فوجد معه فى الضيفان خالداً قاتل زهير سيد قومه ، فقتله غدراً وهو نائم ومضى هارباً تنبو به البلاد حتى لجأ إلى معبد بن زرارة ، فأجاره فقال بنو تميم لمعبد كيف آويت هذا المشؤوم وأغريت بنا ابن المنذر ورهط خالد ابن جعفر ؟ فأبى أن يجيبهم إلى خفر الذمة وبقى على حفاظ العهد حتى أورده مالك بن خالد ومعه بنو عامر حرب « يوم الرحرحان » فأسروه وأماتوه هزالا وكسروا قومه بنى تميم .

وقد نتجت هذه الوقعة يوماً عبوساً سماه المؤرخون « يوم شعب جبلة » لعامر على ذبيان وتميم، دبرت فيه وحيكت للغلبة فيه الخطط ، مما أعده على غثاثة البداوة من روائع الأحابيل بين أشباهها التى بيتها المحاربون إلى اليوم .

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب[١] » . ولعل أبا عبيدة يقصد واقعة ذلك اليوم وما كاد فيها جانب من الخصمين وما لقى فيها من الهول الجانب الآخر لأن من أيام العرب ما دام سنين متطاولة ، وكان أروع من هذا اليوم بأساً وأفدح خطباً ، لكن ما اتخذ فى هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسداد الرأى والحيلة وحسن التنفيذ ، كان لا نظير له على قرب مأخذه بين سائر الأيام الجاهلية ، وكان حدوثه قبل أربعين عاماً من الإسلام سنة ولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وذلك أن « وقعة رحرحان » جرت على « لقيط بن زرارة » حيفاً ومذلة ، فتناوله الشعراء بالتعيير بها ، لأنه فرط فى فدية أخيه سيد مضر ، إذ كان أسيراً فى بنى عامر فلم يفده بدية الملوك وقال لا أزيد فدية أخى على مئة بعير عملا بوصاة أبينا . فهال الأسير الأمر وانثنى على نفسه محزوناً لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى مات هزالا . فهب أخوه لقيط من بعده وكأن الألم خامره مما فرط فى جنب أخيه . فانطلق يؤلب العرب على بنى عامر وعبس ، فأطمع النعمان بن المنذر بالغنائم والجون الكلبى ملك هجر بالسبى والمال، وجمع أحلافه، وكان فى جمعه بنو ذبيان لعداوتهم لبنى عبس بسبب حرب داحس والغبراء وغطفان . وعليهم سنان من أبى حارثة المرى والد هرم الجواد ، وبنو أسد حلفاء غطفان . وبنو تميم ومعاوية وعمرو ولدا ملك هجر ومعهما جمعهما ، وحسان بن وبرة الكلبى أخو النعمان لأمه ومعه جيش من النعمان وقد علمت بنوعامروعبس فداحة هذا الهول وكثرة هذا العدد . فاستشارت قيس بن زهير وكان سديد الرأى فقال يخاطب الأحوص بن جعفر وكان رحا هوازن[٢] « الرأى أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل " شعب جبلة "[٣] فنقاتل القوم دونها من وجه واحد ، فإنهم داخلون عليك الشعب ، وإن لقيطاً رجل فيه بطش فيقتحم عليك الجبل . فأرى أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تسقى وتعقل ، ثم تجعل الذرارى وراء ظهورها وتأمر

---

(١) العقد الفريد ط ١٣٥٣ ، ج ٣ ص ٣١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥ .

(٣) بمعجم ما استعجم للحافظ البكرى ج ١ ص ٢٣٩ . « قال الأصبهانى هى هضبة حمراء طويلة لها شعب عظيم واسع وبها كان اليوم المنسوب إليها » وفى المعجم المحيط شعب جبلة موضع بنجد .

الرجال فتأخذ أذنابها بأيديهم فإنها تنحدر عليهم وهى تحن إلى مرعاها ووردها ولا يرد وجوهها شيء وتخرج الفرسان فى أثر الرجالة الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت وتقبل عليهم الخيل وقد حطموا من عل .

وكان فى رهط قيس بن زهير وبنو عامر وبنو عبس أحلاف عامر ، وبنو كلاب وأحلافهم بنو صعب وأبناء صعصعة ورهط المعقر البارقى ، وأحلافه بنو نمير وأقيال بجيلة دون قيس .

وعطش العامريون وأحلافهم إبلهم ثلاثة أخماس أى اثنتى عشرة ليلة ولم يطعموها شيئاً . فلما دخل لقيط عليهم الشعب بجمعه ، كما توقع الحصيف قيس بن زهير حل العامريون عقل إبلهم فأقبلت تهوى . فدقت كل ما لقيت من جمع العدو فانهزموا لا يلوون على شيء . وقد قتل لقيط بن زرارة وأسر أخوه حاجب وقتل ناس كثير من صحبه ورهطه .

وانطلق المعقر البارقى وكان قد شهد الوقيعة يصف بشعره هذا اليوم المشهود ، ويذكر من كان فيه من الرجال الذين دفعتهم الملوك، وكانوا كالجراد عدداً، وكيف كان العامريون لا يأبهون للأمر وقد أعدوا له عدته . فجعلوا يطربون بالظفر الذى سيكون لهم حتى صبحت أعداءهم ، كتائب تضرب الهامات ، وتطيح ببيضها تحت عجاجة يهوى فيها الفارس بسلاحه على خصمه ، كأنه باز كاسر قد انقض على قنيصة فقال[1] :

آمن آل شعثاءَ الحمولُ البواكرُ ... مع الصبح أم زالت قُبيْلُ الأباعرُ
وحلت سليمى فى هضاب وأيكة ... فليس عليها يوم ذلك قادر
فألقت عصاها واستقرت بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر
معاوية بن الجون ذبيان حوله ... وحسان فى جمع الرباب مكاثر
وقد رجعت دودان تبغى لثأرها ... وجاشت تميم كالفحول تخاطر
وقد جمعوا جمعاً كأن زهاءه ... جراد هفا فى هفوة متطاير
فمروا بأطناب البيوت فردهم ... رجال بأطراف الرماح مساعر
كأن نعام الدو باض عليهم ... وأعينهم تحت الحبيك خوازر
من الضاربين الهام يمشون مقدما ... إذا غص بالريق اللها والحناجر
ضربنا جميل البيض فى غمر لجة ... فلم ينج فى الناجين منهم مفاخر
هوى (زهدم) تحت العجاج (لعامر) ... كما انقض بازٍ أقتم الريش كاسر

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٦ . والأغانى ط التقدم ج ١٠ ص ٤٤ — ٤٥ .

يفــرج عنــا كل ثغــر نخافه　　مشيح كسرحان القصيمــة ضامر
وكل طمــوح فى العنــان كأنهــا　　إذا اغتمست فى الماء فتخاء طائر

كذلك خلد ذكر هذا اليوم المعقر البارقى بقصيدته هذه ، وهى لا بالطويلة المملة ولا بالقصيرة المخلة ، فاستوفى فيها ذكر الواقعة من أولها إلى آخرها .

فقصيدة البارقى هذه ذات ألوان حربية سريعة مختصرة السرد لكنها واعية شاملة وكفاها أن يكون فيها بيت واحد تتغنى به الركبان ، وهى تستريح من وعثاء الطريق فتقول :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى　　كما قر عينــاً بالإياب المسافر

وكان للقيط بن زرارة الذى تولى تبعة هذه الهزيمة وقتل ، بنت هى « دختنوس » زوج عمرو بن عدى التميمى أشارت عليه قبل أن يقدم بألا يفعل فنهرها . ثم بان سداد رأيها حين دارت عليه الدائرة فحن إليها ، وهو يجود بنفسه فقالت ترثيه وتذكر هذه الواقعة[١] :

ألا يا لها الويلات ويلة من بكى　　لضرب بنى عبس لقيطاً وقد قضى
لقــد ضربوا وجهاً عليــه مهابة　　ولا تحفــل الصم الجنادل من ثوى
فإن تعقب الأيام من فارس تكن　　عليكم حريقــاً لا يرام إذا سما
لنجزيكم بالقتــل قتــلا مضعفا　　ومافى دماء الخمس يا(مال ِ)من بوا[٢]

فنفست دختنوس من كربها . ونطقت بروح الحرب الكامنة فى نفسها للنقمة والثأر وعز عليها أن يقتل أبوها أسيراً فيميته آسراه مالك بن خالد بن جعفر وأخوه ، بعد أن حبسا عنه الماء ، وأن يحرم فى بطولته ميتة الأقرام الغطاريف بالأسنة والقنا .

ولم تكن دختنوس وحيدة فى نساء العرب القائلات شعر الحرب وإنما ثمة كثير مثلها لهن شعر فى يوم مشهود من أيام الجاهلية أو بعض أيام الإسلام .

وظلت هذه الوقعة فى تاريخ العرب القدامى مثاراً للمفاخرة بين الظافرين وعاراً موروثاً بين المندحرين ، وتناول ذكرها شعراء كثيرون فيهم النابغة الجعدى .

وكان جرير وأصحابه المتهاجون فى صدر الإسلام ينبشون أخبار هذه الحروب ، ليجعلوها وسيلة للتعبير أو المفاخرة كما سيأتى فى الكلام على شعر الحرب فى عصر بنى أمية من هذا الكتاب .

---

(١) الأغانى السابق ص ٣٨ .

(٢) الخمس عدد رجال قتلوا ، ومال : مالك الفزارى حليف قومها ، والبوا الكفؤ .

* * *

وكفى بحرب (داحس والغبراء) أن تكون ملحمة كبيرة ، إذ دامت أربعين عاماً بين بطون عبس وذبيان ، وكان منشؤها إفساد السبق بين داحس جواد (قيس بن زهير) ، وبين الغبراء فرس (حمل بن بدر) وقد تواضعا الرهان ، وقدرا منتهى الغاية التى يسعى إليها الفرسان ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمروهما أربعين ليلة .

فأكمن حمل بن بدر فتياناً فى شعاب يمر عليها الفرسان ، وأمرهم إن ورد داحس سابقاً أن يفزعوه ويردوا وجهه عن غايته . فلما شارف داحس الغاية وأقبل على الفتية أهاجوه ونفروه فارتد عن قصده وسبقته الغبراء .

فثارت الحرب بين القبيلتين وأحلافهما من جراء الغدر بالسبق . ولم يكن حمل بن بدر ليعبأ بما تنتج الحرب بعد أن ملأ عطفيه من فوز كاذب . ولكم كان يحز فى نفسه لو عثرت الغبراء وفاته الفخر بالخيل ، والمكاثرة بأصائلها العراب فغلبه على الرهان قيس بن زهير .

وقد قيل فى هذه الحرب شعر كثير ، وقتل فى سبيلها ناس أكثر ، كان يرثيهم شعراؤهم وفيهم عنترة .

ومن شعراء هذه الحرب الطويلة عنترة العبسى وقيس بن زهير صاحب الجواد . والربيع ابن زياد العبسى ، وعقيل بن غلفة المرى ، والربيع بن قعنب ، وعمر بن الأسلع وغيرهم ، إذ كان منتوج حرب داحس حروباً كثيرة وأياماً مجددة . وكان لكل يوم شعراؤه وشهوده ، وقتلاه وجرحاه ، يبعثون فى أهليهم وأعقابهم تجديد الوتر ، وأخذ الثأر ، حتى كان اليوم الأخير (يوم الغدير) فأصلح بين البطنين عبس وذبيان سيدان من غطارفة العرب هما « هرم بن سنان » و « عوف بن مرة » فتحملا ديات القتلى نجوماً لفداحتها وكثرتها ، وحقناً لدماء سكبت أربعين عاماً كان تعاقد على إهراقها مغاوير ، قد وثقوا حلفهم فى ماء معطر كانت تصنعه امرأة اسمها « منشم » جرياً على عادتهم فى أحلاف الجاهلية عند حلف المستميتين . فى ذلك يقول زهير بن أبى سلمى وهو يخاطب الرجلين المصالحين :

تداركتما عبساً وذبيـــان بعـــدما تفـــانوا ودقوا بينهم عطر منشم

تلك حرب نشبت طويلة مستحرة بين أحياء العرب ، تكسرت فيها النصال على النصال ، ووقع فى ساحها قتلى لا يحصى عديدهم. وكانت من جراء الخيل وعددها والرهان عليها. وكانت المكاثرة والمفاخرة من أسباب هاتيك الحروب .

وكذلك نشبت الحروب بين العرب من جراء العرض والدفاع عن كرامة المرأة أو بسبب المال . وقد يكون المال ستاراً تنفذ منه أحقاد الصدور ، كما كان من « حرب البسوس » بنت منقذ بن تميم وقد اصطرعت فيها قبائل بكر وتغلب وهم إخوان وأبناء عمومة ، وبقيت ذكراها إلى أواخر العصر الأموى .

كل ذلك بسبب ناقة مشؤومة للبسوس بنت منقذ . وكانت خالة جساس بن مرة المشهور نازلة فى جواره وحماه . فشردت ناقة لها اختلطت بإبل كليب بن وائل ، وكان باغياً غيوراً وجباراً ظالماً لقومه . فاخترم الناقة بسهمه فعادت إلى صاحبتها ، فهبت البسوس إذ رأت دم الناقة خالط لبنها فمزقت خمارها وصاحت فى العرب . واذلاه ، وواجاراه ! !

وكانت إذ تصيح بهذا الصوت تزعم أن حمى ابن أختها جساس قد أبيح ، وأن جساساً كتب عليها وعلى نفسه الويل والذل . فأثارت جساساً الذى ذهب إلى كليب فطعنه وقصم صلبه فوقع كليب على الأرض يفحص برجله فقال ، لقاتله جساس ، أغثنى بشربة ماء .

وقد وصف ذلك أحد شعراء هذه الحرب وهو عمرو بن الأهتم فقال :

وإن كليبـــاً كان يظلم قومـــه ... فأدركه مثـــل الذى تريـــان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمـــه ... تذكر ظلم الأهـــل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربـــة ... وإلا فخـــبر من رأيت مكانى

فهب الشاعر المهلهل أخو كليب . فهلهل من يوم ذلك قصائده فى رثاء أخيه وأخذ يحض العرب على الأخذ بثأره ، لا يهدأ قراره ولا يخمد غضبه ، حالفاً جهده أن يأخذ بالثأر مهما تفدح الحرب ويعم بلاؤها ، ويكثر قتلاها حتى تنال بجاحمها الأجنة فى بطون الأمهات فقال :

كيف أهـــدا ولا يـــزال قتيـــل ... من بنى وائـــل ينسى قتيـــلا
قتـــلوا ربهم كليبـــاً ســـفاهاً ... ثم قالوا ما إن نخـــاف عويلا
كذبوا والحـــرام والحـــل حتى ... تسلب الخـــدر بيضه والحجولا
ويمـــوت الجنين فى عاطف الرحم ... ونروى رماحنـــا والخيـــولا

وكر على الحيين يوم البسوس أياماً شداداً ، قتل فيها أبطال ، وشتت نساء ورجال ، وقيل فيها شعر كثير ، لو ألف بينه لجاء ملحمة أية ملحمة .

ثم كانت « أيام الفجار » وقد شهد محمد صلى الله عليه وسلم آخرها قبيل مبعثه بست وعشرين سنة وكان ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقد شارك فى هذه الحرب فكان يناول أهله النبل . وإنه ليذكر ذلك لأصحابه رضوان الله عليهم فيقول[1] :

« كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة » .

وكانت أيام الحجيج للعرب أشهراً حرماً ، يأمن بعضهم فيها من بعض ، فلما وقعت فيها الحروب سموها حروب الفجار . وهذه كتلك جرت وقائع وأياماً ، كثر فيها قول الشعراء فوصفوا مناجزة القتال . وحر الطعان وهجمة الخيل وخبط الهامات وضرب النحور .

وطول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها ، وهل كانت المعارك فى حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم ، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شىء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأى وإنما كانوا فى حروبهم يقلبون أوجهه ، ليصلوا إلى أيها الأسدّ ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولا يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث . فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلها حتى تبلغ نهايتها فتريك صورة معركة منذ بداءة الوقعة إلى ختامها ، وإنما هى فترات شعر فى لمحات وصف مقتضبة مجتزأة يتبين فيها الروح العربى البيانى الذى انطوى ـ منذ كان ـ على الاختصار فى سرد الصور ، أو الزهد فى التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات فى موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإننا لا نجد فيها وحدة متناسقة فى الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة يصف شعراؤها المعارك التى شاهدوها أو قيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعانى والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعانى المتوالدة إذ كان يؤثر الشاعر العربى الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور .

على ذلك كان عيش العرب فى جاهليتهم وصدر إسلامهم ، مفطورين على القتال ، مطبوعين على الحرب فبذوا سائر الأمم بفرط شجاعتهم وفيض حماستهم . وكانت البطولة

---

(١) فى رواية الطبقات لابن سعد ج ١ ص ١١٠ طبعة لجنة النشر الثقافية الإسلامية بمصر سنة ١٣٥٨ – أن الرسول قال « حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

موزعة عليهم بين كبير وصغير وشيوخ ونساء حتى تكاد القبيلة — كما تقدم الإسهاب فيه — لم تعرف فى بيوتها واحداً لم يجرح أو لم يكن ذا صلة قريبة أو بعيدة بيوم من الأيام أو وقعة من الوقائع لقد كانوا جميعاً ينهضون بعبء القتال . وقد فهموه أنه جزء من حياتهم الطبيعية ولذلك بات عاراً عندهم أن يموت المرء على فراشه وكان من كوارث الزمن أن يجود بطل بنفسه وهو فى بيته فيموت كميتة البعير . فكان خالد بن الوليد يقول عند موته : « لقد لقيت الزحوف وما فى جسمى موضع شبر إلا فيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم هأنذا أموت حتف أنفى ، كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء »[1] .

فإذا عرفنا لهم ذلك لم نعجب للسموءل بن عادياء الغسانى حين قال :

وما مات منا سـيد حتف أنفـه ولا طل منا حيث كان قتيـل .
تسيل على حـد الظباة نفوسنا وليست على غـير الظباة تسيل

ولم تكن ممارسة الحرب مقصورة فى العرب على أمرائهم وأغنيائهم وغطاريفهم ، وإنما كانت كذلك من حظ نفر غير هؤلاء السادة . لقد كانت شغل (الصعاليك) ومرام الأغربة السود من العدائين ، ودأب اللصوص السارين وشراد الليل . فصعاليك العرب كانوا يساوون بفروسيتهم وخوارق بطولاتهم شجاعة السراة المغاوير .

وكأنى أنظر إلى زعيم الصعاليك (عروة بن الورد) فأعجب وأطرب لروحه الشماء السمحة إنه ليغزو الأغنياء ، فيسلب مالهم ليفرقه على جمعه الصعاليك المساكين .

كان يزدرى الصعاليك الذين من دأبهم شواغل البطون وارتياد مذابح الغنم ، ومعاونة النساء فى الحى . فكان يفاخر بصعلكته الحربية فيصف تلألؤ وجهه بنور المحامد وهو فى بهرة أعدائه ينالونه بالزجر من كل جانب ، ويخشون بأسه فى قربه وابتعاده ، حتى إذا نزلت به المنية تلقاها راضياً .

كذلك يقول صعلوك الحروب الذى كان عبد الملك بن مروان يفضله بالسماحة على حاتم الطائى :

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليـله مصافى المشاش آلفاً كل مجـزر
يعـد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر

---

(١) العقد ط لجنة التأليف بمصر ، جـ ١ ص ١٦٤ .

ينـــام عشاء ثم يصبح ناعساً يحت الحصا عن جنبــه المتعفر
يعين نساء الحى مـــا يســتعنه ويمسى طليحاً كالبعــير المحسر
ولكن صعلوكاً صفيحـــة وجهه كضوء شهاب القابس المتنــور
مطــلا على أعـــدائه يزجرونه بساحتهم زجــر المنيــح المشهر
فذلك إن يلق المنيـــة يلقهـــا حميـــداً وإن يستغن يوماً فأجدر

ولم تكن المرأة العربية إذا قامت القبيلة بالحرب ، أو شنت عليها الغارة ، أقل من الرجل حمية وحماسة ، وإن تكن دونه بالبأس ، فلقد كانت تشارك الرجال فى الحرب فى أيام الجاهلية فتمضى مع الغزاة فى المؤخرة ، تصفق بالدف وتنشد أهازيج تحث بها على النضال ، كما كانت إذا التحم القوم بالقوم ، تسقّى العطاش وتضمد الجراح مما يعد لدى العرب سابقة من سوابقهم فى الحرب وقد مشى على غرارهم بعض أمم الغرب فى عصرنا هذا فى حروبهم الحديثة .

وكان من أولئك النسوة شاعرات ، يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال ، فكن يشاركن الرجال فى الشعور الحماسى تلقاء الحرب ونكباتها ، وما كن فى ذلك أقل إجادة من الشعراء الرجال ، فى براعة الوصف للخيل والقتال . فهن غير دختنوس ، هند بنت عتبة ، وقتيلة بنت النضر ، وأروى بنت الحباب ، وبنت بدر بن هفان التى تقول :

لا يبعـــدن قـــومى الذيـــن هم سم العـــداة وآفـــة الجـــزر
النـــازلين بكـــل معـــترك والطيبـــون معـــاقد الأزر
قومـــاً إذا ركبـــوا سمعت لهم لغطـــاً من التأبيـــه والزجـــر

والهيفاء القضاعية التى تقول :

الخيـــل تعلم يوم الروع إن هزمت أن ابن عمرو لدى الهيجاء يحميها

وكفى شواعر العرب فخراً وقد أسهمن فى شعر الحرب أن تكون فيهن الخنساء التى ذهبت من بينهن بعمود الشعر فى رثائه وفخره ، وحماسته وحربه .

وكأن المرأة كانت ضرورة لشعر الحرب عند الجاهليين ، وقد ظل هذا الأثر إلى العصور الإسلامية الأولى .

ولهذا نجد كثيراً من شعراء الحرب عند العرب يخاطبون نساءهم ويذكرون كيف يستثرنهم للحرب والمآثر كقول أبي مخزوم النهشلي بقصيدته المشهورة :

إنا محيوك يا سلمى فحيينا   وإن سقيت كرام الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جلى ومكرمة   يوماً سراة كرام الناس فادعينا

ودرج الشعراء الفرسان على مخاطبة نسائهم فى كثير مما يقولون فى وصف الحرب . فأزهر بن هلال التميمى حين انتهى من حربه قص على زوجه أمره ، فقال لها وكأنه كان يطلب منها الصفح أو الإعذار :

أعاتك ما وليت حتى تبددت   رجالى وحتى لم أجد متقدماً
أعاتك أفنانى السلاح ومن يطل   مقارعة الأبطال يرجع مكلما

ومن أذكر من تلك النسوة اللواتى كن مشاعل الحرب ؟ فإن منهن تحت قلمى من يتدافع ذكرهن بما يملأن به القلوب بالحمية والبطولة .

كن مع الزحوف يهجن مكامن الحماسة ، ويثرن دفائن الأحقاد فى صدور الرجال ، حتى إذا هتفت تلك الموسيقى البدوية على قرع الدفوف وغناء النساء ، توقد دم الثأر فى القلوب ، فهب الرجال وبأيديهم السلاح هبة واحدة على الأعداء ، ينادون نساءهم بالبشرى .

أفأذكر ذلك الفارس المغوار الذى كسر الصف وفل الجمع ، ثم هموا به فاستوقفوه بعد المعركة وقالوا له :

— احسر اللثام عن وجهك أيها الفاتك المكين . . .

فأطاع البطل قائده خالد بن الوليد ، وأغمد سيفه ثم حسر عن وجهه . فإذا وجه امرأة يشع بهاؤه ويسبى جماله ، فأنسى الأبطال حمحمات الخيول وجلجلات السلاح . فقال لها خالد من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : « أنا خولة الكندية أخت ضرار بن الأزور من بقايا الملوك ، أتيت مع نسوة من قومى ، لنشد عضدك فى حرب الروم ، ثم أنشدت بين يديه :

نحن بنات تبع وحمير   وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعر   اليوم يسقون العذاب الأكبر

وإن فى التحدث عن الخنساء وقد استشهد أولادها الأربعة فى وقعة القادسية لهزة كبرياء لكل عربى فى حمية نساء العرب وبطولتهن فى معاينة الحرب . وإن فى ذكرَ أسماء بنت أبى بكر ووصيتها لابنها عبد الله بن الزبير يوم نهايته وفى إكبابها وهى ضريرة لوداعه ولمس يدها الدرع عليه لموقف تمثيل تعجز عنه ملاعب الروايات . وإن فى تمزيق هند بنت عتبة أم معاوية لكبد الشهيد حمزة بن عبد المطلب ولوكها إياها ثم لفظها والحرب مصطلية بخوارق أهوال فى حوادث الأمم ، ولم يكن لنساء يونان أروع منها فى حروب طروادة .

فلئن ازدهت الشعوب بمثل هذه البطولات من نسائها ، فإن فى تاريخ العرب مواطن لأعز فخر ، وأبعد ذكر لمآثر المرأة وفضلها .

إنهن نساء ما أتيح لهن بعد من يجمع أخبارهن المشتتة . فينتج منها سيرة تضارع قصة (جان دارك) التى نسجت عليها أقلام الكتاب الفرنسيين هذه الصورة الحماسية الرائعة ، وعززوها بفنونهم ، حتى غدت عزًّا للمرأة الغربية . وغير أولئك كثير من نساء العرب امتلأ بهن مجد الأمة العربية كانت بطولتهن أشد من بطولة نساء الغرب فى حرب الأمس .

ولم يكن اشتغال الأمة العربية بالحرب ومغازيها الطويلة ، ليصدها عن المعروف والإحسان .

وإنى لأعجب لهاتيك القلوب الصلاد التى كانت مفاخر أصحابها فى سفك الدم — حفظاً على الحق أو إبقاء على البأس — كيف كانت قلوباً ملؤها الرحمة وشغافها الحنان ، حتى ضمت النقائض .

وقد كان أصحاب هذه القلوب يصلون الرحم ويرعون الذمام ، ويضنون بالعرض ، لهم شؤون وشجون فى الهوى سارت بأحاديثها الركبان . وكان تفانيهم فى الجود وإغاثة اللهيف والمستجير أمراً أفردهم بشرفه تحت الشمس . لقد عمرت قلوب العرب بأرق الأحاسيس وضمت أشد الأحقاد والمواجد ، فما منعتها رقتها لأصحابها أن تكون صلاداً على أعدائها ، وأن تستشرى فى الحرب والجهاد . وقد امتاز شاعر الحروب العربية من شعراء الأمم الذين نظموا الملاحم ، أنه كابد الحروب وعاناها ، وكان وقودها ولظاها ، ولم يقل الشعر وهو عنها بعيد ، أو يسجل وقائعها وليس له بها عهد ، كما فعل هوميروس والفردوسى وغيرهما ممن نظم الملاحم ، وكان أكثر الفرسان العرب شعراء مجيدين ، وكان الشعر من أدوات حربهم يستثيرون به الهمم فى قلب المعارك ، فينشده أصحابه أو المتمثلون به عند المبارزات وشن الغارات ، كما

سيأتى وصف ذلك فى شعر الحرب عصر بنى أمية وما بعده .

حتى إذا ختم الزمن على أبطال الجاهلية سفر حروبهم ، هدأت سيوفهم فى أغمادها ، واستراح أبطالهم فناموا إلى الأبد ، بأعين ملؤوها برؤية الحرب والخيل والسلاح ، وسكنت فى صدورهم قلوب طال ما خفقت بالعزة والكبرياء .

خلا زمنهم وبقى يطن فى سمع الزمان جرس السلاح الذى تكمى فيه فرسانهم ، وبات المرء إذ يقرأ فى أعقاب القرون ، كيومنا هذا ، أحاديثهم ، ويتمثل روائع معاركهم وخوارق فروستهم يحسبهم أبطال الأساطير فتغلبه فيهم الدهشة ، وتتملكه منهم الروعة ، وتبقى مدوية فى مسالك سمعه أسماء الفرسان المقاحيم :

« عنترة الفوارس ، وعتيبة بن الحرث بن شهاب ، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأحيمر السعدى ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن عبدود وعمرو بن معد يكرب الزبيدى » ، وغيرهم كثير .

لقد كانوا يصطرعون ما بينهم هم وأعوانهم فى حروب غير مجدية ، حتى بعث الله الرسول محمداً فحارب ببعضهم بعضاً حتى صفاهم ، ثم دعاهم النبى إلى حرب الكافرين والظالمين ، فهبوا من بعده بدعوة القوة والدين . فإذا كبارهم من بقايا الجاهلية مساعر حرب وصغارهم أشبال أسود ينهضون بالقتال سجالا بعد سجال .

تلك ملاحم العرب فى الجاهلية . كانوا يسمونها أياماً ووقائع . فلما جاء الرسول سمى حروبه « الغزوات » فكانت مغازيه أروع ما شهد العرب فى نظام العسكر ، وبأس البطولة ، وحنكة القادة ، وطاعة المقاتلين ودهاء التدبير .

٥ ــ لغة الحرب وعدتها :

عرف العرب من أدوات الحرب فى عتيق عهدهم مثلما عرفت الأمم من هذه الأدوات فى قديمها .

ولئن كان لكل أمة عتيقة طراز من السلاح ، قد لا يشبه جميعه ما عند غيرها من الأمم ، فإن العرب وقد تمرسوا بالحرب أعدوا لها عدتها من آلة الحديد ومطايا النزال . ولقد أحاطوا بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمم الحرب . فحذقوا الكلام عليها وأجالوا البيان فى وصف آلاتها وأكثروا من العناية بتصورها وتصويرها ، حتى ألموا بدقائقها وأشكالها ، وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعرائهم الشاغل ، وأدبهم فى استنباط التشابيه وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه فى أوصاف السلاح

وعدة القتال تراثاً أدبيًّا فى شعرنا العربى نكاثر فيه آداب الشعوب .

وحق للعرب وهم فى باديتهم محصورون أيام الجاهلية أن يحتفوا بأوصاف سلاحهم وذكر حروبهم وعدّتها ، لأنها كانت تملأ حياتهم فى ليلهم ونهارهم . ولو أحصينا ما قال العرب فى جاهليتهم فى الطعام والشراب والمسكن وسائر مرافق الحياة أو ما قالوه فى وصف الطبيعة وما أفاضوا فيه من التمدح بالمكارم وما بذلوه بين أيدى النساء من الشعر الغزلى لوجدنا أن شعرهم فى الحرب ووصف آلاتها يشغل شطراً كبيراً من شعرهم قبل الإسلام وبعده .

وإننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها فى المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عُرفت على رسلها فى الجاهلية قبل أن تستولى عليها الكلفة فى تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال فى أروع بيانها وأبرع تشابيهها .

حتى إذا خلت الحرب وشبع الواصفون والقائلون من ذكر القتال والوقيعة وآلة الحرب واندفعوا إلى السلم الموقوت لم يتركوا أوصاف الحرب ولا ذكر أدواتها ، حتى فى اللهو والطرب.

عاش السيف فى أيديهم يذكرون بلاءه فى حز الرقاب وقصم الظهور وقطع الدروع ، فإذا صاروا إلى السلم جعلوا السيف نظرات الغيد الأماليد وجروحاً فى قلوب العشاق المعاميد أو شبهوا به تلألؤ الصباح أوساقوا فنون الكلام فقالوا أمضى من السيف . إلى آخر ما يستطيع المتتبع أن يجده فى كلام العرب . وهو غزير فياض .

وعاش الرمح فى أيدى الفرسان طعاناً فى البراز يلتمع سنانه ، فهو أزرق كأنياب الغول يخترق الصدور ، ويدمى النحور . فإذا أصبحوا فى السلم جعلوه قوام الحسان ، وإذا حان البيان قالوا متين العود كأنه رمح قائم وأكثروا فى شبه ذلك وأفاضوا .

وكانت النبال للقتال فقرنوها بلحظ العيون الفواتن وجعلوا من جعب السهام أجفان الغوانى الرعابيب . . . وانطلقت الخيل فى الحرب فكانت مرسلة كالريح فعبرت بهم على جثث العدى ، أو أنجتهم من المهالك ، حتى إذا هدأت الحرب عن ظهورها جعلوها تقطع المفاوز لبناء المكارم وحدبوا عليها بكل ما فيهم من مودة وعاشوا معها فى كل آونة يصلون كلامهم بشياتها الرغاب[١] .

---

(١) كتب ابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهما عن الخيل وأخبارها عند العرب ، وصفاتها ، وعن حفاوة العرب بها وحض الإسلام عليها . وقد بزهم جميعاً الشيخ على بن عبد الرحمن المشهور بابن هذيل الأندلسى فى كتابه =

ذلك خير ما شاع فى لغتهم فى الجاهلية ، فإذا جاء الإسلام ولم يغير من حياتهم الصحيحة شيئاً — تلك الحياة التى كانت لهم مع السلاح والخيل — زادوا فى الحفاوة بآلة الحرب ومطاياها ، وذهبوا فى الكلام عليها المذاهب وافتنوا الفنون . فانساب فى لغتهم — فى عهود الإسلام — كلام الجاهلية فى الحرب وفنونها ، وعدتها وآلاتها وتشابيه القول فيها واستعارة الأوصاف منها . وعم ذلك وشاع . حتى إذا قرأنا شعر العصر العباسى وجدنا شعراءه لا يزالون يتمثلون بتشابيه البداة فى القتال والنزال على عهد الجاهلية وأقوال حربهم وتعابير سلمهم ، فلم يستطيعوا أن يهملوا هذا التراث الذى لا يفنى فى ألفاظه ، وتراكيبه ومعانيه ، والذى ظل بعضه تقليديًّا رمزيًّا كالوقوف على الأطلال ومناجاة دارات الحبايب على الطريقة الجاهلية التى كانت عند الجاهليين حقيقة منتزعة من أرضهم وحياتهم .

وإذا رأى الشعراء التابعون رغاء الماء وهديره ، شبهوه برغاء البعير وجرجرة هديره وإذا شاموا البرق قالوا إنه لمعان السيوف . وإذا وصفوا العزائم قرنوها بمضى الجياد ونفاذ النبال . وحين تغزلوا لم ينفكوا عن سهام العين وقَدْ كالرمح كما قال الأولون .

ومد هذا البيان سحره فى شعر العرب حتى بلغ عصرنا فكان شعراؤنا حتى اليوم ، المجيدون ومن دونهم ، يتأثرون أقوال الأوائل فى اصطناع عدة السلاح وأداة الحرب وذكر الخيل فى شعرهم عند التشبيه والتمثيل ، ولا يجدون محيصاً عن ذلك لأن تعابير الأقدمين قد بلغت إليهم بالميراث فى مسيرة العصور . فلم يستطيعوا أن يتمردوا عليها أو يعدلوا عنها ، أو « يتحرروا » منها ، لأنها من تراث لغتهم ، ومجد أمتهم .

وإنى لأسأل نفسى هل تستطيع لغتنا فى أى عهد من عهودها أن تبرأ من تلك التعابير الحربية التى شاعت فيها منذ كانت إلى اليوم ؟

= « حلية الفرسان وشعار الشجعان » ألفه للمستعين بالله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر من خلفاء الأندلس ، وجعله مشتملا — كما يقول — على : جلاد وكفاح وخيل وسلاح ، وما يختار من صفات الخيل ويكره ، يذم من شياتها ، وجميع ما يختص بأحوال المركوب .

وقد نشر هذا الكتاب الجليل « لويس مرسيه » القنصل الفرنسى فى الجزائر عن نسخة الأسكوريال الأصلية أصدرها بالفوتوغراف وخطها مغربى يشبه الكتابة السريانية كتبت فى العام العاشر بعد المئة والألف . وقدم مرسيه لهذا الكتاب وفهرسه وصحح خطأه الإملائى وتصحيفه فى ١٧ صفحة بالمقابلات على النسخ الأخرى التى عثر عليها منه حقق فيه سنة ١٩١٩ وأخرجه فى الطبعة الشرقية بباريس لبول جونتير سنة ١٩٢٢ ، وعين عصر المؤلف فى القرن الرابع عشر الميلادى فيما يوافق القرن الثامن الهجرى .

فأرى أن وفرة تمازجنا بالثقافات الأجنبية المعاصرة ستحمل يوماً على تنقية لغتنا من هذا التراث لبعد العهد به ، ولأن أذواق الناس قد تبدلت فأصبحت تمجه ولا تستسيغه وإنى لأجد الخطر فى مثل هذا التطور . فويل للغتنا من يوم تفقد فيها تراثها هذا العزيز الذى يذكرنا بفروسة أجدادنا الأقدمين ، ويحملنا على أن نحيا حماة مثلهم للذمار ، أباة للضيم على غرارهم ، فلا نبتلى برطانة المولدين ، وركاكة المضعوفين فى اللغة والبيان ، فنخسر الخير الجديد ، ولا نبقى على العز القديم .

البابُ الأوّل

شعر الحرب فى العصر الأموى

شعر الحرب فى العصر الأُموى

تمهيـــد

١) الحياة الأموية الجديدة وشعر الحرب :

وجد الأمويون أنفسهم فى حياة غير التى عرفها العرب قبل الإسلام ، فحياة الأمويين فى تحضر ، وشعرهم فى تطور ، وسياستهم فى تعقد ، وفتوحهم فى تأزم ، وكانت معايشهم وضروب مرافقهم الخاصة والعامة فى انقلاب جديد ككل انقلاب يعترى الأمم حين تخرج من دنيا قديمة ألفتها ، إلى دنيا حديثة لا عهد لها بها من قبل .

وقد كانت كل ناحية من نواحى هذا التحضر تظهر الظهور العربى الجديد . وكان الشعر أحد الأمور التى ظهر خطرها فى هجمة العصر الأموى . وقد أعد نفسه لمهمة كبرى ، وكأنه كان يستشعر بها قبل أن ينهض بأعبائها الجسام ، فى منظومات الحماسة ووصف الحرب . إذ كان العصر الأموى وما فيه من حروب وفتن وازدحام سياسات ، قد حتم على الشعر هذه التسخيرة الضرورية ، وتلك الخدمة المقررة ، فخضع شعر العصر الأموى لسلطان الحرب والسياسة ، وقد رفده ميراث ضخم صار إليه من الجاهلية . وأى شعر فى الحماسة والحرب أشد وقيداً وأبعد أثراً من الحماسة الجاهلية وشعر الحرب فيها ؟

وقد هيأت القرائح الفذة فى العصر الأموى أصحابها الموهوبين لخدمة هذا الضرب من الشعر الضرورى المحتوم ، فنبغ الشعراء الفحول الذين ملؤوا حياتهم بشعر الهجاء والفخر والحماسة ودعايات السياسة وذكر الحروب .

٢) الحماسة الأموية بين الحرب والسياسة :

ا ــ تأثير الشعر السياسى فى الشعر الحربى :

لا يكاد يأخذ بإعجابى وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموى ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع فى اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور فى حومة الوغى ، حتى يعكر علىّ صفاء هذه الصورة

وبراعة هذا الوصف أبيات فى أواخر القصيدة أو فى أثنائها يحاول بهـا الشاعر أن يعفى على آثار قوم آخرين فى الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيذائهم بالهجاء وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التى عرفت فيهم . فهو أبداً يسعى إلى إعلاء قومه فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل وينزعها عن سواهم حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه فى أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه .

وقد تأثرت الشعر العربى من فواتحه إلى خواتيمه فى شعر الفخر ، فوجدته يمضى على هذا الغرار فى عصر بنى أمية . فإذا كان الشعر فى وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء فى قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر فينبرى من يقول قصيدة أو أبياتاً فى ذم خصومه فى الحرب وحمد قومه فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ثم يدخل آخرون فى الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يستقصى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً فى وقيعة ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر ؟

وقد يكون دافع الذم أو حافز المديح دسيساً من خليفة أو أمير ، أو نزعة من حزب أو مذهب أو تحيزاً من عصبية أو قبيلة . والشواهد على ذلك كثيرة .

فإن المختار أبا إسحق بن عُبَيْد الثقفى لما نادى : يا لثارات الحسين ! وأخذ يقدم الناس للقتل بغير رأفة ولا تحقيق ، انتقاماً لسبط الرسول ، وجعل ينقض على المناوئين للزبيرية فيرمى بهم فى السجن أو يتركهم يشردون هروباً من بطشه ، أمسك فيمن أمسك بهم بسراقة ابن مرداس البارقى الشاعر [١] فطرحه فى السجن فتكلف هذا الشاعر مدح المختار ووصف شجاعة جمعه تخلصاً من الضيم وفكاكاً لنفسه من السجن .

وزاد فى تزوير رأيه واصطناع المدح والثناء للمختار أن قال له أيها الأمير إنى رأيت الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض . ويريد أنها كانت تقاتل مع المختار ، فأمره المختار أن يصعد المنبر ، فيخبر المسلمين بهذا ، فلما فعل أدناه وقال له : إنى أعرف أنك لم تر الملائكة وإنما فعلت هذا كيلا أقتلك ! فاخرج لوجهك ولا تفسد علىّ أصحابى ..

(١) تاريخ الطبرى الطبعة الحسينية ج ١٧ ص ١٢١ . والعقد ط ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٥٦ .

فلما خلا السبيل لهذا الشاعر خرج من الكوفة فقلب ظهر المجن وأفسد بشعره ذكر شجاعة المختار وبأسه .

وقد تدفع العصبية القبلية الشاعر إلى أن يقول فى شعر الحرب أبياتاً يفضل بها قبيلته وقومه على أعدائهم ومناوئيهم ، ومن يذهب غير مذهبهم فى السياسة وقضية البيعة ، كالذى كان من أمر زفر بن الحارث بعد وقعة «مرج راهط» ، وذلك بعد أن التقى مروان بن الحكم بالضحاك بن قيس الفهرى وعامة أصحابه فاقتتلوا بمرج راهط(١) قتالا شديداً تكشف عن مقتل الضحاك وجانب من صحبه وانهزام بقيتهم ، فكان زفر بن الحارث الشاعر الكلابى فى المنطلقين ، فآوت قيس إلى إمرته وكان من السراة الأغنياء تنزل به الأجناد فيزودها بالعتاد والطعام ، وكان له غلمان وحشم وهو موضع مشورة ونصح للمحاربين ، فذكر حرب مرج راهط وتحفزه للثأر وجعل يتوعد عداته المروانيين فقال :

أرينى سلاحى لا أبالك إننى	أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب	إذا نحن رفّعنا لهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا	ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى	وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا	وتترك قتلى راهط هى ما هيا
فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا	وتثأر من نسوان كلب نسائيا

قال هذا الشعر وفى نفسه نقمة دفينة على من حاربه فى وقعة المرج . وقد صدق فى كلمته عن حزازات النفوس بأنها مهما تدفن فإنها تبقى كما هى ، فكان بيته هذا حافزاً من حوافز بطش الهاشميين بالأمويين آخر حكمهم وانكسار شوكتهم فذكروا به قتلاهم وموتاهم من آل البيت .

وما ذاع شعر زفر هذا حتى نهض للرد عليه جواس بن قعطل بشعر من وزنه ورويه يمدح شجعان قومه ويتهكم بشجاعة زفر فيقول :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط	على زفر داء من الداء باقيا

(١) الطبرى ج ٧ ص ٤١ . والأغانى ط التقدم ج ١٧ ص ١١٢ . والعقد ط ١٣٥٣ ج ٣/١٥٢ .

دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى ... سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة ... إذا شرعوا نحو الطعان العواليا

وشد مع جواس عمرو بن المخلاة الكلبي على زفر بقوله(١) :

بكى زفر القيسي من هلك قومه ... بعبرة عين ما تخف سجومها
يبكّي على قتلى أصيبت براهط ... تجاوبه هام القفار وبومها
أبحنا حمىً للحي قيس براهط ... وولت شلالا واستبيح حريمها
فمت كمداً أو عش ذليلا مهضما ... بحسرة نفس لا تنام همومها
إذا خطرت حولي قضاعة بالقنا ... تخبط فعل المصعبات قرومها
خبطت بها من كادني من قبيلة ... فمن ذا إذا عز الخطوب يرومها

فكان شامتاً بقيس واندحارها فى حرب المرج وانقطاعها وتشتت شملها رجالا ونساء . ومفاخراً بقومه قضاعة قد شد بها عزمه واقتعد بها بالمرصاد لمن يكيد له من الأعداء . وظل زفر يقول الشعر ملاحياً للأمويين والأمويون يجيبون بذم قيس عيلان بمثل هذا البيت الجارح :

فباه بقيس فى الرخاء ولا تكن ... أخاها إذا ما المشرفية سلت

فإذا قرأت هذا الشعر فى وصف حرب المرج أضاع علىّ وجه الحقيقة فى شجاعة المروانيين أو الزبيريين ، لأن هذا الشعر ما قيل لوجه الحرب فحسب وإنما قيل مع ذلك لوجه السياسة ، فأفسدت هذه باحتضانها العصبيات ودفعها النزعات صورة الشعر الحربى المجرد الذى يصبو إليه الأدب الصرف ، ذلك الشعر الذى يهب الشاعر نفسه له خالصة من شوائب الإحن ، فيصف براعة الأبطال حيال الفرسان ، والتحام الجمع ، ساكباً على كل ذلك تعابير العربية فى أروع قوالبها .

ولا أستطيع أن أغلو فأدعى أن شعر الحرب فى أدب العرب لا يخلو من ربقة السياسة . فإن ثمة شعراً كثيراً قد تكون السياسة دافعة إلى قوله ، لكنه هو فى حد نفسه شعر قيل لوجه الحرب وحدها فلم يتصد إلى تكدير شجاعة الأعداء ورميهم بالجبن والعار . وهذا نجده

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٤٢ .

كثيراً فى أشعار الجاهلية إذ كان من أمانة شعرائهم الحربيين أن يعترفوا لخصومهم بالسطو والبأس والنجدة والمروءة، وأن ينصفوهم وهم يمدحون أنفسهم ، فلا يذموهم ولا يجردوهم من صفات الفروسة الحقة التى يعترفون لهم بها . وكان بذلك شعرهم الجاهلى أصدق وصفاً للحرب من شعر الحرب الذى بعد الجاهلية ، إذ داخلته السياسة فصار لونه من ألوان أصحابها . وأحسب أن ذلك ليس بضائره ، لأن حياة العرب وحالة دول الإسلام كانتا تستدعيان مثل تلك الألوان فى شعر الحرب . لكثرة ما تجاذب الشعراء من أهواء ومنازع بعضها دينى وبعضها سياسى ، وسواء أكان هذا هو السبب الذى بعث عليها أم ذاك. فإن منها قصائد فى شعر الحرب يعتز بها الأدب العربى لما فيها من دقة التصوير وبراعة الوصف ومتانة الديباجة .

ب — تهاتر الهجائين وتقصيرهم فى شعر الفروسية :

حين وقع للفرزدق شعر رقيق لجرير أنشده ورد‌ده ، واستخفه الطرب ، وهو الذى قال فى جرير : « قاتله الله ما أخف ناجيته وأشرد قافيته، والله لو تركوه لأبكى العجوز على شبابها والشابة على أحبابها، ولكنهم هروه فوجدوه عند الهراش نابحاً وعند الجراء قارحاً »[1] .

والذى أريده من قول الفرزدق قوله : (لو تركوه) فأقول لو تركوا الفرزدق وصاحبيه ، فلم يوقعوهم فى التهاجى ، لقالوا شعراً قد يكون فيه من وصف الحروب وأيام العرب التى شهدوها أو كانت فى زمانهم ما يغنى أدبنا على ترادف الزمان ، ولو كان ذلك لخلصوا من السياسة قليلا ، فتفرغوا لشعر يخلدون فيه فروسية الأبطال الذين أطلعهم عصر بنى أمية ، كأنهم من نسيج الأساطير ، لما روى عن خوارق بطولاتهم وروائع شجاعتهم وإقدامهم فى الحرب والجود بأنفسهم فيها .

لكن هؤلاء الشعراء ، وكانوا عصبة كبرى ، تألب بعضهم على بعض من جراء العصبية التى ما زالت فى أعراقهم من ميراث الجاهلية ، فتراشقوا أكثر من أربعين عاماً بالمثالب والمقاذع ينضح بأشعارها بعضهم بعضاً ، بهجاء ما عرف أدب العرب فورة مثل فورته فى جاهلية أو عباسية . ولست بمعرض القول للاستفاضة بتعليل أسبابه ، ويكفى أن أقول إنه عمل فى تكوينه ثلاثة عوامل .

الأول : الأثرة الشعرية وغيرة الشاعر على شعره وهو عنده أعز من ولده .

الثانى : العامل السياسى .

الثالث : العصبية القبلية .

أفلا يكفى للتدليل على الأول ما قاله مالك بن الأخطل لأبيه بعد أن انحدر إلى العراق

---

(١) الأغانى ط التقدم بتصحيح الشنقيطى ج ٧ ص ٣٩ .

يستطلع طلع جرير والفرزدق فى تهاجيهما[١] . إذ وصف الشاعرين بقوله: وجدت جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . فقال: الأخطل الذى يغرف من بحر أشعرهما وقضى فى تفضيل جرير على الفرزدق بقوله :

إنى قضيت قضاء غير ذى جنف　　لما سمعت ولما جاءنى الخبر
إن الفرزدق قد شالت نعامته　　وعضه حية من قومه ذكر

فلم يرض بذلك جرير وكان سبب الهجاء بينهما[٢] . وإنى لأعجب لجرير إذ لم يقبل حكومة الأخطل فقال: إنه نشوان لا تجوز حكومته، كما قضى بشر بن مروان ، على حين إن الأخطل قد فضله على الفرزدق ، وأحسب أن صاحب الأغانى قد أخطأ ومعه الرواة الأقدمون ، فإن تتابع الحوادث بين جرير والأخطل والفرزدق يقضى أن يكون جرير قال بيته المشهور :

يا ذا الغباوة إن بشراً قد قضى　　ألا تجوز حكومة النشوان

بعد أن انحدر الأخطل إلى الكوفة بعد ابنه فاعترضه شيخ من شعراء الدارميين بمال وكسوة ومطية وخمر لئلا يعين على الفرزدق وليهجو جريراً ويفضل الفرزدق عليه . فلعب برأيه هوى المال وحسد الصنعة فانقلب مفضلا الفرزدق ومسقطاً لجرير ، فهاج جرير وقال فيه بيته الذى ينكر فيه حكومته لأنه نشوان ، فهو فى كل ساعة يقول حكماً ويبدله فى ساعة أخرى، وهذا هو المعقول فى وضع هذا البيت بعد انقلاب الأخطل لا فور عودة ابنه من العراق وشهادته تلك بحق الشاعر .

وكيف كان أمر هذه الحكومة الشعرية فإن الذى أعنى به منها أن الغيرة والتحاسد على إمارة الشعر أشعل نار الهجاء بين هؤلاء الشعراء .

وكفى بدليل العامل الثانى ما كان يبذله خلفاء بنى أمية وأمراؤها فى سبيل إهلاك القيسية وكبت روحها وشد شكيمتها والفت فى عزيمتها أين كانت وفى أى امرئ ظهرت ، فراح شاعرهم الأخطل كلما مدح عبد الملك بن مروان هجا قيساً بمثل قوله :

فلا لعا الله قيساً فى ضلالتها　　ولا لعا لبنى ذكوان إذ عثروا

---

(١) الأغانى ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ ج ١٢ ص ٦١ .
(٢) الأغانى ط التقدم ج ٧ ص ١٧٦ .

وقد يهجو من أجلهم كليباً ومضر كلها بمثل قوله :

أما كليب بن يربوع فليس لهـا   عنـد التفارط إيراد ولا صدر
قوم تناهت إليهم كل مخزيـة   وكل فاحشة سبت بهـا مضر

فيكون من جراء هذا الهجاء أن يرد جرير على الأخطل بقصيدة مثلها من وزنها ورويها ، وأن يكون بينهما المناقضات التى سار بذكرها ركبان الأدب القديم وشغلت الرواة القدامى والمؤلفين المعاصرين :

ودليل العامل الثالث تلك النزعات القبلية التى كانت متأصلة فى الجاهلية وقد أورثها الأمويون لقرب العهد بينهم وبين أهلها الغابرين ، فكان مجال التغالب بين هؤلاء الشعراء المتهاجين هو الفتك والتجريح بالأنساب والتعيير بمثالب فرطت من الآباء والجدود .

فإذا فخر الفرزدق على جرير بأن آباءه كانوا سادة وأمراء ، وآباء جرير كانوا رعاة فقال :

تاج الملـوك وفخرهم فى دارم   أيام يربوع مـع الرعيـان

أجاب جرير بنقيضة مثلها فنزع من الأخطل ادعاء الحكومة فى السياسة والشعر وعيره بمقتل كليب بن ربيعة من أجل ناقة البسوس ، فقال للأخطل ولقومه :

فدعـوا الحكومة لستمو من أهلها   إن الحـكومة فى بنى شيبان
قتلوا كليبكمو بلقحـة جارهم   يا خزر تغلب لستمو بهجـان

ولعل الأخطل دخل حرب الهجاء بعد مراحل منها كانت ناشبة السوالف بين الفرزدق وجرير من جراء العصبية القبلية والتحاسد على الشعر ، حتى ملآ العراق بشعرهما يتسابان به ويتنابزان بالألقاب إلى أن بلغ خبرهما الشام فأهاج الأخطل ، ولعله خشى منهما على منزلة شعره فأرسل ابنه — كما قدمت — يعرفه عن كثب بخبرهما الصحيح .

وهبت حرب هجاء بين هؤلاء الثلاثة شغلت الناس فى أقطار العرب كلها ، وكان الشعر فى إبان عظمته الأموية والتفات القوم إليه ، وفيه ضروب الدعوات السياسية .

فالأخطل مفرط فى الدعوة للمروانيين بشعر شديد الصفع لأعدائهم حتى بات يخشى بأسه كل قاص ودان ممن يبطن بغضاً للخليفة ودولته ، وعرف القوم أن لشعره فى نفس

عبد الملك بن مروان فعل السحر والخمر ، فرهب جانبه وخيف شعره . فما هى إلا قصيدة يقولها فيمحق بها القبيلة محقاً ويذرى أخبار السوء فيها ، حتى كأنها صحيفة سياسية تصدر عن بلاط عبد الملك كالصحف السياسية التى تصدر فى عهدنا عن حزب من الأحزاب أو بلد من البلدان .

والفرزدق « متق » مضمر لحب الشيعة ، فكان يتمدح بخصال من يريد من الأمويين، هياباً أن يجرح من شعور الشيعة حتى وقعت الواقعة بينه وبين هشام بن عبد الملك فنفض عن شعره « تقيته » وجر عليه إظهار تشيعه أن حبس بين المدينة وبين التى إليها تهوى قلوب الناس . وهجا هشاماً وعيره بالحول، فلم يكن من هشام إلا أن أطلقه بعد أن مدحه، قطعاً لهجائه .

وراح جرير يترامى على عتبات الخليفة المروانى متوسلا بالحجاج حتى أكل من فتات الموائد الأموية بعد شبع الأخطل وريه .

فقلت فى أعقاب الزمن وأنا أنظر فى تُراث زاخر من شعر هؤلاء الثلاثة : كيف فرطوا فى شعر الحرب فتحلقوا على الهجاء والتراشق بنبال الكلام وكان لكل شاعر منهم صحب ينضحون بالهجاء دونه ، فكان ذلك شعراً ملؤه الشتم والمثلبة وهجر القول وفحشه ، فهتكوا بالقصيد الأعراض والحرمات ، وأهاجوا أسرار الأسر من مضمر أستارها . وقد أشبهتهم بالمتشاتمين فى الدروب من الأوشاب يقرعون السبة باللعنة ويتجادلون باللسان الحاد .

ولقد شغل أولئك الشعراء زمنهم وشغلوا أنفسهم حتى لم يهدأ لأحد منهم جفن . فكم ليلة أرق الفرزدق عينه فيها وهو يعب من زقاق الخمر ليسفر عنه الصباح وقد نظم ثمانين بيتاً فى هجاء جرير ، وكم كان مثل هذا الحيف وشبهه لجرير والأخطل . حتى هدأت أجسادهم فى الثرى . ولم يشف الغليل ، فلقد مر جرير بقبر الفرزدق فتمنى لو عاش طويلا فيزيد فى هجائه فقال :

مات الفرزدق بعـــدما جـــدعته ليت الفرزدق كان عاش قليلا

وأحسب أن هؤلاء الشعراء الأفذاذ ، وقد وهبتنا إياهم العربية فى فورة عظمتها وبأس سلطانها وقيام دولتها العرباء قبل أن يتدخل فى بنيتها عجمة ، لو أنهم سكبوا خيالاتهم الرائعة، وقرائحهم الثرارة الصيبة على حروب العرب فوصفوها من أول وقعاتها إلى عهدهم ، ولم يكتفوا بأبيات يحشرونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لمناسبات تدعو إليها إحن السياسة

ونوازع القلوب لآ تونا الدرة التى نفقدها ونلوب إلى اليوم عليها فلا نجدها .

وإنا وإن عتبنا عليهم ذلك فلم يكن الذنب ذنبهم وحدهم ، وإنما كان جرم المجتمع الذى احتواهم وساقهم فى تياره الجارف فى عهد كثرت فيه النأمات وتوالدت فيه الفتن ، وأعمت أهل النحل بنحلهم ، فسدت الطريق الواضحة إلى الشعر الحربى المنشود . وأصابت هؤلاء الشعراء المتهاجين كوارث خاصة شغلتهم حتى عن أنفسهم، وكان أوفرهم نصيباً من هذه الكوارث الفرزدق . أفلم تشرد نومه نوار قبل أن يطلقها ، وبعد أن فركت فخرجت فراراً منه إلى ابن الزبير وكان يملك على الحجاز والعراق ؛ ثم ألم يقض مستقره زياد بن أبى سفيان حتى هرب على وجهه فى البلاد . فكان شأنه شأن النابغة الذبيانى حين نقم عليه ابن المنذر فراح فى دارات غسان يتقلب على الغضا ، وكأن حية من الرقش تساوره فى فراشه . فقال الفرزدق مثل مقالته فى اعتذارياته[١] وسار فى سبيله حيث يقول :

أتانى وعيد من زياد فلم أنم   وسيل اللوى دونى فهضب التهائم
فبت كأنى مشعر خيبرية   سرت فى عظامى أو سمام الأراقم

وآوى بعد لأى إلى سعيد بن العاص فى المدينة فأجاره على زياد فلما هدأ فى ظل سعيد قال[٢] :

ألا من مبلغ عنى زياداً   مغلغلة يخب بها البريد
بأنى قد فررت إلى سعيد   ولا يسطاع ما يحمى سعيد

ولكن لم تهدأ عنه فى منتآه نبال الهجاء ، فظلت تصل إليه من الشام والعراق فى قول جرير :

إذا دخل المدينة فارجموه   ولا تدنوه من جدث الرسول

وظل ينتقل بين مكة والمدينة حتى مات زياد . فلم يكد يستريح من حرب زياد حتى هجا الحجاج فأهاجه ووقع معه فى حرب أشد إخافة له وأكثر مرارة عليه .

لست أجور على هؤلاء كل الجور ، فإنهم لم يألوا جهداً فى ذكر الحروب التى قد

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩ .

يكون بعضهم شهدها أو وقعت فى زمنه أو رويت له أخبارها — كما سيأتى فى فصل الكلام على شعر الحرب عندهم — ولكنهم لم يلموا بوصف معاركها ولم يبذلوا من أنفسهم تصوير وقائعها والتحام جيوشها واستجاشة عدتها ، وما كان من مفاتيحها وخواتيمها . وإنما كان ينزو بهم شيطان الشعر نزوات بين القصائد والأبيات فيكتفى الفرزدق فى معارض هجائه أن يسوق الفخر ومعه طرف من ذكر الحرب وأيامها القديمة عند قومه وجيشهم اللجب . فيقول فى آخر قصيدته التى يهجو بها يزيد بن مسعود وخولة الدحداحية ، وكانت رجزت بهجوه ، ثم هربت منه إلى بيتها ، فكان من حربياته هذه أن قال[1] :

وكم من رئيس غادرتـــه رماحنـــا يمج نجيعاً من دم الجوف أحمرا
ونحن صحبنـــا الحى يوم قراقر ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حـــدرنا طيئاً عن جبالها ونحن حدرنا من ذرى الغور جعفرا
بأرعن جـــرار تضىء له الصوى إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا
له كوكب إذ دارت الشمس واضح ترى فيـــه منا دارعين وحسرا

ولا يقع فى خلدك أنه الفارس المعلم الذى شهد كل هذا ، وإنما هم أهله وجدوده وآخرهم أبوه الذى يقول فيه بعد ذلك :

أبى يوم جاءت فارس بجنـــودها على « حمضى » رد الرئيس المسورا[2]
غدا ومساحى الخيل تقرع دونها ولم يك فى يوم الحفاظ مقصرا

فأذكرنى وهو يفاخر بحرب أبيه وفروسيته ، شعراً لفيكتور هوجو ، فاخر فيه بفروسية أبيه وبطولته فى حروب المغرب فقال فى أوله :

— أبى ذاك المغوار ذو الابتسامة الحلوة .

ولم يكن هوجو حربياً ولم يحسن إلا شعر الغزل والوصف ، وكان هجاء كالفرزدق وذا صناعة وديباجة مثله .

ولم يك الفرزدق شجاعاً حتى نطالبه بشعر الحرب . فقد كان يفر منها جهده — وفى

---

(١) ديوان الفرزدق إملاء ابن الأعرابى طبع بوشيه بباريس سنة ١٨٧٠ ج ١ ص ٣٥ .

(٢) يوم حمضى ، عرض فيه بنو تميم لقافلة فارسية محملة بالهدايا لكسرى برويز كان يقودها حوزة بن على من بنى حنيفة (هامش بوشيه ص ٨٢ ج ١ من الترجمة الفرنسية لديوان الفرزدق) .

مهربه من زياد، وكان معه دليل اسمه مقاعس[1]، تعرض لهما سبع فى الليل ، فريع الفرزدق وشهد بجبنه مملى ديوانه ابن الأعرابى .

وخلاصة القول أن شعر الهجاء فى عصر بنى أمية شغل فحول الشعراء عن شعر الحرب كوحدة موضوع . وهم وإن شغلتهم الشتائم خلال قصائد المديح والهجاء ، لكنهم كانوا يصفون الحرب وأيام العرب فى سوانح تلك القصائد ، لا فى قصيدة خاصة موقوفة على ذكر الحرب .

حـ – الشعر الحربى فى العصر الأموى ومن هم شعراؤه :

لقد امتلأ عصر بنى أمية بكبريات الخطوب ، ما خلت منه فترة يرف عليها جناح السلم ، حتى نجمت فترة يسيطر عليها شبح الحرب ، وقد تناولت رقعة البلاد العربية الأصيلة والأقاليم الإسلامية المفتوحة ثورات لوافح وفتن جواحم ، كانت تستشرى فتأخذ كالنار باليابس والأخضر وتهلك الحرث والنسل . ونذر أن ضرب التاريخ مثلا بشدة الحروب وانصباب الدم الذكى كالذى ضرب فى عصر الأمويين وما قبله ، فى فسحة من الزمن تبلغ مائة عام من قتل عثمان بن عفان إلى هلك مروان بن محمد .

فهذا عثمان مجلل ببرديه ، مضرج بالدماء ، مقتول فى بيته فى المدينة بعد حصار خمسين ليلة فى ظمأ وبلاء وجهد وشجار . ولا يهدأ عثمان فى لحده حتى تنهض عائشة بنت أبى بكر صائحة فى الأباطح تدعو أعوانها إلى الثأر له ، ومعاوية متربص ينتظر، وهذا علىّ متجلبب بتقاه يدرأ عنه تهمة هذا الدم المسفوك بالحجة ، حتى إذا يئس دفع عن نفسه بحد السيف ، فهرع إلى بيعته المسلمون، واستمسك معاوية فى الشام، ودعا إلى نفسه فبويع بالخلافة ، فإذا على أرض العرب ومهد الإسلام خليفتان يصطرعان ، كل منها يدرع بحجة من السياسة والثأر يقف التاريخ أمامها حتى اليوم مكتوف اليدين ، مكموم الفم ، غمت عليه أوجه الحق . وقد حل فى أنفس الأئمة غرض الدنيا قبل ثواب الآخرة . فتحدر القدامى والمسلمون المحدثون إلى يوم الجمل عند البصرة . فإذا هم فى زحام حرب تحدوهم فيها عائشة على جمل، هودجه الذى هى فيه كالقنفد من شدة نضح النبال . واعترك المهاجرون والأنصار وأهل الكوفة والبصرة فى حومة لاهبة ، وانكشف القتال عن فوز علىّ وصحبه وانكسار عائشة وجمعها

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٣٨ .

وقد هدأ على الأرض أول رأس كريم هو رأس الزبير ، فطرحه قاتله ابن جرموز[١] بين يدى علىّ . فأسف لنزوة صاحبه . وراحت زوجته تعول بمثل قولها :

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلماً   حلت عليك عقوبة المتعمد

وظل يوم الجمل يحمل ذكرى تهول الرجال وتشيب الشباب فى قول من يقول :

شهدت الحروب وشيبننى   فلم تر عينى كيوم الجمل

وبات فى طى الزمان رجز إسلامى عتيق يهدر مجلجلا فى سمع الأبطال الجفاة الذين استساغوا الثأر الدامى يقول :

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل
الموت أحلى عندنا من العسل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

هدأت وقعة الجمل فهب معاوية كإعصار عاصف ، فملأ السهل والجبل بدعوى الثأر لعثمان ولقتلى يوم الجمل الأبرياء ، فأيقظ ما كمن من المواجد على الثأر والقتل فأنكر علىّ « بيعته » وأهاجت تلك الأيام الحرب بشتى البواعث . فأطل الشيعة من خصاص الفتنة وركبوا متن الحرب ، وهجم على المسلمين يوم عصيب هو يوم «صِفّين » ، فإذا حرب مستعرة ، ولقاء مبيد عند الرصافة تكسرت فيه القنا على القنا واحمر وجه الموت ومال ميزان الظفر فشالت كفة معاوية ، فلجأ إلى المكر والمراوغة . فخادع عليا برفع المصاحف والاحتكام إليها . فأبى عليه التحكيم ناس من صحبه حصيفون وأبطال مغاوير خلعوا طاعته وخرجوا عن حكمه فسماهم التاريخ (الخوارج) ، وسموا أنفسهم بذلك فكانوا عصبة ثالثة تحارب علياً ومعاوية .

وانحسر يوم صفين عن علىّ وقد خدعه معاوية وظفر. فنصب علىّ نفسه غرضاً مع معاوية لسهام الخوارج الذين رأوا تكفيرهما وأباحوا دمهما ومن سار على غرارهما من المسلمين .

وكان أول أمرهم أشد عنفاً على علىّ لأنه كان أقرب إليهم حرباً . ولأنهم كانوا من

---

(١) قتل غدراً بعد انتهاء المعركة الفاصلة وقد أرسل الأحنف بن قيس بن جرموز عليه فطعنه من ظهره وهو يصلى وأخذ خاتمه وسلاحه (الطبرى ط أوربا ج ٦ ص ٣٢١٨ فى حوادث سنة ٣٦ للهجرة) .

جمعه ، فقد عدوه ناشزاً عن طاعتهم ومخالفاً مشورتهم فى أمر التحكيم ، فكفروه ودعوه إلى التوبة ثم قاتلوه ، ففتك بهم فى وقعة « النهروان » وأطار جماجمهم كنثير الهشيم .

وانفض أصحاب علىّ من حوله فوجدنا أسفه وأحزانه على وحدته هذه كأنغام شاجية فى خطب نهج البلاغة ، تطل أبد الدهر معولة ، مسفوحة بدموع شيعته .

ونشأت الدولة الأموية بخيلها ورجلها وحروبها ووقائعها فإذا نأمة الزبيريين : عبد الله فى الحجاز وأخوه فى العراق ، وإذا الشيعة منبوذون يضطهدهم الأمويون والزبيريون والخوارج ، وإذا الخوارج — أغوال الدولة ومردة جحيمها — أهدروا دم الزبيرية والشيعة والأموية وكل مسلم غيرهم تحت السماء . وحين استتب الأمر للأمويين ومن بعدهم للمروانيين حكموا السيوف فى مقاتل الخوارج . فلما انهزم الزبيريون جمع الأمويون عديدهم وعدتهم حتى استأصلوا شأفة الخوارج أو كادوا . وما كاد الأمويون يتنسمون الراحة حتى انقسموا على أنفسهم وحارب بعضهم بعضاً ، فهبت الهاشمية المغدورة من مكانها . فأتت عليهم . فكان ذلك ختام عهدهم الدامى .

ففى وقائع هذا العصر الأموى وفى مقدمته قال شعراء كثير شعراً فى الحرب لكل منهم نزعة خاصة من حزب أو فريق ، ولكل من هؤلاء الشعراء دعوة فى شعره الحربى لهذا الحزب أو ذاك الفريق ، أو دفع ومحاماة . وبات المؤرخ الأدبى الذى ينظر إلى هذه القصائد لا بد له من الأخذ بالسياسة لتوضيح الأدب واكتناه جوهر الشعر الذى يتعلق بالحرب ليصفى الشعر الحماسى الذى قاله العرب . وذلك ما أُعنى به فى هذه الرسالة ، إذ يكون هذا الشعر الحربى الذى قيل فى المواقع والحروب الأموية غايتى فى حماسته وفروسيته ، وأسلوبه ولغته ، ومعانيه وغاياته ، ولسهولة دراسته قسمته إلى :

(١) شعر الخوارج فى الحرب .	(٢) شعر الشيعة .
(٣) شعر الزبيرية .	(٤) شعر الأمويين والمروانيين .
(٥) شعر الهجائيين فى الحرب .	(٦) شعر الحرب وراء خراسان .
(٧) الشعر فى حروب الروم .	(٨) الرجز وأوزان الشعر الحربى .

وليست بغيتى أولا سوى الشعر وحده ضمن نطاق الفروسية والحماسة ، والوصف والبيان فى المعانى والمبانى . ولا ضير على الأدب فى أن يستعين بحوادث التاريخ لماماً ، وبتيارات السياسة حول الكلام على هذا الشعر تسديداً لبحثه وموضوعه لعلى أتقرب من الغاية المنشودة مستطاع جهدى .

الفصل الأول

شعر الحرب عند الخوارج

لو بعث الخوارج فى هذا الزمن ، فشاهدوا حرب الإنجليز والألمان وجلاد الروس والأمريكيين واليابان ، لما شابت نواصيهم ولا فغرت أفواههم من هول ما يشاهدون ، ولكان لهم رأى فى عرّادات الحديد ولافظات النار من المدافع القاصفة والدبابات العاصفة والطيارات الراجفة .

وأحسب أن كل هذا الهول الذى نعاصره لن يخلب ألبابهم فيخالوا أنه سحر من الجن ولن يبعث فى نفوسهم الزراية بسلاحهم وهو الرمح والسيف والدرع والمجن . ولن يميلوا عن مواكب مطاياهم السلاهب الجياد ، وسيكون لهم رأى واحد معروف عنهم منذ ملحمة صفين حتى أيام الحجاج والمهلّب ومن خلف من أعدائهم .

ذلك الرأى هو « الفناء فى الحرب » وأحسبهم لو عاينوا جيوش عصرنا وعتادها لزادهم تهكماً واستصغاراً . ولتمنوا يوم ذلك على خالقهم لو كانت لهم أجنحة يطيرون بها فى السماء فيرتفعون عن هذه الأرض الغاشمة التى لم تقدرهم قدرهم من الشجاعة الباهرة والفروسية الأسطورية . ولعلهم يتنادرون طويلا حين يبلغهم أن جيوشاً عن بكرة أبيها كانت تلقى السلاح هاربة من الموت إلى الحياة مؤثرة للعافية على القتل ، يرفع جنودها أيديهم إلى رءوسهم علامة الانخذال ، ويلوّحون بأعلام بيض إشارة التسليم ، تجللهم بسواد الذل فى أعمارهم الباقية .

ولو أن الخوارج بعثوا وردّوا إلى أيامنا لآثروا العودة إلى التراب الذى تروى بدمائهم فيظلون فى أطباقه مطمئنين ، مطبقين أعينهم القريرة على ميتة العز والإباء ، فإنهم هم الذين قاتلوا ملء الجوارح والجوانح وعشقوا الحرب عشق المتيمين الهائمين للغوانى ، وما رفعوا أيديهم إلى رءوسهم صغاراً وما لوحوا بالأعلام البيض تخاذلاً وتسليماً .

حتى إذا هاج أخبارهم فى الحرب وأنشد أشعارهم فى الضرب والطعان فتى مثلى فى أعقاب الزمان هشت رمامهم فى ثراها ، فودت لو جمعت عظاماً وكسيت لحماً ودبت فيها الروح فتهب من مطاوى العفاء ، تمتشق الحسام وتهدر كالفحول ، وبأيديها الرماح ، وأفواهها تصيح ملء الفضاء :

– لا حكم إلا لله .

فإذا خامر تلك النفوس روعة أورهبة وهى فى زحام الأبطال وحومة النضال، صاح بها أصحابها زاجرين بقول قطرىّ بن الفُجاءة شاعرهم العظيم :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى فداعيه لأهل الموت داع
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة إذا ما عد من سقط المتاع

تلك موعظة قطرىّ بن الفُجاءة المازنى . وكان رأس الخوارج وسيد فرسانهم وشعرائهم، وقد قامت الحرب فى هذه الأبيات بينه وبين نفسه التى ملت فرار الكتائب وتزجية الصفوف وحومة الوغى ، ففزعت وولت، فوقف فى بهرة الحلقة بيوم حرب يحاورها بشعر الحرب ويقنعها بدليل من الإيمان وحساب الأعمار .

ولم يك قطرى خطيب الحرب بينه وبين نفسه فحسب ، وإنما كان خطيبها الأكبر على رءوس الأجناد . ولو أن تاريخه وأخبار صحبه قد كتبها ناس متجردون من نوازع النفوس والهوى لجاءنا نبؤه الصحيح . ولكن ليس فى أيدينا مما سلم من تاريخه سوى حفنة صغيرة من أشعاره ، مبعثرة فى كتب التاريخ والأدب القديم . فكأن التأليف عصر بنى العباس اصطلح على اضطهاد الخوارج ، وطغى على المؤلفين فوصفوهم بأنهم لصوص وشذاذ آفاق . ولكنهم لم يستطيعوا أن يطمسوا حقائق فروسيتهم التى ينبغى أن تكتب فى تاريخ الشعر الحماسى بأعز صفحة من صفحات عصوره .

فإذا توزعت البغضاء أخبارهم ، وافتقد كل مؤلف سهولة جمعها وترتيبها وعز على المفكر الحر أن يلعنهم ، فلا أقل من أن يجمع شعرهم وقد قيل أكثره فى الحرب ، وهو على قلته التى وصلت إلينا يكفى أن يعطينا صورة صحيحة عن فروسيتهم وكفاحهم ، وروعة أوصافهم للوقائع والمعارك .

لقد كانوا غلاة فى الاعتقاد الدينى عقّدوا آراءهم فى التوحيد ، والوعد والوعيد ، والإمامة

وكانوا كذلك غلاة فى حربهم ، قست قلوبهم فى سفك الدم والتخريب ، وغلظت أكبادهم فى أحكام الحرب ، حتى استباحوا قتل الأطفال ، وعللوا ذلك بإبادة أعراق الظالمين لئلا يخلف من بعدهم خلف يضيعون مثل آبائهم كتاب الله وسنة الرسول[١] .

وكانوا يفزعون إذا هدأت ثوراتهم ، إلى ذكريات قتلاهم فيثيرون أحقادهم . وكان قتلى « النهروان » سبيلا دائماً إلى إيقاظهم كلما استجموا أو هدءوا بعد الحرب . ولم يعبؤوا فى عيشهم بلبوس أو طعام ، وإنما كانوا كما وصفهم عبد الله بن عباس لما أرسله على إليهم ليحاججهم فلم تجد عندهم حججه الدوامغ ، ولا نفعه التحاور معهم ولا الجدال فرجع إلى على يصفهم فقال[٢] : إنه رأى لهم (جباها قرحة لطول السجود ، وأيديا كثفنات الإبل عليهم قمص مرحضة وهم مشمرون) .

ولقد شردوا فى الجبال والسهول معتصمين بإيمانهم وقد نذروا أرواحهم للإسلام ، وكأنهم كانوا يريدون أن يخلصوا بأنفسهم من أوضار البدع والضلال القائمة بشخوص الأئمة الحاكمة .

نفروا من أول يومهم نفرتهم الكبرى بعد أن دعاهم إليها أحد زعمائهم الأوائل عبد الله ابن وهب الراسبى حين قال لهم[٣] « اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضللة » .

ولكم عجبت كيف جمعوا فضائل الشجاعة والورع والتفانى فى الدفاع عن حوزة الإسلام ، وكيف كانوا يبتغون فى الدين المثل الأعلى والغاية السامية . مجردة عن باطل الحياة ورغبات الخليقة ومنالة الدنيا . وبت مفكرا فى أمرهم الغريب ، إذ باعوا الله أنفسهم واشتروا بتقواهم جنات النعيم فسماهم الناس « الشراة » . ولقد كانوا عرباً أقحاحاً تمتهم الأعراق العربية الأصيلة .

كانوا من أعماق السجون يحنون إلى الحرب ولا يخشون من سلطان السجان ، ففى عهد المغيرة سُجن معاذ بن جون بن حصين وكان من شعرائهم فأرسل إليهم من محبسه يقول[٤] :

ألا أيها الشارون قد حـــان لامرئ شرى نفسه فى الله أن يترحـــلا
فشدوا على القوم العداة فما أرى إقامتـــكم للذبح رأيـــا مضـــللا

---

(١) ذلك رأى نافع بن الأزرق شيخ الأزارقة من الخوارج فى دفع هذه المثلبة (الأغانى ط دار الكتب المصرية جـ ٦ ص ١٤٢) .

(٢) الكامل جـ ٢ ص ١٣٤

(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٤٢ .

(٤) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٧ .

فيا ليتنى فيـكم على ظهر سابح   شديد القصيرى دراعاً غير أعـزلا
مشيحا بنصل السيف فى حَمَس الوغى   يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
ولو أننى فيكم وقد قصـدوا لكم   أثرت إذاً بين الفريقين قسطلا
فيـا رب جمـع قد فللت وغارة   شهدت وقرن قد تركت مجنـدلا

وكان ينبغى لمن ضم هذه الفضائل الدينية المطلقة ، وتلك الشجاعة الفائقة أن يتسامى عن الإسفاف وسفك الدماء بغير حق . فقد كانوا فى مراحل تمردهم يعترضون عابرة السبيل ، فيستوقفون من يجدون من المارة يسألونهم أسئلة فى معتقدات الخوارج ، فإذا لم يجيبوا إليها قتلوهم شر قتلة .

وهم فى كل ذلك ما حادوا عن تحيُّف الغلاة الذين ذُكروا فى تاريخ الأمم مقرونة أعمالهم بفظاعات تقشعر لها الأبدان . ولقد سجل تاريخ عصرنا نكبات أتاها المحاربون فى معسكر الاعتقال من تعذيب الأحياء وخنقهم بالغاز ، أو إحراقهم ألوفاً وهم أحياء وأموات .

ولولا الجموح والطغيان الذى يصيب المحاربين ، لما تلمست سبيلا إلى النظرة فى مثالب الخوارج ، بترويعهم الآمنين ، وافترائهم على الأبرياء .

وكيف دار أمرهم ، فقد نصبوا أنفسهم باختيارهم غرضاً للرماة ، فنضحهم المسلمون من كل جانب بالنبل . فكان أول من أعمل فيهم القتل على بن أبى طالب وشيعته ، ثم تلقاهم من بعده المغيرة والزبير . ثم المهلب والحجاج . وآل بهم الأمر إلى أن يكونوا هدفاً فى أكثر الحروب الداخلية التى نشبت زمن بنى أمية ، وأن تظل فلولهم موضع النقمة والعذاب ، حيناً من دهر بنى العباس .

إنى لأندفع بين أشعارهم الحماسية ووقائعهم فى « النهروان والنخيلة ، وحروراء ، ويوم دولاب ، ويوم سولاف » فأراهم حيناً متجمعين وحيناً مشتتين ، تلحقهم الحروب من كل جانب حتى أجلاهم المسلمون عن أرض العرب فعبروا الفرات إلى تخوم فارس ، ثم تجاوزوها فهم بأرجان ثم فى أصبهان وسابور ، واعتصموا بإصطخر . وكانوا يفتكون بكل بلد نزلوه خشية غدر أهله ، حتى إن « قطريا » هدم إصطخر على أهلها ، لأنهم كاتبوا بأمره المهلب سرًّا ، ثم صار أمر زعيمهم هذا إلى الاعتصام بطبرستان .

وكانوا أعرف بفنون الحرب من سائر المسلمين ، يحسنون توقى البيات ، ويتقنون ضرب الحصار والتفلت منه ، واصطياد الغفلة من الخصم . وكان من أطرف ما عرفتُ لخصومهم

أنهم كانوا يستعملون أساليب الإذاعة والدعاية فى ساحات القتال عند وقوف الحرب أو الاستجمام، على نحو ما عمل الفرنسيون أوائل الحرب العالمية الثانية . فقد كانوا ينصبون أبواقاً على أبراج حصون « ماجينو » يدعون بها الألمان إلى إلقاء السلاح ، أو يتندرون بهم ، فيجيبهم الألمان برصاص البواثق والرشاشات . فقد روى صاحب الكامل والطبرى[1] أن الخوارج فى أيام حصارهم كانوا يتواقفون ويحمل بعض الطرفين على بعض ، وربما كانت موافقة بغير حرب ، أو ربما اشتدت الحرب بينهم . وكان رجل من أصحاب « عتاب » يقال له « شريح » ويكنى « أبا هريرة » إذا تحاجز القوم مع المساء نادى بالخوارج وبرئيسهم الزبير بن على :

يا ابن أبى الماحوز والأشرار　　كيف ترون يا كلاب النار
شد أبى هريرة الهرار　　يهركم بالليل والنهار
ألم تروا « جياً » على المضمار　　تمسى من الرحمن فى جوار[2]

غاظ الخوارج ذلك ، فكمن له عبيدة بن هلال فضربه، واحتمله أصحابه خصوم الخوارج . فظنت الخوارج أنه قد قتل فكانوا إذا تواقفوا نادوهم : ما فعل الهرار ؟ فيقولون ما به بأس ، حتى أبل من علة ، وخرج إليهم فصاح : يا أعداء الله أترون بى بأساً ؟ فصاحوا به : قد كنا نرى أنك لحقت بأمك الهاوية ، فى النار الحامية .

آن بعد الإلمام بشجاعة الخوارج ، واستشرائهم فى الحرب ، وضراوتهم ، أن أبدأ بأشعارهم . لقد كان أشعرهم قطرى بن الفجاءة ، له فى شتيت الكتب مقطوعات أربع وأبيات مبعثرة منفلتة من قصائد لم تصل إلينا . وقد كان أبو تمام ضنيناً برواية الشعر الخارجى ، مع حفاوته بالشعر الحماسى القديم ، فلم يرو فى حماسته لقطرى بن الفجاءة سوى مقطوعتين قصيرتين وبيتين اثنين[3] . وأحسب أن أبا تمام حين حبسه الثلج فى همدان فجمع ديوان الحماسة من مكتبة صاحبه الذى نزل عنده ، لم تفعل فى برد جسمه نار قطرى ذى الشجاعة المتوقدة ، فلم يختر له سوى تلك الأبيات القلائل ، وأحسبها أقل شعره .

أما المبرد فقد عنى به فى « الكامل » ، فروى له قصيدة ميمية فى (أم حكيم) وحرب

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٢٠٨ والطبرى ج ٧ ص ١١٦ .
(٢) جى مدينة كانوا محاصرين فى أسوارها .
(٣) شرح ديوان الحماسة الطبعة الأولى لفرايتغ ص ٤٤ ، ٦٠ ، ٣٣١ .

دولاب . واحتفى به مؤدب مصر فى مستهل نهضتها المعاصرة السيد على المرصفى فى كتابه « رغبة الآمل من كتاب الكامل » . وفى أسرار الحماسة فى شرح حماسة الطائى . وروى لقطرى أصحاب التاريخ كالمسعودى والطبرى مقطوعات من هذه الفوائت ، وشعراً آخر قاله رسالة إلى ابن جعد نديم الحجاج .

كان شعره هذا لهيباً من البطولة ، تموج فيه المروءة والنخوة والإقدام . فهذه حرب دولاب[١] ولم يكن فيها « قطرى » رأس الخوارج ، وإنما كان من أعيانهم ومذاويدهم . فقد تقدمه فى قيادة أمرهم نافع بن الأزرق ، وكان قطرى من أبطال هذه الحرب المستعرة التى جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، عليه مسلم بن عبيس الذى وصف الخوارج بقوله : « إنى لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم » . ودامت معركة دولاب عشرين يوماً ، وكان الخوارج أقوى عدة بالدروع والجواشن وكراديس الخيل . وذلك سنة خمس وستين للهجرة فى جمادى الآخرة[٢] . ويقول الطبرى عن الخوارج فى هذه الوقعة وما بعدها[٣] : « جاءوا وهم أحسن عدة وأكرم خيولا وأكثر سلاحاً من أهل البصرة . وذلك لأنهم مخروا الأرض وجردوها وأكلوا ما بين كرمان إلى الأهواز فجاءوا عليهم مغافر تضرب إلى صدورهم وعليهم دروع يسحبونها ، وسوق من زرد يشدونها بكلاليب من الحديد إلى مناطقهم » .

وراح الخوارج جزلين يمرحون فى فرحة النصر ويحمدون الله على انحسار الغمة . وكأنى بهم فى أمسية من أماسيهم على أرض ميثاء من ضواحى الأهواز بعيداً عن أعدائهم المهزومين الذين عبروا النهر وانصرفوا نحو البصرة ، جلسوا تحت تلك الأمسية يضمدون جراحاتهم ، ويعدون قتلاهم ويترحمون عليهم ، ويقرنون أسماءهم بشهداء النهروان ، ومن مضى على آثارهم من المفتدين المبتهلين . وكان قطرى فى جمعهم تلك العشية يستوحى شعره ، فهاج الظفر بلابله فتذكر زوجته (أم حكيم) ولم يكن سيدُ فرسان الخوارج ليصبو إلى أم حكيم بعد (حرب دولاب) لو لم تكن أم حكيم فى البطولة مثله ، زان جمالها البسالة . فلقد كانت من أجمل النساء ، فى شجاعة الرجال ، متمسكة بدينها وكانت من القانتين .

وتزاحم على صباها وهواها قلوب الخوارج ، فخطبها أفذاذهم فردتهم متأبية عليهم ،

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٨٥ مكان من أرض الأهواز .

(٢) المصدر السابق .

(٣) تاريخه ج ٧ ص ٨٨ .

ففدّاها الخوارج وعدّوها مثالية، حتى قال عنها ميمون بن هارون: «ما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها[١]». ولعلها كانت، إذ ردت عنها خطابها، لا تصبو نفسها إلا إلى بطل واحد مثلها كريم الأعراق زكي القلب، كقطرى، وكيف بغيره ترضى، وهي إلى ما جمعت من ملاحة النساء كانت صعبة المراس تحمل مع الخوارج على أعدائهم. لقد كانت وهي تحمل على الفرسان فى الحرب تتمنى لو أتيح لها فارس أشد منها بأساً وأصوب ضرباً فيطيح برأسها ويريحها من حمله ومن القيام بواجبات الأنوثة نحوه من تغسيل وتدهين وتمشيط وتزيين، فتقول فى رجزها وهى تقاتل:

أحمــل رأساً قد مللت حمله
وقد مللت دهنــه وغســله
ألا فتى يحمــل عنى ثقــله

فيود ذلك الفتى (قطرى) لو كان رأسه هو المنادى عليه.

ولعله ذكر فى ذلك المساء بعد هدأة من العِشاء (أم حكيم) فطاف فى عينيه حلمها المعسول. وطيفها الجميل فأحس بحبه للحياة بعد أن زهد فيها، وتذكر بياض (أم حكيم) وشفاءها لغلة المحزون السقيم، وأحسبه – كما يعترف – كان إذا شجر بينه وبينها خصام رفع كفه فلطم بها وجهها الصبوح. لقد لمع فى خاطره ما تقدم من ذنبه فى ضربها، ولطمْ وجهها، فغالبته الندامة. وتمنى لو كانت تشهد فتكه فى يوم دولاب.. وانسرح خياله فراح يصف لأم حكيم حرب دولاب وما لقيت بكر بن وائل حين غرقت هى والأزد فى ماء «دُجَيل» وطفت على وجهه لحى الغرقى من شيوخ الأزد[٢]، وجرت الخيول محمحمة على تميم، ثم عاجت على عبد القيس شفرات السيوف، وعلى أحلافها قبيلة يحصب وقبيلة سليم، ثم يزجر قطريا على خيال الهوى والظفر دم مسفوك وجراح وصرعى من قومه امتلأت بهم الساحة، فتفيض أحزانه ومواجعه على مقتول كريم نجيب، لعله كان له أخاً أو حميماً، أو كان أباً لأم حكيم أو شقيقاً أو لعله كان نافع بن الأزرق نفسه لأنه قتل فى هذه الوقعة. فتروعه حسناء تضرب خدها معولة وتبكى عليه، وقد تكون هذه الحسناء أم حكيم نفسها، فقد سقط ذلك البطل صريعاً فى دولاب، غريباً عن موطنه، فجمع قساوة القتل إلى

---

(١) الأغانى ط دار الكتب المصرية ج ٦ ص ١٥٠.

(٢) كما كان يقول الشاعر من الأزارقة يوم ذاك:

يرى من جاء ينظر فى دجيــل ... شيوخ الأزد طافيــة لحاها

مرارة الاغتراب . ثم يعاوده خيال (أم حكيم) فى زحام هذا الهول فيتمنى لو كانت تشهده وقومه وهم يستبيحون حمى الكفار فترى أولئك الخوارج الفتيان الذين باعوا الإله نفوسهم ، لينالوا يوم القيامة جنات عدنه ، وحظوة فردوسه الأعلى .

كذلك كان (قطرى) بعد حرب دولاب يقول[1] بشعره :

لعمرك إنى فى الحيـــاة لزاهـــد ... وفى العيش ما لم ألقَ أم حكيمِ
من الخفرات البيض لم يُر مثلها ... شـــفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجههـــا ... على نائبـــات الدهـــر جد لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غـــداة طفت فى الماء بكر بن وائل ... وعجنـــا صدور الخيـــل نحو تميم
وكان لعبـــد القيس أول حـــدنا ... وأحـــلافها من يحصب وسليم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً ... يمج دمـــاً من فائظ وكليم
وضـــاربة خـــدًّا كريماً على فتى ... أغـــر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنـــاً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتّها يوم ذاك وخيلنـــا ... تبيـــح من الكفـــار كل حريم
رأت فتيـــة باعوا الإله نفوسهم ... بجنـــات عـــدن عنـــده ونعيم

* * *

وكان قطرى بن الفجاءة يؤثر فى شعره هذا أن تكون (أم حكيم) تشهده وهو يصارع الأبطال . وهذا شعور غلب على أكثر شعرائنا الأبطال — على نحو ما أشرت إلى ذلك فى التمهيد من أن أحب الشعراء الشجعان للتحدث عن محبوباتهم فى شعرهم الحربى مهدهد لبطولتهم — وقد عرف العرب الجاهليون والإسلاميون ذلك من شعرائهم . فقد كان هؤلاء الشعراء الحماسيون يتمنون لو شهدتهم نساؤهم فى العراك والطعان ، ليملكوا قلوبهن بشجاعتهم إذا لم يملكوها ، بجمال الجسوم ووسامة الوجوه وملاحة السمات .

وقد كلف من الغربيين بتصوير أمثال هذا التعاطف الروائيان كورنيه وراسين من شعراء الأدب الكلاسيكى فى فرنسة ، فبنيا كثيراً من رواياتهم التمثيلية عليه فكانت نساء الرواية تكلف بشجاعة الأبطال أكثر من كلفها بجمالهم . وكان الأبطال يبذلون من مظاهر

---

(١) الأغانى ط التقدم جـ ٦ س ٥ .

فروسيتهم كثيرا من المواقف ليتملكوا بذلك قلوب النساء كما فى رواية « السيد » لپيير كورنيه ، فإن الحسناء « شيمين » بنت « الكونت كوماز » صفحت عن معشوقها قاتل أبيها إعجابا بفروسيته ، وانتصاره فى الحرب على قبائل المغاربة فى حروب الأندلس .

وكيف جاء وصف قطرى لحرب دولاب ، فإننا لا نستطيع أن نطالبه بأكثر مما وصل إلينا من شعره . ومن يدرى ؟ فلعل قصيدة « أم حكيم » كانت أطول من ذلك نفَسا ، وأحكم فى أبياتها ، وكفى بما بلغنا منها ، أن يصور هول تلك الحرب التى هلك فيها قرم من أقرام الخوارج هو نافع بن الأزرق ، فأبقى لنا منها صورة مختصرة ، ولكنها واضحة وضوحا يمكّن الخيال من تمثلها على وجهها الأكمل .

لقد استهلها بالغزل والحنين إلى الحبيب الغائب ، ثم سلك إلى دولاب سبيل الوصف ، وختمها بالناموس الدينى عند الخوارج منذ غداة التحكيم ، وهو استباحة دم كل من ليس خارجيًّا مثلهم ، وبيعهم أنفسهم لله فى الدنيا لينالوا من لدنه نعيم الفردوس جزاءً وثوابا .

فلذا عد قطرى محاربيه خارجين على الدين ، فوصفهم بالكافرين ولم يَعْدُ فيما أثر له من شعر قليل هذه النزعةَ التى يمزج فيها كل (خارجى) فروسيته بدينه .

لقد كان شعر قطرى صورة لحقيقة قلبه وعقله ، وكان صدى لكل خارجى مجاهد متعبد . إن قلبه قد امتلأ بحب الحرب ، واستولى على عقله جدل التدين وفقه العقيدة . وكان يهوله أن يند من أصحابه رجل كابن جعد ، فيكون سميراً للحجاج ونديمه[1] . وأن يقعد عن مشاركتهم فى حرب الحجاج وأصحابه ، فأرسل إليه شعراً يعاتبه فيه . وصف بهذا الشعر مجاهدته للفرسان وصبره على السيوف فى حرب المهلب بن صفرة ، والتزام ابن جعدة لباس الخز عند أمير لا يأمر بتقوى الله . وختم رسالته الشعرية هذه بناموس الخوارج وشعارهم الدينى فى ثواب الآخرة (كما تقدم) وهو الغاية القصوى بعد جهادهم للكفار فكتب إليه :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا ... إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب ، كلنا ... صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخز عند أميره ... أمير بتقوى ربه غير آمر
فسر نحونا تلق الجهاد غنيمة ... نفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر

وإنى لأجد بين شعره هذا وبين قصيدته بأم حكيم ما أجد من الفرق بين شعر يخلع

(١) المسعودى ج ٣ ص ٧٦ .

عليه خيال المرأة بهجة السبك وحلاوة القول ، وتزيده فحولة الفروسية رصانة التعبير وجزالة اللفظ وشعر يقوله قائله بوازع من التزمت فتسوده روح الفقه والموعظة وتطغى على ما فيه من وصف البطولة .

على أن أبا جعد قد عمل فيه هذا الوازع فهجر الحجاج والتحق بالخوارج فقاتل معهم وخالط بروحه أرواحهم . فكان فى النهار يهيج مع الخوارج هياج الليوث ، وفى الليل يتعبد ربه باكياً كالنساء المعولات . لقد ترك الحجاج هارباً إلى عصبة الخوارج ، تاركاً للحجاج رقعة فيها شعر منه هذه الأبيات :

فأقبلت نحو الله بالله واثقاً ... وما كربتى غير الإله بفارج
إلى عصبة ، أما النهار فإنهم ... هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فإنهم ... قيام بأنواح النساء النواشج

فلم يعدُ فى أبياته وصف الخوارج بكلمتين لا ثالثة لهما وهما : « الفروسية والدين » .

أما بقية شعر قطرى فى الحرب فمثل ما تقدم منه ، فيه هذه الروح التى تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى . فهو فى أبياته القليلة المأثورة يصور شجاعته وبأسه ويقول :

لا يركنن أحد إلى الإحجام ... يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أرانى للرماح دريئة ... من عن يمينى مرة وأمامى
متعرضاً للموت أضرب مُعْلَما ... شهم الحروب مشهّر الأعلام
أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى ... نحر الكريم على القنا بحرام
حتى خضبت بما تحدر من دمى ... أطراف سرجى أو عنان لجامى
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ... جذع البصيرة قارح الإقدام

وأين أستقصى قطريا فى شعر حربه . فإن كان هذا كل ما قاله — وهو ما لا أذهب إليه — فلقد حال اندفاعه إلى الحرب وحوماتها ، عن القول فى صفاتها ، أن الخطوب حملته ومعشره على غواربها فكان آخر نصر لهم فى يوم سولاف[1] بعد شهور من قراع المهلب ،

---

(١) مكان بناحية الأهواز .

وقد ابتلوا منه بويل وصلابة ، ولما صار الأمر فيهم إلى قطرى خانه أصحابه فخلعوا بيعته بعد أن بايعوه بالخلافة ودعوه بأمير المؤمنين[١] . ثم تتابعت عليه الهزائم والانكسار فى يوم (سَلّى وسِلِيرى[٢]) فلجأ صحبه للشعر يروحون به عن أنفسهم كقول واحد منهم :

وكائن تركنا يوم ســولاف منهم أســارى وقتلى فى الجحيم مصيرها

وحين شرّدت قطريا جنود المهلب انفض عنه المحاربون إلا فئة من الرجال وبضع عشرة امرأة فعثر حتّى سقط على منحدر ، فابتدر إليه قاتلوه ، وخالجه عطش فساوموه على سلاحه بشربة ماء ، فأبى! فابتدروه عاثراً فقتلوه ، وادعى كل فارس أنه صاحب رأسه . لكنه مات ميتة بطل ، وزاد على البطولة أنه كان الشاعر الخارجى الأول ، الذى وقف شعره على الحرب .

وشعره فى ميزان الأدب – كما أجده – متفاوت القيمة . فقصيدته فى أم حكيم فى ذروة الشعر الحربى ، بل فى عداد الجياد مما قال شعراء العرب من شعر رفيع الصوغ ، محكم البيان والمعانى ، لم تنفر كلماته ، ولا ندت أبياته فكأنه صورة رائعة الشعاع واللون ، إنه جمع بين لين الكلمات الغزلة ، وفجيعة الحزن ، وصلابة الحماسة . أما أشعاره الباقية فمتفاوتة بين الجزالة والرقة ، ولكنها جميعها لا تنهض إلى جو شعره فى أم حكيم ، فإن تلك الميمية التى قالها فى حرب دولاب نغمة إنسانية مصبوغة بالدم ، ميادة بالهوى ، فوارة بالحماسة .

* * *

قرنت عِمران بن حِطان بقطرى ، فوجدت عمران أصلب من قطرى ديناً وأشد غلوًّا فى فكرة الخوارج وانصرافاً إليها ، لكنه دونه فى الشجاعة والبأس ، فإن قطريًّا أحكم الخوارج شجاعة وبأساً ، وهو على قلة شعره الحربى الذى سكب فيه خلاصة فنه ، قد أمسك بعنان شعر الحرب ونزعة الخوارج ، فسار بهما فى شوط واحد . أما عمران فقد انحط مليا فى شعر الحرب ، وفى حدة الفروسية وسورتها . وبلغ من طغيان مذهبه الدينى على شجاعته

(١) ذكر أبو زكريا التبريزى فى شرحه لميمية قطرى فى حماسة الطائى أن القوم سلموا على قطرى بالخلافة ثلاث عشرة سنة (نسخة فرايتغ ص ٦١) .

(٢) منزل من منازل الأهواز .

وحربه أن اعتزل القتال فكان من القَعَدة حين ضعف عن الحرب وحضورها[1] ، فاقتصر على الدعوة بلسانه ، على أنه كان حديث عهد بنزعة الشراة ، فقد روى عنه أنه كان مشغوفا بطلب العلم والحديث قبل أن يفتن بهم .

وكان هروبا فلم يصمد للحجاج ، فشرد بين القبائل مستخفيا ، منتسبا نسبا كاذبا ، ليضلل الأعين عن سبيله ، ويغرر العارفين به . ولم يخلص إلى أيدينا شيء كثير من شعره الحربى حين كانت له مشاركة فى الحروب . ويروى القيروانى فى « زهر الآداب » أن الحجاج أمسك به ثم أطلقه ، فدعاه الشراة إلى معاودة الحرب وقالوا له لم ينجك إلا الله، فارجع إلى حربه معنا ، فقال لهم هيهات ، وأنشد شعراً فى طوعه وانصياعه للحجاج . لكنه ترك أبياتا من شعر الحرب صبيغة بالدم راجفة بالذكرى المرة ، أظهر فيها الشماتة بمقتل على بن أبى طالب ، وأثنى على قاتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى فقال فيها :

يا ضربة من تقى مـــا أراد بهـــا	إلا ليبلغ من ذى العرش رضـــوانا
إنى لأفكر فيـــه ثم أحسبه	أوفى البريـــة عنـــد الله مـــيزانا
لله در المرادى الذى ســفكت	كفاه مهجـــة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشّـــاه بضربتـــه	مما جنـــاه من الآثام عريانا

ولا أشك فى أن شعر عمران فى الحرب قد فقد أكثره ولم يصل إلينا سوى نزر ضئيل منه ، ما قاله فى رَوح بن زنباع الجذامى ، بعد الخلوص منه والهرب لوجهه . فقد تهكم فى هذا الشعر على الحجاج بن يوسف لما اعتصم خائفاً بالحصن من غزالة الحرورية ، وأسميها « جان دارك » الخوارج ، التى دخلت عليه الكوفة وزوجها شبيب الخارجى ، ولم ينج الحجاج سوى عبد الملك إذ أرسل إليه من يعينه على حرب شبيب ويفرج عنه غمرته فى حصنه ففرح عمران بانخذال الحجاج فقال فيه :

أســد علىّ وفى الحروب نعامة	ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى (غزالة) فى الوغى	بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت (غزالة) قلبه بفوارس	تركت مـــدابره كأمس الدابر

وفاض فى حروب الخوارج ذكر غزالة هذه وقيل إنها كانت بطلة شاعرة ولها مآثر

---

(١) الأغانى ط التقدم ١٦ ص ١٤٦ .

فى الحرب . ولما طالت الحرب بين غزالة وأهل العراق وهم لا يغنين شيئاً قال الشاعر : (أيمن بن خُريم) :

رأيت غزالة إذا طرحت بمكة هودجها والغبيطا
ألا يستحى الله أهل العراق أن قلدوا الغانيات السموطا
وخيل « غزالة » تسبي النسا ء وتحوى النهاب وتحوى النبيطا
(الأغانى ٢١ — ٨)

فأين شعر غزالة الخارجية فى الحرب ؟ وما خبر تلك الفروسية فى قصيدها وكانت شاعرة كما يقولون ؟ . وقد كانت غزالة عنيفة قاسية كزوجها ، فقد هجم على مسجد الكوفة وجعل وصحبه يقتل المصلين فيه[١] .

كانوا فى طغيانهم هذا هم والخوارج كسيل هائج يأخذ ما يلقاه فى دربه ولم يكن همه النهاب والسلاب لوجه المال ، وإنما كانوا أبدا هائمين على وجه مذهبهم وغائية دينهم ، قد اتخذوا شبا السيوف سبيلا إلى نشر فكرتهم ، وإهلاك أعدائهم الذين يرون كفرهم ، حتى طغى مذهبهم بالعنف والطوع على كثير ، وجر إليهم محاربين كالطرماح بن حكيم وكان فارساً ظهرت فى شعره فروسيته ، إذ يقول :

فلبست للحرب العوان ثيابها وشببت نار الحرب فهى توقّد

وكان هذا الشاعر من أصحاب المروانيين فمدح يزيد بن المهلب الأزدى ثم رثاه ، ولإعجابه بالمهلب وأولاده مدح الأزد كلها ، لكن الخوارج وجدوا السبيل إلى قلبه فجروه إلى مذهبهم فهام به وهب نحوهم ، وحن إليهم ، حتى قال فيهم[٢] :

لله در الشراة إنهمو إذا الكرى مال بالطلى أرقوا
يرجعون الحنين آونة وإن علا بهم ساعة شهقوا

على أنه مع حبه للخوارج ، وأنه كان يرى رأيهم[٣] فليس فى ديوانه شعر يصف فيه

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٣٣ .
(٢) ملحق ديوانه نشر كرنكو طبع لندن سنة ١٩٢٧ القصيدة رقم ٣٧ .
(٣) الأغانى ط دار الطباعة بمصر سنة ١٢٨٥ ج ١٠ ص ١٥٦ .

حروبهم ويصور معاركهم التى كانت أكثر معارك الحروب الداخلية وأروعها فى عهد بنى أمية .

* * *

وثمة شعراء خوارج أثر لبعضهم شعر طويل، كعمرو بن الحصين قاله « يوم قديد » وهو مكان بالقرب من المدينة خرج فيه الحجازيون لقتال الخوارج[١] « وهم لا علم لهم بالحرب فخرجوا فى المصبغات والثياب الناعمة واللهو لا يظنون أن الخوارج شوكة » وتواقفوا حيناً ثم بدأ القرشيون فرموا سهماً قتلوا به رجلا من الخوارج ، فصاح أبو حمزة الخارجى شيخ هذه الوقعة[٢] « شأنكم الآن فقد حل قتالهم » فنشبت المعركة وكأنها سعير فقتل فيها نحو من سبعمئة[٣] .

وقد شهد عمرو بن الحصين شاعر الخوارج هذه الحرب فقال قصيدة فى وصف معركتها وصفاً دقيقاً ، وصور الخوارج فى تقاهم وشجاعتهم بقوله :

متأوهين كأن فى أجوافهم ... ناراً تسعرها أكف حواطب
تلقاهمو فتراهمو من راكع ... أو ساجد متضرع أو ناحب
ومبرئين من المعايب أحرزوا ... خصل المكارم أتقياء أطايب
متسربلى حلق الحديد كأنهم ... أسد على لحق البطون سلاهب
حتّى وردن حياض مكة قطّناً ... يحكين واردة اليمام القارب
سائل بيوم (قديد) عن وقعاتّها ... تخبرك عن وقعاتّها بعجائب

وإنى أرى لدن تحليل هذه الأبيات من القصيدة الخارجية الحربية ، أنها لم تخل من ثلاثة أوصاف شاملة ، يوصف بها جانب كبير من شعر الحرب عند الخوارج وهى :

(١) وصف الفروسية ، والبسالة ، والفتك والتفانى فى الحرب .

(٢) وصف التقوى والتفانى فى العبادة .

(٣) وصف أخلاق الخوارج بسمو النفوس وخصال المكارم .

* * *

---

(١) المصدر السابق ج ٢٠ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ .

ولم يعدم الخوارج على كثرة عددهم شعراء كثيرين ، لولا ضيعة أخبارهم وأشعارهم لأتانا عنهم نبأ خطير .

كان من شعرائهم يزيد بن حبناء الضبي ، وكانت له مهاجاة مع زياد الأعجم الذى كان يعيره بخارجيته ومتابعة مرّاق العراق .

وثمة شعراء من الخوارج لم يؤثر لهم سوى البيتين أو الأربعة . ولم يعدم الشعر الحربى عندهم ناطقاً به ، حتى زعماءَهم فإنهم كانوا شعراء وكانوا يفرجون بالشعر عن خواطر نفوسهم الحماسية ، كأمثال حيان بن ظبيان الذى يقول فى شوقه إلى الحرب :

خليلىَّ ما بى من عزاء ولا صبر ... ولا إربة بعد المصابين بالنهر

سوى نهضات فى كتائب جمة ... إلى الله ما تدعو وفى الله ما تفرى

ويتبين من هذا الشعر كله الذى قالته الخوارج أنه نم على الفحولة والجزالة وجاء بالقول المحكم . لكن حظه من تاريخ الأدب كان قليلا . بل لم يكن له حظ من ذلك قط ، فاصطلح عليه رواة الأدب بزراية على أهليه وإهمال لروايته . ولو أتيح لهؤلاء الشعراء الخوارج أن يكون مؤلف الأدب فى تلك الأعصر التى جمعت فيها الأخبار أديباً خارجياً أو أنه ينزع نزعتهم لجاءنا من أشعارهم الكثير ، لأن فيض قرائحهم فى هجمة الوغى كان غزيرا . فكان ارتجال الشعر عليهم هيناً ، فكيف بالتأنى فى نظمه ، والتطويل فى أنفاسه .

على أن فناءهم فى الحرب لم يعف على أشعارهم ، فإن موت القراء والمحدّثين فى كثير من وقعات هذا العصر لم يمح آثارها ، ولم يمسها إلا بقليل من الضياع مع ندرة التدوين فى تلك الأيام .

أما أولئك الشعراء الذين أتاح لهم الحظ حسن الذكر وجمع الشعر كالكميت والفرزدق وكثير — فذلك من حسن حظوظهم لدى التاريخ ، ومؤلفى الأدب القديم ، الذين كانوا فى أكثرهم شيعة ، فلم يتركوا لذويهم شاردة إلا قيدوها . والعباسيون غلوا فى البغضاء لخصومهم فى عصر التأليف ، وكانت العصبية القبلية غلابة عليهم . وأما الفرزدق وأترابه ممن صنعوا الشعر الغزير ، فإن قعودهم عن الحرب ، وتفرغهم للشعر ، أعانهم على تلك الغزارة . ولأن رواة هذا الشعر أدركوا العصر العباسى بأعمارهم ، وكانوا يحبون هذا الشعر ويقدرون قائليه فأملوه على جامعيه . ومن للخوارج — وهم المنبوذون بالكفر ، المضطهدون فى كل صقع — بمثل ذلك وقد أفناهم القتال فمزقهم من كل جانب ؟ فلا أفادوا ظفراً باقياً ، ولا شعراً مروياً

كثيراً . وخير دليل أورده على إهمال أمرهم أن قطريا زعيمهم وكبير شعرائهم ، كان حظه من أبي الفرج الأصبهاني ، في ثلاث صفحات .

* * *

وفصل الخطاب في شعر الحرب عند الخوارج ، أنه صورة ثورة غالية العناد ، جامحة القياد ، تستبيح دم من لا يؤمن بها ، وكانت تتخذ السلاح سبيلا إلى نشرها كثورات الأقوام وفتنها العارمة . وقد امتازت ثورة الخوارج من سائر الفتن بأنها كانت ذات مثل عليا لوجه الدين وحده ، ولم يصبغها صابغ بأمر الدنيا كحروب الهاشميين والأمويين وثورات الشيعة .

وقد رفد هذه الثورة الدينية شجاعة خارقة « وبطولات جبارة نادرة[١] » كان حاديها أشعارهم الحربية وكأنهم كتبوها على شفار السيوف التي كانوا يكسرون جفانها ، ثم يصممون بها في هجمات الحروب ، وشعارهم أبداً :

– لا حكم إلا لله .

---

(١) جاء في معلمة الإسلام بالفرنسية (ج٢) في مادة Kharijite ص 958 (أن فروسية الخوارج كانت في أهوالها كضرب من ضروب الأساطير) .

شعر الحرب فى أَدب الشيعة

أدب الشيعة مقرون بالشجون ، مسكوب عليه الدموع ، حزناً على مقتل على بن أبى طالب وولده الحسين وآل البيت .

لقد كان الأمويون يهجونهم فلا يخادعونهم ، وكان لسب علىّ على المنابر أكبر الأثر فى إهاجة ثوراتهم حتّى إن المغيرة بن شعبة ، وهو أفضل عمال معاوية على الأمصار ، كان لا يدع ذم علىّ والوقوع فيه ، والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم ، حتى سبب هذا الاستفزاز مقتل بطل عزيز من أبطال الشيعة هو « حجْر بن عدى » . فلقد رد على المغيرة فى المسجد وهو يلعن عليًّا فقال له :

— بل إياكم ، فذمم الله ولعن[1] .

وجر هذا أن خلع حجر بن عدى طاعة الأمويين ، وتألب حوله جمع من الشيعة ، كانوا أوائل النأمة الثائرة فى عهد بنى أمية . وآل الأمر إلى أن هب حجر برجال مستشرين فقاتلوا الأمويين فى الكوفة وخارجها ، فأقلقوا عليهم أمصار العراق ، وكان شعارهم هذه الأبيات :

يا قوم حجر دافعوا وصاولوا ... وعن أخيكم ساعة فقاتلوا
لا يلفين منكم لحجر خاذل ... أليس فيكم رامح ونابل
وفارس مستلئم وراجل ... وضارب بالسيف لا يزايل

فدعا «زياد» بطون العرب من همْدان وتميم وهوازن وأبناء مذحج وأسد وغطفان ، ليأتوا جبانة كندة ، حيث كان يسكن حجر بن عدى الكندى ، فيحملوا له حجرا . فلما صار حجر عنده أسره وكبله بالحديد ، وأرسله إلى معاوية فقتله . فقام من بعده أصحابه أشد ثورة وضراوة حتّى توالدت مفاتن الشيعة .

وكان شعراؤهم فى هذه الفتن والحروب الداخلية ، يسجلون صوراً من المعارك ،

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٢ .

ويتناولون وصف الحرب بشعرهم فيعززون بتلك الأشعار مذهبهم ومطلبهم وينوحون خلال ذلك على شهدائهم وأئمتهم الأبرار .

والشيعة الذين كبتوا ثورتهم فى حنايا ضلوعهم منذ مات علىّ كانوا يصوبون النظر الشزر إلى خلافة بنى أمية . فلما مات معاوية هبت أحقادهم من مكامنها ، كجمر سفت الريح عن وجهه الرماد .

وشاء تاريخ الفتن الداخلية فى عهد بنى أمية أن تكون الكوفة وكر الثورة ، والبصرة مبعث الفتنة ، فكانت تولد منها شرارات الحروب ، ويصدر عنها الوحى فى خلع عصا الطاعة .

وكذلك كان ، فقد أرسل أهل الكوفة من أشياع علىّ إلى ولده الحسين ، أن يقدم إليهم ليبايعوه على الخلافة ، ففعل غير سامع لنصح عبد الله بن مطيع الذى وقاه عثار الكوفة فقال[١] له : « إن الكوفة بلدة مشؤومة بها قتل أبوك ، وخذل أخوك ، واغتيل بطعنة كادت تأتى على نفسه » .

فلم يصغ الحسين لناصحه ، وإنما ركب رأيه ، وأحسبه كان يخاف أن يتلقاه الناس بما تلقوا به أخاه الحسن بالقادسية وهو عائد إلى المدينة ، بعد أن دخل وجماعته فى طاعة معاوية ، فنادوه :

— يا مذل العرب[٢] .

* * *

فلما جرد بنو أمية عبيد الله بن زياد على الشيعة ، نهض الشيعة نهضة رجل واحد لنصرة الحسين ، حتى كان الرجل يترك ماله ويهب ومعه زوجه للدفاع عن سبط الرسول ، كالذى فعل عبد الله بن عمر الكلبي . فقد هجم عليه فى إحدى الوقائع فى الدفاع عن الحسين فارس من جند الأمويين ، فاتقاه الكلبي بيده اليسرى فأطار أصابع كفه ، فمال عليه الكلبي فضربه حتى قتله وهو ينشد قوله :

إن تنكرونى فأنا ابن كلب
حسبىَ بيتى فى عُليم حسبى

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٩٦ .

(٢) الطبرى ، النسخة الأوربية . (V.II ص ٩) .

إنى امرؤ ذو مرة وعصب
ولست بالخوار عند النكب
إنى زعيم لك أم وهب
بالطعن فيهم مقدماً والضرب
ضرب غلام مؤمن بالرب

وثارت أم وهب امرأته ، فسارت وراءه وبيدها عمود تصيح به وتقول :

— فداك أبى وأمى ، قاتل دون الطيبين من ذرية محمد . . .

فأقبل إليها يردها ويزجرها ، لتعود نحو النساء ، فأخذت تجاذب ثوبه ثم قالت له :

— لن أدعك دون أن أموت معك .

ولم تنصرف عن زوجها حتّى زجرها الحسين .

وكان عمرو بن قرظة الأنصارى يقاتل دون الحسين ، ويتبرأ من الخوارج وهو يقول :

قـد علمت كتيبـة الأنصـار أنى سـأحمى حـوزة الذمـار
ضرب غـلام غير نكس شارى دون حسين مهجتى ودارى

وكان البطل من الشيعة يجود بنفسه فى الحرب والموت يحشرج فى صدره ، وهو مجندل وعينه عالقة بالحسين ، فلما صرع مسلم بن عوسجة أول أصحاب الحسين أكب عليه الحسين وبه رمق ، فقال يرحمك الله ربك . فدنا منه حبيب بن مظاهر وقال له ، عز علىّ مصرعك ولولا أنى لاحق بك الساعة لأردتك أن توصى ، فقال مسلم وهو يلفظ نفسه الأخير :

« أوصيك بهذا رحمك الله » . وهوى بيده إلى الحسين وهو يُقبَض .

وكان فى الحاملين على الحسين وصحبه شمّر بن ذى الجوشن فى ميسرة الجيش الأموى فتلاقى الجمعان حتّى عقرت الخيول وصاروا رجالة كلهم . وغلت الحماسة فى نفس حبيب ابن مظاهر فهجم على بطل من أبطال ابن زياد ، فضرب وجه فرسه بالسيف فشب ووقع عنه ، فأنقذه الأمويون أصحابه ، فقال حبيب[1] :

أنـا حبيب وأبى مظاهـرُ فارس هيجـاء وحرب تسعر
أنتم أعـد عـدة وأكـثر ونحن أوفى منـكم وأصـبر

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٢ .

ونحن أعلى حجة وأظهر حقا وأتقى منكم وأعذر

فلما سقط هذا البطل هد موته حسيناً ، فقال إنى أحتسب نفسى وحماة أصحابى ، فأخذ الحر بن يزيد يقول :

آليت لا أُقتلُ حتى أقتلا ولن أصاب اليوم إلا مقبلا
أضربهم بالسيف ضربا مقصلا لا ناكلا عنهم ولا مهللا

* * *

أضرب فى أعرافهم بالسيف عن خير من حل منى والخيف

وتسابق أبطال الشيعة يذودون عن الحسين ، وسهام أعدائه تهوى على جانبيه فكلما صُرع دونه واحد حل مكانه آخر ، يدفع عنه بصدره ، ويجود من أجله بروحه ، حتى كانت نوبة زهير بن القين ، فقال بين يديه وهو يصد هجمات المناوشين :

أنا زهير وأنا ابن القين أذودهم بالسيف عن حسين

أقدم هُديتَ هاديا مهديّا
فاليوم تلقى جدك النبيا
وحسناً والمرتضى عليا
وذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا

فلما استعر القتل ، وتعاور على الحسين الجمع من كل جانب ، وكان الحسين مغواراً يصد عن نفسه ذات اليمين وذات الشمال ، خف إليه صاحبه يزيد بن المهاجر الكندى ، فجثا على ركبته بين يديه ، وأخذ يرمى بالنبال عن يمين وشمال ويقول :

أنا يزيد وأبى مهاجر أشجع من ليث بغيل خادر
يا رب إنى للحسين ناصر ولابن سعد تارك وهاجر (١)

وما زال ينضح دونه بالنبل حتى قتل .

فتقدم على بن الحسين يدفع دون أبيه ، فصرع وهو يقول :

أنا على بن حسين بن على

---

(١) يشير إلى عمر بن سعد ، وكان لهم من ألد الخصوم .

نحن ورب البيت أولى بالنبى
تا لله لا يحكم فينا ابن الدعى

فهبت لمقتله أخته زينب ابنة فاطمة بنت الرسول ، وأكبت عليه تبكيه . ولم يزل الحسين يفقد صاحباً بعد صاحب من حماته ، والباذلين المهج فى سبيله ، حتى بقى ثلاثة رهط أو أربعة .

وقد روى رواية مصرعه أحد أعدائه — عبد الله بن عمار — الذى قدم ليطعنه بالرمح فلما حكم مقاتله ، زجرته نفسه عنه ، فانكفأ بعيداً يشهد آخر ساعات سيد الشهداء وسبط الرسول ، مغترباً فى أرض العراق ، وقد قتل صحبه الأخيار وانفض عنه دعاته ، فجعل يشهده وهو يكر على أعدائه يمنة ويسرة ، فقال عنه : « فوالله ما رأيت مكسورا قط قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً منه ولا أجرأ مقدماً ، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله إن كانت الرجالة لتنكشف من عن يمينه وشماله انكشاف المعزى إذا شد فيها الذئب »[١] .

حتى شد عليه الأمويون شدة واحدة وكانوا يحاذرون قتله ، قلوبهم الغلاظ كانت تطلبه وأيديهم كانت تخشى أن تعلق بدمه . حملوا عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى وضرب عاتقه ، فناء وكبا ، وحمل عليه « سنان بن أنس بن عمرو النخعى » فطعنه بالرمح ، ثم أراد آخر أن يحتز رأسه فضعف وأرعد فنزل سنان بن أنس فذبحه وأخذ رأسه ، بعد أن ضرب جسده بالسيوف .

وأكب هؤلاء المحاربون على ثيابه وثقله ومتاعه فنهبوها ، فصبغوا بطولتهم الآثمة بالجريمة ، واوثوا فروسيتهم الغاشمة وصلادة حروبهم باللؤم والعار . حتى إنهم لم يتعففوا عن نساء الحسين[٢] « فإن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها » .

ولقد كان أبطال الحسين أشرف نفوساً ، وأعز كرامة وأوفى ذماماً ، ولقد كان فى أصحابه سويد بن عمرو بن أبى المطاع مصروعاً من ضربة نزفت دمه ، فوقع بين القتلى مثخنا ، ثم وجد إفاقة ، فسمع القوم يقولون : قتل الحسين ، فإذا معه سكين بعد أن أخذ الأعداء سيفه ، فهب مجنونا ، ونهض من حشرجة الموت فقاتلهم بسكينه حتى قتل .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢٥٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٠ .

وبلغت النقمة واستشراء الحقد فى نفوسهم أن داسوا بأفراسهم جسد الحسين ، حتى رضّوا ظهره وصدره ، وجمع « الشمر بن ذى الجوشن » اثنين وسبعين رأساً من رءوس الشيعة ، فأرسلها إلى عبيد الله بن زياد فوضع رأس الحسين بين يديه ، وجعل ينكت بين ثنية فمه ، فأهاج هذا المنظر زياد بن أرقم — وكان شيخاً — (فانفجر باكيا) وهو يقول لعبيد الله بن زياد : « اعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما » . وكاد يهم عبيد الله بقتله . ثم أهدى الرأس المجزوز إلى يزيد بن معاوية ،وأدخلت عليه نساء الحسين مجللات بالسواد .

* * *

قصصت هذا الفصل المروع من مصرع الحسين لأستعين به على بسط الشعور فى تقدير شعراء الشيعة فى هذه الوقعة وما بعدها من وقعات الانتقام ، ولكى أرى أية روح حماسية متدفقة بالشجو والألم كانت تدب خلال شعرهم الحربى حزناً على مصرع الحسين. وأجدنى بعد هذا الفصل من مصرع الحسين ، متكلماً على الشعر الذى قيل فى حربه ، وما قصدت إلا إليه بلمحة التاريخ الذى رافقه .

إن شعر الحرب لدى الشيعة المحاربين كان قليلا وقصيراً على هذا النحو الذى أوردت . ويجمع بين البيتين أو الثلاثة من الرجز السهل الذى كان أبطال العرب قد تعودوه فى كثير من حروبهم ، يقذفون به ، وهم بين أيدى القتال ، وفى مواجهة الأعداء .

وقد وجدت هذا الشعر الحربى يقسم معانيه قسمين :

(١) شعر يصف بطولة أصحابه (فابن كلب) يعرّف المحاربين بنفسه وحسبه ، ويذكر بطولاته لزوجه اعتزازاً بالفروسية — على نحو ما أشرت إليه فى التمهيد وعند الكلام على شعر قطرى (فهو فارس لوجه الحرب) .

(٢) شعر يجمع بين نزعة الشيعة إلى الحرب ، وفكرة السياسة التى دعتهم إلى الحرب ، ويذكر اعتقادهم الدينى الشيعى .

فعمر بن قرظة الأنصارى يعلن فى شعره أنه ليس (من الخوارج الشراة) وأنه يحارب فداء للحسين ، (فهو فارس لوجه الحسين) .

أما حبيب بن مظاهر فإنه بعد أن يذكر بطولته وبلاءه ينوه بأن الشيعة على حجة

صحيحة ظاهرة ، وأن الأمويين على حجة كاذبة خفية ، وهو يومئ بذلك إلى قضية الخلافة وما وليها من الجدل والحجج ، فى أمر التحكيم ، ولكن فى نوبة يزيد بن القين تظهر النزعة الشيعية ، ضاحية بارزة ، ويبدو اعتقادهم الدينى الخاص بأن جعفر بن أبى طالب الذى قتل فى غزوة مؤتة بعد أن قطعت يداه طار بجناحين إلى الجنة ، وسيعود فى آخر الدهر ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وبغياً .

ثم يذكر (أسد الله الشهيد الحى) ، وهو عند الشيعة المهدى المنتظر « محمد بن الحنفية » يقيم بجبل رضوى عنده عسل وماء .

ولما صار الارتجاز فى وقعة الحسين إلى ابنه علىّ عالن (برأيه السياسى) (فى نظام الحكم) فقال :

نحن ورب البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى

وأراد بذلك ، أن الخلافة بعد النبي هم وارثوها ، لأنهم أولى بالنبي من غيرهم ، بعد أن كان هو الولى . وحلف جاهدا ألا يترك يزيد يحكم فى الأمة لأنه ابن رجل يدّعى الخلافة (وهو معاوية) .

فكان الشيعة فى شعر حربهم هذا أقل فروسية من الخوارج ، وأكثر دعوى منهم . وقد مزجوا السياسة بالدين بينما كان الخوارج بعداء عن نزعات السياسة الجامحة ولم تكن السياسة الجامحة فى يوم من الأيام مطلباً لهم ، وإنما كانوا يبتغون رفع كلمة الله ، لقد كانوا أبداً يحاربون من يتخذ الدين وسيلة إلى الدنيا ، ولذا حاربوا كل الفرق والنحل (فكانوا خصوماً للشيعة والزبيريين والأمويين[1]) على السواء ، لأن هؤلاء — فى رأيهم — قد اصطلحوا على المفاسد وأقاموا على الضلال وصولا إلى الحكم ، واستبدادا بالإمارة والخلافة .

أما الشيعة فكانوا ذوى رأى سياسى عنيف إلى جانب رأيهم الدينى . ولم يكونوا يحاربون وراء فكرة عليا كالخوارج ، وإنما كانت فكرتهم دنيوية خالصة لوجه الحكم ، فهم يريدون أن ينصبوا آل البيت فى سدة الخلافة ليكونوا أمراء على الناس ، فلذا كان بنو أمية أشد

---

(١) السيادة العربية والشيعة فى عهد بنى أمية تأليف فان فلوتن — الترجمة العربية طبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٤ ص ٦٩ . ومعلمة الإسلام بالفرنسية (II. p. 959) بحث (مقولات الخوارج فى السياسة والدين كتبه Dellavida) .

عليهم حروباً وأصلب قلوباً مما كانوا مع الخوارج ، لأن الخوارج كانوا أهل ثورة وليسوا أهل طلب . أما الشيعة فكانوا أهل ثورة وطلب فى وقت واحد .

* * *

ولننحدر الآن إلى شعرائهم ، فى عهد بنى أمية ، الذين كانت أشعارهم صدى لحروب الشيعة مع الأمويين ، وبلسماً لجراحاتهم العميقة ، وسكنا لنفوسهم فى خلجات أحزانهم التى لا تبلى. فإذا تحسسنا طوابع شعر الحرب فى تلك الأهوال تلقانا فى أول أمرنا (الكميت) ابن زيد الأسدى[1] إذ ليس من حق شاعر شيعى سواه أن يتقدم عليه أول الأمر . فلقد كانت منه البداءة والبادرة فى أن يظهر كشاعر كبير يعالن بشيعيته فى الزحمة الأموية وفى بهرة الحلقة من العهد الذى كان فورة لاضطهاد الأمويين للشيعة . ولست إذن من رأى المعلمة الإسلامية المكتوبة بالفرنسية التى تدعى أنه أول من قام بالتقية . وأخذ عنها هذا الرأى من كتب عن الكميت بعدها ، لأن المعالنة فى إبان السلطان الأموى لا يتفق وهذا الرأى فى شىء .

على أن التعصب للعدنانية قد غلا فى قلبه فهجا اليمانية حيًّا حيًّا بقصيدة مذهبة سائرة ، فنصب نفسه غرضاً لسهام الهاجين ، فرد عليه شعراء فى حياته ، ولم يسلم فى مماته من ردود الهاجين ، ومعارضاتهم لمذهبه ، كما فعل به دعبل الخزاعى وابن أبى عيينة .

لقد شغل الكميت نفسه ردحاً من عمره ، تفرغ فيه لمدح الهاشميين ووقف عليهم قسماً عظيماً من شعره. لعل قليله الذى وصل إلينا ووجدناه كثيرا . كان جزءاً من ذلك ، فقد قيل[2] إنه لما مات أحصى شعره فوجد خمسة آلاف ومئتين وتسعة وثمانين بيتاً . ونحن لا يعنينا من كل هذا الشعر نزعته الشيعية ولا دعوته للإمامية ولا مبادرته الأمويين بالتمدح بأعدائهم الألداء ، وإنما الذى يشغلنا هو شعره الحربى . فهل كان له شعر حرب فى أدب الشيعة وما قيمة هذا الشعر ؟

فى القصائد الهاشميات قصيدتان رائعتان من أحسن شعره فى الحرب وأجزله ، أولاهما يصف فيها شجاعة أئمة الشيعة وفى مستهلها يصف أبطال شيعته بقوله :

---

(١) فى معلمة الإسلام الفرنسية فى مادة Kumait ج II ص 1181 أن الكميت أول من قام بالتقية . ولد سنة ٦٠ ومات سنة ١٢٠ للهجرة بالكوفة .

(٢) الهاشميات ط شركة التمدن بمصر سنة ١٩١٢ ص ١٩ .

فهمو الأسد فى الوغى لا اللواتى بين خيس العرين والآجام
أسد حرب غيوث جدب بها ليل مقاويل غير ما أفدام
سادة ذادة عن الخرد البيض إذا اليوم صار كالأيام
لا كعبد المليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام

ثم يتناول بالشطر الثانى من هذه القصيدة الهاشمية التمدح بخصال على بن أبى طالب إمامه الأعظم ، فيذكر تجريده السيف لحرب الخوارج والأمويين فيقول :

جرد السيف تارتين من الدهر على حين درة من صرام
فى مريدين مخطئين هدى الله – ومستقسمين بالأزلام

ثم حن حنين كل شيعى إلى الحسين والها متفجعاً ، وغاص إلى أعماق قلبه ينضح من آلام الشيعة التى لا تهدأ ولاتفتر على مقتل الحسين ، فوصف مقتله فى لمحة خاطفة فقال :

وقتيل بالطف غودر منه بين غوغاء أمة وطغام
قتل الأدعياء إذ قتلوه أكرم الشاربين صوب الغمام

ثم أعلن الملأ بتشيعه وميله إلى هؤلاء الأئمة المغدورين، واشتياق نفسه إلى لقائهم ، حيث كانوا مشردين فقال :

فهمو شيعتى وقسمِى من الأمة – حسبى من سائر الأقسام
ليت شعرى هل ثم هل آتينهم أم يحولن دون ذاك حمامى

قلت لنفسى وأنا أخلص من الكلام على هذه القصيدة ما أشجع الكميت لكأنه لقب بالأسدى لصفة الأسود فيه . فقد هجم بشعره هذا الذى يصف فيه حرب أئمة الشيعة وبأسهم وصلابة غاراتهم فى وجه الأمويين ، فى حين كان غيره من الشيعة شعراء أو أهل نحلة أو ذوى عترة متشردين متخذين التقية حماية لأرواحهم ودريئة ، وأحسب أن من قالوا بتقيته لم يتنبهوا إلى هذه القصيدة .

ولم يكتف الكميت بالوجهة الوصفية فى فنه ، وإنما زاد عليها دقة الصنعة فى بعض أبياتها والجرس الكلامى والتزاوج فى سياق الحروف . فمن فنه مع سهولة التعبير إيراد كلمتى

(الحماة الكماة) ، وتكرار رنة السجع ، فى البيت الواحد للتهويل . فأتبع سجعاً موسيقياً فى بعض أبياته وكان سابق الطائى للسجع فى الشعر — فقال (أسد حرب ليوث جدب) فطابق فى فنه البلاغى مطابقة تامة بقوله (بها ليل مقاويل) ، وراقته هذه الديباجة فراح بعد بيت يقول مغاوير ، مساعير ، معازيل ، تنابيل) .

قلت لنفسى : أفلا أفرد الكميت ، وهو فى هذه المنزلة من التشيع الصادق والشعر الرائع قصيدة خاصة بمقتل الحسين تكون سيرة البطل الشهيد ؟ ولم أك لأقنع منه ، بقصيدته اللامية فى مقتل الحسين ، لأنها — على طولها — لم تكن مخصوصة بمقتله . وكان فى طوقه — وهو الطويل أنفاس القصائد — أن يترك فى أدب الشيعة ، بل فى الأدب العربى كله أخلص قصيدة فى مصرع الحسين ، يجعلها الشيعة مأتمهم . وهم الذين ما راعهم من القصيد إلا ما وصف لهم مقتل الحسين وأحزان أحبابهم آل البيت . وكم كان أحسن الكميت لو جعلها (ملحمة) تبدأ من يوم خروج الحسين من الحجاز بدعوة أهل العراق، إلى يوم مصرعه ، إن قنع بذلك ولم يجعلها منذ ظهر على بن أبى طالب صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم وأقرب رجاله الأبطال إليه .

أما وقد فاته هذا ، فلا ضير عليه بعد ، فيما ترك لنا بلاميته الشاجية ، وهى فى صميم الحرب الشيعية وفيها يقول عن قتلة الحسين[1] :

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم ... لأجوافها تحت العجاجة[2] أزمل
هماهم بالمستلئمين عوابس ... كحدآن يوم الدجن تعلو وتسفل[3]
يحلئن عن ماء الفرات وظله ... حسيناً ولم يشهر عليهن منصل
كأن حسيناً والبهاليل حوله ... لأسيافهم ما يختلى المتبقل[4]
فلم أر مخذولا أجل مصيبة ... وأوجب منه نصرة حين يخذل
يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ... فيا آخراً أسدى له الغى أول[5]

---

(١) الهاشميات الطبعة السابقة ص ٧٠ .
(٢) أى لأجوافها تحت تراب الوقيعة صوت .
(٣) المستلئمون لابسو اللأمات وهى الدروع والحدآن طيور كواسر .
(٤) يشبه دم الحسين المسفوح بأسيافهم هدراً بالبقل الذى يتبقله قاطفه كما يشاء وقد اختلى به .
(٥) بهذا البيت إشارة سياسية إلى أن قاتلى الحسين موتورون مدفوعون وكذلك ظهر حين تنازعوا فى شرف قتله وجز رأسه .

ثم يصور الشاعر نهبة أشيائه ومتاعه بعد موته، ويعوج لهيفاً على وصف رأسه المحزوز واوعة الشيعة عليه ويختم قصيدته فى مقتله بتوعد للأمويين ليوم ثأر موعود .

فيا رحمة للكميت ! ما كان أروع شعره فى الحرب ، وما ألصق بالجزالة حماسة قصائده ! وهو مع كل ذلك لم يكن فارسا بجسمه ، وإنما كان فارساً مغواراً بروحه يهجم بها فى المخاطر والمهالك على الموت . فأين اندفاعه فى ساحة الوغى من هجمته على الأمويين بالتحقير والذم والشتم ؟ حتى كاد له خالد بن عبد الله القسرى عامل هشام بن عبد الملك على العراق وجاء به إلى هشام الذى أهدر دمه وأراد الفتك به .

ثم ما هى إلا ألاعيب السياسة التى كشرت مثل أفعى عن أنيابها وكأنها تضحك فأفسدت بسحرها ودهائها على الكميت (تشيعه) .

والذى أجده أن هشاماً كان يستطيع قتل الكميت وهو غير هياب . إذ ليس للكميت من يخشى بنو أمية دفعهم عنه أو الانتقام له . ولكن حصافة هشام مكرت بشاعر الشيعة فحولته من شاعر هجاء للأمويين إلى شاعر مداح لهم . وكان ذلك أنجع عند هشام وصحبه من قتل الشاعر هدراً ، فكسبوه بإحيائه وأغدقوا عليه العطاء حتى ترك تشيعه ، وانطرح بين أيدى الأمويين يفديهم ويقول لهم :

فالآن صرت إلى أميـــة والأمـــور إلى المصائر

وقد خدر المال أعصاب التشيع عند الكميت وعند أبيه معه . فلما قيل لأبيه فى ذلك قال « لا أرد مكرمة فعلها ابنى »(١) .

ولكنه مع هذا الانقلاب فى التشيع إلى محبة بنى أمية لقى الغدر من الأمويين فكان قتله على أيديهم ضرباً بالسيوف .

* * *

وقد تلمست غيره شاعراً شيعياً يكون شبهه حماسيًّا فى شعره وصّافاً لحروب الشيعة ، فوقعت على أعشى همدان ، وقد كان صنع قصيدة بائية مطولة فى حرب (عين الوردة) كاتمها الناس فكانت « إحدى المكتمات كن يُكتمن فى ذلك الزمان »(٢) .

فمن وصفه لهذه الحروب وما لقى الشيعة من الهول يقول :

---

(١) الأغانى ط التقدم ج ١٥/ ١٢٢ .

(٢) الطبرى ج ٧/ ٢٨.

فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلا إليهم فحسوهم ببيض قواضب
يمانية تذرى الأكف وتارة بخيل عتاق مقربات سلاهب
فجاءهمو جمع من الشام بعده جموع كموج البحرِ من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم فلم ينج منهم ثَمّ غير عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا تعاورهم ريح الصبا والجنائب
وأضحى (الخزاعىّ) الرئيس مجدَّلا كأن لم يقاتل مرة ويحارب[(١)]
وعمرو بن بشر والوليد وخالد وزيد بن بكر والحليس بن غالب
ومن كل قوم قد أصيب زعيمهم وذو حسب فى ذروة المجد ثاقب
أبوا غير ضرب يفلق الهام وقعه وطعن بأطراف الأسنة صائب
فيا خير جيش للعراق وأهله سقيتم روايا كل أسحم ساكب
فإن يقتلوا فالقتل أكرم ميتة وكل فتى يوماً لإحدى الشواعب

وحين بلغ عبد الملك بن مروان مهلك الشيعة فى هذه المعركة صعد المنبر فجعل يحمد الله ويثنى عليه أن أهلك من أهل العراق كل (ملقح فتنة ورأس ضلال ، وأنه لم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع أو امتناع) .

ولم أجد أعشى همدان على محزون رثائه وروعة أدائه إلا دون الكميت فى شعر الحرب . وليست قصيدته هذه (مع أنها من المكتمات كما كانوا يقولون) إلا مرثاة عادية . إذ لم يصور الأعشى حرب عين الوردة ولا السبب الذى من أجله قامت (ثورة الشيعة) فى الكوفة فندبوا أنفسهم إلى مقارعة المروانيين ولا وصف التقاء الجيشين ، وكانا أكثر عدداً من كل (يوم) للشيعة وأعدائهم قبله . ولعل تشيعه سد عليه وجه أوصاف الحرب فاشتغل بالبكاء والرثاء ، شأن الشيعة فى أكثر أدبهم المسودّ الحزين ، تشغلهم الدمعة المهراقة على علىّ والحسين وآل البيت عن مطالب الفن فى إبداع الوصف ودقة التصوير .

وتتبعت شعراء الشيعة سوى الكميت من الذين عاشوا فى عصر بنى أمية ، فوجدت أكثرهم كان يخشى بطش الأمويين ، فاستسروا فى ظلال «التقية» فجاملوا بنى أمية كما فعل (أيمن بن خريم) فقد عاش شاعراً شيعيًّا مسالماً[(٢)] ، أو شغلهم الهجاء فلم يعطوا (التشيع) كل

---

(١) هو سليمان بن صرد الخزاعى قائدهم فى هذه الحرب .
(٢) الأغانى الطبعة الأوربية جـ ٢١ ص ١٣ .

هواهم ، كما فعل الفرزدق ، أو عبدوا الجمال وآثروا الاكتفاء به ، والعزاء فى عبادتهم كما فعل كثير عزة[١] . فلقد كان « غالياً فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ » . وأحسب أن آل مروان لم يخشوا شره إذ كانوا « يعلمون مذهبه فلا يغيرهم ذلك له لجلالته بأعينهم ولطف محله فى أنفسهم[٢] » .

وهو على الرغم من أنه أشاع فى أدب (الشيعة الغالية) مذهبهم الدينى الخاص إذ أدخل عليه (الفكرة الكيسانية) فى التناسخ ورجعة المهدى الذى يقول عنه :

تغيب لا يـــرى فيهم زمـــانـــا　　　برضـــوى عنـــده عســـل وماء

وبالرغم من إفراطه فى هذا الزعم الشيعى ، فقد شغله الحب وشغف قلبه هوى عزة فوقف عليها أكثر شعره . فأين منه شعر الحرب وزحمات الفرسان وحومات الوغى التى دارت دوائرها على الشيعة فى زمنه ، من قوله باكياً على هجر عزة وقطيعتها واقفاً فى رسومها ينشد تائيته الرقيقة المشهورة :

خليـــلىّ هـــذا ربع عزة فاعقلا　　　قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّتِ

وراحت عزة تعبث به وتصليه بنار القطيعة ، فحرمت قومه الشيعة فى زمن بنى أمية غرر أشعار ما كان أجدرها لو خلدت حزن الشيعة الدفين ، وظمأ سيوفهم إلى ثارات الحسين

---

(١) الأغانى طبع دار الطباعة جـ ٨ ص ٣٧ .

(٢) المصدر نفسه والصفحة .

شعر الحرب فى أدب الزبيريين

جمجم المؤرخون القول فلم يفصحوا ، وكأن فى أفواههم الماء . إنهم زعموا جميعا أن عائشة أم المؤمنين دعت لحرب علىّ ثأراً لدم عثمان ، حتى كان يوم الجمل ومعها الزبير ابن العوام فلماذا تهب عائشة لحرب على وقد كان يحبه الرسول و يؤثره ، لو لم يكن أشار علىّ على الرسول صلى الله عليه وسلم بتسريح عائشة بعد حديث الإفك ، إشارة تلميح .

وحاول علىّ قبل معركة الجمل أن يفصل الزبير بن العوام عن أزر عائشة فلم يفلح ، لأن ابنه عبد الله كان ممسكًا باختياره فقال علىّ[1] : « ما زال الزبير رجلا منا حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته » .

وليس ببعيد عندى ، بعد هذا ، أن تكون عائشة رضى الله عنها ، وهى امرأة مرهفة من النساء ، قد بقى فى نفسها ألم دفين وحفيظة مكبوتة على علىّ حين أشار بطلاقها بعد حديث الإفك .

ولم تكن عائشة إلا امرأة من النساء حوت فى نفسها ما يخالج كل أنثى من حفائظ ، فيها الغيرة ، وفيها الكيد . ولقد كان الرسول يبلو منها غيرة كلما أراد الذهاب إلى بقية نسائه .

وأرى أن انهزامها فى وقعة الجمل تسلل إلى نفس أختها أسماء أم عبد الله بن الزبير فلم تستطع أسماء أن تحارب بنى أمية بنفسها إذ كانت مكفوفة وكان فى قلبها من الحماسة والبطش والفروسة وحب الانتقام ما لو وزع على جيش من الأبطال لزاد عنه . فسكبت حرارة قلبها ونقمة نفسها وموجدتها اللاهبة فى ابنها عبد الله بن الزبير . وكان عبد الله ذا هوى فى الخلافة وتطلع إلى التفرد بالإمرة فى ديار الإسلام كلها ، ثم نفخت فيه (روح الانتحار) وهو مشرف عليه . وكانت تعلم مصيره المحتوم من القتل والمثلة ولعمرى إنها لأروع

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

من مسرحية إذ تجود امرأة مسنة بابنها الغالى ، فتدفع به إلى الحرب وقد حوصر وانفض عنه جمعه . لكأنى أتمثله داخلا عليها بعد أن حاصره الحجاج خمسين ليلة بمكة ثم راسله بالأمانة ، فقال لأمه فى الساعة الأخيرة يستشيرها[1] :

— « يا أماه ، خذلنى الناس حتّى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

فتجيبه[2] :

— « أىْ بُنىّ ، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها مخافة القتل ، مت كريما » فقال :

— يا أمه ، إنى أخاف أن يمثل بى بعد القتل ، فأجابته :

— وهل تتألم الشاة من السلخ بعد الذبح ؟ » .

وكانت تنصحه أن يلبس ثيابه مشمرة وأن يخرج إلى القتال بغير درع . وكانت تعلم حتما أنه إنما يخرج للانتحار وأن رأسه سيرفع على الرماح ، كما رفع رأس أخيه مصعب من قبله ، وأنه سيصلب . ولكن غليان الثورة فى نفسها كان جامحا فلم تقبل المسالمة والإبقاء على عبد الله — وقد وكد له الأمويون أن يبقوه معززاً أميراً — . فدفعته بيدها إلى الموت ، وكانت كمن وقف على شفا هاوية فدفع فيها إنسانا ليتردى .

وما أحسبها أطفأت بموته غلتها من مقاتلين هجموا على ابنها عبد الله ، وهم يتعاورون قتله ويصيحون به متهكمين :

— يا ابن ذات النطاقين !

ومن يدرى ؟ فربما كانت الفروسية فى نفسها تدعوها إلى الحرب منذ أغاثت الرسول وصاحبه أباها ليلة الهجرة .

ولعل مقتل طلحة بن عبيد الله فى وقعة الجمل . وكان طلحة عضداً لأختها عائشة ، أبقى فى نفسها نقمة على قاتله مروان بن الحكم — على ما فى أنفس العرب من كمون المواجد والثأر — فشجعت ابنها عبد الله ومصعبا على محاربة عبد الملك بن مروان . فكانت الضغينة الدفينة من أسباب صلابتها فى متابعة القتال حتى الساعة الأخيرة .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٣ وبلاغات النساء لأبى الفضل طيفور طبعة الألفى بمصر سنة ١٩٠٨م ص ١٣٠ .

(٢) إن إصرارها على المضى فى الحرب وقد ظهر انكسار ابنها فيها ، لدليل آخر على زجها به فى الموت دون روية وتعقل .

وإنى أتصور كيف جاءها الخبر فى مقتل المصعب أخى عبد الله . فقد كان بطلا من المناجيد فلما وهت حربه وخانه صحبه، قتله عبد الله بن ظبيان واحتز رأسه[1] ، وجاء بالرأس إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول :

نطيـــع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا ... وليس علينـــا قتـــلهم بمحـــرم

وأستعين بالخيال على تمثل الخبر فى مقتل عبد الله بن الزبير الذى كانت أسماء تسمع خبره ويروى لها . . .

لقد كان عبد الله بن الزبير مكين القلب ، ثابت الضربة . ضرب رجلا به أدمة فقطعه – حين حارب حرب موته – وهو يقول : هذا من قتلة عثمان ورب الكعبة . وأحاط به الناس فتكاثروا عليه ينوشونه من كل جهة ، فلم يزل يدفعهم بالسيف حتى أخرجهم من المسجد ورجع إلى البيت العتيق وهو يقول :

أبى لابن ســـلمى أنه غير خالد ... ملاقى المنايا ، أى صرف تيمما
فلست بمبتـــاع الحيـــاة بســـبة ... ولا مرتق من خشية الموت ســـلما

واقتحم جماعة مقبلين عليه وهو يقول :

قد سن أصحابك ضرب الأعنـــاق ... وقامت الحـــرب بنا على ساق

ثم حمل على نفر قادمين حتى بلغ بهم (الحجون) فرماه محارب من الخارج بآجرة ، ولعلها سقطت عليه من المنجنيق، فوقعت على وجهه وأدمته . وكأنى أبصر بيده يمسح بها وجهه ويمرها على لحيته وهى مخضلة بالدم فيقول :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم عاد إلى صحبه وقال لهم :

– « ألقوا أغماد السيوف ، وليصن كل منكم سيفه كما يصون وجهه ، لا ينكسر السيف بيد أحدكم فيقعده كالمرأة » . ثم قال :

يا رب إن جنود السلب قد كثروا ... وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا رب إنى ضعيف الركن مضطهد ... فابعث إلىّ جنـــودا منك أنصارا

---

(١) العقد ط ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٦٠ .

ثم شدخه محاربوه بالحجارة فانصرع .

فسجد الحجاج لله شكراً .

أما حال أسماء أم الصريع فلم يغيرها نزول الموت بابنها . لقد شهدته مصلوبا كما أمر الحجاج فقالت فيه كلمتها المشهورة بعد أن طال صلبه :

« أما آن لهذا الفارس أن يترجل » ؟!

وأرادت بذلك التهكم والتندر بالحجاج ، والإبقاء على فروسية ابنها حتى بعد موته . إنه لم يشف الحجاج أن يسفح جنده دم الزبيريين ، و إنما قام يتشفى بنفسه ، فأكب على عبد الله بن الزبير ساعة مصرعه « فجز رأسه داخل مسجد الكعبة »[1] . ثم أرسل برأسه وبرأس عبد الله بن صفوان ورأس عمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبت فيها — إخافة للقوم — ثم حملت إلى عبد الملك بن مروان[2] .

* * *

وجاءت نوبة الشعراء الزبيريين فبصرت بهم فلم أجد أصون بينهم للعهد من (عبيد الله ابن قيس الرقيات) ، فقد كان (زبيرى الهوى)[3] مدح عبد الله بن الزبير بغرر قصائده فى سلمه وفى حربه . وكان يعادى معه عبد الملك فلما قتل عبد الله هرب . وهو إذ لم يقو على رثائه خشية بنى أمية فإن فى شعره لمجالا لوصف البطولة التى عرفها التاريخ للزبيريين ، وكانت قرشيته تحمله على حد السيف ، فيتمنى لو أن قومه لم تفتك بهم الفتن . فيكون من قريش خير ملوك الناس .

قال يفخر بقرشيته ويتمدح بالزبير ويصف فروسية مصعب فى العراق ثم حصار الشاميين للبيت وتحريقه ، ثم يتملك دهشه ويل هذه الحرب الفاجرة ، فيتمنى لو أتلفت الشام وفيها بنو أمية غارة طياشة ، تذهل المرء عن بنيه والصاحب عن ذويه . وصارح بنى أمية العداوة ، ثم عطف قلبه على الحسين فإن مقتله يعطف كل القلوب . وعبيد الله ابن قيس الرقيات كان شاعر قريش فى الإسلام . فما ينبغى له أن يقصر فى أمر قريش التى ملأت السهل والجبل .

---

(١) العقد ط سنة ١٣٥٣ ج ٣ ص ١٦٥ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٥ والكامل فى التاريخ لابن الأثير ط أوربا ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٣) الأغانى ط التقدم ج ٤ ص ١٥٠ .

إنه يذكر فى هذه القصيدة القرشية ابن الزبير وأخاه مصعباً ، ومقتل المختار الثقفى الذى ادعى النبوة آخر أمره فيقول[١] :

والزبير الذى أجاب رسول الله فى الكرب والبلاء بلاء
والذى نغص ابن دومة ما تو حى الشياطين والسيوف ظماء
فأباح العراق يضرب بالمنـ ـصل صلتا وفى الضراب غلاء
إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

ثم يصف حريق البيت فى معركة مكة ، ودعوته إلى تقويض الدولة الأموية فى عقر دارها بقوله :

ليس لله حرمة مثل بيت نحن حجابه عليه الملاء
حرقته رجال لخم وعك وجذام وحمير وصداء
كيف نومى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
أنا عنكم بنى أمية مزْوَرّ — وأنتم فى نفسى الأعداء
إن قتلى بالطف قد أوجعتنى كان منكم لئن قتلتم شفاء

ولنترك مصعباً مطلول الدم فى العراق ، وعبد الله بن الزبير فياض الروح الحرم يصرخ عليها الصدى فى حنادس الليل . ولنتأثر ابن قيس الرقيات فنجده قد اتخذ الليل جملا وفر والأمويون يجدون فى طلبه ، فإذا هو بعد حين فى فلسطين ينزل ضيفاً على أهل له من بنى كنانة ، فيجد فى أكنافهم أمنه وراحته . ويخامره الحنين إلى داره البعيدة فيذكر شروده . ولعله كان يحن إلى الزبيريين فى قصيدة تفيض بالحماسة ووصف الحرب . وما أحسبه (كان جباناً) كما اتهمه راوى ديوانه[٢] أبو جعفر بن حبيب حسبما أورده الدكتور Rhodokanakis ناشر ديوانه . ولا أدل على بطلان هذه التهمة من شجاعته قبيل أن يشخص عبد الملك إلى حرب مصعب حين حمّله مصعب مناطق ملأى بالمال وقال له خذها فهى لك وانطلق حيث شئت فإنى مقتول . فقال له الشاعر : لا والله لا أريم ، وظل

(١) ديوان عبد الله بن قيس الرقيات ط فينا القصيدة رقم ٣٩ .
(٢) الطبعة السابقة ص ١٩٣ .

معه حتى قتل ، فانطلق وحده عائداً إلى الحجاز[١] .

وإن شعر ابن قيس الرقيات – إلى ذلك – فياض بالحماسة ومعاناة الفروسية . ولا أدل على ذلك أيضاً من قصيدته الشامية التى قالها فى فلسطين بعد أن استقرت فيها نواه ، وكانت معه زوجته فناجاها باستهلالة غزل ثم قال[٢] :

هزئت أن رأت بى الشيب عرسى ... لا تلومى ذوائبى أن تشيبا
إن يشب مفرقى فإن قريشاً ... جعلت بينها الحروب حروبا
فاظعنى فالحقى بقومى إنى ... لا أرى أن أقيم فيكم غريبا[٣]
فانزلى فى بنى كنانة تلقى ... فيهم العز إن دعوت قريبا
فأرى الدهر قد تغير بالناس ... وقد كانت الشعوب شعوبا

ثم أثار النسب عزته بقومه ففخر بفروسيته فقال :

حلق من بنى كنانة حولى ... بفلسطين يسرعون الركوبا
من رجال تفنى الرجال وخيل ... رُجُم بالقنا تسد الغيوبا
لا يبالون من أقام إذا ما ... كشفوا بالسيوف يوما عصيبا
ذاك خير من البليخ ومن صوب ... ذئاب علىّ يدعون ذيبا[٤]
إن قوم الفتى همو الكنز فى دنياه – والحال يسرع التقليبا

وهو فى هذه القصيدة وإن جمجم حديث الفروسية عن نفسه ، لكنه أفصح به عن قومه .

أما وصفه فروسيته هو وغاراته وحضوره القتال ، وذكره آماله وأمانيه فلم يعدم منه شعره صورة حماسية حية مزيجها حنينُ مغتربٍ إلى محبوبته الحجازية التى أتت دونها المفاوز وعيون الأعداء . إنه يقول فى هذه القصيدة[٥] :

---

(١) الأغانى ط التقدم ج ٤/١٥٦ .

(٢) ديوانه قصيدة رقم ٤٤ .

(٣) وردت فى ديوانه (بقومك) وأعده تصحيفاً صوابه (فانزلى بقومى) لأن القوم كانوا أهله فى فلسطين وكان هو فى الحجاز نازلا فى قومها فرأى نفسه بعد مقتل الزبير غريباً لمصانعة أهل الحجاز بنى أمية بعد مقتل عبد الله بن الزبير – ويظهر من القصيدة الآتية أن زوجته (الثريا) لم تترك دارها فى مكة فكان يحن إليها وهو فى منتآه بشعر عذب حزين .

(٤) البليخ تصغير البلخ وعنى به العراق . وصوب الذئاب يعنى من حل بالحجاز من المروانيين بعد مقتل صاحبه ابن الزبير فهو يزهد زوجته بالعراق والحجاز .

(٥) ديوانه ص ٢٠٧ .

حبــذا الحج والثّريا ومن بالســـــخيف من أجلها وملقى الرحــال
قطنت مــكة الحــرام فشطت وعــدتنى نوائب الأشــغال
إن تريني تغــير اللــون مــنى وعــلا الشيب مفرقى وقــذالى
فظــلال السيوف شــيبن رأسى وطعانى فى الحرب صهب السبال
واغــترابى عن عامر بن لــؤى ببــلاد كثيرة الأقتــال
ومــلوك فارقتهم أفــردونى وصروف الأيــام بى والليالى

ثم يصف أفراسه مع قومه وقد ركبها :

فعــدونا بهن فى غبش الليــــل رقــاقاً كأنهن المغــالى
أدرك الذحــل فتيــة من بنى عمــرو بصبر النفــوس بين العوالى
لو رأتنى ابنــة النويعم (ليــلى) إذ تُلف الأبطال بالأبطــال
حين نفدى أخــاك بالأسل السمــر وشــعث كأنهن السـعالى
لشفى نفسك انتقــام بنى عمــك حــين الدمــاء كالجــريال
طل من طل فى الحــروب ولم يطــلل علىّ ولا دمــاء المــوالى
وبنى مالك بن حســل ثأرنــا غــير فخــر بنا وغير انتحال
وأصبنــا بعــد الرجــال رجالا وحــوينا الأمــوال بالأمــوال

* * *

ذلك ابن قيس الرقيات ، إنه لم يأل جهداً فى وصف قتال الزبيريين وإقدامهم وحملهم أنفسهم على متون السيوف وثباتهم لجيش الأمويين اللجب فى العراق والحجاز . ولم يك مقصرًا فى وصف نفسه وشركته لهذه الفروسية وذاك البأس فى القتال والحروب .

كان كغيره من الشعراء السابقين والمعاصرين ، قصير النفس فى الموضوع الواحد طويله فى أشتات الفكر . فأين فى شعره وصف حصار الحجاج لمكة خمسين ليلة ، وأين تصوير المعركة الفاجرة فى الحرم ، وكان الجاهليون سموا حرب الفجار باسمها لأن المقاتلين استباحوا الحرم ومكة فقاتلوا فيهما كالذى صنع الحجاج والحصين بن نمير صاحب المنجنيق الذى كان يقذف الحجارة على البيت . ولم نر أثراً لذكر الحجاج فى مكة حتى كأن ابن قيس الرقيات كان يخشى أن يثلب جبار العراق الحجاج بن يوسف .

وكيف دار عليه الأمر فإن أشعاره الحماسية كثيرة وجيدة ، صورت لنا جوانب من

حياة الحجاز المضطربة على كف الحروب ، كما صور قلق نفسه وشروده وشركته فى الحرب والقتال .

وسنرى « فى الكلام على شعر الحرب عند بنى أمية » حال هذا الشاعر وحال غيره من الشعراء الذين لم يستطيعوا إبقاء على أنفسهم إلا أن يلبسوا الإهاب الجديد لبنى أمية وهو « المصانعة » طاوين بين الجوانح ألماً على الشهداء الفانين فى ساح الوغى . تخفق قلوبهم بالأحزان على مقاتلهم الفاجعة ، وتنطق ألسنتهم بمدح أعدائهم الأمويين ، أصحاب السلطان ، إبقاء على أنفسهم ورجاء للنوال ، بعد أن أعوز السؤال . فكانوا كالأرض الجدبة المحترّقة تتمنى الرى حتى من آسن الماء .

* * *

وويح الحجازِ أفلم يطلع فى وهاده وعلى أنجاده غير ابن قيس الرقيات فى زحام المعارك وبحران القتال ؟ ثم ألم ينجب الحجاز شاعراً يبكى بعد ابن الزبير على الملك الداثر والعز الزائل والدم المسفوك فى أكناف البيت العتيق !

بلى ، إن هنالك عمر بن أبى ربيعة المخزومى . ولكن ما أكثر خجل الشعر الحماسى لدى عمر بن أبى ربيعة . فهل أبقت النساء مكاناً فى قلب عمر يخفق بالحميّة وينبض بالمروءة فى هجمات الحوادث الجارفة بالدم الصبيب ، فى أباطح الحجاز ، عند أم القرى وعلى دارات يثرب .

لقد كان ابن أبى ربيعة مشغولا بالحسان ، موكل العينين بالجمال ، يتبعه حيث يجده ، فيجدّ فى إثره إلى سوقه التى تزدحم به فى موسم الحج .

قرأت ديوانه قصيدة قصيدة وبيتاً بيتاً ، فلم أجد أثراً لشعر فيه شميم الرجولة . فكأن ابن أبى ربيعة لم يكن معايشاً لكبريات الحوادث فى بلاده ، بل لعله كان فى معزل عنها ، وفى ملهاة بالرعابيب يسيل تخنثاً ودلالا ، وهو تياه بجماله على النساء . بينما كان على كثب منه يسفك دم الغطاريف من رجال العرب فيخضب أرض العروبة المقدسة .

وهو إذ يسجل مرة واحدة حادثة تبعث الشجو وتصرخ بالنقمة من ظالم ، لا ينسى أن يجعلها سبيلا إلى الغزل والدعابة .

فقد عرف أن مصعب بن الزبير بعد أن قتل المختار بن عبيد الله الثقفى ، أحضر زوجتيه فسأل إحداهما — أم ثابت — عما تقول بالمختار . فقالت : أيها الأمير أقول فيه الذى تقول

فأطلقها . وسأل الثانية وكانت – عمرة بنت النعمان بن بشير – فقالت : رحمه الله، كان عبداً صالحاً . فحبسها وكتب إلى أخيه عبد الله إنها تزعم أن المختار نبي مرسل ، فأمره بقتلها . فوكل مصعب أمرها إلى جندى من عسكره فخرج بها ليلا بين الحيرة والكوفة يضربها بالسيف وهى تصيح : يا أبتاه ، يا عترتاه ، ثم تشحطت فماتت . . فلم يثر هذا الحادث الفادح من الروعة فى نفس ابن أبى ربيعة أكثر من ثلاثة أبيات كان همه فيها الغزل فحسب فقال :

إن من أعظم الكبائر عندى قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وليت شعرى أى قتل وقتال كتب على ابن أبى ربيعة الذى لم يجرد غير سيف المجون يقتل به أخلاق زمنه ، حتى أفسد بشعره ربات الخدور ، وحتى هجاه أبو العباس الأعمى الشاعر وغيره (بنكوله فى الهجاء واشتغاله بأقوال الخنا) .

ولعله استغنى عن وصف مواكب الفرسان (بمواكب الحسان) وهو يلحق أسراب النساء بمكة، وفيهن عائشة بنت طلحة،وكانت تهرب من لقائه فرصدها وهى ترمى الجمار فلما رأته قالت : يا فاسق . . فراح يذكر (موكبها) بشعره ، فما أشبه عمر بشعراء التخنث والمراهقة فى أيامنا إذ يرسلون الشعر المتهتك فى المجتمع . وعدوان الاستعمار يصطنع أشتات الحيل للتفرقة والتحذير .

تلك مواكب ابن أبى ربيعة فى عصر الفتن والقلاقل ، وحروب الحجاز واحتدام الحماسة . فليت جده (حذيفة) أورثه بعض فروسيته . فلقد كان حذيفة يحارب برمحين يوم عكاظ فى الجاهلية حتى سمى ذا الرمحين ، لكان إذن قد كسب القريشيون فى عمر شاعر حروبهم ، ومؤرخ مغازيهم ، إلى جنب ابن قيس الرقيات ، فى عصر بنى أمية .

الفصل الرابع

شعر الحرب فى ظل الأُمويين

لقد انقسم الشعراء فى ظل الدولة الأموية ، ممن كان هواهم فيها وعصبيتهم لها قسمين :

(١) شعراء محضوا بنى أمية ودهم وأصفوهم هواهم ، فصدقوا فى وصف حروبهم وتصوير معاركهم ، ومدحوا بما كانوا يرون بنى أمية أهلا له من المكارم وجميل الذكر وبسطة السلطان . فجاء شعرهم سليماً من الملق ، وكان أحسن هؤلاء الشعراء قولا وأصدقهم وصفا من شهدوا تلك الحروب وكانوا فى المقاتلين .

(٢) شعراء اصطنعوا المودة لبنى أمية وادعوا لهم الهوى ، ولكن قلوبهم مع غيرهم من الخوارج أو الشيعة أو آل الزبير أو غيرهم ممن شق عصا الطاعة على بنى أمية ، وكان شعرهم فيهم يفوح منه التصنع ويشيع فيه الملق . وكان بنو أمية إما عارفين بهواه ، فأغمضوا دونه الجفون إبقاء عليه ، وتوخيا للعافية ، أو كانوا مخدوعين فيه .

وقد اشتجرت فى بنى أمية الحوادث ، واصطلحت عليهم الكوارث ، ولكنهم ثبتوا لهجمات الخطوب من كل صوب . واستطاع ساستهم والمخلصون من قادتهم أن يسيروا دفة المركب الأموى فى هذا البحر المتلاطم حتى بلغوا به الشاطئ . ولكن شد ما تنكر لهم الزمن فلم يسعدهم براحة . فإنهم ما بلغوا شاطئ الأمان ، حتى وجدوا عليه الهاشميين والعباسيين متربصين بهم آخر الدوائر .

وكانت مهمة أولئك الشعراء فى هذه الحروب والقلاقل ، وفى أشتات تلك الفتن أن يقولوا شعراً مزيجه مدح الفاتحين والغازين من بنى أمية ، وذم المندحرين والمتمردين من أعدائهم الكثير ، يصف جوانب من تلك الحروب ومشاهد من هذه المعارك دون الاستفاضة فى تصوير القتال على النحو المنشود . وقد كان فى مجال القول لهؤلاء الشعراء سعة ، فإن العراق كان لا يخلو فى سنة من السنين أو فى شهر من الشهور من حدث كبير أو فتنة صغيرة . وإنى لأشبهه بالبركان المكبوت لا تزال فيه النار ، تجد لها متنفساً من الشقوق ، أو فرجة تنفجر فيها . وأحسب أن الحجاز والعراق ، كانا دارتى المفاتن ، وإقليم فارس وما والاها كان ساحة التوسع فى الفتوح الناجحة ، وثغور الروم كانت مباغتات ومحاولات خاسرة

حيناً ، وناجحة حيناً ، تجر من المتاعب أكثر مما تجر من المكاسب .

وكانت هذه الأمصار في مفاتنها وقلاقلها يضرب بعضها في بعض ، كما تضرب أرقام الحساب ، فيتوالد جم من الكوارث . ولم تكن جيوش الأمويين في ذاتها سليمة من عوامل الانقسام والدس والفتن . فما يكاد الجيش يفصل بأمر خليفة إلى حرب الأعداء، حتى تشيع فيه روح التحاسد بين قواده وأجناده ، وحتى يثور بعض رجاله على بعض ويخلع ناس طاعة آخرين فيتحاربون ويتفانون ، ثم ترسل رؤوس العصاة هدايا إلى الخليفة . كالذى كان فى حروب (قتيبة بن مسلم) وهو فى خراسان ، حين خلع بيعة سليمان بن عبد الملك ، وكوثوب الأمويين على أمراء أجنادهم المهلبيين ، وحبسهم لهم وقتلهم يزيد ابن المهلب .

١ ــ كعب الأشقرى

شاعر الحروب الأموية

من شعراء الفريق الأول ، أى الشعراء المخلصين لبنى أمية ، (كعب الأشقرى الأزدى) وقد كان شاعراً من الفرسان الذين شاركوا فى الفتوح واحتملوا فى القتال نصيبا ، فقد شهد حروب الأزارقة . وحين أمكنت الحرب المهلب بن أبى صفرة من رقاب الخوارج أرسل بكعب إلى الحجاج ، يطلعه طلعَ النصر [١] فجاء الحجاج فى داره ، فأنشده فى حفل حاشد قصيدته الرائية الكبرى [٢] . وهى عندى أكبر قصيدة قالها شاعر فارس ، فى عصر بنى أمية جعلها مخصوصة لوصف المعارك ومشاهد البطولة ومواقف القتال وسكبها فى موضوع حماسى واحد .

وقد بلغت أبياتها أربعاً وثمانين بيتا ، بدأها ـــ كعهد الشعراء الأوائل ـــ بالغزل ثم عطف مسرعا إلى مدح المهلب بأبيات خلص منها إلى الموضوع ، فوصف كيف بغت العدو بالهجمة وارتاعت النساء واضطربت حال الخوارج ، فاعتصموا خلف الجسر ، ثم وصف جيوش الأمويين وقد لبست لباس الحرب وعبرت الجسر إلى الخوارج ، ترف عليها ألوية المجد فوق أبطال كالليوث ، ظلوا يلحقون بالخوارج إلى سابور الجنود ، فثبتوا لهم

---

(١) الأغانى ط التقدم ج ١٣ ص ٥٤ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٧٠ .

فيها وكأنهم أبطال من الجن ، واشتبكوا معهم هنالك فى معركة أفنت من الفريقين رجالا حتى ترك الخوارج الحرب وتسللوا بالمكر والخديعة إلى ما وراء تلك الأصقاع .فأتبعهم جيش الأمويين مرحلة بعد مرحلة يقاتلهم ويهزمهم ، حتّى كانت (الموقعة الفاصلة) فى قاع من الأرض صف فيه الجمعان كطودين ، فمشى الأمويون إليهم كماة متراصين ، كأنهم قطع من الليل ، وكانوا يحفون بقائدهم الأزدى فتضارب القومان بالسلاح فى نار مستعرة من الحرب وفى حومة موت ، ما فيها إلا الصوارم والأسنة ، حتّى وقع الخوارج صرعى ، فداستهم الخيل ، ثم غادرتهم للطيور تفرى لحومهم كواسرها ، فإن كان هذا آخر وصف كعب الأشقرى الشاعر البطل ، لمعركة المهلب مع الخوارج ، ختم قصيدته بمديح المهلب وزاد الأزديين قومه قسطاً من الفخر والمحامد والشرف والبطولة .

وقد تخيرت من هذه الملحمة الرائعة طائفة من أبياتها قال فيها شاعرها الفارس :

يا حفص إنى عـــدانى عنكم السفرُ ... وقـــد أرقت فـــآذى عينى السهر
علقت يا كعب، بعد الشيب غانية ... والشيب فيه عن الأهواء مزدجر
واشتدت الحرب والبلوى وحـــل بنا ... أمر تشمر فى أمثـــاله الأزر
تلبسوا لقـــراع الحـــرب بزتهـــا ... فأصبحوا من وراء الجسر قد عبروا
ساروا بألوية للمجد قـــد رفعت ... وتحتهن ليـــوث فى الوغى وقـــر
قتـــلى هنـــالك لا عقـــل ولا قود ... منـــا ومنهم دماء سفكها هدر
باتت كتائبنـــا تـــردى مسومـــة ... حـــول المهلب حتّى نـــوّر القمر
عبـــوا جنـــودهم بالسفح إذ نزلوا ... (بكازرون) فما عزوا ولا ظفروا ...
لاقـــوا كتائب لا يخـــلون ثغرهم ... فيهم على من يقاسى حربهم صعر
صفان بالقاع كالطودين بينهمـــا ... كالبرق يلمع حتّى يشخص البصر
يمشون فى البيض والأبدان إذ وردوا ... مشى الزوامل تهدى صفهم زمـــر
وشـــيخنا حـــوله منـــا ململمة ... حيٌّ من الأزد فيما نابهم صـــبر
نـــدوسهم بعناجيـــج مجففـــة ... وبيننـــا ثم من صم القنا كسر
فى (معرك) تحسب القتـــلى بساحته ... أعجـــاز نخل زفته الريح ينقعر
فى كل يوم تلاقى الأزد مفظعـــة ... يشيب فى ســـاعة من هولها الشعر
والأزد قومى خيـــار القوم قد علموا ... إذا قرومهم يوم الوغى خطروا

٧ حى بأسيافهم يبغــون مجــدهمو إن المــكارم فى المــكروه تبتدر
٨ لولا المهلب للجيش الذى وردوا أنهــار كرمان بعد الله ما صدروا

ونستطيع أن نحلل (من الوجهة الفنية) هذه القصيدة الحربية النادرة فى أدب العرب عصر بنى أمية تحليلا يتناولها بأجمعها على الشكل الآتى :

« ما يتعلق بمعناها » :

١ — سار فيها شاعرها على غرار شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ومعاصريه ، ممن يبدؤون القصائد بذكر الحبيب ووصفه ، والتشوق إليه — وقد لا يكون هنالك من حبيب .

٢ — مزج فيها مديح معشره وهجاء أعدائه بوصف المعركة . فسار فى سبيل أمثاله ، ممن قالوا شعر الحرب فمزجوه بمديح معاشرهم ، وهجاء أعدائهم .

كان أفضل من غيره من شعراء بنى أمية الذين وصفوا الحرب والقتال بنطاق ضيق ، فلقد توسع فى الوصف الحربى وتوالت أبياته فيه ، لا يند بينها البيت الشارد إلا قليلا .

٤ — وصف العرب فى حروبهم بما هم أهله فلم يمار (فى تفضيل شجاعة الأمويين وبطولتهم) وإنما (مدح شجاعة الخوارج أيضا) ووصف بطولتهم وفروسيتهم ، وتفانيهم فى القتال ، على الرغم من هجوه لأعداء الأمويين ، وكان هذا الشاعر أكرم من غيره من الشعراء الأمويين فى إظهار ذلك .

٥ — وصف لبوس جيشه وسلاحه والتحامه بالعدى وصفاً استعان على تجسيمه بالإحاطة وتتابع الصور . فقد وصف الصفين فشبههما بالطودين مما يحس بالحس ويجسم بالذهن . وجعل البرق تشبيها للمعان السيوف بينهما . وجعل الحرب نارا . وذكر تكسر السلاح لكل أداة يحارب بها . وذلك للتدليل على شدة الهول فى تجسيم الضنك . ثم ذكر كيف داست الخيول القتلى وفى هذا إشارة صارخة إلى انحطام العدو وهزيمته ، ووقوع قتلاه تحت سنابك الخيل مسلمة الجسوم لكواسر الطير .

٦ — ذكر المعذرة فى القتال من أنه ثأر وقصاص ، فقال : إن هذه المعركة (قتلى بقتلى فهو قصاص) .

« وما يتعلق بمبناها من الوجهة الفنية » .

١ — أن بحرها « البسيط » من أخص الأبحر بشعر الحرب ، لازدواج تفاعيله وتردادها بما يكسبه رنة موسيقية حماسية .

٢ ــ جاء رويها على الراء وهو الروى الذى آثره كثير من الشعراء فى شعر الحرب ووصف المعركة ، كرائية عمرو بن الحصين فى حروب الخوارج ، ورائية أبى تمام فى رثاء بطولة الطوسى .

وإن ألفاظ القوافى « نفروا وعبروا ، وظفروا ، وانتصروا ، ومكروا » كلها ألفاظ حربية تشد أزر الروى فى تطويل نفس القصيدة وحماستها .

٣ ــ فخامة ألفاظها مع سلامتها من الحوشى والغريب ، وسلاسة أسلوبها . وأخذ بعض أبياتها بمعانى بعض ، يجعلها فى خيار الشعر الحربى بوصف القتال فى الأدب العربى .

٤ ــ لم يسقط طول النفس فى أبياتها منزلتها عن أروع الشعر الحماسى ، فقد بدأت محلقة فى جو من البلاغة ، وظلت كذلك ثم كانت خاتمتها فى مثل هذا المطاف الرفيع .

٥ ــ لا يجد النقد اللغوى سبيلا إليها ، فإن كعباً كان شاعراً إسلامياً جيد الشعر ، عربى الصليبة التى لا تعرف ضعف اللسان . وقد شهد له بالتقدم الفرزدق[١] وكان بعد هذه القصيدة نابغة شعراء الأزديين ، وكفاه أن شهد له الحجاج بالشاعرية فقد قال له بعد إنشاد هذه (الملحمة) وهو معجب : « أشاعر أنت أم خطيب ؟ » .

* * *

وقد طرب الحجاج لهذه القصيدة الكبرى ، وطلب إلى كعب أن يصف له بنى المهلب ، فأفاض بكلام من « النثر الحربى » جزل مرسل . فأجازه الحجاج بمال كثير وأرسله إلى عبد الملك بن مروان ، ليستنشده الرائية الكبرى ويجيزه عليها .

وكان هذا الشاعر الأزدى فخوراً بأزديته التى تمرست بالحروب ، ذاهباً بها حتى فضلها بفروسيتها وشجاعتها على قريش ، ومنّ بها على الأمويين فى تغلب الأزد على الخوارج المعتصمين فى ديار فارس ، وقتلهم (عبد رب الكبير) الذى خلع بيعة « قطرى » ودعا إلى البيعة لنفسه وانقسم عن صاحبه[٢] فحارب الأمويين حتى فنى فى حروبهم ، وكأن سبب هذا الانقسام دسيس دسه المهلب بين الخوارج حين التبس عليه أمرُهم وأعيته شوكتهم . ثم استطاع المهلب أن يتفرغ لكليهما واحداً بعد واحد . فكانت له الغلبة على الخوارج فى

---

(١) الأغانى ط التقدم جـ ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) الكامل جـ ٢ ص ٢٣٧ .

عهده ، ولم يكن ليستطيع عليهم غلابا ، حتى بايعه على الموت أشجع رجال جيشه .

ذلك طرف من شعر « كعب الأشقرى » فى حروب بنى أمية للخوارج وقد وصف المعارك التى شارك فيها بنفسه وشهدها وأحسن ذكرها ، ووصفها وصفاً دقيقاً رائعاً على نحو ما تقدم مثاله . ولا خلاف فى أنه كان كما ذكرت أخلص شعراء بنى أمية إليهم حتى كان عبد الملك بن مروان يعير الشعراء به ويتنقص أماديحهم ، وهو يعرف أن فيها زوراً وملقا ، فقال لفريق منهم [1] « يا معشر الشعراء ، تشبهوننا بالأسد الأبخر والجبل الوعر والملح الأجاج ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرى فى المهلب وولده » .

وقد اشتغل كعب الأشقرى بملاحاة الشعراء ومهاجاتهم ، فابتلى دهره بزياد الأعجم يناوئه ويكويه . ولو تفرغ كعب وطال عمره لترك فى أدبنا العربى تراثاً رائعاً فى شعر الحرب قل أن يكون ضريعه عند غيره من الشعراء الذين عاصروه ، كما كان يملك طول النفس ودقة التصوير ورفعة الأسلوب والتقرب من وحدة الموضوع مع الفروسية (الشخصية) والمشاركة فى الحرب .

الأعشون الثلاثة فى الحماسة

١

لا ضير على الأعاشى فى الحرب إن افتقدوا إليها النظر ، فإن بصائرهم كانت تمد العيون . لقد عرف أعشى بنى تغلب[2] حروب قومه مع بنى شيبان فكان يحث جمعه عليها ، ويندب إلى لظاها القاعدين ، فزجر أبا مسمع مالكاً حين أورى نار الحرب ثم قعد عنها فقال فيه :

جزى الله شيبْانا وتيماً ملامة ... جزاء المسىء سعيها وفعالها
أبا مسمع من تنكر الحق نفسه ... وتعجز عن المعروف يعرف ضلالها
أأوقدت نار الحرب حتى إذا بدا ... لنفسك ما تجنى الحروب فهالها ،
نزعت وقد جردتها ذات منظر ... قبيح مهين حيث ألقت حلالها

---

(١) الأغانى الطبعة السابقة جـ ١٣ ص ٦٠ .

(٢) وهو النعمان بن يحيى من تغلب بن وائل .

وكانَ فى شعره أقرب حماسة إلى القبلية منه إلى نزعة أموية . ولعل نزعته الأموية قد أتيح لها من ينحرها فى نفسه نحراً ، فلم يفض شعره بحماسة أموية . وأعلل ذلك بتجهم وجه لقيه به عمر بن عبد العزيز حين جاءه مادحاً ، فلم يجزه ، وقال له : « ما أرى للشعراء فى بيت المال حقًّا » . ولولا أن الوليد ابن عبد الملك كان قد أكرمه قبل عمر بن عبد العزيز، لراح يذم الأمويين .

٢

وتعصب أعشى ربيعة[١] للمروانيين فكان « مروانى المذهب » يذم الزبيريين ويحرض عليهم الأمويين ، ومع ذلك لم يسلم من الحجاج الجبار حتّى اعتذر إليه بشعر حماسى فيه تهديد فقال[٢] :

أبيت كأنى من حذار ابن يوسف　　طريد دم ضاقت عليه المسالك
ولو غير حجاج أراد ظلامتى　　حمتنى من الضيم السيوف الفواتك
وفتيان صدق من ربيعة نصرة　　إذا اختلفت يوم اللقاء النيازك
يحامون عن أحسابهم بسيوفهم　　وأرماحهم واليوم أسود حالك

وكان مفوهاً أيام الفتن ، فدافع عن الكوفة والبصرة لما اتّهمهما الحجاج بإظهار المعصية وشق عصا الطاعة ، فاستل سخيمته بقوله : « أيها الأمير كل من المصرين قد والله اجتهد فى قتالك ، فأبى الله إلا نصرك ، وذلك أنهم جزعوا وصبرت ، وكفروا وشكرت . وغفرت إذ قدرت » . فرضى عنه وقال: له تجهز إلى عبد الملك يسمع منك هذا » .

٣

أما أعشى همْدان[٣] فقد وفى حق الحماسة عليه ، حين وصف وقعة (عين الوردة)[٤] وبكى شجاعة قتلاها .

---

(١) هو عبد الله بن خارجة .
(٢) الأغانى السابقة ج ١٦ ص ١٥٧ .
(٣) هو عبد الرحمن بن الحارث الهمدانى .
(٤) تاريخ الطبرى ج ٧ ص ٨٢ .

وأحسب بنى أمية لم يكونوا راضين عنه يومذاك ، لأن قتلى عين الوردة الذين قال فيهم قصيدته « المكتمة » كانوا من أعدائهم الناشزين عليهم . لكنه كفر عن جريرته فانتجع مروان بن الحكم فى الشام ، فلم ينل عنده حظا ، فتحول إلى حمص وكان عليها النعمان ابن بشير فأغناه . ولكن أريحيته أبت عليه إلا الوفاء للأمويين — بعد أن ملأ قلوبهم عليه غيظاً فى سالفته من التشيع — فنظم قصيدة فى مدح الحجاج وبنى أمية وهب لينشدها الحجاج فى حفل أقامه الحجاج ليحاكم فيه أصحاب ابن الأشعث بعد أن هزم رئيسهم وقتله فى وقعة (دير الجماجم) سنة اثنتين وثمانين للهجرة [1] . وكان أعشى همدان قد نفر مع النافرين وشارك ابن الأشعث فى حرب الحجاج . فجاء به الحجاج وهو يرسف فى قيوده ، وأحضره مجلس المحاكمة والتنكيل فقال له : « الحمد لله الذى أمكن منك » .

فنهض الشاعر المنكود غير وجل ولا هياب من وعيد أبى محمد وتهديده . فأنشد قصيدة يتمدح فيها بفروسة الحجاج ، ناكثا عهد ابن الأشعث ، ومصوراً وقعته الأخيرة وانخذاله وما خامر جمعه من الندامة فقال [2] :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفئ نار الفاسقين فتخمدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله ... كما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما لبث الحجاج أن سل سيفه ... علينا فولى جمعنا وتبددا
وما زاحف الحجاج إلا رأيته ... حساما ملقى للحروب معودا
فكيف رأيت الله فرق جمعهم ... ومزقهم عرض البلاد وشردا
بما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا
ليهنئ أمير المؤمنين ظهوره ... على أمة كانت بغاةً وحسدا

فما أسرع تقلب أعشى همدان ! فإنه أثنى على بنى أمية ثناء المخلصين ونسى يديه فى حربهم ، ظنًّا منه أنهم سيأخذونه بالرحمة ، وفاته كيد الحجاج وصلابة عوده ، وجبروته ، فمضى فى مديحه لبنى مروان يقول :

وجدنا بنى مروان خير أئمة ... وأعظم هذا الخلق حلما وسؤددا
إذا ما تدبرنا عواقب أمرنا ... وجدنا أمير المؤمنين المسددا

---

(١) فى رواية المسعودى أن وقعات ابن الأشعث مع الحجاج بلغت نيفاً وثمانين وقعة (تاريخه جـ ٣ ص ٧٣).
(٢) الأغانى السابقة جـ ٥ ص ١٥١ .

ولعله أدرك سوء المصير فأرخى عنان الشعر يتعطف به قلوب بنى أمية على المغلوبين ، ويستحث رحمتهم وإشفاقهم على قوم تنوح نساؤهم عليهم وهن خالطات الدموع بكحل العيون، وأين سخيمة الحجاج وقلبه من شعر الشعراء؟ لقد أفل دهر العرب فى الجاهلية إذ كان فيه شاعر كالنابغة يستل سخائم النعمان فيرضى عنه بعد إهدار دمه ، وأدرك العرب دهر مثقل بالترات ، مصبوغ بالدماء والنقم ، فلما فرغ الشاعر من إنشاد هذه « القصيدة التائبة » عجب من حضر لأعشى همدان ، وعطفوا عليه قلب الحجاج ، فقال لهم جبار بنى أمية :

– إيه ، هيهات . . . وصاح :

– يا حرسىُّ ، اضرب عنقه . .

الفصل الخامس

الفروسية القبلية

من شعراء (الفروسية القبلية) النابغة الشيبانى [1] ، فقد كان شاعرًا بدويًّا من شعراء الدولة الأموية ، مدح بنى أمية وأجزلوا له العطاء ، لكنه لقى من هشام بن عبد الملك عذابًا فبات فى عهده طريدا . أما فخره بحماسة قومه فكان دليلا على نزعته القبلية فى الفروسية ، وهى عنده وعند أنداده أفضل من التمدح بفروسة الأمويين وبطولتهم .

أما الشاعر الذى ظهرت فى شعره النزعة القبلية بوضوح والتزام وحفاوة ، فهو الشاعر القطامى [2] . وإنى لأعده مثالا لشعراء الفروسية القبلية ، وأرى شعره أصح دليل على شعر الحرب الذى سكبه صاحبه على قومه ، فلم يجعل لغيرهم نصيبًا فى شرفه ، وقد ذهب القطامى بعمود هذا الضرب من الشعر الأموى .

كان شاعراً فارساً كما يدل على ذلك شعره ، شهد حروبًا قبلية وسمت شعره بميسم قبلى صرف . وتكشف لى هذا الشاعر عن نزعة عصبية جاهلية ، لم يذهب بها العهد الأموى . ولعل نصرانيته وقته من التنازل عن هذه العصبية الجاهلية التى زهّد فيها المسلمين ، دينُهم الجديد .

والذى يشغلنى من أمر هذا الشاعر شعره الحربى القبلى ، وقد وجدته موفورًا فى ديوانه [3] الذى وقف عليه المستشرق الألمانى (بارت) وكتب له مقدمة تحليلية ربط فيها القرابة بين القطامى والشاعر الأخطل ، وكان ثابتًا عند بارت أن القطامى كان نصرانيًّا وأسلم ، مستندًا إلى رواية أبى الفرج الأصبهانى التى يقول فيها [4] « وكان نصرانيًّا وهو شاعر إسلامى مقل » فكان تفسير الأستاذ بارت يؤول أن القطامى كان نصرانيًّا ثم أسلم فأنكر عليه ذهابه فى هذا التفسير الأب لويس شيخو اليسوعى فى كتابه [5] « شعراء النصرانية » ولولا أنى أحب أن

---

(١) هو عبد الله بن المخارق .

(٢) هو عمير بن شييم بن عمر التغلبى .

(٣) ديوانه ط ليدن سنة ١٩٠٢ لبارت .

(٤) الأغانى ط التقدم ج ٢٠ ص ١١٨ .

(٥) شعراء النصرانية فى دولة بنى أمية ص ١٩٢ .

أجزم بنصرانيته لأعلل مذهبه فى شعر الفروسية القبلى وعدم تأثره بالإخاء الإسلامى ونفى العصبية القبلية بين المسلمين ، لما عرضت لقول بارت والأصبهانى وشيخو . وقد رجح عندى مذهب الأب لويس فى هذه الناحية .

لقد جرت حروب لقوم القطامى مع القيسيين ، فأعطى قومه قسطاً كبيراً من شعره ظهر فى ديوانه ، وكان لايقر لأحد بالفروسية سوى قومه حتّى قال فى المهلب :

وما جعل الله المهلب فارسًا ولكن أمثال الهذيل الفوارس

والهذيل من بنى تغلب :

ويظهر هذا الحس الحماسى لإعزاز القبيلة جليًّا لديه فى قصيدته العينية (لضباع) التى يفضل فيها جنسه بالبطولة والشجاعة وثقاف السيوف فيقول فيها [١] :

كأن الناس كلهم لأم ونحن لقلة علت ارتفاعا[٢]
فكل قبيلة نظروا إلينا وحلوا بيننا كرهوا الوقاعا
فهم يتبينون سنا سيوف شهرنا هن أياما تباعا

ثم صرح (بالبغضاء والعنصرية) والضغائن التى لا تخمد فى صدور بعض القبائل على بعض فقال :

وكنا كالحريق أصاب غابًا فيخبو ساعة ويهب ساعا
فلا تبعد دماء بنى نزار ولا تقرر عيونك يا قضاعا

ثم ذكر شركة قبيلته فى الحروب و (الملاحم) والوقائع ومآثرهم الحربية حتّى التى كانت فى الجاهلية يوم الكلاب فقال :

ولو تستخبر العلماء عنها ومن شهد (الملاحم) والقراعا
بتغلب فى الحروب ألم يكونوا أشد قبائل العرب امتناعا
زمان الجاهلية كل حى أبرنا من فصيلتهم لماعا[٣]
همو وردوا الكلاب على تميم بموج يبلع الناس ابتلاعا

---

(١) القصيدة رقم ١٣ .
(٢) أى بنو العلات وهم لأب واحد وأمهات شتّى .
(٣) أبرنا أى أهلكنا فصيلتهم . لماعاً أى شيئاً بعد شىء كاللماع من اللمع .

لقد كان القطامى من غلاة القبلية . وكان من مغالاته هذه وإلحاف عصبيته يهول بشعره قيمة العشيرة وخطره فيها وبلاء فروسيته[١] فيقول وهو يفاخر بشعره الحربى :

فلو أننى هانت على عشـيرتى   لسبت عروض واستحلت محارم
ألم تر للبنيـان تبـلى بيـوته   وتبقى من الشعر البيوت الصوارم

وأحسبه عاش جرارًا أذيال الفخار، مزهوًا بقبيلته مفديًا فرسان قومه الذين مزجوا كؤوس مناياهم بالشرف فى (يوم العـَروبة ويوم نهر الثرثار) ،مصورًا غاراتهم وبأيديهم السيوف مصلتة تنقض كالشهب ، ما تعرف غمدًا منذ سلت للحروب ، حتى إذا روى وجده بهذا الوصف للسيوف القاطعة ، ونيران الحرب الواقدة والرماح المتشاجرة التى تفرى الدروع عاد إلى نحيزة القبيلة فأنذر وتوعد . وكل ذلك قاله لزفر العبسى ، غير هياب ولا وجل ، على حين كان أسيرًا عند زفر فمنّ عليه صاحب قريقساء وسيد العرب فأطلقه. وما ذلك إلا لتأصل الروح القبلية فى نفسه ، ولصدق بلائه فى فروسيته ، حتى راح هو فى دوره يمن على زفر أيضا فيقول[٢] .

من مبـلغ زفر العبسى مدحته   من القطامى قولا غـير أفنـاد
إنى وإن كان قومى ليس بينهم   وبين قومك إلا ضربة الهـادى
مثن عليـك بما استبقيت معرفتى   وقـد تعرض منى مقتـل بادى
لولا كتائب من عمرو تصول بهـا   أرديت يا خير من يندو له النـادى
إذ لا ترى العين الأكل سـلهبة   وسابح مثل سيد الردهة العـادى
إذا الفوارس من قيس بشكتهم   حـولى شهود وما قومى بشهادى

ثم يكون تهديده وتفضيل قومه بقوله :

أبلغ ربيعـة أعـلاها وأسـفلها   أنا وقيسًا تواعـدنا لميعـاد
ولو تبينت قـومى مارأيتهمـوه   فى طالعين من (الثرثار) نـدّادِ

ويدل شعر الحرب عند القطامى أنه سلخ جزءاً كبيراً من حياته مشغولا بالحرب العوان بين قومه بنى تغلب وبين قيس عيلان[٣] فإن قصائده فى غير الغزل لا تخلو من ذكر

---

(١) القصيدة رقم ١٤ .
(٢) القصيدة رقم ١١ .
(٣) الشعر والشعراء ابن قتيبة طبعة أوربا ص ٤٥٣ .

الحرب والسلاح والاعتزاز بشجاعة القبيلة . ويدل شعره إلى ذلك على أنه بلا الحرب وعانى أهوالها ولولا ذلك لما وقع أسيرا بيد زُفر بن الحارث الكلابى حين ظفر زفر على التغلبين فى حربه وكيده وشعر القطامى وإن جرى فى الحرب ولم تفسده السياسة ، فإن الأخطل داهية السياسة وهو خال القطامى كان كفيلا فى أن يستغل نزعته القبلية وثورته العصبية المتوقدة ، ويمضى بها فى سبيل السياسة ، فيحارب به القيسيين مع تغلب . وقد كان التغلبيون يناصرون عبد الملك بن مروان ، بخلاف القيسيين الذين حاربوا مع عبد الله بن الزبير .

الفصل السادس

شعر الحرب عند الهجّائين

١ ـ حماسة الأخطل

لعل الأخطل أعظم فروسية ومعاناة للحرب من صاحبيه الفرزدق وجرير ، إذ كان أكثر تصويرًا للحرب وحفاوة بها للصوقه ببنى مروان ومنافحته عن دعواهم ، وبث سياستهم ، ولذا نرى وصف الحرب وذكر القتال أكثر فى شعره من صاحبيه .

وقد ابتلاه دهره بالغزوة ، فتوسط الحرب ، وكابد الطعن والضرب ، فذكر (يوم الثرثار) فى شعره كثيراً . وكان الثرثار يوماً مغسولا بالدم بين بنى تغلب قوم الأخطل وبين قبائل القيسية. فقد تحاشد التغلبيون فيه إلى الثرثار[١] ، قتل فيه عمير بن الحباب السلمى رأس القيسية ، وقد بلغ المتقاتلون ألوفا ، فاشتدت الوقعة وأرخص الجمعان الموت ، وبلغ من بطولة الشجعان فيها أن قاتلوا وهم جرحى ، فكان شعيب بن مليل وهو من رءوس التغلبيين يقاتل بعد أن قطعت رجله وهو يقول [٢] :

قـد علمت قيس ونحن نعلمُ أن الفتى يقتل وهو أجذمُ

فلما قتل شعيب نزل أصحابه فعقروا دوابهم ثم قاتلوا حتى قتلوا .

ودامت وقعة الثرثار يومين حتى انتقضت تعبية القيسية وغلبوا على أمرهم فغلبتهم تغلب وأسرتهم ، ومثلت بأحلافهم بنى سُليم [٣] .

فحق للأخطل أن يملأ شعره بذكر يوم الثرثار وأن يكاثر به ويفاخر ، وقد ظهرت فى شعره روح القبلية فأجاد فى وصف الحرب وبطولة قومه ، إذ جاء شعره صادقًا فى بطولتهم

---

(١) واد عظيم فى الجزيرة يمده الماء فى الشتاء وهو بين سنجار وتكريت كان قديماً منازل لبكر بن وائل واختص بأكثره بنو تغلب ، يصب فى دجلة من فضلات نهر نصيبين (ياقوت) .

(٣) الأغانى الطبعة السابقة ١١ ، ٦٠ ، وتكملة شعر الأخطل وقوف الأب صالحانى طبع بيروت عن نسخة طهران الخطية سنة ١٩٣٨ ص ٢٢ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير الطبعة الأزهرية ج ٤ ص ١٥٢ .

ومآثر التغلبيين فراح يفت بشعره فى عضد المغلوبين وفيهم تميم ، ويذكر يوم الثرثار وبلاء قومه فيه ومقتل عمير بن الحباب واحتزاز رأسه ، ويحذر قومه من الصلح فيقول [١] :

فقد أحيا سفاهُ بنى تميم ... دفين الشر والدِّمن البواقى
ملأنا جانب (الثرثار) منهم ... وجهزنا أمية لانطلاق
ولاقى ابن الحباب لنا حميّا ... كفته كل حازية وراق [٢]
فأضحى رأسه ببلاد عك ... وسائر خلقه بجبا براق [٣]
فلا تسترسلوا لدجاء صلح ... فإن الحرب شامزة النطاق [٤]

وذكر بقاء جثة عمير ضاحية فى الفلاة ، وفى ذلك إشباع لروح النقمة فى نفسه ، وإعراب عن العداوة القبلية التى كانت ما تزال متأصلة فى نفوس العرب لعهده بقوله :

أمعشر قيس لم يمتع أخوكمو ... عمير بأكفان ولا بطهور
تدل عليه الضبع ريح تضوعت ... بلا نفح كافور ولا بعبير

* * *

وكان بعد (الثرثار) يوم البشر وهو يوم الجحاف بن حكيم ومعه القيسية على بنى تغلب وكان المتحرش الأخطل إذ أساء إلى الجحاف فى مجلس عبد الملك[٥] وغمز جانبه ، وخرج الجحاف إلى صحبه من القيسية فجمع منهم ألف فارس . وآلى أن لا يغسل رأسه حتى يوقع ببنى تغلب الذين منهم الأخطل ، حتى جاء ماء لبنى جشم بن بكر رهط الأخطل ، فصادف عليه قومًا عديدًا فأنشب فيهم سلاحه ، وقتل منهم مقتلة عظيمة « وأخذ الأخطل فيمن أخذ ، وعليه عباءة وسخة فظنوه عبداً » . فلما أطلقوه خشى أن يعرف فرمى نفسه فى جب فلم يزل فيه مختبئًا حتى انصرف القيسيون فنجا ، وقد قتل أبوه (غوث) فى هذه الوقعة وكانت تسمى وقعة (يوم البشر [٦]) .

(١) ديوان الأخطل رواية اليزيدى عن ابن الأعرابى وقوف الأب صالحانى ط بيروت سنة ١٨٩١ ص ٣١ .
(٢) الحميا هنا شدة الحرب وسورتها ، والحازية الكاهنة ، وفى البيت تهكم .
(٣) حبابراق اسم موضع .
(٤) الشامزة المشمرة .
(٥) تكملة شعر الأخطل ص ١٧ .
(٦) البشر جبل من عرض الفرات من جهة البادية (ياقوت) .

ففر الجحاف إلى بلاد الروم بعد أن طلبه عبد الملك بقتلى هذا اليوم ولم يزل فيها حتى حمله عبد الملك ديات القتلى ، وكان الجحاف شاعرًا فوصف هذا اليوم يخاطب الأخطل بقوله :

أبا مالك هل لمتنى إذ حضضتنى   على القتل أم هل لامنى بك لائمى
ألم أفنكم قتلا وأجـدع أنوفـكم   بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى (عميرا) بسيفه   إذا قبضت أيمانهم بالقوايم
يكر عليهم سـابحًا ذا عـلالة   بأبيض طلاع ثنايا المخـارم[١]

وقد وصف ابن الصفار المحاربى ويل هذه الحرب ومناحة تغلب بعدها وتحريق تغلب لموتاها خشية العار من أن يعرف الناس القتلى ، فتكون كثرتهم سبة عليهم أبد الدهر فقال :

وهل يرجـع الموتى حنين مآتم   يبكين قتـلى تغلب وانتحابها
وكيف وقد أوقدتم النـار فوقهم   فحـرقهم تسعارهـا والتهابهـا

وكان طبيعيًّا أن يسدل الأخطل ثوب ستر على انهزام قومه فى هذا اليوم ، فتحاشى الخوض فيه كثيراً فى شعره وتناول هذه الوقعة جرير يعيره بها ويعيبه وكان لمثلها بالمرصاد[٢] .

وكان بعد الثرثار يوم (الشرعبية) وفيه انتصر قوم الأخطل. وكان يومًا سياسيًّا وليس لوجه القبيلة . فقد دفع فيه بنى تغلب إلى حرب قيس مالك بن مسمع وكان زبيرى النزعة ومن أصحاب مصعب بن الزبير وملازميه « وجعل الأخطل يحضهم فى هذا اليوم بمصرع مجاشع المقتول فى أول يوم من حربهم » [٣] .

وكان النصارى قوم الأخطل فى أمن وحرية ، بحيث يشهرون صلبانهم على الرايات ، يعتصمون بذكر قديسيهم ، فقال الأخطل فى حضه قومه يذكر ذلك :

ويهـاً بنى تغلب ضرباً نافعـا   وانعـوا بأطراف القنـا مجاشعا
لمـا رأونـا والصليب طالعـا   ومـار سرجيس وسمـا ناقعـا
والبيض (فى أيمـاننا) القواطعا   والخيـل لا تحمـل إلا دارعا
خـلوا لنا (راذان) والمـزارعا   وحنطـة طيسا وكـرما يانعـا

---

(١) العلالة بقية جرى الفرس .

(٢) الأغانى طبعة التقدم ج ١١ ص ٥٦ .

(٣) تكملة شعر الأخطل ص ٣٢ .

فلما وقعت هذه الوقعة بعد الثرثار ، وكان الظفر فيها لتغلب أيضاً ، وقعت أخبارها للأخطل ألذ من وقوع الخمر فى حلقه فقال :

وسرن من الثرثار خمساً إليكمو يخبرن أخباراً ألذ من الخمر

وفى ذكر هذا اليوم ويوم (إراب) جعل الأخطل يتصالف على جرير ويعيره لأنه يربوعى ، وكان بنو يربوع أحلافاً للقيسية التى حاربت قوم الأخطل فأحمى الأخطل مياسمه ، وكوى بها جريرا ووصف جيش الهذيل وأحلافه ، وفرسانهم وخيولهم ، وكرهم فى الحرب فقال :

ولقد سما لكم الهذيل فنالكم بإراب حيث يقسم الأنفالا (١)
فى فيلق يدعو الأراقم لم تكن فرسانه عزلا ولا أكفالا
بالخيل ساهمة الوجوه كأنما خالطن من عمل الوجيف سلالا
فسقين من عادين كأساً مرة وأزلن حد بنى الحباب فزالا
فانعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

ولم يكتف بغمز جرير هذه الغمزة المتهكمة ، وإنما أراد أن يجرى على عادة صحبه الشعراء المقذعين ، فصب الإقذاع على جرير بعد هذا البيت واتهم بالفاحشة أمه .

كذلك أضاع الأخطل قدرته على وصف المعارك وتصوير الحرب بشعر الهجاء ، فمزج أماديحه بنزوات من شعر الحرب ، كان يضع خلالها أبياتاً فى هجاء أعدائه القبليين ، وأعداء الأمويين متمدحاً فيما بين ذلك بالأمويين أو مفتخراً بنفسه ، تغالبه فى جميع ذلك وساوس السياسة التى احترفها ، وكان من أقطابها فى بلاط عبد الملك بن مروان . وقد بلغ من حذقه فى فنونها أن كان يتلاعب بقلب الخليفة فيستل منه الرضا عن رجالات العرب وأقوامهم ويملؤه سخائم على آخرين . كما فعل حين أوغر صدر عبد الملك على الجحاف ابن حكيم (كما تقدم) وكان يصلى عواقب سياسته ، كالذى جرى له فى حرب الجحاف لقومه التغلبيين وتقتيلهم وفيهم أبوه غياث .

وحمل عبد الملك على أن يرفس زفر بن الحارث على صدره وأن يرميه من مجلس بجانبه إلى الأرض ، ثم انطلق يعزز حملته هذه السياسية بقصيدته الكبرى :

---

(١) هو الهذيل بن هبيرة التغلبى .

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى فى ظرفها غير

وفيها يقول :

بنى أمية إنى ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمناً زفر
واتخذوه عدواً إن شاهده وما تغيب من أخلاقه دعر

ثم فتك بهجائه فى هذه القصيدة بقيس عيلان جميعاً .

تلك كانت شواغل الأخطل ، حرب هجاء مع جرير الذى كان يسميه بابن المراغة أى ابن الأتان ومع أعوانه من الشعراء . ومعالجة دسائس سياسية فما بين ذلك ، وشعر مدح ليس فيه نزعة حزبية أصيلة كالتى نراها عند شعراء الخوارج أو الشيعة أو دعاة الزبيريين .

كل ذلك حال بينه وبين التفرغ لشعر حرب مطول ، يؤرخ الحروب التى جرت فى زمنه — وكان مقامه يقتضيه ذلك كشاعر للخليفة مختص به أثير عنده — فترك لنا شعراً تعج قصائده الطوال بالهجاء والفخر والمديح .

٢ — فروسية الفرزدق

يقول محمد بن حبيب عن ابن الأعرابى إن الفرزدق « كان أجبن من الصافر[١] » وتروى كتب الأخبار[٢] وشعر الفرزدق أنه هرب من زياد بعد أن هجا بنى فُقَيم فاستعدوا عليه زياداً فلجأ إلى المدينة وعليها سعيد بن العاص فأمنه وأجاره .

ودعاه زياد للعطاء واكتساب الصفح فأبى واستعصم بخوفه واتخذ البيد سبيلا .

وكان اسم زياد يخيفه ويقبض عليه نفسه ، وقد أقر بذلك حين قال :

إذا ذكرت نفسى زياداً تكمشت من الخوف أحشائى وشابت مفارقى [٣]

وكان يخاف الحجاج جبار بنى أمية ، ويراه كالليث ، تخشى بوادر ثورته ومضارب سيوفه فى الأعناق فيقول :

أخاف من الحجاج ثورة مخدر ضوارب بالأعناق منه خوادره

---

(١) ديوان الفرزدق لبوشيه ط باريس القسم الأول ص ٢٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ١٣٨ .

(٣) ديوانه القسم الرابع ص ٢٣٧ .

وتحطمت على القدّ شجاعة نفسه ، فقد أضر برجليه الحديد فى محبس خالد بن عبد الله القسرى حتّى أطلقه أسد أخو خالد ، بعد أن مدحه الفرزدق بقصيدة أولها :

عسى أســد أن يطلق الله لى بــه ... شبا حلق مستحكم فوق أســوقى

وإن شاعراً كسر قلبه خوف السلطان ، وهربه فى البلاد من بطش زياد ، متعرضًا فى لياليه لليث والذئب . وقد تحمل حبس هشام وحبس القسرى بيد صاحب شرطته الظالم مالك بن المنذر بن الجارود [1] ورسف فى القيود ...

وإن شاعراً شغلت قلبه النساء ، فيهن نوار بنت أيمن ، وثانية مجاشعية ، وثالثة من اليرابيع كانت تقول له نوار : « تزوجتها دقيقة الساقين » ورابعة اسمها سودة ، وخامسة هى حدراء بنت زريق القيسية . وذهبت نوار بأكثر قلبه حتّى نتفت لحيته فقال :

بكرت علىّ نـــوار تنتف لحيّتى ... نتف الجعيدة لحية الخشخاش [2]

كل ذلك البلاء قد اصطلح على الفرزدق ، وزاد عليه احتسابه أولاده من نوار وبكاؤه معها عليهم ، وكبته لتشيعه ، إلا نزوات كان يسرى عن نفسه بها بين حين وحين . . ليكفيه واحد من هذه الخطوب أن يهشم نفسه ، مهما يكن قوى الفؤاد مكين التحمل .

فلنعذر إذن أبا فراس ، فإن أهله وصحبه كنوه باسم الأسد تيمنا بشجاعته ، وهو إن فاتته شجاعة الفعال فلم يحارب ، ولم يخض المعارك و « نبت يده عندما ضرب بالسيف » حتّى هُجى بذلك [3] ، فإنه لم يقصر فى القول فقد نصب لنفسه عمود فخر يشق عنان السماء ، وراح فى طوال قصائده وقصارها يفاخر ببطولة قومه ، وفتك قبيلته ، وبأس أبيه غالب ، وصعصعة جده ، وكان ذا قلب نبيل ، مرتاحا للمعروف . وكان مصاباً بالفسوق ، يعرف من نفسه ذلك وشاع بهذا أمره ، وكان خلقه سلاحا بيد جرير عليه .

كل ذلك يدل على انطلاق نفسه وانعتاقها . وقد ظهرت هذه (النزعة الانطلاقية) فى حياته السياسية ، إذ لم يمارس الأمويين ولم يمازجهم كغيره من الشعراء الذين على رأسهم الأخطل ولذا تراه ظل مبعداً عن البلاط الأموى حتّى كان عهد سليمان بن عبد الملك ، فأتاه ينشده قصيدة منها قوله فى هذا الدليل :

---

(١) طبقات الشعراء للجمحى ط أوربا ص ٨٧ .

(٢) ديوانه القسم الرابع ص ٢٢٦ .

(٣) طبقات الشعراء السابقة ص ٩٣ .

فما كنت عن نفسى لأرحــل طائعاً   إلى الشام حتى كنت أنت المؤمّـرا
فحبــك أغشانى بــلاداً بغيضــة   إلىّ وروميــا بعمّان أقشرا

وهو يقصد بالرومى العمانى القشيرى المهلب بن أبى صفرة الأزدى العمانى ، فقد عاش الفرزدق يهجوه ويهجو زوجته (خيرة القشيرية) معتصما ببشر بن مروان ، وكان بشر يحميه من الغوائل فكسب أماديحه فيه ، حتى كانت أماديح الفرزدق فى بشر أكثر من شعره فى سائر المروانيين ومنهم عبد الملك .

والذى أبتغى الوصول إليه مما تقدم عن الفرزدق أن نفسه انخذلت (انخذالا بسيكولوجيا) حتى بات يمدح الرجل ويذمه فى برهة واحدة ، كما فعل مع عمر بن هبيرة الفزارى ، فإن فى ديوانه قصيدة مطولة بمدح ابن هبيرة بعدها قصيدة مطولة فى هجائه .

وهو الذى عير هشامَ بن عبد الملك بالحول ، وجعله من الموالى فكان الحول أشد عليه وقعاً ، بقوله :

يقلب وجهــا لم يكن وجــه سيد   وعينــاً له حــولاء بادٍ عيوبُهــا

فحبسه هشام ، وإذا بالشاعر حين صالحه هشام يمدحه ، ويخص بالمديح عينيه فيصف جمالهما بقوله :

قد اقتسمت عينــاك يوم لقيتنــا   حشاشة نفس ما يحــل اقتسامُها
فكيف بمن عينــاه فى مقلتيهما   شــفاء لنفس منهما وســقامها
وأنت لهذا النــاس بعــد نبيهم   سماء يرجّى للمحــول غمامها

* * *

فإذا عذرنا الفرزدق بعد تحليل نفسه من هذه الوجهات كلها استطعنا أن لا نعبأ كثيراً بشعر الحرب عنده ، فهو إذا هجا ابن الأشعث ووصف انهزامه ، فإنما يمدح الحجاج ويتملق جانبه . ولو أنه أطال نفسه فى شعر الحرب لترك أبياتاً متلاحمة تصلح أن تكون له شعراً حماسيًّا رفيعاً . ولكنه بدلا من أن يسترسل فى وصف الهزيمة لجيش ابن الأشعث فإنه عير ابن الأشعث بحياكة الأبراد اليمانية ، ووصف هزيمته وصفاً مسرعا لا خير فيه فقال :

وأفلت حــوّاك اليمانيين بعــدما   رأى الخيل تردى من كميتٍ وأشقر

ثم تناول ابن الأشعث بهجاء قاصم لاذع ، كله مقذعة ذميمة ، لا تدخل فى باب الشعر الذى تحسن روايته ، لكثرة ذكر العورات فيه . وبحسبه فى هذه القصيدة أن يحسن قليلا وصف (معركة دير الجماجم) فيقول :

فلما رأى أهـل العراق سلاحهم   وسيماهم كانوا نعـاما منفّـرا
كأن صفيح الهنـد فوق رؤوسهم   مصابيح ليـل لا يبالين مغفـرا
بأيدى رجـال يمنـع الله دينهم   بأصدق من أهـل العراق وأصبرا
كأن على دير الجماجم منهم   حصايد أو أعجـاز نخل تعفرا

ثم تناول الحجاج بكيل المديح وقرن فروسيته وبسالته بأهل (بدر) ثم (أنزل الملائكة) على جيش الحجاج تقاتل معه اكتسابا لنصره على الأشاعثة فقال :

لقيتم مع الحجـاج قوما أعـزة   غلاظا على من كان فى الدين أجورا
بهم يوم بدر أيـد الله نصره   وسوّى من القتلى الركى المعورا (١)
جنـوداً دعا الحجاج حين أعانه   بهم إذ دعا رب العبـاد لينصرا

ولكن الفرزدق القلق إذا اصطبر استطاع أن ينشدنا أبياتا خلال فخره ، يصف فيها جيشا علت رماحه وهو يسير ، له هزيم فى النهار ووئيد فى الليل ، ثم لم يلبث أن أعياه الصبر فانفلت من هذا الوصف الرائع للجيش إلى الفخر ذاكرا أعمامه وأهليه ، فقال وهو يعنى الجيش :

ومنتجـع دار العـدو كأنـه   نشاص الثريا يستظل العواليا (٢)
كثير وغى الأصوات تسمع وسطه   وئيـدا إذا جن الظلام وحـاديا
وإن حان منه منزل الليـل خلته   حراجا ترى ما بينه متدانيا (٣)
وإن شذ منه الألف لم يفتقـد له   ولو سـار فى دار العـدو لياليا
وأخبرت أعمامى بنو الفزر أصبحوا   يودون لو أزجـوا إلى الأفاعيا
فإن تلتمسنى فى تميم تـلاقنى   برابيـة عليـاء تعلو الروابيـا

---

(١) الضمير فى قوله (نصره) يعود على الله أى أيد الله بهذه الجنود نصر نفسه والركى الضعيف .
(٢) النشاص الرماح المشرعة .
(٣) الحراج الشجر الكثير .

ثم يترك شعر الحرب فجأة فى هذه القصيدة ، إلى تعداد آبائه وذكر نسبه .

فإذا لم يطمعنا الفرزدق بشعره الحربى ، وحاول إقناعنا (بفروسية لسانه) قنعنا منه أن يكون من أبطال (حرب الكلام) وهى التى يسميها ساسة عصرنا « حرب الأعصاب » فالفرزدق ينافح عن أهله باللسان ويعادى خصومه بالهجاء دون السنان ، وهو الذى يقول :

أنا الشاعر الحامى حقيقـــة قومه ... ومثلى كفى الشر الذى هو حـــاربه
وكنت إذا عاديت قومـــا حملتهم ... على الجمر حتى يحسم الداء حاسمه

٣ - بطولة جرير

تالله لست أرى أبدع موقفًا ولا أصدق شهادة على براعة جرير فى شعر الحرب من حادثة لم يرو نظيرها فى حروب الأقوام - على ما عرفت - منذ كان الحصام .

كان فى جيوش العرب المتحاربين أدباء . وكانوا كثيراً ما يتذاكرون الأدب وعليهم المفاضات والسلاح ، وهمهمات الخيل تملأ مسامعهم . إنه لم يكن يشغلهم عن الشعر وأخبار الشعراء وذكر الأدب شىء ، حتى الموت ، ولا كانت العداوات تحول بينهم وبين تذاكر هذا الفن .

يروى الأصبهانى فى أغانيه ، وابن سلام فى طبقاته[١] أن رجلين كانا فى عسكر المهلب بن أبى صفرة ، تنازعا فى جرير والفرزدق أيهما أشعر ، وكان ثمة نهر حاجز بين جيشهما وعسكر الخوارج ، وفيهم قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال اليشكرى ؛ فقال لهما المهلب حين سألاه رأيه فيهما « لا أقول فيهما شيئا ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما ، عبيدة بن هلال اليشكرى فعليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق »[٢] .

وكان أحد الرجلين عمرو بن شبة ولم تكن نفسه تهون عليه ، فخاف مسألة الخوارج فى الأدب والحرب قائمة . فخرج ورفيقه ودعا للبراز عبيدة بن هلال فخرج إليه عبيدة فقال المهلبى ، وصاحبه بحيث يسمع :

- « أسألك عن شىء تحاكمنا إليك فيه » ، فقال :

---

(١) ط التقدم ج ٧ ص ٣٧ . وطبقات الشعراء ط أوربا ص ٨٨ .

(٢) الأغانى السابق ج ٧ ص ٥٢ .

– « وما هو ، عليكما لعنة الله – قال : فأى الرجلين عندك أشعر أجرير أم الفرزدق ؟ فقال :

– لعنكما الله ولعن جريراً والفرزدق أمثلى يُسأل عن هذين الكلبين؟

قالا: لا بد من حكمك . فقال: إنى سائلكم قبل ذلك عن ثلاثة قالا: سل . قال : ما تقولون فى إمامكم إذا فجر ؟ فجعلا يراوغان بالجواب ويعبثان به ويهيجانه . فذهب لينصرف فقالا له : إن الوفاء يلزمك . وقد سألتنا فأخبرناك ولم تخبرنا . فرجع فقال من الذى يقول ؟ :

إنا لنذعر يا قصير عـدوّنـا ... بالخيـل لاحقـة الأياطل قودا
وتحـوط حوزتنـا وتحمى سرحنا ... جـرد ترى لمغـارها أخـدودا
أجـرى قلائدها وقـدد لحمها ... أن لا يذقن مع الشكائم عـودا
وطـوى القيـاد مع الطراد متونها ... طى التجار بحضرموت برودا

فقالا: جرير . قال: فهو ذاك .

وهذه الحادثة على سذاجتها تبين إقامة الخوارج على رأيهم ، فكان أول ما اشترط الخارجى الأديب على المهابيين أن يجيبا فى إمام المسلمين إذا ارتكب الفاجرة . وكان جديا ولم يكونا مثله ، وإنما طفقا يجيبانه إجابات يستثيران بها غضبه ، ولكنه لم يغضب وإنما أجابهما إلى سؤلهما فروى لجرير أبياتاً فى شعر الحرب ، تفيض فروسية فى وصف هجمة الخيل متلاحقة على العدو . واعتصام الفرسان بغاراتها ، وضمورها طول الطراد . فكان جرير بأبياته هذه القلائل مصوراً للأفراس المعدة للحرب (فى أربع صور متتابعة) وهى :

(١) عادية (٢) جرداء (٣) مقددة اللحم (٤) مطوية المتون .

وإن فى ثبات جرير لحرب هجاء عوان دامت أربعين عاماً ، كان يشنها عليه من كل صوب وحدب فحلان حملا لواء الشعر فى كل بنى أمية وهما الأخطل والفرزدق ، ومعهما ثمانون شاعراً فيهم السليطى والبعيث والأشيب بن رميلة ، لدليلا على صلابة عوده وقوة نفسه وشجاعته ، فلا غرابة إذا قال من شعره فى الحرب وأثرت له أبيات كثيرة فى الحماسة .

إنه كان يفخر بلسانه وكان يفخر بسيفه فيقول :

جرىء الجنـان لا أهاب من الردى ... إذا ما جعلت السيف قبض بنانيا

وليس لسيفى فى العظـام بقيـة وللسيف أشـوى وقعه من لسانيا

ومن ها هنا علّم جرير أبا تمام والمتنبي كيف يفضلان السيف على القلم إذ كان جرير يقول (إن السيف أنجع من اللسان) .

وكان جرير يشهد الغزوة ويكون فى العسكر[١] وكانت نفسه تعاو به إلى مشارف الفرسان والأبطال ، وكأنه كان يحس فى نفسه (الحس الحربى المكبوت) وقد ظهر فيه هذا الشعور حين قال الحجاج للفرزدق وجرير وهو فى قصره بالبصرة « ائتيانى فى لباس آبائكما فى الجاهلية » فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد فى قبة . وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا له : ما لباس آبائنا إلا الحديد ، فلبس جرير درعًا وتقلد سيفاً وأخذ رمحًا وركب فرسًا لعباد بن الحصين ، وأقبل فى أربعين فارساً من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته تلك ، فقال جرير فى هذه الحادثة [٢] :

لبست سـلاحى والفرزدق لعبـة عليه وشاحا كرَّجٍ وخلاخله[٣]
أعـدّوا مع الخز الملاء ، فإنما جـرير لكم بعل وأنتم حلائله

وكانت كوامن بطولته تظهر فى ثنايا قصائده فهو حين يمدح عبد العزيز بن الوليد والحجاج وأولاد عبد الملك كان يفاخر بفروسية قومه وركوبهم للحرب فيقول :

لقـد علم الحى المصبّـح أننـا متى ما يُقل يا للفوارس نركب

وكان يذكر مواضى قومه فى أيام العرب . وكل ذلك (مشحذة لبطولته التى كمنت فيه) كقوله :

ويوم بنى ربيعـة قد لحقنـا وزدنـا يوم ذى نجب كلابا
ويـوم الحـوفزان وأين تيم فتـدعى يوم ذلك أو تجـابا

ولا يفتر خلال شعره كله عن ترديد فروسية قومه ومآثرهم السالفة كقوله :

أليس فوارس الحضبـات منـا إذا ما الحرب هاج لها عكوب [٤]

---

(١) الأغانى ٧ / ٧٠.

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٦٧ .

(٣) الوشاح الكرجى الوشاح المخنث (المحيط) .

(٤) العكوب الغبار .

وسار فى شعره على غرار أصحابه أهل الهجاء يمزج المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر السلاح والأيام . ويظل أبداً كما عرفته مولعاً بأوصاف الخيل وتصوير الفروسية يحب تشبيه موصوفاته بها ، وقد تثيره حروب قومه وهم حلفاء القيسيين ووقعاتهم مع التغلبيين ، قوم عدوه الأخطل ومنافسه على صولجان الشعر فيقول (١) :

ونعرف حق النازلين ولم يزل ... فوارسنا يحمون قاصية السرب
على مقربات هن معقل من جنى ... وسمُ العدى والمنجيات من الكرب
ألا رب جبار وطئن جبينه ... صريعاً ونهب قد حوين إلى نهب
وقد أوردت قيس عليك وخندفٌ ... فوارس هدمن الحياض التى تجبي
ستعلم ما يغنى الصليب إذا غدت ... كتائب قيس كالمهنأة الجرب (٢)

واستعمل جرير فى أكثر هجائه تعيير عداته ، بخيباتهم فى الحروب والمعارك ، إذ كانت هزائمهم عنده أكبر سبة يستطيع إلصاقها بهم ، فقد قال للأخطل معيراً وهاجياً وهو يصف مواضى الحروب التى دارت عليه وعلى قومه :

فما لك فى قيس حصاة تعدها ... وما لك فى غورى تهامة أبطح
وفاضت حجون الورد بالمرج منكم ... دماء وأفواه الخنازير كلح
لقيتم بأيدى عامر مشرفية ... تعض بهام الدارعين وتجرح
بمعترك تهوى لوقع ظباتها ... خذاريف هام أو معاصم تطرح
سما لكم الجحاف بالخيل عنوة ... وأنت بشط الزابتين تنوح

وهو فى أماديحه لا يفتر عن ذكر الخيل فيمدح عبد الملك بقوله :

وقوم قد سموتَ لهم فدانوا ... بدهم فى ململمة رداح

ويمدح هشاماً ابنه فيقول :

عادات خيلك أن تبيت عوابسا ... بالدارعين ولا تراها رودا

---

(١) ديوانه الطبعة الأولى العلمية بمصر سنة ١٣١٣ ص ٢٧ .

(٢) أرى فى عجزه تصحيفاً ينبغى أن يكون أصله (كتائب قيس للمهنأة الجرب) أى إذا غدت كتائب قيس — التى هى أحلاف يربوع قوم جرير — لقتال المهنأة الجرب التى هى كتائب الأخطل. إلا إذا صح أن تكون المهنأة الجرب مدحاً لكتائب قيس كناية عن هزالها من شدة الحرب .

وفى شعر جرير ، أبيات كثيرة تشير إلى حوادث سياسية ، ووقائع حرب ، وفتن كان يتخذها وسيلة لغاية الهجاء وتعيير القبائل — ولم تكن عنده هى الغاية .

ومهما نقرّ الباحث فى شعر الحرب عند جرير فإنه واجده على النحو الذى وجده عند رفيقيه ، ممزوجاً أبداً بالهجاء ولم يكن غاية . فهو يصف معركة (يوم البشر) التى لقى فيها الأخطل الهوان ، وأصابه جحيم الجحاف وعرف حز سيوفه فى رقاب قومه التغلبيين . وجرير فى وصفه لهذه المعركة يدير الكلام نحو هجاء خصمه ، لا ليعلم بطولة الجحاف وفروسية قيس ، فيقول عن الأخطل (١) :

بكى دوبــل لا يرقأ الله دمعــه ... ألا إنمـــا يبكى من الذل دوبل
فإنك والجحـــاف يـــوم تحضه ... أردت بذاك المكث والورد أعجـــل
سرى نحوكم ليـــلا كأن نجومه ... قنـــاديل فيهن الذبال المفتـــل
فما اشتف ضوء الصبح حتى تعـــرفوا ... كراديس يهـــديهن ورد محجل
وقد قتـــل الجحاف أولاد نسوة ... يسوق ابن حلاس بهن وغرهل (٢)
عقـــاب المنـــايا تستدير عليهم ... وشعث النـــواصى لجمهن تصلصل
بدجـــلة إن كروا فقيس وراءهم ... صفوفا وإن راموا المخاضة أو حـــلوا
وما زالت القتـــلى تمـــور دماؤها ... بدجـــلة حتى ماء دجلة أشكلُ

ثم يختم هذه القطعة الحربية مفتخراً وهاجياً فيقول :

لنا الفضل فى الدنيا وأنفك راغم ... ونحن لكم يوم القيامة أفضل

ولم يكن ليترك حادثة سياسية كبرى إلا سجلها فى شعره ، كما فعل عند مقتل آل المهلب فهنأ بهم يزيد بن عبد الملك . كما كانت له قصائد كثيرة ألفت (المناقضات) بينه وبين الفرزدق والأخطل . وخير مثال من هذه النقائض قصيدته التى يناقض فيها ميمية الفرزدق (٣) عندما مدح سليمان بن عبد الملك وذكر مقتل قتيبة بن مسلم بسيف وكيع ، فيرد عليه جرير ناقضاً فيها أقواله إذ يرد مديحه لنفسه هجاء ، ويقلب فخره مثلبة وانتقاصاً .

(١) ديوان جرير السابق ج ٢ ص ٦٠ ، ٦١ . وطبقات الشعراء ط أوربا ص ١٢١

(٢) ابن حلاص وغرهل محاربان .

(٣) ديوان جرير ج ٢ ص ١٣١ . وردت فيه قصيدة الفرزدق الميمية ونقيضتها بعدها من جرير .

٤ ـ خصائص شعر الحرب عند الهجائين

ألخص خصائص الشعر الحربى لدى شعراء الهجاء الثلاثة بما يلى :

١) كان الكلام على الحرب من لوازم شعر العصر الأموى ، لما كان فيه من الحروب والفتن .

٢) لم يتفرغ شعراء الهجاء لنظم (ملاحم) ولا شبهها . وإنما اكتفوا بأبيات يصفون فيها الحرب ويعرضون أثناءها تصوير لمحات مخطوفة من المعارك .

٣) لم يكن شعر الحرب غاية عندهم ، وإنما كان وسيلة إلى مدح الظافرين ، أو هجاء المخذولين ولذلك قصروا فى القيام بقصائده التى كان ينبغى أن يفردوها له ، وأن يقولوها فى سبيله .

٤) طغيان التهاتر عليهم ، والتساب ما بينهم ، شغلهم عن التفرغ لنظم شعر حربى مثالى .

٥) قلة اشتهارهم بالشجاعة وحمل السلاح جعلهم فى شعر الحرب دون الشعراء الفرسان الذين كانوا فى الجاهلية وفى الإسلام أو عاصروهم .

٦) فخامة شعرهم وقوة جرسه وصلابة عباراته وبخاصة شعر الفرزدق ، كان خير قصيد لإظهار أشعار الحرب فى حللها القشيبة . ولو هم بذلوا من أنفسهم فى هذا السبيل شعراً طويلا فى موضوع واحد ينظمونه فى الحرب وما إليها من مقدمات ومنتوج ، لأعطونا الملحمة العربية المنشودة .

٧) شعر الفرزدق طنانة قوافيه . وهى الصالحة لشعر الحماسة ، فقد أشاع الفرزدق فى الشعر العربى من الوجهة الفنية ، الهاءات المردفة بعد الروى وما يسميه العروضيون بالخروج والوصل كقوله :

مناهله رواحله ، دائره مشافره ، دعائمه حاسمه ، عواقبه كاتبه ، رسوها فصيلها . . .

وصلح هذا الضرب من القوافى عند الفرزدق لشعر فخره كله . وكان لدى صاحبيه الأخطل وجرير قوافى طنانة تشبه قوافيه وتصلح لما صلحت له .

٨) شيوع ألفاظ الحرب والتشبيه بآلاتها كان سياق لغة الجاهلية فى شعر الحرب ، وخاصة لدى الهجائين . فالخيول والسيوف والرماح مستفيضة الذكر فى كل أبياتهم .

٩) كان شعر الهجائين شعراً جاهلى الأساوب ، ازداد من تعبير القرآن الكريم . وكلام الحديث تعابير إسلامية . لكنها على حداثتها وانصقالها ، لم تغير من النزعة الجاهلية فى لغة الشعر .

١٠) النزعة القبلية والدعوى العصبية ومناظرات الأنساب التى شاعت فى شعر الهجائين ، جعلت شعر الحرب لديهم مصبوغاً بتلك النزعات والدعوات والمناظرات ، فردتهم وهم فى إبان العهد الأموى إلى جاهلية لم يؤثر فيها حض الرسول صلى الله عليه وسلم على اطراح العصبية الجاهلية .

١١) كان شعر الحرب لدى الهجائين كالأنباء الحربية والسياسية المقتضبة فى زماننا ، وكان هؤلاء الشعراء صحفاً بشرية حية ، متعادية على نحو صحفنا التى نألفها فى عصرنا ، تروج أخبار أحزابها وتسفه آراء الخصوم . وكانت أموال الخلفاء والأمراء التى تسكب بآلاف الدنانير لمقالة هذا الشعر وإذاعته ؟ كالأموال التى تصب على صحف الدعاية فى عصرنا وكان لا يكاد أحد الشعراء من هؤلاء الفحول يقول قصيدة حتى « يرددها الناس ويتناقلوها فى سوق المربد وفى البيوت » (١) .

---

(١) طبقات الشعراء ط أوربا ص ٨٦ و ص ٩٣ .

الفصل السابع

شعر الحرب الخارجية زمن بنى أمية

١ – شعر الحرب وراء خراسان

بلغ الفتح العربى على عهد الدولة الأموية إلى مملكة الصين . وحارب أبطال العرب فى فتوح هاتيك البلاد بمعارك لم تكن حوماتها أقل جحيماً من حومات الوغى فى قلب فارس وأباطح العراق . ولم تكن جيوش العرب فى تلك البقعة متفرغة للفتح وحده . ولو تفرغت له وحده لعمت بسلطان الإسلام أقطار الأرض . ولكن تلك الجيوش كانت مشغولة عن غذ المسير للفتح بالإحن بين القواد والأجناد ، وخلع الخلفاء والوثوب على الأمراء .

وكان جيش العرب فى تلك الأصقاع أكبر جيش محشود . فإن جيش يزيد بن المهلب بلغ مئة ألف مقاتل سوى الموالى والمماليك و (المطوّعين) . وقد قاد يزيد بن المهلب هذا الجيش ومعه أولاده حتى تفتحت أمامه حصون دهستان بعد أن قتل من أهليها أربعة عشر ألفاً ، ثم اندفع على جرجان . ومات يزيد وهو فى طفرة هذه الفتوح لا ميتة بطل فاتح بين عساكره الذين يحتفون به ويبكون عليه ، وإنما قتل قتلا ، وأنكر بنو مروان حسن بلائه وسطوة حربه .

وأمعن العرب غزواً حتى بلغوا سمرقند والصغد فسقط من أبطالهم فى هذه الوقعات كثير ، منهم المسيب بن بشر وكان (ثابت قطنة) الشاعر الفارسى على ميسرة الجيش وكان قد بايع المسيب بن بشر على الموت . وقد قطعت فى إحدى هذه المعارك يد بطل اسمه البخترى[١] « فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيديه " المقطوعتين " حتى استشهد . » وكان هؤلاء المقاتلون وراء خراسان يحسبون أن القيامة قد قامت فى معاركهم من « هماهم القوم ووقع الحديد وصهيل الخيل » . فقال الشاعر ثابت قطنة – وقد ضرب عظيماً من عظماء الترك يصف فى إحدى هذه الحروب استشراء المحاربين حتى كادت نساؤهم تخالط المشركين محاربات .

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٦٣ .

فـدت نفسى فوارس من تميم   غـداة الـروع فى ضنك المقام
فلولا الله ليس لـه شريك   وضربى قونس الملك الهمام
إذاً لسعت نسـاء بنى دثـار   أمـام الترك باديـة الخِدام[١]

وحين توجه سعيد بن عمرو الحرشى إلى بلاد الصغد وفرغانة قاد جيوش المسلمين وخطبهم فقال : « لسنا نقاتل عدو الإسلام بكثرة ولا بعدة ، ولكن بنصر الله وعز الإسلام ، وأنشأ يصف بطولته بشعره ، ويشد عضده بفخر الأهل والقبيلة فيقول[٢] :

فلست لعـامر إن لم تـرونى   أمـام الخيـل أطعن بالعـوالى
وأضرب هامـة الجبـار منهم   بعضب الحـد حـودث بالصقال
فمـا أنا فى الحـروب بمستكين   ولا أخشى مصـاولة الرجـال

ودوخ سعيد الحرشى ما وراء خراسان حتى بات العسكر يتناشدون فيه مثل هذا الرجز :

إذا سعيد سار فى الأخماسِ
فى رهج يأخـذ بالأنفاس
دارت على الترك أمرُّ الكاس
وطارت الترك على الأحلاس
ولَّوا فـراراً عطَّل القيـاس

وكان النصر قد يميل عن المسلمين فلا يفزعهم القتل ولا يثنيهم فوز العدو عن الإمعان فى الفتح والجهاد فى سبيل الله . وكم كان بين أولئك الجنود العرب من معاميد تركوا الهوى من أجل الحرب . بينهم الشرعبى الطائى الذى كان يذكر فتاته هنداً ، وهو منقطع فى بلاد نائية فيصف لها ما يلاقى ومعشره فى ربوع الصغد والشاس ، عند خاقان ونيلان وجنودهما الجلاد ، آسفاً على قتال العرب فى الدار البعيدة وقد طمع بهم ملوك الترك وأثخنوا فيهم الجراح :

---

(١) بادية الخدام أى مقطعة الآذان وفى الحديث : كأنكم بالترك وقد جاءتكم على براذين مخذمة الآذان أى مقطعتها .

(٢) الطبرى ج ٨ ص ١٦٩ .

تذكرت هنداً فى بلاد غريبة ... فيالك شوقاً هل لشملك مجمع
تذكرتها والشاس بينى وبينها ... وشعب عصام والمنايا تطلع
بلاد بها (خاقان) جم زحوفه ... و (نيلان) فى سبعين ألفاً مقنع
إذا دب خاقان وسارت جنوده ... أتتنا المنايا عند ذلك شُرَّع (١)

وانخذل المسلمون فى وقعة الشعب التى دارت بين قائدهم الجنيد ، وبين خاقان انخذالة مرة ، أنطقت شعراؤهم بوصف القهر وتصوير الخذلان الذى لحقهم . فكان من هؤلاء الشعراء المحاربين ابن عرس العبدى ، فقال دالية مطولة يذكر فيها انكسار صحبه العرب تلقاء الترك فى ما وراء خراسان غير كاذب ولا موارب ، كاتباً على معشره الخذلان ، صادقاً فى شعر الحرب فقال :

أين حماة الحرب من معشر ... كانوا جمال المنسر الحارد
بادوا بآجال توافوا لها ... والعاثر المهمل كالبائد (٢)
كنا قديماً يتقى بأسنا ... وندرأ الصادر بالوارد
حتى منينا بالذى شابنا ... من بعد عز ناصر آئد (٣)

ثم يخاطب الجنيد قائد هذه الوقعة وكان بعدها يلوذ بالبكاء :

تبكى لها أن كشفت ساقها ... جدعًا وعقرًا لك من قائد
تركتنا أجزاء معبوطة ... يقسمها الجازر للناهد
أضحت سمرقند وأشياعها ... أحدوثة الغايب والشاهد

ثم يذكر الأبطال الذين سقطوا فى هذه الوقعة فيقول :

فكم ثوى فى الشعب من حازم ... جلد القوى ذى مِرة ماجد
يستنجد الخطب ويغشى الوغى ... لا هايبٍ غُسٍّ ولا ناكد (٤)

---

(١) ورد هذا العجز فى الطبرى (ج ٨ ص ٩٥) على هذه الصورة وحق الإعراب نصب القافية للحالية ولعله تصحيف صوابه (أتتنا المنايا عند ذلك تشرع ، أو أتتنا منايا عند ذلك شرع فتكون شرع صفة لمنايا) .

(٢) العاثر المنفلت .

(٣) بضرب الشطر الأول كان تصحيف وهو شامنا بالميم ولا صواب له .

(٤) الغس الضعيف .

وراح ابن عرس فى أواخر هذه القصيدة يقرع القائد الجنيد ويجر عليه سوء المغبة ، فى قتل الألوف من المسلمين بخطل قيادته ، إذ يقول :

لا تحسبن الحــرب يوم الضحى كشربك المــزّاء بالبــارد
جنيــد ما عيصك منســوبــة نبعـاً ولا جــدك بالصاعــد
خمســون ألفـاً قتــلوا ضيعــة وأنت منهم دعــوة الناشــد

وقد جعل الشاعر هذه القصيدة رسالة الخذلان والقهر إلى خالد بن عبد الله القسرى فقال فى آخر بيت منها :

قصيــدة حــبرها شــاعر تسعى بهــا الــبرد إلى خــالد

وإنه ليبين فى نظرة النقد أن أكثر هذا الشعر الذى قاله الشعراء فى الحرب وراء خراسان ، أو ما وراء النهر ، وفى فتوح تلك الأصقاع قرابة الصين كان شعراً سهلا لا يعلو به فنه إلى أدنى منزلة من منازل شعر الفحول ، فى عصر بنى أمية ، فكثير من قوافيه قلقة ، وفى معانيه ابتذال وفى تراكيبه شىء من الركاكة ، ولعل لأصحابه معذرة فى أنهم لم يصقلوه وهم على حرب ، على أن منهم من عرف بالشعر المحكم كثابت قطنة ، ومن تهب فى أبياته الفحولة ، كابن عرس ، فإذا أغمض الفن عينه عن هذا الشعر شفع له صدقه وسذاجته ، فكان من الشعر الذى قيل للحرب فحسب ، وعدّ نفيسا لصدق حماسته ، وأصالة بواعثه ، ووحدة موضوعه .

٢ ــ الشعر فى حرب الروم

تهتز نفسى وتأخذنى العزة بالحماسة حين أتحدث عن نهوض (أبى أيوب الأنصارى) إلى حرب الروم وهو شيخ هدمته الحروب والسنون ، وإنه لمريض؛ لقد كان فى جيش يزيد حين سيره معاوية ومعه أبو العباس لحرب الروم . ونهض لهذه الغزاة كل مجاهد فلم يتخلف أحد . فلما صار جيش العرب على خليج فى دربهم ، ثقل أبو أيوب فأتاه يزيد عائداً فقال[1] :

---

(١) العقد الفريد ط سنة ١٣٥٣ جـ ٣ ص ١٣٢/١٣٣ وتاريخ الطبرى جـ ٦ ص ١٣٠ وصلة تاريخ الطبرى ص ١٥ (االطبعة الحسينية بمصر) .

— ما حاجتك أبا أيوب ؟ فقال : أما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكن قدمنى ما استطعت فى بلاد العدو فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(يدفن عند سور القسطنطينية رجل صالح) أرجو أن أكون هو .

ولكن المنية أدركت الشيخ البطل أبا أيوب دون مناه وما زال جيش المسلمين يغذ سيرا فى أرض الروم دون أسوار القسطنطينية ، فقام يزيد بتكريم الرجل الصالح الذى ذكره الرسول وأمر بتكفينه وحمله على سرير ، ومضت الكتائب تحمله على عواتقها حتى جاور الأسوار الموعودة ، فأشرف قيصر وجعل يرى سريراً يحمل والناس يقتتلون، فسأل يزيد: بعد أن هدأت المعركة ونزل قيصر عند المهادنة :

« ما هذا الذى كنت أرى ؟ فقال يزيد : هذا صاحب نبينا ، وقد سألنا أن نقدمه فى بلادك ونحن منفذون وصيته ، أو تلحق أرواحنا بالله . »

فقال قيصر :

« أبوك كان أعلم بك ، فوحق المسيح لأحفظنه بيدى » .

ويقول صاحب العقد الفريد: إن قبر أبى أيوب كان معروفاً فى القسطنطينية إلى يومه ، بنى عليه قيصر قبة يُسرج فيها. وما زال إلى اليوم حى (أيوب) باستانبول حفياً بقبر البطل العربى.

كذلك كرم قيصر بطل العرب الشيخ الذى كان يرجو أن يموت على أسوار بلاده . . إنى لأذكر هذه البطولة العربية التى حض عليها الإسلام وأرث نارها الإيمان وباركها الرسول . أذكرها ، وألوب على الشعر العربى الذى قاله الشعراء فى حروب الروم (عصر بنى أمية)، فلا أقع منه على ما ينقع الغلة من مثل شعر الحرب فى معارك الفتن فى العراق والحجاز والشام وفى فتوح المشرق .

وكان العرب فى عهد بنى أمية يغزون ثغور الروم . وكانت جيوشهم التى يغزون بها الروم تسمى « الصوائف » فهى تجهز فى أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار (١) .

وقد عللت قلة الشعر الذى يصف حروب العرب مع الروم فى هذا العهد بما ذكره ابن خلدون حيث يقول: « وكانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية وحدوث الفتن ، واشتدت الفتن أيام عبد الملك واجتمعت الروم ، واستجاشوا على أهل الشام ، فصالح عبد الملك صاحب القسطنطينية على أن يؤدى إليه كل يوم جمعة ألف دينار .

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ باب أخبار الصوائف وحصار القسطنطينية ص ٧٠ .

خشية منه على المسلمين وذلك سنة سبعين للهجرة » .

وفى سنة ٩٨ للهجرة جهز سليمان بن عبد الملك جيشا إلى القسطنطينية بقيادة مسلمة أخيه فبلغها فى مئة ألف وعشرين ألفاً ، وعبر الخليج وشدد الحصار على المدينة ثم صالح أهلها ، فنقل إليهم الطعام والمؤن التى كانت معه فارتدوا عليه محاربين وأغلقوا أسوارهم « فلقى جنده ما لم يلقه جيش آخر ، حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من المعسكر وحده من البلغاريين الذين استجاشهم لاون البطريق[1] » .

وقد كفانى ابن خلدون مؤونة التقصي وراء شعر العرب فى حرب الروم فى العصر الأول للهجرة إذ وجدت أن العرب لم تكن حربهم حرب جد مع الروم فى عهد بنى أمية ، فإن اشتغالهم بالفتن واستقصاء المشرق كان عبئاً على سيوفهم قد يزيده أمر الروم ثقلا وحملا . ولعل الشعراء فيهم لم يشهدوا حروب الروم شهودهم غيرها ، مما أجادوا وصفه وذكر وقائعه .

وكان عبد الملك — كما يذكر ابن خلدون — قد خفض الجناح لصاحب القسطنطينية ، فكان يؤدى إليه مالا خشية منه على المسلمين فى بلاده . وكان قبله معاوية يتبع المسالمة مع الروم « فإذا أتاه عن بطريق من بطارقة الروم كيد للإسلام احتال له ، فأهدى إليه وكاتبه »[2] .

ولست أذهب إلى أن العرب كانوا خانعين فى محاربتهم للروم ، فإن الشواهد كثيرة على مناجزتهم لهم الحرب منذ أيام الوليد بن عبد الملك ، وأن الحرب كانت سجالا بينهم . وكما كان الروم أيام عبد الملك يؤمنون المسلمين فى بلادهم فقد كان من بعد ذلك عمر بن عبد العزيز يؤمن الروم فى الشام . إذ يذكر البطريق أفتيشيوس المعروف بسعيد بن البطريق [3] « أن عمر بن عبد العزيز كتب للنصارى سجلا أنهم آمنون على كنائسهم التى بدمشق ، والديار التى خارج دمشق فى الغوطة ، لا تخرب ولا تسكن ، وليس لأحد من المسلمين عليها سلطان وأشهد لهم بذلك » .

وظل العرب يغيرون فى عصر بنى أمية على بقاع الروم ، مما يلى أنطاكية حتى حدود

---

(١) تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس بن هرون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى ط بيروت سنة ١٨٩٠ وقوف الأب صالحانى .

(٢) رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفى ط النهضة بمصر ج ٥ ص ٣٩ .

(٣) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق للبطريق أفتيشيوس ط الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٠٥ ص ٤٤ .

القسطنطينية ، وكانوا يشتون بها ثم ينصرفون عنها إلى موسم موعود[١] .

فإذا عرفنا ذلك فليكن كله سبباً لئلا يتفرغ شعراء العرب لوصف حرب الأمويين مع الروم كما تفرغوا لوصف حروب العرب للروم زمن بنى العباس .

غير أن قليلا من الشعراء الأمويين كانوا يشيرون إلى هذه الحروب الرومية ، والظاهر أنها كانت تشغل شعراء الفتح الإسلامى فى أيام الخلفاء الراشدين أكثر مما شغلت شعراء العصر الأموى . وقد وجدت مثالا لذلك (عبد الله بن سبرة الحرشى) وكانت قد قطعت يده فى بعض غزوات العرب للروم فرثاها ووصف وقعة يوم فلطاس فصور كيف بارزه «أرطبون» الروم وضربه بالسيف على يده فجز أصابعه وترك أصل كفه . وكان أجمل من وصفه لبطولته ومبارزته ، وصفه لشعر الأرطبون وقد تهدل فكأنه هداب مخملة أسود لم يخالطه بياض حول رأس أصلع . وهى قطعة تصويرية لحرب العرب مع الروم تكاد تقوم بالعذر عن غيرها من الشعر يقول فيها[٢] :

يمنى يدىّ غدت منى مفارقة ... لم أستطع (يوم فلطاس) لها تبعا
وقائل غاب عن شأنى وقائلة ... هلا اجتنبت عدو الله إذ صرعا
وكيف أتركه يسعى بمنصله ... نحوى وأعجز عنه بعد ما وقعا
ما كان ذلك يوم الروع من خلقى ... واو تقارب منى الموت فاكتنعا[٣]
ويل امه فارساً أجلت عشيرته ... حامى وقد ضيعوا الأحساب فارتجعا
يمشى إلى مستميت مثله بطل ... حتّى إذا أمكنا سيفيهما امتصعا[٤]
كل ينوء بماضى الحد ذى شطب ... جلى الصياقل عن دريه الطبَعا[٥]
حاسيته الموت حتّى اشتف آخره ... فما استكان لما لاقى ولا جزعا
كأن لمته هداب مخملة ... أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى طبعة الشركة العربية بمصر سنة ١٩٠١ ص ١٧٢ .

(٢) أمالى القالى الطبعة الثانية لدار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ ج ١ ص ٤٧ وعيون الأخبار ط دار الكتب المجلد الأول الجزء الثانى ص ١٩٣ . والطبرى طبع أوربا ص ٢٠١٦ .

(٣) اكتنعا — دنا .

(٤) امتصعا — بعدا .

(٥) الشطب طرائق السيف ودرية من الدر والطبع الوسخ الشديد .

فإن يكن (أرطبون) الروم قطعها   فإن فيها بحمد الله منتفعـا[١]
وإن يكن (أرطبون) الروم قطعها   فقـد تركت بها أوصـاله قطعا
بنانتين وجـذموراً أقيم بهـا   صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا[٢]

* * *

ولم يقصر بعض الشعراء الذين كان عليهم لزاماً أن يتمدحوا ببنى أمية وفيهم النابغة الشيبانى أن يقولوا شيئاً من الشعر فى حرب الروم ، فكان أن مدح نابغة شيبان الوليد بن عبد الملك وذكر أخاه مسلمة فوصف حصار العرب لمدينة رومية وضربهم لأهلها بقوله[٣] :

أخزى (طرندة) منـه وابل بردٌ   وعسكر لم تقده العزّل الجوف[٤]
ما زال (مسلمة) الميمون يحصرها   وركنها بثقال الصخر مقـذوف
وقد أحاطت بها أبطال ذى لجب   كما أحـاط برأس النخـلة الليف
حتى علوا سـورها من كل ناحية   وحان من كان فيهـا فهو ملهوف
فأهلها بين مقتـول ومستلب   ومنهم موثق فى القيـد مكتوف

ولم يبخل الأخطل على حرب الروم فذكرها فى شعره لماماً ، وقد اتخذها سبيلا إلى مدح الوليد بن عبد الملك فأفاض فى وصف الخيل التى ذهبت به إلى تلك الديار مجتازة بالصحراء ويقصد بذلك صحراء تدمر فى طريقه مجتازاً أحياء العرب حتى بلغ ديار الروم ، فهو يقول للوليد :

وفى كل عام منك للروم غزوة   بعيـدة آثار السنابك والسرب
وإن لهـا يومين يوم إقامـة   ويوماً تشكى القض من حذر الدرب[٥]

ولا ينسى فى آخرها نحيزة الهجاء ، ونعرة التشفى من جرير ، فيقول له :

---

(١) الأرطبون والأطربون — رئيس الروم .
(٢) الجذمور الأصل .
(٣) ديوانه ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٢ ص ٥١ .
(٤) طرندة بلدة فى بلاد الروم .
(٥) يقصد بالدرب الطريق إلى ديار الروم وهو الدرب الذى رآه صاحب امرئ القيس وبكى عنده .

يقولون ذبب يا جرير وراءهــا وليس جــرير بالمحامى ولا الصلب

ويذكر الأخطل حرب الروم فى سياق هجائه لقيس عيلان ويمدح الوليد بقصيدة ثانية فيقول :

بكفيــه الأعنــة لا سـؤوم قتــال الأعجمين ولا ضجور
قتلت الروم حتى شــذ منهــا عصائب ، ما تحرزها القصــور

وثلّث الأخطل مفاخراً بغزوات الوليد للروم ، وفتحه بلادهم بشجعانه وجيوشه ، فقال :

وإن أتعرض للوليــد فإنــه نمتــه إلى خــير الفروع مضاربه
وما بلغت خيل امرئ كان قلبــه بحيث انتهت آثــاره ومحــاربه
وتضحى جبــال الروم غبراً فجاجها بمــا أشعلت غاراته ومقــانبه

ولم يكن المؤرخون يحتفون بما قيل من الشعر فى حرب الروم فإنى لم أجد واحداً منهم ذكر شيئاً من الشعر فى عصر بنى أمية قيل فى حروب الروم ، حتى إن ابن خلدون أرخ هذه الحرب لزمن بنى أمية فى فصل واحد ولم يذكر فيه بيتاً واحداً من شعرهم فى تلك الحروب . وقد بت أعجب لوقعة أرمينية التى كان على جيوشها « عثمان بن الوليد » فى أربعة آلاف من المسلمين فلقيه الروم فى ستين ألفاً . فهزمهم وأثخن فيهم القتل والأسر ، ولست أناقش هذا الخبر لقلة عدد العرب وكثرة عدد الروم . وإنما الذى يعنينى جهة الأدب فيه ، إذ لم يبلغنا أن الشعراء قالوا فى هذه الوقعة ما يحتفل بروايته . ولست أزعم أن مثل هذه الوقعة تخلو من الشعراء وأحسب أنه قد كان من فرسانها فيهم كثير .

إن الرقعة التى تقع بين القسطنطينية وأنطاكية كانت مسرحاً لحرب العرب مع الروم زمن بنى أمية ، ولقد فتح العرب منذ أيام خالد بن الوليد إلى أيام مروان بن محمد بلاداً كان فيها الصقالبة والألان والفرنجة ، ومن هذه البلاد أماسية ، وخرشنة ، وعمورية ، وسلوقية ، وقيسارية والمصيصة ، وفيها حصون فتحها العرب كحصن بولق ، والأخرم ، وبولس ،

وقمقيم ، وحصن المرأة[١] . وفى كل ذلك شاحذ للشاعر الأموى ليعبر عن وقائع العرب ، ولعل شعراء منهم فى تلك الحروب قد وصفوا هاتيك الأصقاع زمن الأمويين ، ولكن لم يبلغنا من شعرهم إلا القليل نتنسم فيه نفحات البطولة العربية فى ديار الروم ، ونسمع فى هذه الأبيات القليلة ، جلجلات سلاحهم فى محاربة الصقالبة، ومقارعة الأرطبون .

فنُّ الشعر الحربى

راج عند العرب فى حومة الحرب أن يرتجز بطلهم بيتاً أو أكثر ، ولا يزيد مثل هذا الرجز على خمسة أبيات أو ستة ، ولعل الرجز — وهو كما يقول رواة الأدب القديم — كان أول ما ابتدع العرب من أوزان الشعر أخذوه من مشية الناقة ، وفى لغتهم الناقة الرجزاء هى التى تمشى الرجز .

فهو إذن سهل على ألسنتهم . ولذا تناولوه فى الحروب حين المبارزة والمناجزة . فكان على شبا السيوف وأطراف الأسنة ، ولم تشغلهم عنه فجائع القتال ، ولا مواجهة الهلاك ، فكانوا إذا هجموا على العدو ارتجزوا والخيل تهوى بهم نحوه ، وكانوا يهدهدون جراحاتهم بلحونه ، ففى فتنة حجر بن عدى الكندى ضرب رجل من جذام ، كان فى شرطة زياد ، عبد الله بن خليفة الطائى بعمود فصرعه فقال هذا البطل رجزه وهو يهوى إلى مصرعه :

قد علمت يوم الهياج خلتى ... أنى إذا ما فئتى تولتِ

وكثرت عداتها وقلت ... أنى قتال غداة ثلت

إن يكسروا نابى وعظم ساعدى

فإن فىّ سورة المناجد

وبعض شغْب البطل المبالد

وظاهر أنهم كانوا فى معترك الحرب يتفاخرون ببطولتهم وفروسيتهم وقديم أيامهم التى شهدوها .

---

(١) حدد أحمد بن جعفر اليعقوبى فى تاريخه (ط أوربا سنة ١٨٨٣ ص ١٧٧) «أن مملكة العرب لديار الروم — فى عصر بنى أمية — كانت من حد الفرات إلى حد الإسكندرية .

يذكرون ذلك فى خطابهم للمرأة ، شأنهم فيما أشرت إليه فى سوابق الكلام ، إذ كانوا يحسون زهواً بين أيدى النساء إذا علمن منهم أخبار تلك البطولة ، وحوادث هذه الفروسية ، فلقد حدثوا عن المسيب بن نخبة ، أنه كان فى يوم « عين الردة » فاتكاً شديداً ، ما ظن أن رجلا واحداً يقدر أن يبلى مثلما أبلى ، ولا ينكأ من عدوه مثلما نكأ . لقد قتل رجالا وسُمع يقول رجزاً قبل أن يُقتل ، فيذكر فيه المرأة التى كان يهواها وهى ميالة الذوائب ، بيضاء صفحة الصدر ، ويعلمها آثار بأسه ، وفعل شجاعته ، وأنه أشجع من الأسد فيقول مرتجزاً :

قد علمت ميالة الذوائب
واضحة اللبات والترائب
أنى غداة الروع والتغالب
أشجع من ذى كبد مواثب
قطاع أقران مخوف الجانب

وكان بطل من الشيعة يصيح يا لثارات الحسين ! فرمى بنفسه فى المعركة وارتجز حتى قتل وهو يقول :

أنا ابن شداد على دين علىّ لست لعثمان بن أروى بولى

ولم يكن الشعراء الأمويون الذين كانوا بعيدين عن بعض الحروب بأقل رجزاً ممن شهدوها أو كابدوها ، فقد ارتجز « القطامى » مدحة ليزيد بن المهلب فتمنى أن يراه قائداً للجحفل اللجب تميد الأرض من تحته ، يجثو أمامه ذوو التيجان ، ويكون له كل يوم عيد بانتصاره على أعدائه فقال :

لعل عينى أن ترى يزيدا يقود جيشاً جحفلا شديدا
تسمع للأرض به وئيدا لا برماً هِداً ولا حسودا
ولا جباناً فى الوغى رعديدا ترى ذوى التاج له سجودا
مكفرين خاشعين قودا وآخرين رحبوا وقودا
لا ينقض العهد ولا المعهودا من نفر كانوا هجاناً صيدا
ترى لهم فى كل يوم عيدا من الأعادى جزراً مقصودا

وقد قصّد هؤلاء الشعراء الأمويون قصائد الرجز فطولوها وهلهلوها ، كما فعل العجاج وابنه رؤبة وأصحاب (الفرقة الراجزة) وخرجوا فيها عما ألف شعراء الجاهلية . وكان أغلب هذا الرجز شعراً حماسيًّا ، وكأنه أناشيد حربية ، وما كان ينبغى أن نعد أصحابه قد ركبوا به السهولة. وأحسب أن مضعوف الشعر هو الرجز المنفرد كرجز النحاة وأصحاب العلوم الفقهية.

ولست بسبيل الدفاع عن الرجز ، كفانى منه أنه كان صدى حربيًّا لجرس النفوس التى كانت تقوله وهى فى زحام الطعان ، ومدارج الردى ، فكان كنغمة موسيقية تحدو نبراتها الطنانة قائليها فى ركب الحروب . ولو أحصى ما قال المتبارزون والمتقاتلون ، فى طويل حروب العرب وأيامهم ، من هذا الشعر ، لجاء جمًّا فياضاً تضيق عنه الدواوين ، ويتعايا على الراوين .

وهو فى جملته شعر حربى ، دفاق بذكر الدماء ، فوار بصلصلة السلاح ، يكاد يكون لزاماً لكل فارس جلد ، وبطل صنديد .

أما بقية الأوزان فى شعر الحرب ، زمن بنى أمية ، فكانت فى الأغلب الأوزان الطوال آثر عند الشعراء من الأوزان القصار ، لاستيعاب أبياتها جملة المعانى . فإن الشعر القصير فى أوزانه ، ضيق الصدر بمعانيه، ولذا نجد أن الكثرة الغالبة فى شعراء هذا العصر تفيض قرائحهم على البحر الطويل ، ثم يتبعه فى البحور ما كان رباعى التفعيل ، ثم يأتى ثلاثيه . وقد قل نظمهم شعر الحماسة على المجزوء ، ولعل تعليل ذلك لقرب العرب فى هذا العهد من جاهليتهم . فكان شعراؤهم يمضون فى أبحر الشعر على غرار الأوائل . حتى إذا عنّ لهم أن يقولوا شعر الحرب فى العصر العباسى أقبل شعراؤهم بلين مبانيهم وحلاوة معانيهم، فزادوا على الأولين بعد طوال البحور صغارها ، وافتنوا فيها الأفانين فكان شعر الحرب فى أدبهم أعم معنى وأسهل مبنى ، وأرق جرساً . فيه القصص الحربى ، وفيه وحدة الموضوع .

الخصائص العامة

لشعر الحرب في عصر الأمويين

أختم الكلام على شعر الحرب فى العصر الأموى بذكر خصائصه العامة التى ألخصها فيما يلى :

ما يتعلق بالأسلوب :

(١) مشابهة الشعر الحربى فى عصر بنى أمية لحماسة الجاهلية ، ففى كليهما جزالة لفظ ، وروعة ديباجة ، حتى لا يكاد النقار يستطيع التفريق بين الأسلوبين إذا خفى عليه صاحباهما ، وإذا خلا شعر الحماسة الأموية مما يشعر بالتغير والتطور الفنى كألفاظ الدين وتعابير الإسلام .

(٢) قد ينحط أسلوب الشعر الحربى فى عصر بنى أمية عن أسلوبه فى الجاهلية عند بعض الشعراء الأمويين غير الفحول .

(٣) اتسام الشعر الحربى فى هذا العهد بألفاظ جديدة دينية ، وتعابير إسلامية ، وذكر آيات من القرآن الكريم ، وكلمات لها مصادر من الحديث الشريف .

(٤) إطالة الأنفاس فى القصائد، مما لم يعرفه الجاهليون فى موضوع واحد كالحماسة ، فإن فى الشعر الحربى الأموى قصائد طوالا فى مدار الحماسة ، وإن لم يكن الشعر عامة قد تحرر فى هذا العهد من تشعب الموضوع وازدحام القول فى غير غرض واحد . وقد كان للشعراء الفحول من أهل الهجاء الفضل البعيد فى إطالة هذه الأنفاس ، فى الشعر الذى يجرى على روى واحد .

(٥) فرض الشعر الحربى ميسمه على فصاحة الشعراء . فكان من ضرورة فنه ؛ وهو للحماسة والبأس والفخر والعزة ؛ أن تجىء أشعارهم فيه قوية رصينة ، ذات جرس وجزالة ، لتكون كلمها ظروفاً لقعقعة السلاح ، وحمحمات الخيل ، وصراع الأبطال ، واحتدام المعارك .

فيما يتعلق بالموضوع :

(١) اتساع الآفاق الاجتماعية والسياسية فى العصر الأموى أغنى الشعر الحربى بالمعانى ، فكثرت فيه الأخيلة وقلت فيه السذاجة الجاهلية .

(٢) كثرت فيه معانى المبالغة فى السطوة والبأس لدواعيها الزمنية ، فإن الحروب الأموية والفتن كانت تحمل على استنباط المعانى الجديدة فى تصوير الحماسة والشجاعة والمقاتل .

(٣) وجود المعانى الإسلامية كالجنة والنار والثواب والعقاب والشهادة ، وما يقتضى هذه المعانى من تصوير فنى لميتة الشهداء ، وعالم الآخرة فى نعيمه المقيم .

(٤) تسلط السياسة على الشعر الحربى ، وتصريفها إياه فى أغراضها الخاصة والعامة .

(٥) شيوع الهجاء خلال الحماسة ، وشيوع الفخر خلال الشعر الحربى للعلاقة الوثيقة بين هذه المعانى .

(٦) ذكر العصبيات من يمانية وعدنانية وقيسية وتغلبية حتى صار أكثر القصائد الحماسية من هذين الضربين ، وبخاصة ما قاله الفحول الهجاؤون فى حروب قيس وتغلب ، ووقعات الجحاف ، وزفر بن الحارث وقوم الأخطل وجرير ، ومطاولة الفرزدق فى أصوله وجدوده .

(٧) اقتران كثير من الشعر الحربى بتلاوين الغزل شأن شعراء الحماسة الجاهلية من ذكرهم للمرأة فى أثناء الفخر بالشجاعة ، وتشارك العرب فى ذلك آداب الأمم الحماسية ، فقد كانت المرأة رفيقة الشعر الحماسى ، منذ هوميروس اليونانى إلى سيرانو دوبرجراك الفرنسى . وقد ظل هذا الوفاق بين المرأة والحماسة فى الشعر العباسى ، كما أذكر ذلك عند الكلام على شعر الحرب فى العصر العباسى ، فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

(٨) صفات الملاحم فيه ، فإن فى شعر الحرب زمن الأمويين كثيراً من المعانى الحماسية التى تقتضيها الملاحم الكبرى ، وهذا يفتح باب التأميل فى تكوين الملحمة العربية الكبرى على غرار هذا الشعر بعد أن تكون روحه من حماسة العصر الجاهلى .

(٩) سلطان التاريخ عليه أكثر من سلطان الفن ، بخلاف الشعر العباسى الذى كان لفنيته الأثر الأول فيه .

(١٠) كل ما ذكرته فى الخصائص الفنية لشعراء الحرب عند الهجائين فى هذا العصر ، يمكن أن يوصف به شعر الحرب عامة فى العصر الأموى .

البابُ الثاني

شعر الحرب في العصر العباسي الأَول

شعر الحرب فى العصر العباسى الأَول

الفصل الأول

تطور الشعر فى العصر العباسى الأول

١ ــ حضارة الدولة

أبان أبو العباس السفاح فى خطبته على منبر الكوفة (سياسة العباسيين) بعد أن بويع بالخلافة ،وكأنه قال (خطبة الدولة) على نحو ما نعبر عنه فى مصطلح زماننا ، لقد خطب قبل موقعة الزاب ، وكانت الزاب هى المعركة الفاصلة بين الدولتين الأموية والعباسية .

لقد قال للمسلمين فى هذه الخطبة الأولى[١] :

أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس .

وكان الخليفة العباسى الأول مندفعاً فى حماسة لا تتناهى ، فقرر فى آخر خطبته ، أن هذا الأمر سيظل فى بنى العباس حتّى يسلموه إلى عيسى بن مريم .

والذى أبهتُ له فى هذه الخطبة التاريخية أن الدولة الهاشمية الموعودة قد رأت حلمها يتحقق ، وزرعها يزهر ثم يثمر ، فأسعدت الناس كما قال خطيبها السفاح المستبد . وهى وإن أسعدت من كان يهواها أو يرضاها ، وأشقت من شق لها الطاعة ، وأوقد عليها الفتن ، فإن العصر العباسى الأول وما تبعه من تلك العصور كان أسعد حالا للناس من أعوام الأمويين ، فإن أرواح الفتن كانت تفح كالأفاعى زمن بنى أمية ، فهجعت قليلا هذه الأرواح المخيفة زمن العباسيين ، واستطاع هؤلاء فى زمان هجودها القليل أن يتنسموا الحياة الجديدة التى جاءت بها الحضارة ، فاشتد تمازجهم بالأمم التى فتح أمصارها العرب قبلهم ، وكثر زواجهم ببنات هذه الأمم ، فأنساهم حسن هذه الجوارى ، جمال هاتيك الأعاريب ، وسكنوا فى القصور ، وأجروا فى القصور المياه ، وابتنى ملوكهم وأمراؤهم الصروح الممردة كالجعفرى والقُفْص ، وتابع الخلفاء والأمراء من دونهم من الرؤساء والقواد والعمال ، حتّى

---

(١) تاريخ البداية والنهاية لعماد الدين أبى الفداء الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤ . طبعة السعادة بمصر ج ١٠ ص ٤٢ . وتاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٢٦ الطبعة الحسينية .

سرت روح هذه الحضارة فى الشعب . وكان الشعب عامة فى سواده أو قلته ، وفى أمصاره العراقية كلها ، يعيش متبحبحاً وكانت تعتريه موجات من الضيق حين تشتد الثورات الداخلية ثم تنفرج . ويدلنا بذخ الخلفاء العباسيين فى أكثر عصورهم على وفرة المال الذى كانت تنوء بغرائره الإبل ، وقوافلها تقبل من كل صوب ، وئيدا فى عرض الصحارى لتنسكب فى بغداد .

وتنعّم العباسيون فى زمن لم تتنعم فى فسحته القصيرة أمة مثلهم ، ففى أقل من خمسين عاماً تغير العباسيون فى عهدهم الأول فانقلبوا من شظف الحياة الأموية إلى نعمى لا عهد لهم بها ، وكانوا على الرغم من الحروب فى الشرق والغرب ، يعرفون كيف يجدون السبيل إلى السرور والنعمة والحضارة . حتى كان عهد الرشيد وهو العصر الذهبى للعباسيين ، ثم تبعه عهد المأمون والمعتصم فالمتوكل. وقد كان القوم حقّاً فى تلك العهود كلها أسعد الناس كما قال أبو العباس السفاح فى خطبته الأولى . بل أترفتهم النعمة الجديدة بما طرأ على حياتهم فى الطعام والشراب والملبس والمأوى . وكان لامتزاجهم بالفرس أثر عميق فى لهوهم ومباهجهم فاستتموا مطالب التطور والتجدد حتى أفسدهم التغير ، وقديماً كانت تجلب المدنية المفاسد ، مثل شر لا بد منه للخير .

وإنها لكلمة فى استفهامها الجواب وفصل الخطاب : فأين من البيد، عهد الرشيد ؟

٢ ــ تطور الشعر وتجديده

وكما تطورت الدولة العباسية ، فقد تطور الأدب العربى . بما دخل عليه من جديد والأمر كما قلت فى هذا الكتاب : إن مذهب التطور الطبيعى الذى يتناول قضايا العلم يشمل الآداب والفنون .

لم يكن الشعر الأموى صالحاً لزمن العباسيين ، فديباجته القاسية الجزلة ، ومعانيه البدوية الموروثة عن الصحراء أصبحت غريبة . أو كادت تصبح مكروهة فى العصر العباسى . ولذا نجد أبا نواس يضيق بتلك المياسم القديمة فى الوقوف على الأطلال ، ومناجاة النؤى والحجارة، فيثور ثورته المعروفة على مطالع القصائد ، وتبلغ به هذه الثورة إلى شتم العرب لما نسجوه فى استهلال القصائد من الغزل بالمرأة ووصف الدار وآثارها العافيات. وهو بعد أن

يدعو إلى تطور الشعر فى مفاتحه واستهلاله ، يجدد فيه فيرسم لمن عاصره ومن يأتى بعده ، كيف يكون استهلال القصيد ، فيجعله فى ذكر الخمر والدنان ، والكؤوس والندامى .

ولم يقتصر الشعر فى العصر العباسى الأول وما بعده على التطور والتجدد ، بل لحقته فنون حديثة لم يكن يعرفها الشعراء الأوائل ولا مارسوها ، منها ما يتعلق بمقاييس الشعر واشتقاق بحوره ومنها ما يناط بمعانيه ، كفن الزهد والتصوف ، والشعر التعليمى .

وكثر الغناء بالشعر وتغاوى أهل اللحون فى اجتلاب الطرب . وشاع الرقص ، وكان للفرس الخطر الأقوى فى طبع العرب بهذه الطوابع . وأكبر الظن أن الأمراء الفارسيين الذين استعملهم العرب هم أول من أدخل (الرقص العام) وضروب اللهو والمقاصف على العصر العباسى ، وأجد هذا سبيلا إلى شعر المجون وظهور الشعراء الخلعاء . وتفتحت بسبب كل ذلك آفاق جديدة أمام الشعراء ما عرفها أسلافهم ، فراحوا ينظمون القصائد والمقطوعات بفنون طريفة وعلى أنماط جديدة ، فيها تصوير وإغراق ، وقد زخرفوا اللفظ كما زخرفوا المعنى .

٣ ـ هل طرأ على الحماسة التغيير ؟

كان من الطبيعى أن يصيب فنّ الحماسة نصيب مما أصاب سائر فنون الشعر فى هذا العصر . ولكن لو عرضنا على التمييز تلك الفنون لوجدنا بعضها قد اضمحل أو تقاعس . كفن الهجاء ، فقد أصبح تبعاً للفخر ، ولم يكن بين الشعراء العباسيين الفحول هجاء كالذى كان بين جرير والأخطل والفرزدق ، ولا يعدل هؤلاء بشىء ما كان بين بشار ابن برد ومنافسيه من التهاجى ، ولا ما كان بين البحترى وابن الرومى من قذيع السباب . وصار الهجاء ضرباً من ضروب الشعر لا يحتفل به وحده ، كما كان زمن الأمويين . أما الغزل فخرج من حصانته الأموية إلى التبذل والتهتك والمجون حتى صار فى الغلمان ، وصار المديح سوقاً للمتاجرة يقف أصحابه أياماً بأبواب الخلفاء ليؤذن لهم بالإنشاد .

وكان شعر الحرب وسط هذه الفنون العباسية الكثيرة ، يخضع للتطور ، فإن قرع المزارق ، وصولة الأبطال ، قد تغيرت عما كانت عليه فى العصر الأموى . كان الأمراء والعمال فى عهد بنى أمية عرباً أقحاحاً ، وكذلك سواد العرب ، لقد كانوا أبناء الحرب

وأحلاس الخيل ، كأنهم خلقوا من ضلوعها يمشون فى حلق الحديد مشى الجمال البزل ، والموت هزأة فى أفواههم ، وكان أكثر محاربيهم يلقون أنفسهم على السلاح ، لرفع كلمة الله . وقد تغير أكثر ذلك فى العصور العباسية . فضاعت النزعة العربية أو ضعفت ، وتعاورت على شعر الحماسة فى العصر العباسى الأول أزمات اجتماعية وأسباب سياسية ، ورافقت ذلك عوامل أدبية بحتة تتعلق باللغة والبيان ، فانحط شعر الحرب عن الدرجة التى رقى إليها فى عصر بنى أمية .

ومجمل الأسباب التى دعت إلى ذلك وقوف الفتوح حيناً ، وفتور البطولة حيناً آخر ، والقواد الأعاجم ، والشعراء الأعاجم .

ولا أنكر أن هذه الأسباب التى أدت إلى انحطاط شعر الحرب كان إلى جانبها أمور أدت إلى تألق معانيه . وتفنن قائليه بنظمه وألوانه .

٤ ـ وقوف الفتوح حينًا ، وفتور البطولة حينًا آخر

كان عهد الراشدين والعصر الأموى مليئاً بفتوح الشرق والغرب ، وكان الفتح مسعر الحماسة فى شعر كل أمة ، فهو الذى يقدح خواطر الشعراء ، فتتقد ويجود أصحابها بشعر الحرب الباقى على الزمن ، يخلدون به مجد الأمم ، ويسجلون ذكر الفتوح بشعر لا يبلى . فلما هدأت الفتوح فى العصر العباسى الأول هدأ معها شعر الحرب وفترت أسباب الحماسة ، وقامت فتن داخلية ملأت على العباسيين جو السياسة بالقتام ، فكان شعراؤهم يستجيشون عدة الحماسة من موضوعات هذه الفتن ، كما فعل البحترى وأبو تمام فى فتنة بابك الخرمى ، فإنهما أعطيا هذه الفتنة الداخلية من شعرهما شطراً كبيراً ، قوى الحماسة ، بعيد الأثر فى تاريخ الشعر فى العصر العباسى . ولكنهما كغيرهما من الشعراء الفحول كانا منصرفين إلى المدح ، والغزل . والمطارحات ، فلم يكن شعر الحماسة هدفهما الأول فى هذا الشعر . ولو نزعنا من شعر أبى تمام مرثياته للأبطال الطوسيين ، وخاصة مرثيته لمحمد بن حميد الطوسى وأشعاره فى أبى سعيد الثغرى وفتح عمورية ، لما بقى عنده فى سائر شعره الكثير أثر للحماسة الحقة وشعر الحرب ، وقد كان أبو تمام أجود من غيره فى شعر الحماسة وأحسبه كان خيِّراً فيها إذ أحبها وأحب المختار من شعرها فألف فيه ، وإنى لأعذره فهو

شاعر قد صب فى قوالب عصره ، ولو اتقدت الفتوح فى زمنه لوجدنا صداها فى شعره صريحاً ، كما وجدنا فتح عمورية وحروب الروم بما لم يعهد عند شاعر من قبله .

وكيف كان الأمر فإن وقوف الفتوح أو انقطاعها ، كان من الأسباب التى قعدت بشعر الحرب فى هذه الفترة .

٥ ـ القواد الأعاجم

لم يبُح التاريخ بكل الحوادث. وقد باح الشعر بما كتمه التاريخ . لقد مدح أبو تمام (الأفشين) بعد أن قهر (بابك) وجاء به مقيداً إلى المعتصم ، فأدخل المعتصم الشعراء على الأفشين ، وحملهم على مدحه ، وكان أبو تمام فيهم ، فقال أبو تمام فيه شعراً تافه الحماسة كعود جف ماؤه . فقلت لنفسى: لو كان الأفشين عربياً هاشمياً ،لكان لشعر أبى تمام شأن غير هذا الشأن فى الحماسة ووصف الحرب ، ولذا نرى أكثر شعره فى هذه الفتنة منصرفاً إلى مدح المعتصم ، إذ كان المعتصم هو « القائد الأعلى للجيش » .

وإذا كان فحلا الشعر فى العصر العباسى الأول هما أبا تمام والبحترى من ذوى العروبة الخالصة فلا تثريب عليهما أن يفتر شعرهما الحماسى فى مدح القواد العجم ، فما كان لهما ولا لشاعر عربى سواهما أن يهجم على مدح الأعاجم. لأن النزعة العربية كانت لا تزال مستحكمة فى الأعراق والأصول، وقد ضعف الحافز ، فضعف المحفوز .

٦ ـ الشعراء الأعاجم

كان لضعف الشعر الحماسى فى العصر العباسى الأول سبب آخر يتعلق بالشعراء أنفسهم (فاعلين لا منفعلين) إن صح فى العربية مثل هذا التعبير ، فإن من الشعراء من كان فارسياً فى أصله من جهة أبيه أو أمه ، كبشار وأبى نواس . فلم يكن شعورهم ليرتاح للفتح العربى ، وذكر البطولة العربية ، ولذلك نجد أبا نواس قد احتال على شعوره الحماسى فى البطولة والفروسية ، فصرفه إلى جهة الطرديات ووصف القنائص .

أما بشار بن برد فإن شفع له شعر حرب أو مقال فى حماسة ، فذلك فى قصيدته

البائية التى وصف فيها حرب « عمر بن هبيرة » للجيش الكثيف ، فقد مدح فيها هذا الأمير ووصف الجيش وصفاً رائعاً فذًّا ، لكنه لم يخف شعوره فى تهديد العرب وهو فى زحام الحماسة ، فقال بيته المشهور وكأنه كان يصرخ فيه بوجه الخليفة المهدى :

إذا الملك الجبـار صعر خـده   مشينا إليـه بالسيوف نضاربه

وهو لم يلبث أن هجا بعد حين عمر بن هبيرة أشد الهجاء فأين من قلب بشار الشعور بالحماسة التى تتطلب من الشاعر الخلوص فى توقير البطولة ، وإكبار أهل الشجاعة ؟

وكان الشعراء الأعاجم فى جميع العصور العباسية لا يفترقون فى شعورهم بالبطولة العربية عن الشاعرين السابقين . وكان الأثر عند أولئك كالأثر عند هذين ، ولذلك لا تجد فحولة الشعر الحربى ، والصدق فى حماسته إلا عند الشعراء العرب الأقحاح ، فى مدى العصور العباسية .

٧ ــ تأثير الفارسية فى الخيال العربى وأثر ذلك فى شعر الحرب

لو أتيح للعرب فى الجاهلية أن يختلطوا بغيرهم من الأمم خلطتهم فى عصور الإسلام ، لوصل إلينا تراثهم الجاهلى على غير ما هو عليه ، من صفات عربية ، وطوابع بدوية صرفة ، ولكان فى طريقة تعبيرهم ، وأسلوب تفكيرهم ، ومدى خيالهم شكل آخر غير ما كان فى الجاهلية .

لو أنهم مازجوا بلاد فارس طويلا ، وعاشروا الروم عشرة تلاحم ، لوصل إلى أيدينا منهم أدب لا يفترق كثيرًا عن أدب تلك الأمم فى خياله وتصويره ، وطريقة أدائه وموضوعاته .

وقد ضرب العرب الأمثال للأمم ، بأنهم ليسوا مؤثرين للجمود ، وإنما هم قوم يحبون التطور ، ويستطيعون الاندماج فى غيرهم ، إن كانوا يجدون فى هذا الاندماج حياة وبقاء ومنزلة وقدراً . وقد دلل على مثل هذا التمازج بعض الجاهليين الذين زاروا بلاد فارس ، فإن الأعشى ميمون عاد من عند كسرى وفى لغته بعض كلام الفرس حتى قال فى بعض شعره (وبربطنا دائم معمل) والبربط آلة موسيقية فارسية كالعود ، ما أحسب العرب عرفوها أو ذكروها فى لغتهم قبل الأعشى . ولم تخل لغة العرب فى الجاهلية من كلمات فارسية

أو رومية ، لكنها وإن تكن قليلة فقد دل التقصى على أن أصلها فارسى أو رومى عملت على دخولها فى لغة العرب أسباب اقتصادية كالتجارة ، وسياسية كامتزاج العرب فى الشمال شرقاً بفارس وغرباً بالروم ، وحين جاء القرآن الكريم ورد فى بعض ألفاظه ما يعود به النسب إلى تلك الأصول .

وحين تمازج العرب بالفرس بعد الفتوح الإسلامية لم تستطع لغة فارس ولا عادات أهلها ولا أساليب عقولهم وتلاوين خيالهم أن تتسرب إلى العرب . وكأن العرب أقاموا دون ذلك سوراً صفيقاً فلم تستطع فارس أن تجتازه إليهم . وكان الأمر على النقيض — لضرورة الدين الجديد ونشر تعاليمه — أن دخلت الفارسية فى غمار العربية ، فأقبل أهلها المسلمون على لغة العرب يتفهمون كتابها المنزل ، ودعاهم الدين فى دواعيه هذه ليفهموا بعد أموره وأحكامه شعر العرب ونثرهم ، وأن يكون منهم خلف يحذقون لغة العرب ، ويجرون فى بيانها أقلامهم ، أو يطلقون فى فصاحاتها ألسنتهم ، فإذا منهم شعراء ومترسلون ، ومنهم خطباء وأهل مذاهب فى الفن وأئمة فى النحو .

كان العصر الأموى للفرس مرحلة تعلم للعربية ، وتثقف بآدابها ، وكان العرب فى هذا العصر لا ينظرون لفارس على أنها مصدر ثقافة وحضارة ، وإنما كانت لهم داراً مفتوحة بسيوفهم لنشر الدين الحنيف فى أرجائها وما وراء أصقاعها . ولو أن الفتن سكنت نأماتها للأمويين والمروانيين ، لفكروا باكتناه هاتيك الحضارة ، وهذه الثقافة ، التى كانت لأهل البلاد المفتوحة . ولكن شغلتهم الفتن فى فارس وخراسان وما وراء النهر ، وفى حومة بلادهم فى الشام وفى العراق والحجاز وعلى ثغور الروم . وكان ترامى سلطانهم إلى مصر وشمال أفريقية وقيام دولة عربية فى الأندلس شاغلا لهم — إلى ذلك — عن ثقافة فارس ومحاولة التعرف إلى آدابها وفنون حضارتها .

ولم يتعرف العرب حقيقة ما بين أيديهم من فن فارس إلا فى العصر العباسى ، وخاصة حين كان لاهل فارس شأن لديهم أى شأن . وقد بدأ اهتمامهم الأدبى بها بعد اهتمامهم السياسى ، منذ غدر الساسة بأبى مسلم . وقد جاءهم مسالماً ووراءه خراسان براياتها وجيشها . وكان أبو جعفر المنصور من الدهاء ونقض العهد والمسارعة إلى الغدر بعد التأمين ، فى حمأة سياسية أحاطها بالخوف والبطش والغيلة . فلم يتمكن عهده من أدب فارس ، ولم يظهر أثر الحضارة الفارسية فى الآداب العربية ، وكانت مواليد العرب من الفرس لم يظهر خطرها

بعد ، فبقيت تلك الآثار الفنية كامنة مكبوتة خلال الدم لم تجر بها الأقلام ، ولم تفه بها الألسنة .

وجاءت فى أيام المأمون فتنة خلق القرآن فصدت نتاج التمازج الثقافى بين الفرس والعرب ، حتى أتيح لهذه الفتنة ركود من دهرها فانفتح ذلك الباب مصراعاً بعد مصراع ، ثم أقبلت منه وفود الثقافة الفارسية فتدفقت على اللسان العربى ، وسبق أنْ أسهم فيها ناس من الفرس فيهم عبد الله بن المقفع وفيهم سواه من أهل النقل والترجمة . ولكن تلك الترجمات لم تكن من الفارسية وإنما كانت من فلسفة الروم .

وكيف جرى الأمر فإن أزاهير التمازج الثقافى بين فارس والعرب لم تطلع بعد ، وإن تكن أغصانها نبتت ، وأوراقها قد زانت تلك الأغصان فى مغارس العصر العباسى ، بعد زمن المأمون .

ولا أستطيع أن أجد الدليل مجسما ، فإن دلائل هذا التطور تخفى على التنقيب ، ولا يحيط بها إلا من يدرس لغة العرب فى ذلك العصر العباسى ولغة فارس فيه ، ويرى ما تسلل بين اللغتين من التعابير والتشابيه والكلمات .

وبحسبي أن أقتطف تلك الأزاهير من بستان الشعراء الذين تنسبهم أصول فارسية ، فإن العرق دساس ، والدماء نزاعة ، وكلاهما ذو أثر بين فى تطور الأدب لدى كل أمة وفى كل جيل .

فبشار أصله فارسى من جهة أبيه ، وأبو نواس فارسى من جهة أمه . وجدير بهذين الشاعرين أن تبدو على شعرهما آثار الفكر الآرى والخيال الفارسى ، كما نجد آثار التفكير العربى ، وبداوة الخيال عند أبى تمام والبحترى وأبى الطيب ، مصقولة بالتطور الزمنى والتمازج الثقافى ، الذى يغير من نوازع الدم وطوابع الأنساب ، ولكنه لا يستطيع أن ينتزع من الأعراق نوازعها الأولى .

وليس خيال الشاعر وطريق تصوره بوليد نفسه ، وإنما هو أمر عملت فيه نفوس متغلغلة فى غمار الأجداد الذين سبقوا . إن الخيال والتصور يشبه السحنة والهيئات التى على وجوه كل منا ، وإن هذه السحن والهيئات ليست وليدة أبوينا وحدهما وإنما هى وليدة أجيال كثيرة لا يعلمها إلا خالقها ، كذلك أساليب تفكيرنا وقوة تخيلنا أو ضعفه ولون هذا الخيال وتصاويره ، كل هذا يعمل فيه من أورثنا الحياة الجسمية والحياة العقلية .

ولكن كيف أستطيع من خلال كلمة أو لفظ ، ومن سياق تعبير أو جملة أن أستشف فى الكلام العربى الخيال الفارسى أو الصورة الآرية ؟

فلئن كان للكلمات حياة مثل حياة أصحابها ، فإن ذلك ليبدو على شىء من السهولة . افتح أى معجم شئت فى العربية أو غيرها تبن لعينيك كلمات ننطق بها نحن ، ونفكر فيما تضم فى أعماقها من حياة أناس لا يحصى لهم عد كانوا يعيشون وكانوا يتكلمون ، إن كلمة واحدة من هذه الكلمات تحتوى تاريخ أقوام ، وفى خفقات ألفاظها وتداولها على الألسنة حوادث لا يأتى عليها حصر ، ولقد لعب الحرف روايات فى حياة الإنسان لا تحصى، كعدد الأيام والشهور والسنين !

ذلك هو الخيال الذى تثيره كلمة واحدة أو لفظ ، وجملة واحدة أو تعبير . فإذا عرفنا هذا أمكنتنى الفرصة من توجيه هذا البحث فى صدد غايتى وهى : (ما هو أثر الخيال الفارسى فى شعر الحرب عند العرب ؟) .

* * *

إن بشار بن برد فارسى الدم ، صرف الصليبية فى العجم . كان أبوه (يرجوخ) من طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة. وأجداده من (ازدكر إلى يستاسب) كانوا عجماً ، فيصح أن يكون بشار مثالا للقياس فى هذا البحث لأن فى خياله منازع فارسية ولغته عربية .

ولكن قبل كل شىء ما هو الخيال الفارسى والخيال العربى ؟

عرفنا الخيال العربى فى شعر الجاهلية والإسلام إنه صورة منضوحة من صميم الحياة العربية . فالماء المندور فى الجاهلية ، والشمس المحرقة ، وظلال النخيل ، والأفراس والإبل والخيام والصحراء المنبسطة والمرأة الجميلة ، كل ذلك أمور ملموسة فى المادة تهيج فى ذهن المتكلم أخيلة كثيرة يضرب بعضها فى بعض فتجىء عالماً من الصور لا تحصى . وكل هاتيك الصور التى كانت تهيجها فى الذهن تلك المشاهد الملموسة ، كانت تجىء على ألسن العرب وتقوم فى أذهانهم خيالات صادقة كل الصدق وفق حياتهم الساذجة المحدودة .

إنى أضع ههنا صورتين إحداهما جاهلية ، صنعها امرؤ القيس فى ذهنه بخيال بدوى ساذج ،حين اشتاق إلى الحبيب النائى . وكانت (أذْرِع) له داراً فلم يعنه خياله المكتوف فى حدود البادية على التجرد الذى قد يكون لشاعر عرف الحضارة ، أو مرت أسبابها فى حياة أهليه ، فقال عن تلك المرأة :

تنورتهـــا من أذرعـــات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

ومعنى هذا البيت — كما أرى — أنه حين مر بأذرعات عنَّت على باله محبوبته، فرمى بخياله نحو يثرب فتنوّر نارها منها، فكان نظره العالى هو الذى أدنى إليه دارها. وإنه لخيال قوى مجنح، يكاد يكون خارجاً عن طوق الجاهلية. ولكنى آثرت ذكره لأدل على براعة خيال من أخيلة الجاهلية، فأقارنه بخيال آخر من أخيلة الشعر فى العصر العباسى، حين بدا الخيال الفارسى الآرى فى أذهان من صوره فى لغة العرب.

فهذا بشار بن برد تعن على باله صورة معشوقة، فيتمنى لو كان عندها فى إناء الفاكهة تفاحة فتأكلها، أو كان فى زهريتها ريحانة من الرياحين تشمها، فتهوى على الأولى بالعض وعلى الثانية بالشم فيذوق مبسمها وشمها. ثم لا يشفيه هذا الخيال المُغْرِب فى أن ينتفع منها بعض أو بشم، وإنما يريد أن تخرج به الروح من تلك التفاحة. أو ذلك الريحان فيكون لدى المحبوبة وفى خلوتها إنساناً سويًّا فيقول:

يا ليتنى كنت تفاحاً به فلجٌ ... أو كنت فى قضب الريحان ريحانا
حتى إذا وجدت ريحى فأعجبها ... ونحن فى خلوة مثلت إنسانا

فأين خيال امرئ القيس على ما فى جانبيه من جناح طائر؟ من خيال بشار وكأنه أنطلق على جناح «طيارة»! إن بينهما لبوْناً مثلُه مسافة العصر بين الشاعرين، وكرور السنين. ولا أذهب إلى أن هذا الخيال عند بشار خيال شاعر مكفوف، يتصور أغرب الصور ويعينه عليها العمى، ذهاباً مع من يقول إن المكفوفين أصحاب أخيلة جامحة لا يستطيع عليها المبصرون.

لقد حمَّل بشار الفارسى لغة العرب فى بيتيه هذين خيالا رائعاً، فارسيًّا آريًّا. وأكبر دليل على آريته (فكرة التجرد الفلسفية الموجودة فيه) وهى خروج الإنسان من ريحانة أو تفاحة. ودليل آخر على فارسيته أنه منتزع من فكرة دينية مجوسية وهى (التقمص) فروح الإنسان الموجودة فى الريحان والتفاح يمكن أن يعين عليها الوجود فتتمثل بشراً سويًّا. وكان بذلك بشار أبعد أملاً من النحات القبرسى «بيغماليون» الذى ابتهل إلى الربة «فينوس» لتسكب الروح فى تمثال «غالاتيا» الذى أبدعه لغانية خياله!

فإذا صح هذا المذهب، تطرقت إلى الكلام على شعر الحرب فى أدب العصر العباسى فاستقرأته وتقصيت وجودَ الخيال الفارسى فيه.

* * *

لم يكن الفرس أبعد شجاعة من العرب — على ما كان لهم من حضارة ضمن ثغورهم

المترامية التى كان يحميها جيشهم المنظم – وإنما كانوا أحكم نظاماً فى الحروب وأكثر فنوناً ، فإنهم حاربوا جيوش اليونان وعليها الإسكندر المقدونى وذاقوا ذل الانكسار ، ولكنهم إلى ذلك كانوا أمة ذات صولة وعسكر . فلما كسرتهم الحرب العربية وثل عرشهم الإسلام ومزقت جيوش المؤمنين جيوشهم من يوم القادسية ، عرف التاريخ أن السيوف العربية المنحنية الدقاق ، إنما كانت الأيدى التى ضربت بها أطول فى العزيمة ، والقلوب التى أفرغت فيها تلك الشجاعة كانت أوعى وأقوى . ولا شك أن الخيال الفارسى كان يظهر أثره جلياً فى كثير من شعر الحرب فى العصر العباسى ، سواء أكان هذا الشعر فى مدح أم هجاء أم حماسة ، وفى وصف أم غزل ، لأن حياة العرب فى هذه الحقبة قد تغيرت ، وكان لهدوء الفتن الكبرى أثر أعان العلماء والأدباء على التفرغ للعلم والبحث. فبدت طلائع من الأخيلة الفارسية فى شعر بعض الشعراء كبشار وأبى نواس . أما بقية الشعراء ذوى الأصول العربية ؛ فكان مثل تلك الأخيلة المغربة قليلا فى شعرهم على ما أخذوا به أنفسهم من دقة الشعور وحسن التصوير ، كأبى تمام والبحترى والمتنبى .

كان الشعراء فى العصر العباسى يجدون فى لغتهم ما يريدون من تعابير الحماسة والفروسية ولم يكونوا يشعرون ضيقاً فى أداء ما يجول فى أنفسهم من معانى الشجاعة والبطولة . ولكن هل كانوا فى الحقيقة أغنياء بتعابير الحماسة ؟ أو كان فى تعابيرهم فاقة ، وكانوا بحاجة إلى أن تتسع آفاق خيالهم فى وصف الحرب بعد دواعى الحضارة العباسية وتمازج العرب بفارس والروم ؟ سنرى بوادر هذا الاتساع الخيالى فى شعر أبى تمام والبحترى وأبى الطيب فى وصف الحرب ، ولكن الخيال الفارسى إذا تسلل إلى الشعر العربى فإنه لن يبدو معالناً عن نفسه ، وإنما كان لوناً جديداً فى جملة الألوان التى اصطبغ بها الشعر الحربى . وهو يجىء فى قول الشاعر بلا تكلف ومن غير أن يعمد إلى استدنائه أو يحس أنه خيال فارسى أو عربى ، وإنما المعانى والأخيلة أمور ذهنية تطلقها الأفكار ، يمكن للدارس أن يتبين أعراقها فى طويل الاستقصاء .

أخص هذه الأخيلة الفارسية ما كان بعيداً عن صدق البداوة أو محال التصديق ، كالتشبيهات الغالية التى نراها فى شعر العصر العباسى وفيها التهويل والتجسيم فى الاستعارات ، وكالإحاطة بالموصوف من أكثر جهاته ، مما لم يكن العرب يعرفونه فى الجاهلية وصدر الإسلام ، إذ كانت تغلب عليهم «الواقعية» وتنويع الموضوع فى الغرض الواحد .

وكانت بوادر التجديد فى المعانى معرضة فى العصر العباسى لنقد علماء الأدب ، فقد

نقد الأدباء الأقدمون بشاراً حين قال بيته الحماسي الرائع :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليـل تهـاوى كواكبه

فروى أبو الفرج فى أغانيه أن محمد بن عمر الجرجانى وأبا يعقوب الخريمى كانا يرويان عن بشار أنه قال :

« لم أزل منذ سمعت قول امرئ القيس فى تشبيهه شيئين بشيئين فى بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البـالى

أعمل نفسى فى تشبيه شيئين بشيئين فى بيت حتى قلت : (كأن مثار النقع فوق رؤوسنا) .

فالخيال الجديد يظهر فى شعر بشار ، وهذا البيت وحده أصدق دليل عليه . فأين من خيال البداوة هذه الكواكب التى تهاوى ؛ فتشبه بها الأسياف وهى تتصادم فى الحرب ؟

ولم يكن شعر أبى نواس — بعد بشار — مقصراً فى روحه الفارسية ، فقد ظهر الخيال المجنح فى خمرياته بأروع مما ظهر فى شعر بشار . فإذا تناولنا المعانى الخمرية فى الجاهلية عند الأعشى ثم عند الأخطل فى معان واحدة أو متشابهة ، رأينا أبا نواس يتناولها بتصور رائع ما كان لشاعر قبله أن يتصورها فيه .

ثلاثة أبيات هى دليلى ، تواقع الشعراء على معنى فى روح واحد ، فى وصف لمعة الخمرة وتلألئها ، أو طيبها وحلاوتها . قال الأعشى فى الخمرة :

ببـابل لم تعصر فسالت سلافة تخـالط قنـديداً ومسكاً مختّما

وقال الأخطل :

فجـاء بهـا قد خيلت فى إنائه بهـا كوكب المريخ تصفو وتزبد

وقال النواسى :

إذ عب فيها شارب القوم خلته يقبـل فى داج من الليل كوكبا

فبان الخيال البدوى الساذج عند شاعر الجاهلية الذى وصف رائحة الخمرة بالمسك وطعمها بالسكر وهو القنديد . وهذا أقرب إلى مدارك البداوة التى عرفها الأعشى فلم يرتفع

خياله إلى السماء ، وإنما ظل على أرض البادية ، وهو خيال ساذج ملموس ، شأن الكثير من الأخيلة الجاهلية .

وظهر عند الأخطل الخيال الحضرى الذى يصرح به صاحبه بأنه (خيال وليس بحقيقة) تبدو فيه الخمرة لامعة متماوجة مشعشعة كأنها عند صفائها وزبدها كوكب المريخ فى تألقه .

فرفع شاعر بنى أمية النشوان رأسه إلى السماء ، وطار إليها بخياله ، فكان خيال الكوكب مما تستدعيه دنيا الحضر بعد خيال القنديد والمسك الذى دعت إليه دنيا الوبر ، حتّى إذا جاء النواسى العربيد ، فعرف أسرار الخمرة ، وناجى أرواحها ، وتفرد من بين الندمان بنشوتين ، انطلق خياله الثاقب حين رأى الخمرة يعب فيها الشارب فى الظلام ، فهاجت فى نفسه (كوامن الفارسية الدفينة) — وقد تهيج به تلك الفارسية دون أن يصطنع لها الهياج — فبدت (الفكرة المجوسية) وهى (عبادة الكواكب) . وهل كان تقبيل الكوكب إلا مظهراً من مظاهر تلك العبادة المجوسية العتيقة ، إذ كان أهلوها يعبدون الشمس ويستقبلون لألاءها المفتان بالعيون والقلوب . (وما أجد أشفى للعابد من لثم المعبود) .

تلك سوانح من خيال فارسى لاح به أبو نواس فى خلال شعره . وإن فى شعره لمن هذه الصور أطيافاً كثيرة .

وقد احتفى الرواة والأدباء من أقدمين ومحدثين بتجديد أبى نواس ، فزعموا أن تجديده كان فى مفاتيح القصائد : أبدل فيها ذكر الأطلال البالية بالخمرة والقنانى . ولو التفتوا إلى هذا الضرب من المعانى الجديدة فى شعره مما لم يألف العرب ، لأمكنتهم الفرصة من الكلام على (فن أبى نواس فى صميم تجديده) .

إن ديباجة الشعر التى جاد بها أبو نواس عرف مثلها العرب ، بل عرفوا خيراً منها ، لكن معانيه هى التى كان يلوب على مثلها قبله الكثير . ولست دائماً مع الجاحظ الذى يقول : المعانى مطروحة فى الطريق ، فإن هذه المعانى النواسية لم تكن لتى مطروحاً فى الأرض ، وإنما كانت منضدة كواكب ونجوماً فى درب المجرة .

٨ ـ نطاق شعر الحرب فى هذا العصر

يتناول شعر الحرب فى العصر العباسى الأول حتى آخر أيام المتوكل موضوعات كان فيها غنى للحماسة العباسية كلها . وقد درسناها فى هذا الكتاب دراسة فنية حينا ، ومنوطة بالتاريخ حينا آخر . وقد توزعت هذه الموضوعات نواحى مختلفة ، فإن شعر الحرب كان منتوج الحروب الداخلية ، وكان يصدر عن الحروب الخارجية . وقد قيل فى حرب البحر ، كما قيل فى حرب البر ، وفى جميع ذلك قال شعراء العصر العباسى الحماسيون شعرهم الحربى ، وسأذكر هذه الضروب واحداً بعد آخر فى فصوله التى تحويه .

٩ ـ نماذج من شعر الحرب فى العصر العباسى

إن فى الكلام على وصف الجيش فى الشعر العباسى ما يعطى صورة مجموعة لنماذج الشعر الحربى ، إذ كان الجيش هو مجموعة رجال الحرب وعدتها ، ففى الجيش أبطاله وكماته ، وسلاحهم وكُراعهم . وإن مجال الموازنة بين أقوال الشعراء فى الجيش وقياس بعض أوصافهم على بعض لأوسع مدى لمن يصدر عن هذه الموارد من الكلام .

لقد نظر أكثر شعراء بنى العباس إلى الجيش نظرات متشابهة ، وتصوره كل منهم فى حالة إن بعدت به قليلا عن رفيقه ، فإنما تقربه إليه بقدر ما اصطلح عليه وصفهم للقتال ، ونظرهم للسلاح والأبطال . وإذا كنت أعد ابن الرومى أتم بياناً للموصوف وأوفى وعياً للصورة ، فإنى أبدأ بوصفه للجيش .

رثى ابن الرومى يحيى بن عمر ، وكان يحيى بن عمر ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب . فوجب أن يكون بهذا النسب مضطهداً لدى العباسيين كغيره من العلويين والشيعة ، وكان قد حاق به ضر وسوء حال فحبب إليه كل ذلك الخروج على العباسيين ، فخرج فى طوائف من الزيدية بناحية الكوفة . فجرد عليه المتوكل من غلبه وجز رأسه . وجلس العباسيون بعد قتله يتقبلون تهنئة الناس أفواجاً بموته .

وكان ابن الرومى نزاعاً للشيعة ، مصارحاً فى ميله إليهم وامتداحهم وإجراء طرف من شعره فى دعوتهم .

فهو إذن حين يرثى يحيى بن عمر إنما يرجم السياسة العباسية فى عقر خطرها ، إنه يرثى من خرج على تلك السياسة ، فاستطاع بما أوتيه من دقة التصوير وسبق فى الإلمام بوحدة الموضوع أن يجىء خلال هذا الرثاء بقطعة رائعة من شعره يصف فيها الجيش الذى سوف يهب لحرب العباسيين ، جيش الثوار الذين ما زالوا يكمنون فى ضمير الزمان . وما هبة ذلك الثأر إلا يوم يؤوب حق الطالبيين إليهم بعد أن نزعه منهم العباسيون فتدار عليهم يومذاك الكأس التى أداروها .

ألمّ ابن الرومى — فى وصفه الواعى — بما ينبغى أن يوصف به الجيش الصاخب اللجب . فهذا الجيش الذى يصفه :

فجر تضيق الأرض من زفراته ، وتهرب الوحوش من زجله وصياحه ، تلمع سيوفه على مدى الأبصار كأنها البرق ، وتسطع عليه شمس الضحى بومض بعد ومض فيحسب بحراً يموج ، شب شعاعه بين الأرض والسماء فتراه النسور التى تحمد للجيوش جودها بالقتلى والجرحى فتحوم عليه . وحين ينبطح عليه نظر الناظر يقع على حرج من الأحراج فيحار لهوله ، رجاله وفرسانه عدد الجراد ، وفوق الجياد رجال كأنهم الليوث ببسالتهم .

يلتحم رجال هذا الجيش بالعدو التحاماً لا يترك فرجة تنفس فارسا عن خيله ، ولو أن سحابة أمطرتهم لما وقع صوبها على أرض . ولبقى ماؤها يتدحرج على رؤوسهم وأجسادهم ، وقد لمعت رماحهم كما يلمع الفتيل المشتعل .

فمثل هذا الوصف الواعى ، يقوله ابن الرومى فى الجيش الذى سيغير على العباسيين لإنصاف الطالبيين :

لعل لهم فى منطوى الغيب ثائراً	سيسمو لكم والصبح فى الليل مولج
بمجـــر تضيق الأرض من زفراته	له زاجل ينفى الوحوش وهزمج(١)
إذا شيم بالأبصار أبرق بيضه	بـــوارق لا يستطيعهن المحمج(٢)
توامضه شمس الضحى فـــكأنما	يرى البحر فى أعراضه يتمـــوج
له وقـــدة بين السماء وبينـــه	تلم بهـــا الطير العـــوافى فتهرج
إذا كر فى إعراضه الطرف أعرضت	حراج تحـــار العين فيها فتحرج(٣)

(١) الهزمج الكلام المتتابع . (٢) المحمج الشديد النظر .

(٣) الحراج جمع الحرج وهو المكان الكثير الشجر . وتحرج تحار .

يؤيـــده ركنان ثبتان رجـــلة　　وخيل كأرسال الجراد وأوثج[1]
عليهـــا رجـــال كالليوث بسالة　　بأمثـــالها يثنى الأبى فيعنـــج[2]
تـــدانوا فما للنقـــع فيهم خاصة　　تنفسه عن خيلهم حين ترهج[3]
فـــلو حصبتهم بالفضـــاء سحابة　　لظـــل عليهم حصبهـــا يتدحرج
كأن الزِجـــاج اللهذميـــات فيهم　　فتيـــل بأطراف الردينىّ مسرج

على أن هذه الطير التى تلم بالجيش الذى وصفه ابن الرومى تذكرنى بالنسور التى وصفها النابغة الذبيانى ، وهى محلقة فوق جيش الغساسنة ، لكن النابغة تبسط بوصف هذه النسور التى هى لوازم كل جيش محارب ، وأجمل ابن الرومى الكلام عليها .

وتثير هذه القطعة التى يوفق ابن الرومى فيها بوصف الجيش قطعة تشابهها لأبى الطيب المتنبى ، فتلمع فى الخاطر إحداهما ثم تلمع فيه الثانية . ولولا ضرورة المقارنة ههنا ولزوم المقام ؛ لأخرت وصفه للجيش إلى الباب الثالث من هذا الكتاب .

يصف أبو الطيب جيش الأمير محمد الحسين بن طغج يوم نزل عليه بالرملة ، فيجعل السبيل إلى وصف هذا الجيش مدحاً لهذا الأمير بأنه لا يتلقى الحرب إلا به فيقول :

وذى لجب لاذو الجنـــاح أمامه　　بنـــاج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليـــه الشمس وهى ضعيفة　　تطالعـــه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة　　تدوّر فوق البيض مثـــل الدراهم
ويخفى عليـــك الرعد والبرق فوقه　　من اللمـــع فى حافاته والهماهم
أرى دون ما بين الفرات وبرقة　　ضراباً يمشّى الخيل فوق الجماجم
وطعـــن غطاريف كأن أكفهم　　عرفن الردينيـــات قبل المعاصم

تلك تهاويل أبى الطيب وهى فى هذه الأبيات تحصر الوصف فى الجيش :
(١) أنه لجب .
(٢) لا ينجو منه طائر فى السماء ولا وحش على الأرض .

---

(١) أوثج أكثف من وثج ككرم .
(٢) يعنج يرد ، من العنج وهو رد البعير عند العرب .
(٣) ترهج تثير الغبار .

(٣) تقع عليه أشعة الشمس ضعيفة لما يحجبها فوقه من غبار ورايات .

(٤) تصل إليه أشعة الشمس من بين ريش القشاعم .

وهذا الوصف الأخير (تهويل مغرق) فقد جعل النسور لكثرتها فوق الجيش قد منعت الشمس أن تتسرب إليه .

(٥) يقع عليه ضوء الشمس مدوراً كالدراهم ، إذ يمر من بين النسور التى فوقه .

(٦) لمع سلاحه وهماهم رجاله تخفى عليك البرق وتصم الأذن عن الرعد .

(٧) يريك هذا الجيش من فعاله بين الفرات وبرقة ضراباً تمشى الخيول عليه فوق الجماجم .

(٨) أبطال هذا الجيش غطاريف ، وقد تعودت أكفهم الطعن بالرماح ، قبل أن تكون لهم معاصم (وهو تهويل ممعن فى غلوه) .

فهذه الأوصاف التى سكبها المتنبى على الجيش شارك فى بعضها ابن الرومى فى قطعته السابقة عن الجيش الذى أنذر به العباسيين فى رثائه ليحيى بن عمر .

لقد شرح ابن الرومى (صوت الجيش) وأجمله المتنبى . وكلاهما ذكر الشمس ووقوعها على الجيش واختلفا فى عرض صور الشمس على الجيش ، فابن الرومى يجعل الشمس إذا وقع ومضها على الجيش جعلته يرى كالبحر المتموج ، ويكتفى بصورة واحدة . أما أبو الطيب فيتناول وصف الشمس على جيش ابن طغج بصورتين :

(١) امتناع الشمس من الوقوع على الجيش لما يظلله من الغبار وكواسر الطير .

(٢) أن الشمس تتخلل ريش القشاعم فتقع على الجيش مستديرة كالدراهم .

وهو معنى يحبه أبو الطيب ويؤثره فى وصف الشمس على الأرض ، وقد جاء به مرة ثانية حين وصف شعب بوان ببلاد فارس ووقوع الشمس على تلك المغانى الطيبة من خلال أوراق الشجر دنانير تفر من البنان .

ولعل أبا الطيب حين مدح أمير الرملة كان مشغوفاً بالدراهم فجاءته القافية فى تمثيل وقوع الشمس على الجيش (بالدراهم) ، لكنه فى شِعب بوان — وقد استغنى — صارت تلك الصورة ذهبية فى خياله فقرنها (بالدنانير) فقال :

وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنان

وذكر ابن الرومى فى قطعته هذه برق السلاح وفاته الرعد ، فجمع بينهما المتنبى .

أما القشاعم التى نشرت ريشها فوق الجيش — كما يقول أبو الطيب — فقد ذكرها ابن الرومى وعنى بها الطيور العوافى — الطالبة للمعروف — التى تلم بالجيش وهى فرحة هزجة. ومثل ابن الرومى للخيل بفرسانها كأنها عدد الجراد وعليها رجال كالليوث ، ثم رسم صورة لهذا الجيش وهو ملتحم بالأعداء التحامة لم تترك بينه فراغا ، ومثلها أبو الطيب ماشية فوق الجماجم وعليها الغطاريف الذين تمرسوا بضرب السيوف فكأن أكفهم ضربت بها من قبل أن يخلقوا .

ولا ينبغى فى باب المقارنة بين هاتين القصيدتين أن يكون تعاور الشاعرين على المعانى ذاتها مثلبة للاحق بعد السابق ، إذ ليس بين هذه المعانى سبق ولحاق بعد أن طرقها العرب المتقدمون متفرقة أو مجموعة . وليس على القطعتين من مياسم الجدة سوى الغلو والإغراق الذى لم يعرفه الأوائل . فابن الرومى يمعن فى الغلو فيقول : لو وقع على هذا الجيش مطر لتدحرج ماؤه عليه ولم ينسكب على الأرض ، تهويلا لكثرة عدد الجيش وتلاحم المتقاتلين وأبو الطيب يغلو فيقول ناسبًا إلى أبطال الجيش معرفة بثقاف الرماح (كأنها أسطورة) فأكفهم عرفت الطعن بالرماح قبل أن تنبت فى أطراف المعاصم والسواعد .

فإذا فرغت من المقارنة بين المعانى لدى الشاعرين لم يبق لدى من الوجهة الفنية سوى المقارنة بين الديباجتين . فابن الرومى أتى ببعض الغريب مدفوعاً إليه ، لا راضياً ، لأن قافية قصيدته تدفع الشعر إلى مثل ذلك الغريب . أما لحمة شعره فجاءت — كدأبه فى فنه — صافية التركيب سليمة من الركاكة والتزيد ، وكذلك قطعة أبى الطيب . وما كان لأبى الطيب وابن الرومى أن يعرض ديباجتيهما على التنقير إلا كل متنطع فى الأدب ، متزيد فى العيب على البارعين . ولا يستطيع النقد أن يفاضل بين القطعتين لأن لكل منهما طابعاً فنيًّا ومظهراً خاصًّا يختلف عن الآخر وإن توافقا فى بعض المعانى . وكفى أن يكون ابن الرومى مجيداً إذ كان يصف الجيش على وجه التصور والخيال ، ويصفه أبو الطيب على حال الحضور والمعاينة .

* * *

ووصف البحترى الجيش ، وأبو عبادة كثير الخيال ولوع بذكر الطيوف يؤثرها بكثير من شعره حتى كاد يسمى (شاعر الأطياف) وخيال (علوة) الحلبية يسرى فى أكثر قصائده ، فلا عجب إذا وصف الجيش من صورته المنقوشة على (إيوان كسرى) .

لقد تمثل جيش كسرى فى قصيدة الإيوان حين شاهد صورة أنطاكية على جداره ، والظاهر أن كسرى لما بنى إيوانه ، أراد أن يسجل على جدرانه مفاخره الحربية ومآثر

جدوده ، فصور له الرسامون صورة الجيش الفارسى وقد غزا أنطاكية فأوقع بالروم . ولا شك أن تلك الصورة التى شاهدها البحترى على الإيوان كانت صورة ملحمة فارسية رومية فى (أنطاكية) . ولذلك قال (ارتعت بين روم وفرس) وكلمة ارتعت لا يستعملها مثل البحترى إلا فى معناها من الخوف والرهبة التى تعترى المرء وهو يرى الجيش الملتحم .

وإلى جانب هذه الصورة التى شاهدها البحترى على جدار الإيوان صورة ثانية تمثل أنو شروان فى زحام المعركة وقد رفرفت المنايا على رؤوس المقاتلين من الهول ، وكسرى معمل قيادته يدفع الصفوف إثر الصفوف وهو تحت علمه الأكبر (الدرفس) . فكسرى فى بهُرة المعمعة ، وهذا ليس بكاف فى فن البحترى (صاحب التلاوين والتزويق) . ولذلك فقد أفرغ البحترى جعبة فنه على تلك الصور الفارسية المنقوشة فعرضها فى نطاق فنه ، فإذا كسرى أنو شروان فى لباس أخضر فوق أصفر ، وهو يختال ، وعليه حلة مصبوغة بالورس . وحين قال البحترى إن هؤلاء الأبطال يتعاركون بين يدى كسرى وهم صامتون خافتون لا نأمة لهم ولا جرس ، رجع إلى الصورة الجامدة التى على الحائط ، لكنه سرعان ما حركها بما أوتى من صنعة فى التجسيد والتجسيم ، فوصف أبطالها على أنهم (جد أحياء) يهوى أحدهم بالرمح ويصد الآخر الرمح بالترس ، ثم جرد من الخيال حياة ، فتصور الأبطال يتحاربون وهم خرس فأظهر الحركة وأخفى الصوت ، ثم عاد إلى الشك بنظره وشعوره ، فجعل ارتيابه بحقيقتهم سبيلا إلى مد يديه إلى لمسهم ليتقراهم و يعرف حالهم بين الخيال والحقيقة .

إنه يقول فى السينية الرائعة :

فإذا ما رأيت صورة أنطاكيـة — ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنو شروان — يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على — أصفر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه — فى خفوت منهم وإغماض جرس
تصف العين أنهم جد أحياء — لهم بينهم إشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى — تتقراهم يداى بلمس

ولم يكن البحترى فى هذه القصيدة إلا ألعوبة بيد الفن ، فحين زار الإيوان نظم قصيدته فيه على البيان والخيال ، وخلع على الإيوان كله من أبوابه إلى شرفاته روحا منطلقة ،

فإذا الإيوان يخفق بكل ما كان فيه من وقوف فى الزحام ووفود متعاقبة وقيان وسط المقاصير .

وقد خرج البحترى من نطاق نفسه وحسه ، فخلط وجوده فى صوره وخيالاته ، حتّى اشتبه عليه الأمر فتوهم أنه ينادم على الشراب كسرى ويطربه مغنيه (البلهبذ) فقال :

وتوهمت أن كسرى أبـرويز — معـاطى والبلهبذ أنسى

ولم يخل شعر الكثير من شعراء العصر العباسى من وصف الجيش حتّى أن بشارا وهو الذى ليس عليه من حرج فى أن يترك ذلك قد جرى فى مضمار المبصرين وكاد يسبقهم حين وصف جيشا حاربه عمر بن هبيرة قال فيه :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصا وبالشوك والخطى حمر ثعـالبه
غدونا له والشمس فى خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذائبـه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتـدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثـار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليـل تهاوى كواكبه

وقد مضى القول فى قيمة هذا الشعر الحربى عند بشار . وقد ترك بشار الشعراء بعده ينظرون إلى فنه فيحبون تقليده ، كما فعل ابن المعتز حين وصف الجيش فقال على غرار بشار :

وجيش كمثل الليـل تسودّ شمسه ويحمر من إعناته البر والبحـر

وكفى بشارا مؤونه العلم بفن التعبئة العسكرية كلمة (يزحف) فإن فيها كل معانى التعبئة .

والظاهر أن بعض الشعراء كانوا يصطنعون الشعر الحربى ، وهم يعلمون أن وصف الجيش عنوان هذا الشعر عندهم . فوقع بعضهم بتصنع ظاهر وكلفة مريرة ، فحسبوا أن ذكر الخيل والسيف والرمح هى التى تثير معانى الحماسة فى النفوس كما فعل الناشىء حين قال :

جيش يفـوت الظن حتّى لا يرى ما غاب من أنظـاره محـدودا
وكأنما جعل الإله رواسى الأعـلام — أعـلاما لـه وبنـودا
وترى وتسمع لمعـه وحفيفـه فتظن فيـه بوارقا ورعـودا

وليس وصف الجيش بكاف لمعرفة الفن الحماسى عند الشعراء ، فإن فى الكلام على شعر الحرب عند كل واحد منهم مجالا للنقد والتحليل ، ومندوحة للحكم والتقدير ، وسبيلا إلى معرفة فهم الحماسى ، والحربى .

الفصل الثانى

شعر الحرب الداخلية

١ — سيوف القرامطة

تجوّز المؤرخون فى كلامهم على العصر العباسى فسموا من شق العصا على الدولة (خارجيا) ، فكان عندهم الزنادقة العصاة ، والشيعة الغلاة المناوئون ، وأصحاب النحل ومذاهب الإباحة وذوو البغى ، خوارج . ومن هذا القبيل عدوا (القرامطة) رأس الخوارج . بل كان الخارجى عندهم فى أكثر ما يعنون هو (القرمطى) .

وأراهم قد ذهبوا مذهباً غير عادل ، فإن الخوارج الذين فى عصر بنى أمية وبخاصة فى صدر ذلك العصر ، كانوا زهاداً مبتهلين ، وعباداً قانتين ، فضلا عما كانوا يتحلون به من الفروسية الباهرة ، والبطولة الخارقة (التى تقدم وصفها عند كلامى على شعر الحرب فى الأدب الأموى) مع الشهامة والمروءة فى أمر النساء والأعراض .

لكن القرامطة — وقد تتبعت آثارهم من مناشئ أمرهم إلى ذهاب ريحهم — كان صاحبهم الأول يدعو إلى إمام من أهل البيت النبوى[١] ، ثم لم يلبث هو وأتباعه وأعقابه أن صاروا زنادقة ملحدين ولصوصاً سفاكين . وهم وإن كانوا على شىء من الشجاعة والبأس ، إلا أنهم كانوا مثالا للجبن والخذلان فى أكثر مواقفهم التى حاربهم فيها العباسيون . فليس إذن من العدل فى التاريخ ، والإنصاف فى الوصف ، أن نعد القرامطة وأمثالهم مثل الخوارج .

لم تكن للخوارج فى العصر الأموى شعبذات وحيل تنجيم ونيرنجات يخادعون بها الناس ، وإنما كان لهم السيف لساناً والحرب معواناً ، ولكن القرامطة كانوا أصحاب تلك

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ٣٣٧ .
أول القرامطة رجل من ناحية خوزستان نزل سواد الكوفة مظهراً للتقشف والعبادة ، ومرض فحمله رجل اسمه (كرميتة) على ثور له وجاء به إلى بيته ، فغلب عليه اسم صاحب الثور فسمى (قرميطة) وكرميتة بلغة النبط أحمر العينين ، وكان صاحب الثور أحمر العينين .

الحيل ، فقد روى أن واحداً من أوائلهم وهو (هاشم بن حكيم) لقب (بالنبي المقنع) لأنه كان يضع على وجهه قناعاً من الذهب[١] فذكر ابن القارح فى رسالته لأبى العلاء[٢] أنه كان « قصاراً أعور فصنع لنفسه وجهاً من الذهب وخوطب برب العزة » .

وظهر من القرامطة (مقنع) آخر فى الرملة بفلسطين أيام المعتصم كنيته أبو حرب فوضع على وجهه القناع لئلا يعرف ، وكان أمويا فزعم لجمعه أنه السفيانى المنتظر ، واتبعه من القرويين والحراثين مائة ألف فأحاط به المعتصم وناجزه الحرب وأسره[٣] .

والظاهر أن القرامطة كان رؤساؤهم مولعين بستر الوجوه ، فظهر منهم (مبرقع) ثالث أيام سيف الدولة ، فالتفت عليه القبائل وافتتح مدائن بأطراف الشام ، فنهض إليه سيف الدولة وحاربه وقتله ، وعاد إلى حلب ورأس القرمطى المبرقع على رمحه[٤] .

فذكرنى وجه الذهب والقناعان بمشابهة مطابقة فى حوادث التاريخ الفرنسى . فقد كان الداهية « ريشيليو » ألزم أحد الأمراء ممن كان له الحق فى العرش أن يلبس على وجهه قناعاً من الذهب وأبده على وجهه إخفاء له ، وحبسه فى إحدى قلاع البحر صرفاً له عن الملك حتى مات صبراً .

وأعلمنا تاريخنا أن من القرامطة (زكرويه) ثم (الحسن) ابنه . وقد نهضا فى سواد الكوفة ثم فى الشام ، وأن منهم (علياً بن أبى هاشم بن صدقة الكاتب) ظهر أيام المعتضد ، وأن منهم الصناديقى اليمنى الذى ذكره ابن القارح وأبو العلاء فى رسالتيهما ، وأن منهم القرمطى الخطير (أبا سعيد الجنابى) ، وقد ظهر بالبحرين ، فاستفحل أمره ، حتى هدم المدن وأحرقها وسبى النساء وقتل الأطفال والشيوخ ، وبلغ به الفتك أن وصل إلى مكة فقال ابن القارح « إنه قتل فيها ألوفاً واستملك من النساء والغلمان من ضاق بهم الفضاء كثرة وأخذ حجر الملتزم وظن أنه مغناطيس القلوب » ، ونهب المحاريب وجواهر الكعبة وقناديل حرمها[٥] وقد ملأ هذا القرمطى أوائل القرن الرابع الهجرى بأهوال جرائمه ، وحاربه الخليفة

---

(١) فى الطبرى ٩/٣٣٨ ، ٣٤٢ أن خروجه كان بمرو خراسان ، ثم قتله المهدى فأرسل عليه قائده سعيداً الحرشى . وذكر الطبرى أن اسم المقنع (حكيم) . أما سيد أمير على فيسميه (هاشم بن حكيم) فى كتابه (مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى) مصر سنة ١٩٣٨ ص ١٩٩ .

(٢) رسائل البلغاء ط ١٩١٣ ص ١٩٨ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٥ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبى ط مصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١٨ .

(٥) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعيد القرطبى المطبعة الحسينية بمصر ص ٧٠ .

المعتضد فلم يقو عليه ، ولا قدر عليه الخلفاء الذين جاءوا على أثره .

وقد أجمعت كتب الفرق والنحل والأهواء أن هؤلاء القرامطة جميعاً كانوا يستبيحون المحرمات ، وأنهم غلاة الإباحية ، وهدمة الشرائع ، ينكرون الحياء ويقوضون المجتمع والأسرة بتعاليمهم الفوضوية الفاحشة ، وآراءهم التى تمت إلى المجوسية ، كما ذكر ذلك أبو منصور البغدادى[1] وقد عاصر أواخر حركاتهم .

* * *

فأين هؤلاء القرامطة البغاة من الخوارج الأوائل الذين كانوا يقطعون الليل سجوداً ، والنهار حرباً لرفع كلمة الله .

أما أشعار القرامطة فى الحرب فقليلة ، بل نادرة وكان ينبغى لهم أن يتركوا لمن يبحث عنهم شعراً فى الحروب الكثيرة التى قاموا بها ، وقد كان الدم حلالا لهم ، وإنى لأراهم سفاحين رجمة مولعين بتسكاب الدم فلا يشفيهم إلا إراقته ، وليسوا غريبين عن مذاهب التحليل النفسى المعاصر ، فإن أمثال (فرويد) وأهل فلسفته ينبغى أن يعدوهم من فريق (الساديين Sadistes) [2] وهم المصابون بالسفك واجتراح المفاحش واستباحة الأعراض والموغلون فى رؤية الدم ، وطريقهم أن يبطشوا ويضربوا ولا تبرد غلتهم الجامحة إلا بإراقة الدم . وفى المجرمين نفر كثير من الساديين أمثال هؤلاء القرامطة ، وفى علم النفس الحديث بسطة لوصف هذا الضرب من الناس أصحاب الشذوذ . ولست أستغرب ندرة ما وصل إلينا من أشعار القرامطة ، فإن الرواة لم يحفظوها تحرجاً وتأثما فربما تضمنت حضا على الإباحية وانتهاك الحُرَم وبث الإلحاد . فغاضت هذه النماذج من دنيا الرواة كما غاض أكثر الشعر الذى قيل فى مثل ذلك .

من هذا الشعر القرمطى ما قاله كبير القرامطة أبو سعيد سليمان الجنابى وقد كتبه للمسلمين بعد أن انهزم واعتصم بهجر[3] :

أغركمو منى رجوعى إلى هجرْ ـــ وعما قليل سوف يأتيكم الخبر

---

(١) الفرق بين الفرق ط المعارف بمصر عن نسخة برلين سنة ١٣٢٨ ص ٢٧٢ .

(٢) نسبة إلى المركيز دو (ساد) وهو فرنسى مشهور فى الأدب الشاذ الذى يصف الجرائم . وقد كتب أدبه صورة عن نفسه التى كانت مولعة بسفك الدماء واجتراح الفحشاء . وقد سجن من جراء جرائمه وفى سجنه كتب أدبه الشاذ هذا . ولد دوساد فى سنة ١٧٨٠ ومات سنة ١٨١٤ .

(٣) الفرق بين الفرق الصفحة السابقة .

إذا طلع المريخ فى أرض بابل ... وقارنه النجمان فالحذرَ الحذر
ألست أنا المذكور فى الكتب كلها ... ألست أنا المبعوث فى سورة الزمر
سأهلك أهل الأرض شرقا ومغربا ... إلى قيروان الروم والترك والخزر

ويتبين من هذه الأبيات التى تهدد وتصول ، وتحذر ثم تهدد ، بأنها إنذار بحرب لا تبقى ولا تذر ، أن القرامطة كانوا يؤمنون بالتنجيم و (بالرجعة) وهى من المذاهب الباطنية ، وأن سليمان هذا كان يدعى أنه نبى مرسل وأنه مبعوث فى سورة الزمر . وقد رجعتُ إلى السورة فتبينتُ أنه إنما أراد بها قوله تعالى « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » . وقبل هذه الآية آية تشير إلى البعث وهى « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » .

إن القرامطة لم يتركوا شعرا حربيًّا يؤثر عنهم ، وإنما تركوا أخبارًا طوالا فى جرائمهم الكثيرة ، وإن خيرا للشعر الحربى ، وهو مناط الحماسة ومعرض المروءة ووليد الحمية ، أن يخلو من فتك القرامطة ، ووصف بغيهم ، ومراتعهم فى المظالم والضلال .

٢ ــ علوى البصرة
وتصوير ابن الرومى لمذبحة الزنوج

أنكر المؤرخون أن يكون (علوى البصرة) على بن محمد الذى ثار أيام المعتمد على الله ــ منتهى النسب إلى على بن أبى طالب ، فقد وصفوه بأنه كان متحيرًا فى إثبات نسبه الطالبى .

ولكن التاريخ حفظ لنا أنه كان علويا ، فعللتُ نهوضه بالفتنة بسبب مظلمة العباسيين للعلويين ، وأخذهم منهم حقهم الأول فى الخلافة .

وعللتُ إطاعة الزنج لهذا العلوى ، وهبوبهم لندائه ، بما كان يقاسى العبيد من ظلم الرق ، فكانت ثورتهم فى وجه أسيادهم حقا من حقوقهم الإنسانية ، ومطلباً نبيلا من مطالب الحياة ، على نحو ما ثار بعدهم بمئات السنين زنوج أمريكا فى وجه أسيادهم الظالمين وما زالوا يثورون حتى الآن وبخاصة فى جنوب أفريقيا . وقد بزغت فى النصف الثانى من القرن العشرين ظاهرة الحرية والكفاح من أجلها لدى الشعوب الأفريقية حتى ظفر منها

من ظفر بالاستقلال وما زال الآخر يكافح ويجالد حتى يكتب له الظفر . ولقد علل المؤرخون الغربيون أن قضية الرق فى أمريكا كانت من أعظم الأسباب التى أدت إلى الحرب الأهلية بين أهل الجنوب وأهل الشمال فى الولايات المتحدة ، تلك الحرب المريرة التى لم تكن تقل فى نكباتها وأهوالها عن الحرب الأهلية الإسلامية أيام على ومعاوية ، حتى كتب النصر لجيش الشمال ، فهدأت هذه الحرب ، وكان من أعز ثمراتها تحرير العبيد ، وكسب من جراء تحريرهم أحد رؤساء أمريكا (أبراهام لنكولن) لقب (محرر الرقيق) وكان قبله الرق فى أمريكا سوقاً لها نخاسوها ، ولها بضاعتها الإنسانية المزجاة .

لكن ثورة العبيد فى أمريكا ، كانت لوجه الحرية فحسب ، ولم تكن مقرونة بدعوة دينية أو مستغلة لغرض سياسى خاص .

أما ثورة الزنوج فى البصرة ، فقد استغلها (العلوى) ووجهها فى غير ما ينبغى من حقوق الإنسان . إن العلوى عزم فى أمره على النهوض فى وجه العباسيين وجعل العبيد وسيلة لبلوغ أغراضه السياسية الخاصة . لقد صلى وخطب السودان فأهاجهم على قلب الحكومة ، مستعيناً بفقرهم واستعبادهم ، فأطمعهم بالحرية ، وتمليكهم الأموال والمنازل ، وحلف لهم على نصرتهم[١] ، فثاروا وتوافوا جموعاً على جموع حتى صاروا عدداً كثيفاً لا قبل لأحد بحربه ، ومعهم كل أهبة الحرب من سلاح ومال وخيل . وقد حازوا ذلك المال والخيل إذ كانوا يراوحون البصرة وأنحاءها ويغادونها بالمناوشة والنهاب ، قبل أن يفتكوا بها فتكتهم الكبرى ، ثم ما زال العلوى يؤرث بهم نار الثورة حتى قطع بهم الطرق ، وحتى دخل بهم على البصرة فأحرق الدور ، وأنهبهم ما كان فيها أياماً ، وأحرق أسواقها وكلأها . وكان قائده (أبو الليث) يحض الزنوج على المقتلة والمجزرة بكلمة (كيلو)[٢] حتى أفنى المدينة وقتل أهلها ، وهرب من فاز منهم إلى الدساكر والأنحاء القاصية .

وتحولت دعوته الأولى التى كانت مطالبة بالحرية للزنوج إلى سفك دماء ، وانتهاك محارم ، وهدم بلاد ، واستحلال نساء محرمات . وانتهاب أموال . مما لا يأتيه البرابرة والمتوحشون. وانتهى به الأمر بعد هذا الإجرام إلى ادعاء النبوة والرسالة ، فكان قرمطياً فظيعاً .

فأعمل العزم فى حربه الخليفه العباسى (أبو أحمد الموفق أخو المعتمد على الله) فحاربه أربع عشرة سنة[٣] حتى استطاع فى آخرها أن يقتله فيحز رأسه بعد تقطيع أطرافه ، ولم يستطع أهل

---

(١) تاريخ الطبرى ج ١١ ص ١٧٧ .

(٢) الطبرى ح ١١ ص ٢٢١ .

(٣) من سنة ٣٥٥ – ٣٧٠ للهجرة (الطبرى ١١ / ٣٢٦) .

البصرة عودة إليها ، واستقراراً فيها ، حتى استراحوا من رزيته (وخسر الزنوج قضيتهم) التى ثاروا من أجلها ، فظلوا أرقاء .

وقد ذكر أبو العلاء المعرى أمر العلوى فى رسالته إلى ابن القارح فروى له أبياتا فقال[1] « ما أدفع أن تكون قيلت على لسانه » .

وكيف كان أمر هذه الأبيات فقد أوصلها إلينا أبو العلاء وهى أبيات حربية ، نفيد منها كنه هذا المذهب الذى نهض به صاحب الزنج ، فهو يقول :

قتلت الناس إشفاقا على نفسى كى تبقى
وحزت المال بالسيف لكى أنعم لا أشقى
فمن أبصر مثواى فلا يظلم إذن خلقا
فوا ويلى إذا ما مت عند الله ما ألقى
آخلداً فى جوار الله أم فى ناره ألقى

فنستطيع أن نتبين من هذه الأبيات السهلة التى قيل فى سهولتها كثير من شعر المحاربين ، أن العلوى ينبغى أن يكون قالها فى أوائل ثورته ، وقبل ادعائه النبوة واشتراعه نهب المال وسبى العرض . ففيها تظلم وتبرير لسبب قتله الناس ، فهو قد قتل الناس من خوفه الموتَ على نفسه لأنه إذا ترك قتل الناس قتلوه . وما أحسب هؤلاء الناس الذين عناهم إلا العباسيين الذين قتلوا العلويين بالسيف وقتلوهم بحرمانهم حق الحكومة والمال ، وجاروا عليهم بصنوف العذاب والانتقام ، كما جارت النزعات الحزبية الذميمة فى عصرنا .

ثم فسر ثورته بأنه قام بها ليحوز المال بالسيف ، فكان له ذلك ، لأن حقه فى نعيم الحياة وبقاء العمر حملاه على عمله . ثم توقع لنفسه الموت ، فكان يرى حتفه بين عينيه ، فنصح الناس إذا رأوا مثواه الأخير أن يعتبروا بأمر ثورته ، فلا يظلموا الخلق حقوقهم . ثم يظهر فى بيتيه الأخيرين خشوعاً لله وخوفاً من ناره . ولعل ذلك كان منه على الحقيقة أول أمره . أو خداعا للزنوج الذين هبوا معه .

لست بسبيل التاريخ ، فأتبسطَ فى وصف هذه المذبحة من وجهة التاريخ والسياسة ،

---

(١) رسالة الغفران وقوف اليازجى ط مصر ١٩٠٣ ص ١٤٣ .

وإنما أنا بسبيل شعر الحرب . وقد أحدثت هذه الفتنة صوراً من صورة الشعر ، إن ضن بتقديرها التاريخ ، فإن على الفن والأدب أن يعرف لها قدرها . وهى قصيدة من صنع ابن الرومى الذى كان أكثر الشعراء العباسيين طول نفس وإلماما بوحدة الموضوع ، واستقصاء للكلام فى الوصف . فهو الشاعر المفتن الذى سجل هذه الثورة الزنجية فى شعره بقصيدة طويلة يكفى أن ندرس جانباً منها لنتبين موضعه من شعر الحرب فى عصر بنى العباس . لأنه شعر يصور ثورة حربية لم يشهد قبلها العرب مثلها فى حروبهم الأهلية كلها .

بدأ ابن الرومى (ملحمته) عن مذبحة البصرة بوصف أهلها الآمنين فصور كيف بغتهم العبيد بالسيوف ولم يكن لديه أصدق فى تشبيه العبيد من ذلك التشبيه الذى اصطلح عليه كل من رآهم وهو أنهم (قطع الليل) ثم ببيت واحد أعطى صورة الحريق الأكبر فقال :

بينما أهلهـــا بأحسن حـــال ... إذ رمـــاهم عبيـــدهم باصطلام
دخـــلوها كأنهم قطع الليـــل ... إذا راح مـــدلهم الظلام
إذ رموهم بنـــارهم عن يمين ... وشمال وخلفهم وأمام

وقد أفاد ابن الرومى التاريخ . فإن المؤرخين لم يذكروا أن هؤلاء العبيد الذين ثاروا كانوا عبيد أهل البصرة وخدامهم[١] ففسر ذلك ابن الرومى فكان قوله (عبيدهم) مؤكدا ما ذهبتُ إليه من أن هؤلاء العبيد إنما ثاروا على أسيادهم من طول الجور والاستعباد .

ثم ينتقل ابن الرومى إلى مرحلة ثانية من قصيدته فيصف أفعال الزنوج التى اجترحوها . لقد صور الذين هربوا للنجاة كيف تلقاهم الزنوج على وجوههم بالسيوف وكيف كان الأب يرى مقتل ابنه الغالى ، والرضيع الذى ضربوه وهو على ثدى أمه ، والفتيات العذارى اللواتى سبوهن فكانت وجوهن وأقدامهن ملطخة بالدماء . ثم كيف اقتسمهن الزنوج بينهم بقسمة السهام . ثم صرن إماء بعد أن كن يملكن الإماء والخدم . وكل هذا لم يذكره المؤرخون بالتفصيل فقال ابن الرومى مفصلا :

كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقـــوا جبينـــه بالحسام

---

(١) يروى بعض المؤرخين أن هؤلاء العبيد كانوا يكنسون السباخ فى ظاهر البصرة لكنهم لا يتبحبحون فى هذه الرواية ، فلم يذكروا علاقة هؤلاء العبيد بأسيادهم ، ولم يعرضوا لفكرة الحرية التى قامت فى رؤوس العبيد .

كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزاً وجهها بغير لثام
من رآهن فى المساق سبايا ... داميات الوجوه كالأقدام
من رآهن فى المقاسم وسط الزنج — يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن إماء ... بعد ملك الإمام والخدام

وهى صور تهويلية مثيرة متتابعة ، يزجيها ابن الرومى بما وهب من براعة فى فن التصوير الشعرى ، وكأنه يريد بها أن يستل الرحمة من قلوب من يعطف على فتنة الزنوج لمطالبتهم بالحرية ، وما أحسب أولئك الزنوج قد اتخذوا النسوة البيض لهم إماء ، إلا ثأراً للعبودية وانتقاماً .

ثم جعل ابن الرومى المرحلة الأخيرة من قصيدته وصفاً لتهديم قصور البصرة وتحريق أركانها ، وانطراح القتلى والأشلاء فى ساحاتها . وجعل أواخرها حضا للقوم الكرام على محاربة العبيد الطغام واشترط عليهم الغياث ، فإن قعدوا عن حرب العلوى صاحب الزنج ، فإنهم شركاؤه فى اللعنة وفى الآثام فقال :

بذلت تلكم القصور تلالا ... من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق والحريق عليها ... فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها فهى قفر ... لا ترى العين بين تلك الأكام ،
غير أيد وأرجل بائنات ... نبذت بينهن أفلاق هام

* * *

انفروا أيها الكرام خفافا ... وثقالا إلى العبيد الطغام
إن قعدتم عن (اللعين) فأنتم ... شركاء (اللعين) فى الآثام

ويظهر من بيت (انفروا خفافا) أن ابن الرومى نظم هذه القصيدة و (الحرب الزنجية قائمة بعد خراب البصرة) . وقد ذكر غير ابن الرومى هذا الحادث الجلل لكن أحداً من الشعراء لم يحسن تصويره ووقف الشعر عليه ، كما أحسن ابن الرومى ووقف . وعلى التمثيل

أذكر البحترى فإنه مدح أبا أحمد الموفق وذكر علوى البصرة ، لكنه أضاع شعره فى المدح والاحتيال على معانى الثناء ، تاركا لُباب الموضوع وهو وصف حرب العلوى ومذبحة الزنج[١] .

وكفى بابن الرومى أن يروح تياهاً بهذا الوصف ، وقد قعد عنه البحترى ، وتاريخ الأدب العربى يعرف ما كان بين الشاعرين من التهاجى والتحاسد من أجل الشعر .

---

(١) ديوان البحترى ط هندية سنة ١٩١١ ج ١ ص ٢١ .

الفصل الثالث

شعر الحرب الخارجية فى الشرق والغرب

١ — فتنة بابك الخرّمى

ليس للأدب أن يمعن فى السياسة ، فبحسبه أن يعرض للحوادث والفتن التى أثارت شعرا حماسيا ذا أثر فنى — وهو ما يتصل بموضوع هذا الكتاب — فإذا استطعت أن أتتبع بالدراسة والتحليل هذه القصائد والمقطوعات من شعر الحرب والحماسة ، التى قالها زعيما الشعر الحماسى فى عصر بنى أمية أبو تمام والبحترى فقد بلغت هذه الغاية الفنية فى أدب العصر العباسى التى قصدت إليها .

وإذا كان أبو تمام والبحترى هما علمى هذا الفن فى العصر العباسى الأول ففى دراسة أشعارهما الحماسية كفاء لتبيان موضوعات شعر الحرب فى زمنهما ، لأن فى قصيد هذين الجبارين أصدق مرآة للحياة الشاعرة ، وأبدع صورة للحماسة العربية والبطولة والفروسية التى تولى بعدهما أبو الطيب المتنبى الزعامة فيها .

وأظهر مياسم الحرب فى شعر أبى تمام قصائده فى الحروب التى وقعت زمنه فى شرق العراق وفى غربه .

أما حروب الشرق فكانت فتنًا ، كبراها حرب الأفشين قائد المعتصم لبابك الذى خلع الطاعة ، واعتصم بجموعه فى أرض (البذ) وإقليم آذربيجان . فقاتله الأفشين . وإنه ليهمنى عند الكلام على شعر الحرب فى هذا العصر أن أدل على ما كان للعنصر التركى من الخطر فى جسم الدولة العباسية بعد العنصر الفارسى الذى ابتلى به العرب زمن بنى أمية وصدر الدولة العباسية ، فصارت حياتهم السياسية منوطة بأيدى قوادهم الخطرين كالأفشين . وإيتاخ وبغا ، ووصيف ، وسواهم من الترك . وكان ذلك ذنوب خلفائهم ، فقد استعان المنصور والمأمون بالخراسانية ، واستعان بعدهما المعتصم بالترك . فقويت شوكة هؤلاء القواد الغرباء عن العربية ، وصار الأمر إلى أيديهم ، حتى بات الخليفة حاكما باسمه فحسب . ومن ههنا

بدأ انهيار العهد العباسى من الوجهة السياسية .

وكان بابك الخرمى كغيره ممن نهضوا بالفتن يبدؤون ثوراتهم (بدعوة روحية) فقد تحرك بالثورة منذ عهد المأمون[١] فكان من أصحاب (جاويذان) بن سهل صاحب أرض (البذ) فادعى أن روح جاويذان دخلت فيه ، وأخذ يضرب فى تلك الأصقاع بالعبث والفساد ويهلك الحرث والنسل حتى أصاب أهل خراسان والرى وأصبهان مجاعة ، فتناحروا على الطعام يدفعون عن أنفسهم الموت ، وظل بابك يؤلب الجموع على العباسيين وفيهم الترك والفرس ، وفيهم من نقم على بنى العباس . وقد اعتصم بمنطقة الجبال حتى أقض مضاجع العباسيين وأعجزهم أمره زهاء ربع قرن[٢] ، وهى فسحة من الزمن تكفى أن تتعب دولة فى لقاء عدوها مهما تكن مصابرة وجلدة قوية .

وقد حير أمر بابك دهاء المأمون ، بعد أن عجز عن حربه قائده صدقة بن على المعروف بزريق ، وبعد أن أسر بابك أصحاب « صدقة » الذين كان يوجههم إلى حربه واحداً بعد واحد ومات المأمون وهو عاجز عن بابك[٣] .

وأعلل عجزه عن إسكات (فتنة الشرق) بما كان آخذاً نفسه به من (حروب الغرب) فإن حروبه المتوالية جعلته يحارب فى (جبهتين) على مصطلح عصرنا ، فتشتتت قوته وتوزعت هذه الساحات الحربية جنوده ، فعجز فى جميعها .

ولما صارت الخلافة بعد المأمون إلى المعتصم تبصر فرأى أنه محاط من جانبيه بما أحيط به أخوه المأمون من « فتنة الشرق » و « حرب الغرب » .

وأراه قد ثقف السياسة الحربية فلم يتعرض لما تعرض له أخوه من النهوض لحرب عدويه فى آن واحد ، فأملى للروم ، وجعل حربه معهم مناوشة وصدا ، لا مناجزة والتحاماً ، حتى استطاع أن يأخذ بابك أخذة واحدة ، فجاء به الأفشين مغلول العنق ، مصفود اليدين ، مكسور الشوكة ، مفلول الجمع .

ولئن تسلم المؤرخون وصف معارك الأفشين ، طاوين الكشح عن بطولة بابك ، فقد

---

(١) تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٢٤٤ .

(٢) كانت قومة بابك الخرمى سنة ٢٠٢ ومقتله سنة ٢٢٣ للهجرة .

(٣) قال أبو المحاسن صاحب النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٢٢٣ ط دار الكتب المصرية)
« إن بابك أفسد مدناً كثيرة فى مدة عصيانه ، وأخرب عدة حصون وأباد العالم وعجزت الخلفاء والملوك عنه لفراره ، وطالت أيامه نحو العشرين سنة أو أكثر » .

سار على غرارهم الشعراء فوصفوا الأفشين سيد الحرب وبابك نذلها ، ولعلهم قد فعلوا مثل ذلك مع الأفشين فوصفوه بالنذالة والجبن حين حبسه المعتصم ، لخلعه الطاعة ، ومكاتبته « للمازديار » ثائر العجم وقوله له[١] : « ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا العرب والمغاربة ويعود الدين إلى ما كان عليه أيام العجم » .

وليس يعنينا أن يكون الأفشين تارة فى رأى التاريخ بطلا ، وتارة نذلا ، وإنما الذى يهمنا أن نرى إلى صورته فى إطار الحماسة العباسية على لسان الشعر ، ومن أجدر من أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ، أن يصف لنا حرب الأفشين لبابك ، وكان منها قريباً ، وبها عليماً ، وعند الخليفة أثيراً .

لأبى تمام شعر كثير فى هذه الفتنة ، ولكن أجمعه لوصف وأوعاه لبيان ، هو قصيدته الكبرى التى يهنئ فيها المعتصم بعد صلبه بابك فى سامرا .

* * *

إن الأفشين ليعود من حربه فيوجه إليه المعتصم أخاه هرون ليتلقاه بالترحاب ثم ينزله قصره فى (الحظيرة) ويخلع عليه ما أثقله بالذهب والجوهر ، ويغنى أهله وأعوانه ثم يتوجه[٢] ويلبسه وشاحين بالجوهر ويصله بمليونى درهم ، ثم يعقد له على السند « ويُدخل الشعراء عليه يمدحونه » .

ولعل شاعرنا أبا تمام كان خير هؤلاء الشعراء . أما قصيدته الكبرى هذه فيصور فيها أبو تمام ، أول الأمر ، خوف الناس من بابك وسيادة الفوضى الاجتماعية ، إذ عدا الضعيف على القوى ، وعجز الأبطال عن حرب هذا الفاتك فقال[٣] :

خـــاف العزيز به الذليل وغودرت نبعـــات نجد سجداً للضال[٤]
قد أترعت منـــه الجوانح رهبـــة بطلت لديهـــا سورة الأبطال

---

(١) الطبرى ١٠/٣٦٧ .

(٢) الطبرى ١٠/٣٣٤ .

(٣)ديوانه المطبعة الوهبية كان العرب ١٢٩٢ ﻫ ص ١٣٠

(٤) النبع شجر صلب كان العرب يتخذون منه القسى والضال شجر طرى لين وهو تعبير بلاغى أراد به الشاعر تمكين المعنى السابق فى خضوع الرفيع للوضيع والقوى للضعيف وذكر الشاعر كلمة نجد على التمثيل لأن الضال والنبع من نبات نجد .

وكانت « أرشق » مكانـًا جرت فيه الوقعة الأخيرة بين الأفشين وبابك ، فجعل أبو تمام أرشق « يومـًا » سيراً على غرار العرب فى تسمية الوقائع ، وكان يكثر منه ذلك فى شعره الحربى ، فوصف فى هذا اليوم المسلمين كيف ساروا إلى حرب عدوهم وهم رجال فى جسومهم أسود فى قلوبهم .

فطلع عليهم بابك وعاينهم فارتاع ولاذ بالفرار ، واتخذ خدع الحرب فلحقوه فى البلاد التى اعتصم بها بعد فراره ، فقال الطائى :

يا « يوم أرشق » كنت رشق منيـة ... للخرميـة صائب الآجـال
أسرى بنـو الإسـلام فيه وأدلجلوا ... بقلوب أسـد فى صدور رجال
لمـا رآهم « بابك » دون المـنى ... هجر الغـواية بعد طول صيـال
تخـذ الفرار أخـا وأيقن أنه ... صرى عـزم من أبى سمّال[1]

ثم صدمته الجنود بعد عسر تعقب وطول جهد فروعته الفوارس وعليها خير السلاح فى هضبة (أبرشتويم ودروز) فكان ذلك تألق الزمان بيوم النصر وكانت الوقعة (بياتـًا) فصبر عليها المسلمون حتى كسبوا المعركة . وقد حدد أبو تمام زمن المعركة بأنه كان ليلا ثم طول النهار حتى الزوال ، وعين يوم اللقاء فكان الخميس ، وكل ذلك زيادة منه فى حفاوة الوصف والإحاطة بالصورة ، مما أعده مساعفة فى الشعر لحوادث التاريخ ، ودليلا على تحديدها ، شأنه فى أكثر شعره الحربى والرومى الذى ساعف التاريخ العربى .

ثم يجعل أبو تمام ملائكة السماء تحارب مع المسلمين . وقد امتاز شعر الإسلام بهذه المعانى الدينية يدعم بها الشعراء إيمان الجنود .

ويروع من أبى تمام وصفه لكتائب الأفشين ، وقد أخذتهم جموع بابك فمحتهم محوا بسيوفها الرقاق وعطفت عليهم الرماح ، فطافت بهم كأنها الرياح .

وقد كان أبو تمام كريمـًا مع الفتيان الذين حارب بهم بابك فوصفهم بأنهم وإن كانوا كلابـًا لأنهم حاربوا مع بابك ، لكنهم ماتوا موت الأسود ، وفى قوله هذا أثر من آثار

---

(١) صرى بوزن جنى . وصرى عزم أى ثابت العزم وأبو سمال ، أعرابى شرد له بعير فقال يخاطب الله « لئن لم تردها على لا عبدتك » فأصابها وقد تعلق زمامها بعوسجة فقال : « علم ربى أنها منى صرى » أى عزيمة قاطعة ويمين لازمة (اللسان) فيجىء معنى البيت إن بابك فر فراراً أقسم فيه لا يلوى . وكانت قسمه فى العزيمة والتأكيد كقسم أبى سمال .

المصانعة فى الشعر الحربى بما ورثه شعر العباسيين عن شعر الأمويين لكنه كان قليل الخطر فى تغيير الحوادث السياسية فى العصر العباسى .

وقد أنصف أبو تمام أبطال بابك ، فوصف بأسهم وفروسيتهم بما لم يكن يجرؤ عليه شعراء العصر الأموى فى التمدح ببطولة أعدائهم .

فقال الطائى فى بقية ذلك عن بابك :

هيهات روع روعة بفوارس ... فى الحرب لا كشف ولا أعزال
يوم أضاء به الزمان وفتحت ... فيه الأسنة زهرة الآمال
وسروا بقارعة (البيات) فزُحزحوا ... بقراع لا صلف ولا مختال
نزلت ملائكة السماء عليهم ... لما تداعى المسلمون نزال
لم يكس شخص فيئه حتى رمى ... وقت الزوال نعيمهم بزوال
فالبذ أغبر دارس الأطلال ... بيد الردى أكل من الأكال
ألوت به (يوم الخميس) كتائب ... أرسلنه مثلا من الأمثال
كم صارم عضب أناف على فتى ... منهم لأعباء الوغى حمال
سبق المشيب إليه حتى ابتزه ... وطن النهى من مفرق وقذال
قاسى حياة الكلب إلا أنه ... قد مات ضبرا ميتة الرئبال

وقبل أن يصور أبو تمام خاتمة بابك أرخ زمن أسره ومقتله ما بين رمضان وشوال ، وجعل الظفر طلع مغارس الرماح فقال :

إن الرماح إذا غرسن بمشهد ... فجنا العوالى فى ذراه معال
لما قضى رمضان فيه قضاءه ... شالت به الأيام فى شوال

ثم وصفه مغلولا منصوبًا على (الفيل) يطاف به للتحقير ، ثم صوره مصلوبًا .

٢ ـ خلو الطوسى

لما أنشد الطائى أبا دلف العجلى بائيته التى مدحه بها فحاز إعجابه ، واختلب لبه بمعانيها قال أبو دلف :

ادفعوا لأبى تمام خمسين ألف درهم . ثم قال له : ما مثل هذا القول إلا ما رثيت به محمد بن حُميد الطوسى بالرائية ، وددت والله أنها لك فىّ . فقال الشاعر :

« بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم قبله ، فقال له الأمير : « أنشدنى القصيدة ، إنه لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر [١] » .

وليت شعرى لو رد البطل العظيم محمد بن حميد الطوسى إلى الدنيا ، وقرأ ما قاله أبو تمام فى وصف بطولته وذكر حربه لأكب على قبر شاعره فى الموصل فبلل بدمعه ثراه . ولودّ لو كان له مِقوَل الطائى بديل سيفه ورمحه فيحسن له الشكر ، بعد أن أحسن به الفخر [٢] ، ويعد قليلا ما فعل ابنه (أبو نهشل) من بعده حين بنى على الطائى قبة على باب الميدان فى الموصل [٣] إكراما له لرثائه أباه .

أما الرائية التى تمناها أبو دلف أن تكون قد قيلت فيه فقد كاثر بها من نشر ديوان أبى تمام فقالوا إنها رثاؤه (لمحمد) ، وقحطبة ، وأبى نصر بن حميد الطوسى [٤] . وكأنهم كانوا يريدون أن يجللوا بأردية الخلود بنى الطوسى الأبطال المناجيد الذين اشتركوا فى حروب زمنهم ، فكان منهم نفر فى حرب بابك ، ونفر فى حروب الروم ، وكان من نصيب (محمد بن حُميد) أن يقتله بابك الخرمى [٥] . ولولا أن فى القصيدة ذكراً لمحمد وحده لعددتها قصيدة قيلت فى الجندى المجهول الذى قتل فى سهوب خراسان ، يتنازع شرفها ألوف من الأبطال الشهداء .

فلتهنأ إذن روح محمد ، ولتقر عينا فى محشرها عند الشهداء ، فإن أبا تمام خلع عليها حلة لا تبلى :

إن محمداً هذا الفتى ، مات فى حرب جبارة . ولعله فاته فيها أن يكون منصوراً فقهرته السيوف وهى تقطعه ، والرماح وهى تطعنه ، لكنه مات ميتة الأبطال ، منصوراً فى زحام

---

(١) أخبار أبى تمام للصولى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٣٧ ص ١٢٥ .

(٢) أقام المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مهرجاناً حافلا فى دمشق تخليداً لذكرى أبى تمام وكان له يومان مشهودان ألقيت فيهما القصائد فى أدبه وشعره ، وألقى مؤلف هذا الكتاب فى هذا المهرجان قصيدته (ذكرى حبيب) فى أبى تمام حبيب بن أوس الطائى ونشرت فى (المجلة) عدد أكتوبر ١٩٦٠ بالقاهرة .

(٣) هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى ط مطبعة العلوم بمصر سنة ١٩٣٤م ص ٤٩ .
وقد أقامت حكومة العراق فى زماننا حديقة فى الموصل حول قبر الطائى وجعلته فى ضريح جليل مثل شعره.

(٤) ديوانه ط بيروت ١٨٨٩ م ص ٣٢٩ وط مصر ١٢٩٢ هـ ص ٢١٤ .

(٥) تاريخ الطبرى ، حوادث سنة (٢٢٣) ج ١٠ ص ٣٣٣ .

قهره ، وفوات نصره ، وما مات محمد حتى تكسر سيفه بيده ، وأحاطت به الرماح فمات شريفا ، وإنه لبين شدقى الموت فيبصر بمنجاة وفرار ، لكن عقله يزجره عنهما ، فيرده إلى الحرب وإلى الموت ، وذلك هو الحفاظ المر والخلق الوعر ، اللذان ركبا فيه . وإن نفسه لأبية ، فمن شمائلها أنها تعاف العار يوم المعركة ، وترى الإقدام إيمانها ، والفرار الذى هو العار كفراً .

فماذا فعل محمد بن حميد وهو فى شدق الردى ؟

إنه ضرب برجله الثرى فأثبتها فى مستنقع الموت ، ولم يزحزحها عنه ، وكأن رجله تكلمت وحاورته فقالت : « علام وقفتنى فى حومة الوغى ومبرك الجراح » فقال لها : « من تحت أخمصك الحشر » .

وكيف يكون من تحت أخمصها الحشر ؟

إن مستنقع الموت هو الجثث التى تكدست حتى نقعها ثراها فى حمأة من الدم ، فهنالك أثبت المغوار قدمه ليسلك ذلك السبيل فيرتد فى أطباق الثرى بين جثث قتل هو أصحابها . وترمّ عظامه ، وتجول الأدهار ، فينبت يوم الحشر من مكان قدمه ...

وعجبى للطائى أكان يريد أن يقول إن محمدا دفن وهو بطل ليبعث فى لأمته ومفاضته ، عليه سلاحه وبيده حسامه فيعيد الحرب جذَعة كما كانت . (فيكون الطائى أشعر الناس فى الحماسة) ؟

وملك الطائى سحر الصور ، وافتن بالألوان ، فأرانا محمداً سقط مضرجا بدمه فى ساحة المعركة ، وجاء عليه الليل فأحال ثياب موته الحمر التى يلبسها الأبطال سكان الدنيا ، إلى ثياب زاهية خضر من سندس وهى لباس الشهداء فى أهل الخلود .

فيا لهفة عليه من بطل دار القدر بخيله وحربه ، فسلبته الخيل بعد أن كان يحميها ، وأحرقته نار الحرب وكان يصليها .

وإن السيوف البيض ، وكانت زمنه باترة ، صارت بعده مبتورة حزنا عليه !

* * *

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة تقـــوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وقد كان فوتُ المــوت سهلا فرده ... إليــه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العــار حتّى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجــله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
تردى ثياب الموت حمرا فما دجا ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر
فتى سلبته الخيــل وهو حمى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها جمر
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى ... بواتر فهى الآن من بعــده بُتْر

لقد حق لأبى دُلَف أن يتمنى لو قيل هذا الشعر الحماسى الرائع فيه ، فحسد عليه وهو حى ، صاحبه وهو ميت . وكان أبو دلف عظيم قواد ومِدرَه حرب ، فى زمن المأمون والمعتصم[1] فما نافعه مديح يقول الطائى مثله كل يوم فى غيره . فلقد مدحه بكرم الوفادة وطيب الأصل وأطال وما فيهما لمثله غنى . إن أبا دلف كان يريد أن يخلده الطائى بذكر حروبه وشجاعته وإقدامه وبأسه ، وهو الذى طعن فى حرب من حروبه فارساً فأنفذ الطعنة إلى فارس آخر من ورائه .

هذه هى المآثر التى كانت أشفى لروح الأمير البطل أبى دلف لو لحظ الطائى وفهم ، وأحسب أن الحياء غالب أبو دلف عن التصريح ، وشغل عطاؤه أبا تمام عن فهم معانى التلميح .

٣ ـ فتح عمورِيّة

كانت فاجعة (زبطرة) على أيدى الروم سبباً فى فتح عمُّوريَّة ، بل كانت جواب انتقام صاعق رد فيه (المعتصم) على « تيوفيل » بن ميشيل الثانى إمبراطور بيزنطة .

وكان كل من الخليفة العباسى أمير المؤمنين ، وعاهل الروم ، يرى الآخر ألد الخصوم . فالبلاد وقد كانت للروم قبل فتح الإسلام ، تركت الروم بعده ناقمين على ضيعة الأرض ، مرتاعين من سطوة أهل الدين الجديد . والمسلمون وقد فتحوا الأمصار وأقاموا شعار الدين لزمهم الجهاد لنشره وتثبيت أركانه ، فكان حتما لزاما أن يظل الصدام بينهم وبين الروم زمنا متطاولا ، أرخى كلاكله على شواطئ الحوض المتوسط منذ سار « الصحابى » « ميسرة بن

(١) هبة الأيام الطبعة السابقة ص ٩٣ .

مسروق » وهو أول مجاهد فى الإسلام « أطلع درب الروم من المسلمين [١] » .

وكان من أوليات الشعر الحماسي ، الذى قيل فى حرب العرب للروم ما قاله أسعد الكامل ، فى رواية عبيد بن شرية وكان من الفرسان الشعراء[٢] .

وغسان حازوا بلدة الروم كلها … وفى الروم صيرنا الملوك الأقاولا
فدوخت أرض الروم حتى تركتها … ثنايا طحون علوها والأسافلا

وليس علىّ من حرج إذا ارتأيت أنه كان على المسلمين فى فاتحة الفتوح أن يتموا الجهاد فى اكتساح البلاد حتى شواطئ بحر اليونان فتكون القسطنطينية فى حوزتهم وما والاها من جوار البلاد فى الأناضول فلا تقوم للبيزنطية نأمة فى بواقى العهود ، وينقطع دابر التناوش الذى ظل بين بلاد الإسلام وبلاد الروم على الثغور منذ عهد الراشدين إلى أواخر الحروب الصليبية . وكانت ضحاياه لا تحصى وسباؤه ونهابه فى حدود التهاويل غير التحريق والتدمير .

يلخص « فاسيلييف » فاجعة « زِبَطْرة »[٣] مستعينا بمؤرخى العرب كالطبرى وابن الأثير[٤] ، لكنه يذكر أموراً فيها زيادة خطرة قد استقاها من المصادر البيزنطية ، فقد روى أن تيوفيل إمبراطور الروم – وكان القائد الأعلى للجيش البيزنطى – جهز جيشاً فى سنة ٨٣٧ للميلاد من مائة ألف مقاتل فيهم بلغار وروس ، وفيهم فرس أتباع « بابك الخرمى » هربوا إلى بلاد الروم بعد اندحاره فجاء هذا الجيش إلى « زبطرة » ، وكانت زبطرة على الخط الذى يفصل بين الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية ، على مقربة من بلدة « الحدَث » وكان

---

(١) جاء ذكر ميسرة بن مسروق فى تعليقات وليم ناسوليس الإرلندى على فتوح الشام للواقدى طبعة كلكتة سنة ١٨٥٤ س ١٥ نقلا عن كتاب الإصابة .

وقد غلط ناسوليس فليس فى الإصابة ذكر لميسرة بن مسروق وإنما الذكر لمسروق وحده فقد أرسله أبو عبيدة ومعه علقمة بن حكيم إلى دمشق وفلسطين وشهد حرب اليرموك وكان أميراً على بعض الكراديس (الإصابة الطبعة الشرقية بمصر ١٩١٧ ج ٥ ص ٨٨) .

ولكن الذى ذكر ميسرة هذا هو صاحب (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) طبعة جمعية المعارف المصرية سنة ١٢٨٦ (ج ٤ ص ٤٢٦) فقال إن ميسرة بن مسروق العبسى أحد التسعة الذين وفدوا على الرسول صلى الله عليه وسلم من بنى عبس وقد خاطب الرسول لما حج حجة الوداع وحسن إسلامه وكان له عند أبى بكر منزلة حسنة .

(٢) ص ١١ من تعليقات ناسوليس على الواقدى (السابقة) .

(٣) Sozopetra

(٤) تاريخ الطبرى الطبعة الأوربية ج ٢ ص ١٢٣٤ . الكامل لابن الأثير المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ ج ٦ ص ١٩٥ .

فيها المسلمون، ففتحها تيوفيل، وأهلك أهلها وسباها، ثم أحرقها واسترق نساءها وصبيانها فساقهم إلى القسطنطينية، وكان فى جيشه جماعة من الأكراد الصابئين ففتكوا فتكاً ذريعاً بالمسلمين، وكان اسم قائدهم « نصرا »[١] وأنه لما قفل تيوفيل بالغنيمة إلى بلاده، هرب من زبطرة جمع من المحرقة دورهم والمسلوبين، وساروا حتى بلغوا قصر الخليفة المعتصم فى سامرا، فلما بلغ الخليفة الخبر قفز إلى ظهر جواده، وأعطى الأمر بالنفرة من ساعته

وتواريخنا على شبيه ذلك من الوصف، إلا أنها تزيد فى هذه الحادثة فتذكر امرأة عربية من أهل زبطرة صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم[٢] :

— وامعتصماه !

فلما بلغ المعتصم استغاثتها وهو جالس على سريره صرخ.

— لبيك لبيك . .

وصاح فى قصره، النفير النفير « ثم ركب جواده وسمط خلفه شكالا وحديداً وحقيبة فيها زاده، ثم عبأ العسكر وجمعهم فى "دار العامة" [٣] وأحضر قاضى بغداد وثلاثمئة وثمانية وعشرين رجلا من " العدول " فأشهدهم على ما وقف من الضياع، وما يجب أن يصير بعده من أمر الخلافة » وهذا دليل على صدق إغاثته، ووثبته الخالصة لنصرة العرب والمسلمين.

وقد طاف خيالى بهذه المرأة التى صاحت فى أرجاء زبطرة وهى تساق مع السبايا والرجال المصفودين، فى صف طويل نحو بلاد الروم، يحرسه فرسان بيزنطيون شداد جلاد، وبأيديهم السياط. بحثت عنها فلم أجد شفاء لغليل، فإن اسمها عند ياقوت بمعجم البلدان (شراة العلوية) وهى عند أبى الفداء فى تاريخه وعند بن الأثير فى الكامل « امرأة هاشمية ». ولم يأبه لها فاسيلييف وسواه ممن رأيت تاريخهم للمعارك العربية الرومية.

* * *

(١) يشير فاسيلييف وشارحوه إلى أن اسم (نصر) هذا قد اختلف فيه فقد كان العرب الذين معه ينادونه برسيس أو نرسيس وهو théophobe بالرومية وأن اسمه فى الفارسية الممزوجة بالأرمنية (نرس). هامش ص١٣٨ رقم٣ من كتاب(Byzance et les Arabes) وفى هذا إيضاح لتحقيق شخصيته التى أذكرها فى البحث القابل

(٢) تاريخ أبى الفداء المؤيد الطبعة الأولى الحسينية بمصر ج ٢ ص ٣٣ .

(٣) يذكرفا زيلييف أن الخليفة المعتصم أمر بنقش اسم عمورية فى هذه الحملة على تروس الجنود وكتابة اسمها فى أعلامهم، وأجد ذلك منه تمكيناً لفكرة حربه ونهوضه إلى غزو بلاد بيزنطة وكانت عمورية قاعدة عزتها التى منها صدرت الأسرة العمورية بأباطرة الروم وولد بها تيوفيل نفسه الذى سار إليه المعتصم يحاربه فى بلاده .

(٤) مادة عمورية .

وشاء المؤرخون البيزنطيون — كما يقول فاسيلييف — أن يصبغوا ثأر المعتصم حين فتح عمورية (صبغة انتقامية) لنفسه لا للعرب ولا للإسلام . فزعموا أن زبطرة بلد المعتصم التى ولد فيها ، وأنه قوض مدينة عمورية لأنها كانت دارة الأباطرة الروم وبيت كرسيهم ، وحمى بطارقتهم ، ولأن الأسرة العمورية البيزنطية التى حكمت قسطنطينية وكان منها « ميخائيل الثانى وتيوفيل وميخائيل الثالث » ولدت فى عمورية مثلما ولد المعتصم فى زبطرة .

وفات فاسيلييف أن يدعم رده على المؤرخين البيزنطيين بحادثة المرأة الهاشمية ، وبأن المعتصم داهية السياسة كان يتهيأ للفتك بالروم منذ استراح من بابك ، كما أسلفت الإشارة إلى ذلك ، فقد سأل بعد ظفره ببابك[1] « أى بلاد الروم أمنع وأحصن ، فقيل عمورية لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام وهى عين النصرانية وبُنْكها [2] ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية » .

* * *

عرّف المعتصمُ التاريخَ بحذقه فى السياسة وفن الحرب فجهز جيشه وأحسن تعبيته ، وكان معه أقوى قواده وأبرعهم . فكان معه : الأفشين ، بغا ، أشناس ، عمر الفرغانى . أحمد بن خليل بن هشام ، عبد الوهاب بن على ، عجيف بن عنبسة ، جعفر بن دينار ، عبد الله بن الخياط ، وصيف ، محمد كوتاه .

وقد قسم جيشه كراديس على كل فريق واحد من هؤلاء القواد ، وجهزهم بالأثقال والزاد والسلاح ، وجعل نفسه على فريق ، وسير بين يديه الطلائع ، وكانت خطته الحربية أن يهدم (أنقره) قبل (حصار عمورية) إذ كانت عمورية فى بُهْرة الأناضول ، وأنقره فى شمالها إلى الشرق ، بمثابة حصن لها وملجأ .

ولولا أن حق الكلام لأبى تمام فى وصف حصار عمورية وفتحها ، لأرسلت الوصف على أسوار عمورية وأبراجها ، فصورت كيف دكها المعتصم بكتائبه وجيوشه ، وكيف ذل له كبير قوادها «االبطريق ياطس» وكيف ألح عليها أمير المؤمنين بالمجانيق والعرادات والحملان

(١) تاريخ الطبرى ١٠/٣٣٥ .

(٢) بنكها أى أصلها .

(٣) الحملان Béliers وهى أعمدة من خشب ثخين رأسها على هيئة رأس خروف كان يستعملها العرب والروم لدك الحصون ، يحملها أفواج أثر أفواج ، فيتأخرون بها عن السور خطى ، ثم يهجمون هجمة رجل واحد راكضين وقد اسددوها إلى حجارة فى صدر السور فلا يزالون كذلك يلحون بالنطح وبالصدم حتى يتداعى السور وينثغر

والدبابات حتى دك حصونها وثل بروجها ، وأحسن التأديب للروم والانتقام منهم ، ثم عاد إلى سامرا عود المنقذ الأعظم والفاتح المنصور .

ولست أفسح المجال لأبي تمام فى وصف فتح عمورية قبل أن أذكر أسرى الروم وما حدث فى الحصار (مما لم تذكره كتب العرب البتة ، وإنما ذكرته كتب البيزنطيين ونقله فاسيلييف) وقد دام حصار المسلمين لعمورية خمسة عشر يوما[١] فى شهر آب سنة ٨٣٨ للميلاد[٢] . ويقول فاسيلييف[٣] كان يدافع عن عمورية (خمسون قائداً بيزنطيا)[٤] قتل أكثرهم منهم :

ياطس Aetius

البطريق تيوفيل Théophile

الخصى القائد تيودور المعروف بالقويTheódore

القائد قسطنطين Constantin

القائد بازوئيس Basoés

الرئيس كاليستوس ميليسينوسKallistos Mellissenos

وأن الذين قتلوا من الروم بلغوا سبعين ألفا . وأن الكتاب البيزنطى المسمى ، حياة القديس آغوروس Agauros وكتاب ، نيقيتان ، المسمى الصلك الثانى والستين لشهداء

والدبابات استعملها المعتصم فى هذا الحصار ووصفها الطبرى (ج ١٠ ص ٣٤٠) فقال « وعمل المعتصم دبابات كباراً تسع كل دبابة عشرة رجال ، وأحكمها على أن يدحرجها على الجلود المملوءة تراباً حتى يمتلىء بها الخندق . والظاهر من وصف الطبرى أن الدبابات حصون مغلقة سيارة وهو وصف يطابق مصطلح عصرنا فى دبابات حروبه المسماة (tank) أو السيارات المصفحة .

(١) يقول الطبرى (ج ١٠ ص ٣٤٣) وغيره من مؤرخى العرب إن المعتصم قفل بعد إناخته على عمورية بخمسة وخمسين يوماً وذلك فى رمضان سنة ٢٢٣ للهجرة (ولم يذكروا أيام الحصار) .

(٢) فى المصادر البيزنطية التى كتبها ميخائيل السورى Michel le Syrien والمؤرخ الرومى جينسيوس Génésius فيما يروى فاسيلييف أن رجلا من الروم يرفده آخر يسمى مانيقوفاغوس المنجم Manikophagos تلميذ (إليون) الفيلسوف قد شك رسالة فى سهم وأرسله إلى عسكر المعتصم ، فوجد المعتصم فى هذه الرسالة أن اخبطوا السور من صورة الثور الحجرى المنحوت على وجه من وجوهه ومن جهة الأسد الرخامى ، ففعلوا ذلك فتداعى السور . (هامش ص 169 من كتاب فاسيلييف Byzance et les Arabes .

(٣) ص ١٧١ من كتابه السابق .

(٤) ويذكر فازيلييف نه كان لعمورية أربعة وأربعون برجاً محصناً .

عمورية ، acta Sanctorum Martiti يذكران أهوالا مما لقى الروم فى عمورية[1] ، وما ذاق أسراهم من عذاب وتنكيل ، وأن القائد اليونانى ديجينيس آقريطاس Digenis Akritas نظم أشعارا يبكى فيها مصرع أنقرة على أيدى العرب ويذكر نكبة عمورية .

* * *

والآن فلأدع شاعر الحروب الرومية فى عصره أبا تمام الطائى يصف لنا بقوله العبقرى وفنه المصور ، كيف كان أمر عمورية بين المسلمين وبين البيزنطيين .

وصف أبو تمام ما كان من أمر المنجمين الذين رأوا طوالع حرب عمورية قبل أن يثب المعتصم إليها ، وقد حقق المؤرخون ذلك التنجيم ، فروى السيوطى أن المعتصم لما تجهز لغزو عمورية ، حكم المنجمون أنه طالع نحس[2] ، فلم يعبأ بذلك المعتصم ، كما يدلنا شعر أبى تمام الذى بدأ بائيته الكبرى به فتهكم بطوالع المنجمين يعلمهم أن القول للوامع الرماح لا لسواطع النجم :

والعلم فى شُهُبِ الأرماح لامعة بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

وكر على المنجمين بأبيات تهدم شعبذتهم ، وأحاديثهم الملفقة ، وكذبهم على الناس بما يزخرفون من القول فى أبراج الكواكب .

استفتح الحماسة الرومية بوصف الفتح الذى تتعايا عليه الخطب ولا يحيط به الشعر :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب

وانطلق يرسم بمياسمه الفنية مراحل هذه الوقعة فأجمل الحكم بفوز المسلمين واندحار المشركين فقال :

يا يوم (وقعة عمورية) انصرفت عنك المنى حُفَّلا معسولة الحَلَبِ

أبقيت جد بنى الإسلام فى صمد والمشركين ودار الشرك فى صبب

ثم مثل عمورية بغادة سافرة الحسن تأبت على الأزواج والخطاب ، فلم ترض بكسرى بعلا ولا بملك التبابعة ، وما تزال من عهد الإسكندر فى ميعة الصبا وذلك كناية عن أن

---

(١) يحقق فاسيلييف أن عمورية Amorium قد أصبحت اليوم ضائعة الأثر إلا بقايا منها تسمى (القصر) وأن عن يمينها وشمالها تقوم قريتان إحداهما (حاجى عمر) والثانية (حاجى حمزة) .

(٢) تاريخ الخلفاء لجلال السيوطى ط البابى الحلبى بمصر سنة ١٣٠٥ ص ١٣٢ .

عمورية كانت — كما سلف ذكره — بيضة الروم ، وموئل ملوكهم ، وكانت حين وصفوها للمعتصم فى معزل ، فلم يقصدها أحد من الفاتحين .

وأتبع أبو تمام وصف هذه المرأة التى مثل بها عمورية ، بأن أختها (أنقرة) قد عدتها فلم يكد الخراب يدب إليها حتى دب إلى عمورية ، فكان لها أعدى من الجرب :

وبرزة الوجـــه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدوداً عن أبى كرب (١)
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
جرى لها الفأل نحسا يوم (أنقرة) إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب

ونحن نسامح شاعرنا العظيم ، فقد كان قبل حين ، يتهكم بالمنجمين ويرميهم بالتخرص ، فما باله الآن يقول بالفأل وأنه جرى نحساً لعمورية فتهدمت كما تهدمت أنقرة ؟

لكنه بعد ذلك يعرض علينا تهاويل من الصور فإن عمورية أحرقها أمير المؤمنين بيوم لاهب ، ذليل الصخر والخشب ، فإذا ليلها الأفحم ناصل اللون ، أو أن الشمس طلعت فى سواده ، ثم يضاعف هذه التهاويل ، فيلف الظلام بالدخان ، والنار بالضياء . كل هذا تصوير للحريق الذى أخذ عمورية فبدل ليلها نهاراً :

لقـــد تركت أمـــير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

وبعد أن نفدت تلاوين أبى تمام فى الليل والنهار ، والشمس والظلام ، وصف تهدم عمورية وصَغارها ، وسماجة منظرها ، وحط فكرة هذا المصير فى هذا البيت :

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت لـــه المنيـــة بين السمر والقضب

ثم غالبه فنه الخاص فقال :

تـــدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب فى الله مرتغب

وبذكر المعتصم يصب الطائى عليه كل صفات الحماسة فيجلوه بطلا غذىّ الحروب ،

---

(١) أبو كرب هو أسعد بن مالك الحميرى اليمانى وكان ملكاً من ملوك التبابعة .

وباقعة الجيوش . جيش الرعب يسبق إلى البلاد جيشه ، وهو وحده جيش .

لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بــلد إلا تقــدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغــدا من نفسه وحدها فى جحفل لجب

وقد تمهل الطائى فأبطأ ، فأين حصار عمورية ؟ وأين البطارقة على أبراجها ؟ وأين عديد الروم وعدتهم فيها ؟ إن أبا تمام يُجمل كل هذا فيقول للمعتصم :

رمى بك الله برجيهــا فهدمهــا ولو رمى بك غير الله لم تصب
من بعــد ما أشبوها واثقين بهــا والله مفتــاح باب المعقل الأشب

والطائى يأبى أن يخلى الشعر من الحكمة ، فقال بعد ذلك :

إن الحمامين من بيض ومن سمر دلوا الحياتين من ماء ومن عشب[١]

وهو معنى لا يجود بمثله إلا صبور على الحكمة ، متمرس بالعقل والخيال ، يجعل الرماح والسيوف أشطان بئر يتدلى منها دلوان يمتاحان الماء ، وبسبيلها يكون العشب النابت بعد الإرواء .

وليس من عجب — على الرغم من صنعة أبى تمام — أن يكون الحمام سبب الحياة ففى الموت الحياة .

وتهتف (المرأة الهاشمية) التى صاحت بزبطرة ويبلغ صدى هتافها إلى مسامع أبى تمام ، فيلبيها بشعره ، واصفاً أمير المؤمنين كيف لباها بإهراق كأس الكرى ، والصدوف عن مراشف الغيد العراب .

لبيتَ صــوتا زبطريـًّا هــرقتَ له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

وبعد أن لبى صوت الزبطرية فعاف من أجلها ثغور الغيد ، مؤثرا ثغور الروم ، مصلتا سيفه الذى أجاب به النداء ، دك بيضة الشرك وقوض خيمته فترك عمودها منعقرا ، ولم يعرج على أوتاد الخيمة وأطنابها ، لأن الخيمة بعمودها ، وإذا تقوض لم يبق بعده للأطناب والأوتاد من ذكر . وهى (معان رمزية) فى حماسة أبى تمام يريد بها أن المعتصم عمد إلى دارة الشرك البيزنطية فهدمها ، ولم يعرج على قراها التى حولها أو دساكرها فقال :

حتى تركت عمود الشرك منعقراً ولم تعرج على الأوتاد والطنب

---

(١) فى نسخة المطبعة الأدبية لديوان أبى تمام سنة ١٨٨٩ بيروت ورد : دلا الحياتين من ماء ومن عشب .

وأعتقد أن أبا تمام كان يعبأ بحادثات التاريخ فى شعره ، ولم يكن ليتسامح فيها ، إذ كان يتخذ منها وسائل لتلوين معانيه ، وتخليد شعره ، فيربطه بالقيم التاريخية التى لا تنسى . فهو يذكر أن (تيوفيل) صاحب الروم حين رأى جد الحرب بذل المال لوقف جريها ، ولكن الحرب ذات التيار والعبب قد غلبته وكانت الجارفة .

ولم يذكر أبو تمام وقت هذا (البذل) وأراه ليس واقعاً فى إبان الحصار والفتح ، وإنما كان بعد ذلك ، أى بعد فراغ المعتصم من عمورية ، وعزمه على الرحيل ، لأن مؤرخى العرب لم يذكروا أن تيوفيل حاول الصلح أثناء الحصار ولا روى ذلك البيزنطيون ، فأنا أجد ڤاسيلييف يذكر[١] أن المعتصم بعد إنزاله الرزيئة[٢] بعمورية عرض عليه تيوفيل صلحا ، فوجد نفسه مضطرا لقبوله ، لأن الأفشين كان بدأ بعصيانه ، وقد (تبودلت الأسرى) بعد ذلك بين الروم والمسلمين سنة (٨٤٥ م ٣٢١ هـ) وافتدى تيوفيل قريبه (قسطنطين بابوتزيكوس) .

ويزيد ڤاسيلييف فيقول : إن تيوفيل ملك الروم أرسل فى تلك الفينة المحزنة إلى المعتصم ، سفيراً من قبله ، هو (بازيل) بطريق خرشنة يطلب السلام وفكاك (ياطس) وقدم للمعتصم جزية لكل أسير عمورى مائتى (سانتوناريا)[٣] فرفض المعتصم طالباً تسليم (نصر الكردى)[٤] الذى تنصر وحاربه معهم ، وتسليم (مانويل) وكان مانويل قائد جيوش البيزنطيين فى حرب العرب .

ويذكر الطبرى[٥] « أن ملك الروم وجه رسولا فى أول هجمة المعتصم على عمورية فأمر المعتصم أن ينزل الرسول على موضع الماء الذى كان الناس يستقون منه ، وكان بينه وبين عمورية ثلاثة أميال ، ولم يأذن له فى المصير إليه حتى فتح عمورية ، فلما فتحها أذن له فى الانصراف إلى ملك الروم فانصرف وانصرف المعتصم يريد الثغور » .

فيتبين من رواية الطبرى أن رسول ملك الروم لم يتسن له أن يكلم المعتصم قبل الفتح وقفل بعده من حيث جاء ، ويظهر من رواية ڤاسيلييف ، أن تيوفيل (عرض صلحاً)

---

(١) ص ١٧٤ ، ١٧٥ من كتابه السابق ، بالأصل الفرنسى .

(٢) يسمى الفرنجة غزوات المسلمين للروم فى هذه البرهة Razzia رزيئة .

(٣) عملة بيزنطية .

(٤) وهو رأس المحمرة الذين فروا إلى الروم وكانوا يحاربون المعتصم مع بابك فى منطقة الجبال .

(٥) ١٠ / ٣٤٣ .

بعد فتح عمورية ، وأن المعتصم قبل هذا الصلح مضطرا . وقد توسط أبو تمام بين الروايتين فقال :

لما رأى الحرب رأى العين (توفلس) والحرب مشتقة المعنى من الحرَب[١]
غــدا يصرف بالأمــوال جريتها فعــزّهُ البحرُ ذو التيار والعبَب

ويتضح بعد ذلك من قول الطائى أن تيوفيل بعد أن خاب فى بذل المال لوقف الحرب هرب وهو أخرس الحجة فقال عنه :

ولى وقــد ألجم الخطى منطقــه بسكتة تحتهــا الأحشاء فى صخب

وبعد أن ذكر الطائى صورة تيوفيل الهارب ذكر عدد القتلى فى وقعة عمورية :

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وكان الموسم موسم دخول على الصيف — كما يظهر — من نضج التين والعنب .

وعاد الشاعر الشامى إلى ذكر الحرب ، وقد عاوده خاطر المرأة الهاشمية « المخدرة العذراء » التى كان إنجادها سبباً فى هذه المعركة التى جثا فيها الرجال على الركب من الهول ، والحرب قائمة فى المأزق الحرج :

والحــرب قائمــة فى مأزق لجب تجثــو الرجال به صغرًا على الركب
كم كان من قطع أسباب الرقاب بها إلى (المخدرة العذراء) من سبب

ولئن كان من عادة شعراء الحماسة أن يمزجوا الحماسة بالمديح ، فإن الطائى قد يترك المديح إلى أواخر القصيدة ؛ كمدحه للمعتصم فى آخر هذه البائية الخالدة ، وقد أبت عليه حكمته المتعددة إلا أن يحط فى هذه الأواخر درة من دررها (فجعل الراحة الكبرى لا تنال إلا على جسر من التعب) فقال :

خليفــة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإســلام والحسب
بصرت بالراحــة الكبرى فلم ترها تنــال إلا على جسر من التعب

وترك أعين الزمان رواصد لهذا المعنى حتى جاء شوقى فتناوله — وهذا دليل خلود الطائى ومعانيه — فقال (أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا) .

---

(١) ورد ذكر اسم (تيوفيل) فى شعر الحماسة العربية (ثوفل) و (توفل) وأبو تمام يورده هنا على أصله (Theophilos)

وربط الطائى حروب المعتصم بحرب بدر ، كدأب غيره من الشعراء السابقين فى مثل هذه الرابطة فقال :

فبين أيامك اللاتى نصرت بهـا وبين أيام بدر أقرب النسب

وتمنى وهو يتم القصيدة أن يجثم الصغار على أوجه الروم ، وأن تتلألأ بالبياض وجوه العرب :

أبقت بنى الأصفر المصفر كاسمهم صفرَ الوجوه وجلت أوجه العرَب

٤ ـ أسد الثغور

كان أبو سعيد بن محمد الثغرى ، وأسميه (أسد الثغور) عاملا للعباسيين على أرمينية ، وسائر ثغور الروم فى شمالى سورية .

وقد تقصيتُ عمال المسلمين على أرمينية ــ وهى أكثر أقاليم الثغور خطرًا ومنها باب الروم ومسيرة (الدرب)[١] ــ منذ عهد الرشيد إلى زمن المتوكل على الله لكى أعرف خطر أبى سعيد بينهم فوجدتهم :

١) سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلى
٢) يزيد بن مزيد
٣) خزيمه بن خازم (زمن الرشيد سنة ١٩٠ ﻫ
٤) أسد بن يزيد بن مزيد
٥) ثابت بن نصر بن مالك (سنة ١٩٣
٦) صدقة بن على المعروف بزريق (زمن المأمون سنة ٢٠٩
٧) العباس بن صدقة بن على (سنة ٢١٤
٨) (أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى المروزى) (زمن المعتصم كله

---

(١) سمى العرب منذ جاهليتهم الطريق إلى الروم خاصة (دربًا) ، فلم يكن الدرب فى لغتهم إلا طريق بلادهم إلى ديار الروم . وكان أول من أشار إلى هذه التسمية أمرؤ القيس حين بكى صاحبه عمر بن قميئة لانقطاعهما فى طريق الروم فقال الملك الضليل :

بكى صاحبى لما رأى (الدرب) دونه وأيقن أنا لاحقــان بقيصرا

ويسمى المؤرخون الغربيون هذا الدرب (La grande Route impériale) وكان هذا الدرب يمتد من القسطنطينية إلى ديار الشام . وقد رأيت آثاره بين أنطاكية وحلب ما تزال إلى اليوم وهو فى عرض ثلاثة أمتار مفروش بالحجارة العراض الملساء ، قد أثرت فيه الزلازل فأزالت كثيرا منه .

٩) أحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة (زمن المتوكل سنة ٢٣١

١٠) يوسف بن محمد وهو ابن أبى سعيد الثغرى (زمن المتوكل سنة ٢٣٧

ووجدت أشدهم بأساً على الروم وأخطرهم حرباً هو أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى ، فقد سلخ أيامه منذ ولاه المعتصم على أرمينية فى سنة ٢٢٠ للهجرة[١] إلى موته فى خلافة المتوكل سنة ٢٣٧[٢] فعرف تلك الثغور وبنى كثيراً من الحصون التى هدمها الروم وكان الأسد القائم على أرباض العواصم[٣] .

ورأيت أن حظ أبى سعيد من المؤرخين السياسيين — كما أشار إسكندر فاسيلييف[٤] — كان حظا سيئاً فقد كانوا يذكرونه بغير حفاوة ، وكانوا يمرون به لماما دون أن يشيروا إلى غزواته للروم ، ودفوعه لجيوشهم المناوشة والمهاجمة ، وكان شأنه مع هؤلاء المؤرخين شأن غيره من عمال الخلافة على أرمينية ، فاستسر قدره فى تضاعيف الحوادث التاريخية ، وبات خطره مثل سواه من العمال والقواد ، يذكره المؤرخون بسطور ، ثم يغيّبونه فى صفحات فكأنه ضائع أو غريق بين تلك الحوادث الزاخرة .

لكن الشعر أنصفه ، وكانت نصفته على أيدى شاعرى بنى العباس أبى تمام والبحترى اللذين استوليا على أمد الشعر فى زمنهما فإن هذين الشاعرين — وأحفاهما أبو تمام — سجلا فى شعرهما وقائع (أبى سعيد) وحروبه فى قصائد كثيرة جعلاها وقفا عليه ، حتى كانت قصائدهما هذه فيه شاغلة جزءاً كبيراً من ديوانيهما .

وإنى أجعل هذه القصائد الحماسية مصدرا لتصوير بطولة أبى سعيد ، ورسم بأسه فى الثغور وسلطانه على الروم ، فمن خلالها يتبين أن أبا سعيد كان البطل العظيم فى حروب عصره ، وأنه لم يكن كما أشار إليه المؤرخون ، عاملا من العمال على الثغور ، وإنما كان سوراً إنسانياً منيعاً حصنت به الخلافة العباسية نفسها من الروم ، طوال سبع عشرة سنة حتى

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١١ ص ٤٤ .

(٣) سمى العرب العواصم بذلك لأنها كانت تعصمهم من الروم وغيرهم ممن يجاورونهم فهى كالثغور التى أقاموها مقام الأفواه من الجسوم .

(٤) Vasiliev : Byzance et les Arabes الترجمة الفرنسية طبع معهد التاريخ الشرقى فى بروكسل سنة ١٩٣٥ Tome 1 P. 398.

غلب عليه لقب الثغرى ، نسبة إلى الثغور ، وهذا ما أذهب إليه ، وكان لقبه من قبل (المروزى) .

ولعل أبا سعيد بما كان موصوفاً به من الكرم والسماحة والمعروف ، قد اجتذب إليه شاعرى عصره ، فأكثرا فيه المدائح ، حتى لو أحصينا ما قاله أبو تمام والبحترى فى المعتصم أو المتوكل لأربت قصائدهما فى أبى سعيد على عدد ذلك ، وهذا فضل الشعر على التاريخ ، فلولا أبو تمام وأبو عبادة لما عرفنا صور الحماسة الرائعة التى كان أبو سعيد الثغرى متحليا بها ، ولاستسر خبره مثل غيره من القواد والمحاربين الكثيرين .

كلا الشاعرين ذكر فى شعره حروب الروم ، وأعطاها من أبياته النصيب الأوفى ، وكلاهما نظر إلى بطولة أبى سعيد ، وكلاهما صور هذه البطولة فى شعر حماسى كثير رائع (وفى الكلام على شعر الحماسة عند البحترى — فيما يلى — مجال لوصف صور من شعر البحترى فى أبى سعيد) .

أما أبو تمام — وهو أكبر شاعر فى عصره — فكان عليه ألا يكون فى معزل عن حروب العرب والروم فإن بيزنطة كانت دائمة القيام فى وجه العرب ، وجيوشها كانوا لا يفارقون ظهور الخيل ، ولا يغمدون السلاح من حدود القسطنطينية إلى أرمينيا فى العصر العباسى كله .

ومنذ ظهرت فى شعر الطائى هذه الحوادث الحماسية كانت دليلا على حياة هذا الشعر .

كان البيزنطيون يغيرون على ثغور العرب فيهدمون حصونها ، ويذبحون رجالها وشيوخها ويسبون نساءها ، ثم يعملون أيدى الحريق والنهاب فى متاع المسلمين فإذا انفضوا من ذلك عادوا إلى بلادهم ، معهم أسرى العرب وسبايا نسائهم وقد زادوا على الألوف . ولم يكونوا يتركون الصبية ، فلطالما أسروا منهم الألوف فى بغتاتهم الكثيرة ، وقد يبقى هؤلاء الأسرى فى تلك البلاد الرومية وراء الثغور — إن لم يقتلوا — سنين وأياما حتى يفادى بهم ، أو يغزو العرب تلك البلاد منتقمين وحين ذلك يكيلون للروم بالصاع صاعاً فيخربون ديارهم ، ويهدمون حصونهم ، ويسبون النساء ، ويأسرون الرجال .

وقد ذكر مؤرخو العرب كافة تلك البغتات وهاتيك الانتقامات بشىء من التفصيل ، غير أن الكتب الرومية كانت أكثر دقة فى وصف الحوادث . ومن هذه الكتب استقى

بعض المؤلفين المعاصرين فى الغرب كتبهم التى ألفوها عن علاقة العرب والبيزنطيين أمثال (فاسيلييف وماريوس كانار ، وشارل دييل ، ورونسيمان ، وكارادوفو وشارل أومان ، وخاصة المؤرخ شلمبرجه) وغيرهم .

فى دراسة هذه الكتب الغربية ومقارنتها بتواريخنا كتاريخ ابن خلدون وابن الأثير وتاريخ الطبرى والمسعودى وغيرها من عيون كتبنا التاريخية ، نتوصل إلى استجلاء حقائق حروب العرب مع الروم ، وعلاقاتهم السياسية بهم ، وهذا ما حاولت ههنا دراسته فى حروب العرب مع البيزنطيين من أيام المعتصم إلى عهد سيف الدولة ، ليكون بداية لهذا الضرب من الدراسة الأدبية التاريخية التى كانت ما تزال تنقص أدبنا المعاصر ، وتفوت تاريخنا الكبير .

لقد كانت الفروسية هى الصدى الأدبى للحرب البيزنطية العربية ، وإن فى جميع الشعر الذى قاله أبو تمام والبحترى فى حروب العرب مع الروم وفى ترتيبه بإضافة ما قاله أبو الطيب المتنبي وأبو فراس الحمدانى فى حروب سيف الدولة وما نظمه الشعراء فى حروب الصليبيين زمن الملكين نور الدين العادل والبطل صلاح الدين الأيوبى (لملحمة) أية ملحمة لحرب العرب للروم ، ما زال أدب العرب يحن إليها حنين المحروم الملهوف .

لقد حرمنا المؤرخون ذكر غزوة أبى سعيد الثغرى للقسطنطينية فلم يذكر أحد منهم أنه بلغ أسوارها ، لكن أبا تمام خلد لنا هذه الغزوة التى مد فيها أبو سعيد رماح فرسانه إلى حدود القسطنطينية ، فوصفهم فى الشطر الأول من قصيدته الرائية — التى قالها فيه — وصف جيشه بأنه كان جيش فرسان . . . وهل يستطيع غير الخيول سيراً فى أرض الأناضول الوعرة المثلجة ؟

حمّل أبو تمام قصيدته فى وصف هذه الغزوة كل ما ينبغى أن تحمل من مياسم الوقائع فذكر القسطنطينية وأسوارها . وذكر أن أبا سعيد بلغ الخليج .

وأرى الخليج هو خليج البوسفور لا غيره من الخلجان ، والظاهر من قصيدة أبى تمام أن أبا سعيد لم يفتح القسطنطينية ، وإنما رجع دون حصارها ، وأنه طرد أمامه ، فى مسيره إليها جيوش الروم حتى التجأت إلى الأسوار . فقد فصل من الدروب من جهات أرمينية . ومعه جيشه العرمرم الجرار ، حتى بلغ بعض الحصون البيزنطية ، وكان قائد جيش الروم

(منويل)[١] ففر والتجأ إلى مكان خفى ، وجعل يعاين فلول جيشه مارة به فيتلقاها بتسكاب الدموع على الخذلان .

ثم جعل أبو تمام الشطر الثانى من قصيدته هذه مدحاً لشجاعة أبى سعيد ، وتصويراً لحنكته وصورته ، وخصاله النبيلة ، وأنه كوكب الإسلام ونصير الدين وحامى الثغور فقال[٢] :

لولا جـــلاد أبى سعيد لم يزل　　للثغر صدر ما عليه صِدار
قدتَ الجيــاد كأنهن أجـــادل　　بقرى (دُرُولية) لها أوكار[٣]
حتّى التوى من نقع قسطلها على　　حيطان قسطنطينةٍ إعصار

وسكت أبو تمام على هذه الأبيات من صنعته الفنية التى سأذكرها فى كلام خاص يتعلق بفن حماسته – بعد هذه البحوث – فشبه الخيل بالأجادل وجعل بلاد (درولية) أوكاراً لها . ولم يترك هذه الصورة مقصورة على البيت ، وإنما عداها إلى البيت الثانى ، فجعل غبار الأرض تحت سنابك هذه الجياد أعاصير تهب على أسوار القسطنطينية .

ثم وصف النار التى أوقدها أبو سعيد فى القرى على مقربة من الخليج فحمل الهواء شررها إلى البسفور ، وعلل رجوعه عن حصار القسطنطينية بأن أهلها قد كفاهم ترويعه حصاراً ، وهم الذين تولاهم سلطان صولته فكان لهم بمكانة الموت من النفوس ، كما أتبع قوله :

أوقدت من دون (الخليج) لأهلها　　نارا لها خلف الخليج شرار[٤]
إن لا تكن حصرت فقد أضحى لها　　من خوف قارعة الحصار حصـــار
فهناك نار وغى تشب وهاهنـــا　　جيش له لجب وثم مغـــار
خشعوا لصولتك التى هى عندهم　　كالمـــوت يأتى ليس فيـــه عار

ثم مثل كيف سار جيش العرب من درب الروم ، وكان لجباً تصيح منه الأرض فيسمع له صوت وكأنه خوار الثيران ، فمضى مبكراً فى النهار سارياً فى الليل حتى بلغ

---

(١) مانويل Manuel قائد بيزنطى عظيم أعجز العرب فى كثير من المعارك .
(٢) ديوانه الطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ ص ٧٢ .
(٣) درولية Dorylee إقليم فى درب الروم واسم البلدة البيزنطية ، وهو اليوم (أسكى شهر) .
(٤) يريد بأهلها ؛ القسطنطينية .

(حصن الحمة البيضاء) وحصن (القفل) والخليج الذى هو من جسم القسطنطينية بمنزلة الشعار على البدن ، وفرت جيوش الروم أمامه ساكنة تختنق أنفاسها خوفاً منه ، وعلماً بسطوته وبأسه :

ولقد فصلت من الدروب إليهم   بعرمرم للأرض منه خوار
أن يبتكر ترشده أعلام الصوى   أو يسر ليلا فالنجوم منار
(فالحمة البيضاء) ميعاد لهم   و (القفل) ختّم و (الخليج) شعار[١]
والمشي همس والنداء إشارة   خوف انتقامك والحديث سرار

بعد هذه الأبيات صور الطائى هروب (منويل قائد الروم) وبكاءه على جيشه المهزوم – كما تقدم – فقال :

أن لا تنل (منويل) أطراف القنا   أو تثن عنه البيض وهى حرار
فلقد تمنى أن كل مدينة   جبل أشم وكل حصن غار
إن لا تفرَّ فقد أقمت وقد رأت   عيناك قِدر الحرب كيف تفار
لما أتتك فلولهم أمددتهم   بسوابق العبرات وهى غزار

ذاك الوصف الحربى الممزوج بالمدح ، يجعله الطائى نظاماً حماسيًّا وكأنه وحدة ، ثم يتم أماديحه بلون آخر وهو مدح الكرم والمودة وعون الإسلام .

أكثر حبيب مدح أبى سعيد ، وقد أحصيت مدائحه فيه فوجدتها أربعاً وعشرين مدحة ، لم يبذل الطائى مثلها لأحد كثرة وتحسيناً ، وإن شعره فيه سحر ، وشعره فى غيره شعر . وهو كالمتنبى فى مدح سيف الدولة ، وحروب أبى سعيد التى سجلها أبو تمام والبحترى جديرة أن تقرن اسمه باسم سيف الدولة . وما أحسب المتنبى فى وصفه لحروب سيف الدولة مع البيزنطيين إلا مشابهاً وتالياً لوصف أبى تمام والبحترى لحروب أبى سعيد الثغرى .

* * *

لم أجد فى شعر أبى تمام ما يشير إلى أنه كان يزور أبا سعيد فى أرمينية وينزل عليه ضيفاً كما وجدت ذلك عند البحترى – وسأذكره فى مكانه الآتى – وإن فى

---

(١) وردت كلمة (حتم) بالحاء المهملة وأراها المعجمة بفوقية لأن القفل وهو اسم ذلك الحصن كان مختوماً أى مقفلا كل الإقفال . والحمة عند العرب نبع الماء الساخن .

إقبال الشاعرين على مدح هذا الفاتح العظيم الذى لم يعبأ به المؤرخون السياسيون ، دليلا على كرمه وبسطة يده ، وارتياحه للمعروف والبذل ، وحبه للشعر والشعراء .

وقصائد أبى تمام فى أبى سعيد كثيرة مثبتة فى ديوانه ، أكثرها فى حروبه مع الروم ، وبعضها فى سائر وقعاته ، فقد كان لأبى سعيد مشاركة فى حروب بابك تحت إمرة الأفشين ابن كاووس ، حتى كان هو الذى أمسك بابك آخر أمره يوم التجأ من أذربيجان إلى تخوم أرمينية فكان تسليمه على يديه ، فقيد أبو تمام كل ذلك فى شعره . يقول (كانار)[١] إن وقعة (عقرقس) كانت أشهر وقعات أبى سعيد وأضراها على الروم وأشراها ، ولذلك نرى أن أبا تمام قد ذكرها ثلاث مرات ، وقد ذكرها البحترى مرتين . وأرى أحسن صورة لها عند أبى تمام فى قصيدته القافية التى أولها[٢] :

ما عهـدنا كذا بـكاء المشوق كيف والدمـع آيـة المعشوق

ذكر فى أولها أبا سعيد بأنه رمية نزلت على الروم بالداهية الدهياء . صور جنوده وعليهم الدروع السلوقية . ثم جعل يذكر الضواحى الرومية ويسميها أسماءها واحدة إثر واحدة ، وفى أكثرها حصون وحواليها أسوار — وكان ينحت تلك الأسماء فى العربية نحتا — فإذا فتح أبو سعيد حصنا أو مدينة احتوى على ما فيها من المال والسبى . ثم غادر الموت فيها ، وترك الأهلين هاربين ، تأخذهم حداد السيوف ، ولهب الحريق .

وقد حصلت معركة (شوارع) فى مدينة قسطنطين[٣] — كما يعبر أهل عصرنا فى الحروب الكبرى التى عرفوها — فرجت لهولها أسوار القسطنطينية وهى مدينة (فروق)[٤] .

فحاز الأسرى أبو سعيد ، وأسر البطريق ، حتى إذا بلغ وادى عقرقس حدثت (المعركة الفاصلة) فاستبسل الأبطال واستماتوا ، وصاح الإسلام صيحته الكبرى مستعينا بأبى سعيد استعانة الغريق ، وقد بلغ أبو سعيد فى هذه الغزوة خليج البوسفور مرة أخرى .

ومن غرائب التقصير فى تاريخنا أن مؤرخى العرب يجملون القول ويعممونه فى فتنة رجل يسمى (نصرا) وكان من أصحاب بابك الخرمى ، يذكر هؤلاء المؤرخون أن نصراً اعتصم

---

(١) كتب ماريوس كانار فى أواخر كتاب (Byzance et les Arabes) لفاسيلييف) فصولا جاء فيها قوله ذلك فى ص ٤٠٠ من الكتاب المتقدم ذكره .

(٢) ديوانه السابق ص ١٠٧ .

(٣) مدينة قسطنطين من بلاد بيزنطة وهى غير حاضرتهم القسطنطينية .

(٤) الصفحة نفسها من الذيل السابق لماريوس كنار .

بإقليم « الجبال » فحاربه المعتصم بإسحاق بن إبراهيم بن مصعب[١] ، فأمعن إسحاق بجمعه تقتيلا ، وبلغ من قتل منهم نحوا من مئة ألف سوى النساء والصبيان ، فلم يجد نصر بدأ — بعد إلحاح القتل عليه — سوى الفرار إلى الروم بجيش كبير . وكان هذا الجمع يدعى (بالمحمرة) .

هذا كلام ابن جرير الطبرى الذى يقول أيضا إن صاحب الروم (تيوفيل) خرج لحرب المسلمين ومعه مئة ألف وأكثر ، منهم الجند نيف وسبعون ألفا وبقيتهم « أتباع من المحمرة[٢] الذين كانوا خرجوا للجبال (فلحقوا بالروم) حين قاتلهم إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب » وجمجم ابن الأثير هذا الخبر وجاء به أكثر اقتضابا[٣] .

إلى ههنا يطلعنا مؤرخونا طلع هذا الأمر لكن المؤرخين الغربيين ودارسى آدابها من المستشرقين يكملون وصف هؤلاء المحمرة الخرمية ، فيقول ماريوس كانار[٤] مستعيناً بتاريخ (ميخائيل السورى) المكتوب بالرومية أن أحد قواد بابك الخرمى ويسمى (نصراً) فر بجمع من الخرمية ملتجئا إلى الروم سنة ٨٣٣ للميلاد ، ثم يذكر أن اسمه بالرومية (إلياس تيوفوب)[٥] .

ولم يكن ماريوس وحده الذى أشار إلى هذا ، وإنما شاركه فى هذه الإشارة المستشرق الروسى فاسيلييف[٦] ، فقال إن جيشاً فارسيا كان حليفا للبيزنطيين وعلى رأسه تيوفوب حارب المسلمين مع تيوفيل إمبراطور الروم ، فلما دحر الأفشين تيوفيل ، بلغ الخبر القسطنطينية بأن عاهل الروم قتل ، فخاف تيوفيل على ملكه ، وخف إلى القسطنطينية وقد خلف مكانه على الجيوش تيوفوب هذا فثار جنده يريدون أن ينصبوه مكان تيوفيل ، فأبى تيوفوب (أى نصر) ، ففعلوا بالرغم عنه ، وجاءوا إلى مدينة (سينوب) ليقوموا بذلك .

ويقول المؤرخ الرومى (ميخائيل السورى) إن الإمبراطور حين هم بأخذ تيوفوب على

---

(١) الطبرى ١٠/ ٢٠٥ .

(٢) ينسبهم الشهرستانى إلى طائفة من الغلاة ، وانهم خرميون من جهات أصفهان سموا بالمحمرة ثم سموا وراء النهر بالمبيضة . وذكر صاحب النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ٤٢) أنهم أول ما ظهروا بجرجان . وأرى أن اسمهم كما يدل لوناه أنهم كانوا فريقاً يلبس الثياب الحمر ، وآخر يلبس الثياب البيض أو كل فريق يتخذ سمة من اللونين كما تتخذ الجيوش فى زماننا سمات مشابهة ، أو أنهم عدلوا عن اللون الأحمر إلى الأبيض .

(٣) التاريخ الكامل الطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١ ج ٦ ص ١٨٥ حوادث سنة ٢١٩ ﻫ .

(٤) صفحة ٤٠٠ السابقة من ذيل كتاب فاسيلييف .

(٥) Alias Théophobe

(٦) Byzance et les Arabes p. 159

جريرته هذه نفض له تيوفوب حقيقة حاله . وأنه برىء مما قام به صحبه .

ثم يعود فاسيلييف مستندا إلى المصادر البيزنطية فيذكر [١] أن تيوفوب (ويسميه نصرا) قد حارب مع الروم (أبا سعيد الثغرى) وقتل فى معركة من تلك المعارك .

وحسبما يقول ميخائيل السورى [٢] إن النصوص البيزنطية تذكر أن رأس (نصر) هذا أهدى إلى تيوفيل ملك الروم ، وإن الخليفة حينما بلغه مقتل نصر فرح واستراح .

قلت ينبغى أن يكون هذا الخليفة هو المتوكل ، وينبغى أن يكون تيوفيل صاحب الروم قد فرح أيضاً بقتل (نصر – تيوفوب) إذ كان قد حاول حين غيابه فى القسطنطينية أن ينصب نفسه مكانه على الروم إمبراطورا .

* * *

كذلك ساعف شعر أبى تمام الحماسى فى تحقيق هذا الحادث الجليل الذى ليس له ضريع فى تاريخنا ، ولا وضوح لذكره ، فإن جيشا من جيوش المسلمين يفر بقائده ، ويلتجىء إلى الروم فيحارب معهم المسلمين أمر لم يشرحه تاريخنا شرحا مستفيضا ، وكان بحسب التاريخ البيزنطى أن ينير لنا هذا الحادث فى شكله المتقدم ، وأن نلتجىء إلى شعر أبى تمام فنستوضح به المعالم فلطالما كان شعر أبى تمام فى حروب الروم منيرا للصورة وموضحا لألوان الحوادث ، وهذا فضل الشعر العربى على التاريخ ، فإنى رأيت ما أضاعه التاريخ حفظه الشعر فى كثير من الحادثات . ففى قصيدة الطائى القافية التى تقدم مطلعها ، يصل فيها إلى ذكر هؤلاء المحمرة على رأسهم صاحبهم (المحمر الزنديق) وقد حاربوا المسلمين مع الروم فدحرهم أبو سعيد وجاس خلال ديارهم .

وصف الطائى تلك الغزوة فى ديار الروم خلال القرى ، وما لقى الروم من ويل بأيدى المسلمين بادئا بأن أبا سعيد الثغرى سار إلى الروم :

فى كماة يُكسوْن نسج السلوقى ... وتعــدو بهم كلاب سلوق [٣] ،
يتساقون فى الوغى كأس مــوت ... هى موصولة بكأس الرحيق . . .

---

(١) المصدر السابق .P. 176

(٢) هامش رقم ١ فى هذه الصفحة السابقة من كتاب فاسيلييف .

(٣) شبه خيولهم العادية بهم بالكلاب السلوقية لشدة عدوها و إيثاراً لطريقته الفنية .

وطئت هــامة النــواحى فلمــا أن قضت حقها من (القبذوق)[١]
ألهبتهــا السياط حتّى إذا أشفت ــ بإطلاقها عــلى (الناطلوق)[٢]
شنهــا شزباً فلمــا استباحت (بالبقلار) كل سهب ونيق[٣]
ســار مستقدماً إلىٰ البــأس يزجى رهجــاً باسقاً إلى الأبسيق[٤]
ثم ألقى على (درولية) البرك محــلا باليمن والتــوفيق[٥]
فحــوى ســوقها وغادر فيهــا سوق موت طمت على كل سوق
فهم هــاربــون بين حــريق السيف صلتا وبين نار الحريق
واجــداً (بالخليج) ما لم يجد قط ــ (بماشان) لا ولا (بالزريق[٦])
وقعة زعزعت مدينــة قسطنطين ــ حتّى ارتجت بسوق فــروق
كم أســير من سربهم وقتيــل رادع الثوب من دم كالخــلوق
يستغيث البطريق جهلا وهــل ــ يُطلب إلا مبطرق البطريق[٧]
ثم ناهضت فى الفــلول رجــالا ورجــالا بالضرب والتحــريق
وبــوادى عقَرقس لم تعــرّد عن رسيم إلى الوغى وعنيق[٨]
جــأر الدين واستغاث بك الإسلام ــ من ذاك مستغاث الغــريق

---

(١) وردت فى الطبعات الثلاث من الديوان (القيذوق) بالياء وصوابها بالباء (القبذوق) وهى مدينة محصنة واسمها بالرومية Cappadoce وهى من (سيواس) اليوم.

(٢) فى نسخ الديوان (الباطلوق) بالباء وصوابه بالنون وهو أرض الأناضول واسمها بالرومية Anatolique .

(٣) البقلار Bucelaire اسم منطقة فى ديار الروم .

(٤) الأبسيق Opsikion اسم بلدة رومية ذات حصون .

(٥) ألقى البرك أى برك الجمل ، وأراد به إقامة الجيش وراحته بعد السير .

(٦) الخليج يريد به البوسفور و (ماشان) و (الزريق) بلدان روميان (ماشان Nicheia) و (الزريق Isauric) .

أنظر هذه البلدان فى الخريطة المثبتة فى آخر الكتاب وهى منقولة عن رسالة Arabic lists of the Byzantine Themes

تأليف E.W. Brooks طبعة جمعية الدراسات الهيلينية سنة ١٩٠١ .

(٧) يريد أن يقول : إن بطريق الروم كان فى الأسرى فهو يستغيث ولكن ما أجهله فبمن يستغيث وإنما نحن نطالب بحربنا الذى بطرقه أى جعله بطريقاً وهو ملك الروم نفسه .

(٨) عقرقس Aqarḡas ، العنيق ضرب من سير المطايا كالرسيم .

يوم بكر بن وائل (بقضات) دون يـــوم (المحمر) الزنـــديق
يوم حلق اللمات ذاك وهـــذا – اليوم فى الروم يوم حلق الحلوق
أورثت (صاغرى) صغاراً ورغما وقضت (أو قضى) قبيل الشروق[١]
كم أفاءت من أرض (قـــرة) من – قـــرة عـــين وربرب مومرق
إن أيامك الحسان من الـــروم لحمر الصبوح حمر الغبـــوق
معلمـــات كأنهـــا بالدم المهراق يـــوم للنحـــر والتشريق

وهى قصيدة كبرى فى أربعة وسبعين بيتا تكاد تكون (نشيداً من ملحمة الحرب الرومية) قالها أبو تمام الطائى فى أبى سعيد الثغرى وختمها على عادته بالمديح والثناء وطلب العطاء .

وذكر أبو تمام (نصرا الخرمى) مرة ثانية فى شعره بأبى سعيد الثغرى فى قصيدة ميمية فذكر فيها معركة عقرقس وسابقتها وحرب أبى سعيد للروم الكافرين و (للخرمية الغاوين) فقال يخاطب أبا سعيد :

جـــدعت لهم أنف الضلال بوقعة تخرمت فى غمائها من تخـــرما[٢]
لئن كان أمسى فى عقرقس أجدعا فمن قبل ما أمسى (بميمذ) أخرما
ثلمتهـــم بالمشرفى وقلمـــا تثـــلم عز القوم إلا تهـــدما
قطعت بنـــان الكفر منهم (بميمذ) وأتبعتها بالروم كفاً ومعصما[٣]
وكم جبل (بالبذ) منهم هـــدرته وغاو غوى حلمتـــه فتحلما[٤]
فإن يك نصرانيا النهر (آلس) فقد وجدوا وادى (عقرقس) مسلما[٥]
به سبتوا فى السبت بالبيض والقنـــا سباتا ثووا منـــه إلى الحشر نـــوما

---

(١) صاغرى (صقارية بالتركية) ، واسمها بالبيزنطية Sangarios وأوقضى ، بلدتان فى الروم . – وقرة Koron .

(٢) أراد بجناس تخرمت الإشارة إلى الخرمية .

(٣) ميمذ مكان فى ديار بابك الخرمى فى إقليم الجبال من بلاد فارس . وكان قد حارب لمحمرة إسحاق ابن ابراهيم بن مصعب فى هذا الموقع وجز آذانهم حتى وجه إلى المعتصم بستين ألف أذن . وقد قال أبو تمام فى ذلك قصيدة على النون (ديوانه الطبعة السابقة ص ١٦١) .

(٤) البذ موطن بابك الخرمى .

(٥) نهر آلس Halys وهو اليوم يسمى بالتركية (قزيل إيرماق) ومعناه النهر الأحمر .

ولم يبق فى أرض البقلار طائر ولا سبع إلا وقد بات مولما
ولا رفعوا فى ذلك اليوم أثلباً ولا حجراً إلا رأوا تحته دما(١)

* * *

وسائر القصائد الحماسية التى قالها الطائى فى أبى سعيد الثغرى من هذا الضرب تجمع معانيها بين تنكيل بالروم وكسر شوكتهم ، وتفنن فى أداء هذه المعانى التى تدل على قهر (تيوفيل) إمبراطور الروم وترويع بلاده ، حتى شبه الردى بعاشق يعشقه فهو أنى هرب فالردى يلاحقه ، كقوله :

ولما رأى (توفيل) رايتك التى إذا ما استقامت لا يقاومها الصلب
تولى ولم يأل الردى فى اتباعه كأن الردى فى قصده هائم صب
كأن بلاد الروم عمت بصيحة فضمت حشاها أو رغا وسطها السقب(٢)
(بصاغرة) القصوى (وطمين) واقترى بلاد (قرنطاؤوس) وابلك السكب

وسنجد البحترى — عند الكلام على حماسياته فى حروب الروم — محتفيا بفروسية أبى سعيد الثغرى وتخليد معاركه ، لكنه يجىء تاليا لأبى تمام .

وتوفى أبو تمام قبل أبى سعيد بتسع سنين . فأورثه فى حياته وفى مماته ذكر بطولة لا تمحى ، وخلد معاركه مع الروم فى شعر كتب له الخلود ، ولئن كان أبو سعيد قد أحسن إلى أبى تمام فى العطاء — كما يروى أبو بكر الصولى — فإن الطائى قد أحسن له بالتخليد والثناء . فقال فيه يذكر إكرامه إياه ولا ينسى أن يمن عليه بشعره :

وحفت بى العشائر والأقاصى عيالا لى وكنت لهم عيالا
فقد أصبحت أكثرهم عطاء وقبلك كنت أكثرهم سؤالا
فأين قصائد لى فيك تأبى وتأنف أن أهان وأن أذالا
من السحر الحلال لمجتنيه ولم أر قبلها سحرا حلالا

وهو وإن فاته أن يرثيه إذ سبقه إلى الموت ، فإن البحترى لم يفته ذلك فوصف بطل الثغور فى حياته وبكاه فى مماته .

---

(١) الأثلب التراب .
(٢) رغا صوّت ، والسقب ولد الناقة .

وطالما كان البحترى (متمما) لأبى تمام وتلك سنة الفن فى بعض الشخوص الأدبية ، إذ يكون أحد الأدباء فى حاجة إلى التكامل فلا يتم إلا بأديب آخر يتقيل ظلاله ، فيمضى على غراره ، ويعزف على قيثاره .

٥ ـ روميات البحترى

ظل (أبو سعيد الثغرى) هو البطل المهيمن على الثغور ، وهو الحارس الجبار للحدود الإسلامية بين ديار الروم وملْك الإسلام . وكانت (أرمينيا) سلسلة الحصون الدفاعية والهجومية غربى أرض العراق (كما قدمتُ فى الكلام على شعر الحرب عند أبى تمام) . وكان حتما لزاما على شاعر مثل البحترى ــ وقد تقيل ظلال أستاذه أبى تمام ــ أن يحذو حذوه فى امتداح (أسد الثغور) وأن يجرى على غراره فى صناعة الفن والإكثار من الألفاظ الموسيقية ذوات الجرس .

لكن فنه يدق فى وصف بطولة أبى سعيد أكثر مما عند أبى تمام من دقة وفن ، فكفاه أن يذكر بيتا واحدا فيه شوكة أبى سعيد وبطشه فى ديار الروم ، ذلك أن الروم كانوا من هول النكبات التى أنزلها فيهم الثغرى يكفى أن يذكر اسمه لديهم حتى تأخذهم الراجفة وحتى صارت الأمهات تفزع أطفالها باسمه ، فكان إذا بكى الطفل وألح بالعسر قالوا له :

ــ جاء أبو سعيد ، جاء أبو سعيد . . .

فيكبت بكاءه ويسكن شغبه .

وذلك حيث يقول عنه البحترى فى قصيدة على النون :

فــزّعوا باسمك الصبى فعـــادت   حــركات البــكاء منه سكونا

وإنى أرى فى هذا البيت وحده غنية عن قصائد فى تصوير بطولة أبى سعيد الثغرى وبطشه فى ديار الروم ، وحماية حدود العرب .

وفى هذه القصيدة يصف البحترى وقعة (عقرقس) التى وصفها أبو تمام فيصور إذلال أبى سعيد لكل الروم ، ويذكر أنهم ليسوا ناجين منه ولو اعتصموا بالنجوم فيقول :

ربمـــا وقعة شملت بهـــا الروم ــ فبـــاتوا أذلـــة خاضعينـــا

قد أمنـــا أنّ يأمنـــوك على حال ــ ولو صـــيروا النجـــوم حصونا

ثم يذكر (فريقى خيوله) . والظاهر أنه كان فى هذه الوقعة فرق فرسانه فرقتين ، موجهاً كلا منهما فى وجهة ، ليحيط بالثغور التى يريدها من موقعين . وإنه لوصف جميل للخيل العوابس فى اليوم العبوس وعليهن الدارعون يجوسون خلال بلاد الروم ، وقد أهزلهن طول السير فكن خفافا ضئيلات اللحوم كوعول الجبال ، ولا قرون لهن سوى الرماح فيقول :

وتوافت (خيـــلاك) من أرض — (طرسوس وقاليقلا بأردنـــدونا)[1]
عابسات يحمــلن يومــا عبوسا   لا ناس عن خطبــه غافلينــا
زرن بالدارعين أرض (البقـــلار) — فأجـــلوا عن (صاغرى) صاغرينا
قـــد طواهن طيهن الفيــافى   واكتسين الوجيف حتى عرينــا
كوعـــول الهضاب رحن وما يملكن — إلا صم الرمـــاح قـــرونــا

ويلاحظ أن البحترى يمشى على غرار أبى تمام فى الجناس بين مدينة (صاغرى) وكلمة صاغرين ، وكذلك يفعل فنه فى مدينة (طمين) وكلمة (يطمئن) فى بقية الأبيات التى يصف بها ظفر أبى سعيد بعقرقس ، وتفليقة الهام فى قرى الروم ، وأنه استساغ شراب دم الروم فكان عنده كماء زمزم فى التبرك والتماس طاعة الله فيقول :

ونفـــير إلى عقرقس أنفـــرت   فـــكنت المظفـــر الميمـــونا

ثم يقول :

همــه فى غـــد بتفليق هـــام   فى قرى (العـــازرون والمازرونا)
ولعمـــرى ما ماء زمزم أحـــلى   عنـــده من دم (بزارمـيـنــا)
غـــيروانٍ فى طـــاعة الله حتى   يطمئن الإســـلام فى (طمينا)

كذلك كان نصيب حامى الثغور من الشعر العربى أن يخلده فيه جباران من جبابرة الشعر فى العصر العباسى وهما أبو تمام والبحترى، وكان محتوما على الشاعرين أن يأبها إلى حروب الروم، لأنها أعظم الحروب التى شغلت العباسيين ، وكانت ديدناً لهم فى زمن المعتصم والمتوكل .

---

(١) قالقيلا هى Cilicie والمعاصرون يسمونها قلقيليا أو كيليكيا وهى أوائل الأناضول من الجنوب واسم بلدة أردندون بالرومية Rhodandos .

وأعقب الاهتمام بهذه الحروب المتوالية بين الروم والعرب أن يتتبع البحترى بشعره ابن (أبى سعيد) فيصف حروبه وصفه لحروب أبيه ، وكان (يوسف بن أبى سعيد الثغرى) كأبيه صاعقة منقضة على الروم ، وقد بلغ فى بعض حروبه خليج البوسفور ولولا أن عاجلته منيته بأيدى بطارقة أرمينية لاستأصل شأفة البيزنطيين من الغرب كله حتى حدود البلقان .

وقد عنى البحترى بحروب الابن ، كما عنى أبو تمام بحروب الأب ، فكانت له قصائد غر يصف بها غزوات بن أبى سعيد فى حرب الثغور ، منها قصيدته التى يشير بها إلى عبوره الدرب ومسيره فى أرض الأناضول ، وهدمه الحصون التى فى طريقه ، وإيقاده النار فى قرى مسيره حتى بلغ (مجمع البحرين) ويقصد بهما البحر الأسود والبحر الأبيض ومجمعهما ما ندعوه اليوم بحر مرمرة ، فقال فى شعر ينبض حماسة وشجاعة وتنسكب ألفاظه ومعانيه على فن يصرفه البحترى فى سبيل الحرب ووصفها ، ولا ضير عليه أن يبدأ مثل هذا الشعر الحربى بغزل وصبوة وحنين إلى (علوة) فيقول شاعر الطيف والخيال :

وطيف سرى حتى تناول فتية ... سروا يلبسون الليل حتى تمزقا
وما قصرت فى (درغنون) رماحنا ... فيرجع منها الطرف غضبان محنقا
أظالمة العينين مظلومة الحشا ... ضعيفته كفى الخيال المؤرقا
ولا وصل حتى تقضى الحرب أمرها ... بمفترق أو فضل عمر فملتقى
وما هو إلا يوسف بن محمد ... وأعداؤه والموت غربا ومشرقا
وعارضه المستمطر الجود إنه ... تجهم فوق (الناطلوق) فأطرقا
وأضعف (بالقباذقين) سجاله ... وأرعد (بالأبسيق) شهرا فأبرقا[١]
فحرق ما بين الدروب أتيه ... إلى (مجمع البحرين) حتى تحرقا

ويظهر من هذه القصيدة أن البحترى (كان حاضرا فى هذه الغزوة ومصاحبا) ، لابن أبى سعيد لتكون مشاهدة الشاعر لهذه المعارك الرومية المتتابعة والحصار المضروب على بلد بعد بلد ، سجلا باقيا فى الشعر وخبرا مذاعا يسير فى البلاد[٢] على نحو ما عهدنا فى

---

(١) ثنى البحترى القبذوق وهو إقليم Cappadocia .
انظر الخريطة التى عربتها فى آخر الكتاب .

(٢) وعلى هذا النحو ما أثر عن الشاعر الإنكليزى الحديث (رديارد كبلنج) من اصطحاب بعض الجيوش الإنكليزية له فى غزواتها وذكره ذلك فى شعره .

عصرنا من عناية المحاربين باصطحاب المخبرين الصحفيين ، والمراسلين العسكريين فى المعارك ليكونو شهودا عدولا على الظفر ، وليذيعوا الأخبار فى عرض الدنيا وطولها ، وقد بلونا خطرهم ، فكان لهم فى نشر الدعوة أبعد أثر وأوفى نصيب .

كذلك ذكر البحترى أنه كان حاضرا هذه السفرة الحربية فى الخريف وقد سلخوا فيها ثلاثة أشهر فقال :

وبرد خـــريف قد لبسنا جديده فلم ننصرف حتى نزعناه مخلقا
وبـــدرين أنضيناهما بعـــد ثالث أكلنـــاه بالإيجـــاف حتى تمحقا

ويذكر بعد ذلك الخيل ، فتحنو عليها حوانيه ، بنبيل الشعور وحب لهذه البهم اللواتى يحبهن الفرسان ، وسنرى مثل هذا الحب للخيل عند صديق الخيل المجرب لها أبى الطيب المتنبى ، والبحترى يعرف مواطن الحسن منها وفضلها على الفرسان والترحال فيقول :

فلم أر مثل الخيل أبقى على السرى ولا مثلنـــا أحنى عليهـــا واشفقا
وما الحسن إلا أن تراها مغـــيرة تجاذبنا حبـــلا من الصبح أبرقا
فكم من عظيم أدركته صدورها فبـــات غنيـــا ثم أصبح مملقا

إلى أن يقول عن بطله ابن أبى سعيد :

حوى كل ما دون الخليج ولم يدع فؤاداً بما دون الخليج معلقـــا(١)

وبعد طويل من المدح والثناء يختم قصيدته معرضا بطلب النوال والثواب . وما أحسب البحترى قد شخص إلى الثغور إلا طامعا فى المشاركة بالحرب لتخليد ذكره الحماسى ، وإن يكن راغباً فى أخذ المكافأة والعطاء .

وكان هذا فعله معه ومع أبيه ، فقد كان يشخص إلى الثغور فيزورها ويمدحهما ، ويحصل منهما على مال كثير — وكانت زيارته للابن بعد الأب ، وكان المال الذى يجودان به عليه لا يجود عليه بمثله الخليفة المتوكل ، فهو يقول للأب ويمن عليه بمفارقة العراق من اجله ، وفيه دجيل وروضة (غمىّ) سعياً إليه وإيثاراً لخلود الذكر .

ولولاك ما اسخطت غمى وروضها ونهـــر دجيـــل بالذى رضى الثغر

---

(١) أراد بالخليج ، (البوسفور خليج القسطنطينية) .

ولا كان غـــزو الروم بعض مآربى وهمى ولا مما أطالبه الأجـــر
وأذكر أيـــامى لديك وحسنها وآخـــر ما يبقى من الذاهب الذكر

وأقرر أن آخر قصيدة قالها البحترى بابن أبى سعيد – قبيل مقتله – هى الرائية التى أولها :

لك الويل من ليـــل بطاء أواخـــره ووشـــك نوى حى تزم أباعره

إذ كان مصرعه بعد وقوع حوادث ذكرها المؤرخون ، وذكرها البحترى فى هذه القصيدة ، وقد كانت هذه الحوادث أسباب قتله .

ذلك أن المتوكل لما استعمل (ابن أبى سعيد) على أرمينية – بعد وفاة أبيه – نشز عليه (بقراط بن أشوط) بطريق بطارقة أرمينية فحاربه ابن أبى سعيد وأخذه فقيده ، وبعث به إلى باب الخليفة فأسلم بقراط وابنه . فغاظ ذلك ابن أخى بقراط فتألب هو ولفيفه على ابن أبى سعيد . وكان الثلج واقعا فحصروه والمحاربين الذين معه فى مدينة (طرون) ، فخرج إلى باب المدينة فقاتلهم حتى كل أصحابه وأسروا ، فطلب أصحابه النجاة فشرط عليهم الروم أن ينجوا عراة ففعلوا ، فهلكوا من البرد ، وتساقطوا هلكى فوق الثلوج ، وسقطت أصابع قوم منهم فنجوا . ولما ضاق الحصار على ابن أبى سعيد ويئس من المدد بعد أن حال الروم بينه وبين أعوانه ، خرج إلى الروم بما بقى معه من الجمع الضئيل فقاتلهم حتى قتل ، فوقع قتله ، من نفس المتوكل موقعا أليما ، فأرسل « بغا الشرابى » فى سبيل النقمة له ، فجاء بغا ديار الروم ، وفتك فيها الفتك الذريع فقتل نحوا من ثلاثين ألفا من الروم وسبى الخلق الكثير .

فكانت قصيدة البحترى تلك ، هى الأخيرة فى حياة البطل الثانى فى حروب الثغور . فقال يذكر الحوادث التى ذكرها التاريخ خالعا عليها حلة شعره وتزاويق فنه ، ونافخاً فى أبياتها روحا من الحماسة تنطق الحديد بزمجرة وهزيم . وذكر أسر العرب « لبقراط بن أشوط » بعد أن شاغب الإسلام خمسين عاما يعيث بالتخريب أيام لا ناه له ولا زاجر فقال :

إذا خرس الأبطال فى حمس الوغى علت فوق أصوات الحديد زماجره
ولا عز للإشراك من بعد ما التقت على السفح من عليا (طرون) عساكره
وما كان (بقراط بن آشوط) عنده بأول عبـــد أسلمته جـــرائره

وقد شاغب الإسلام خمسين حجـــة فلا خوف ناهيه ولا الحلم زاجـــره
ولما التقى الجمعان لم تجتمـــع له يداه ولم يثبت على الخوف ناظره
ولم يرض من (حرزان) حرزا يجيره ولا من جبال الروم ريدا يجاوره[١]

ثم وصف البطريق وقد جاء مكبلا بالحديد فقال :

تضمنه ثقل الحـــديد وأحكمت خـــلاخله من صوغه وأســـاوره
ولم يبق (بطريق) له مثل جرمه (بأرّان) إلا عازب اللب طائره[٢]
كسرتهمو كسر الزجـــاجة بعده ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره
وقد علم العاصى وإن أمعنت بـــه محلتـــه فى الأرض أنك زائره
حسام وعـــزم كالحسام وجحفل شـــداد قواه محكمات مرائره

* * *

وقف البحترى كثيرا من شعره على الروم فى حروبهم مع العرب حتى صححتُ به حوادث من التاريخ ووضحتُها ، ولو اقتصر المحقق على التاريخ وحده لرأى عصر المتوكل عصر تخاذل على الثغور وانكفاء أمام الروم . ولكن قصائد البحترى ألحقت عندى عهد المتوكل بعهد المعتصم فى غلاب العرب للبيزنطيين وصمودهم فى وجوه غزواتهم ، ولو كان المتوكل مثل المعتصم قؤوما بالخلافة ـ بعيداً عن الزلل واللهو ـ لأكمل ما بدأ به المعتصم من (حروب الغرب) ، ولكن بطانة السوء التى كانت عنده قصرت أمد حكمه فتقاوى الروم بعد مصرعه واشتدوا ، وكثر عدوانهم على ثغور المسلمين .

وقد وصف البحترى ــ فى إحدى قصائده فى المتوكل ــ وفد الروم وحضورهم مأدبة المتوكل ، وقد قدموا للمخاطبة فى مفاداة الأسرى ، فاقتصر من وصفه على طعامهم ومجلسهم إلى الموائد ، وذهول عقولهم من هول ما طالعوا فى قصر الخليفة وما عاينوه وسمعوه

وكانت (مفاداة الأسرى) معروفة بين العرب والبيزنطيين منذ كانت الحروب بينهما ، وكان يقوم بأمر الفداء زمن المتوكل رجلان من دهاة الساسة وهما « نصر بن الأزهر »

(١) الريد حرف من حروف الجبل .
(٢) كان البيزنطيون يطلقون لقب البطريق على قوادهم . فليس البطريق رجل دين عندهم فحسب وإنما هو رجل حرب . وكان عندهم الإمبراطور نيسيفور فوكاس أخطر قائد لحروبهم مع المسلمين بطريقاً كذلك ــ وأران إقليم قريب من مملكة الخزر شمالى الجزيرة Aran .

« شنيف الخادم » وقد شخص نصر هذا إلى القسطنطينية سفيرا فى أمر الفداء من قبل المتوكل على الله ، فلبث هناك أربعة أشهر ، وكان « موضع تبادل الأسرى » على « نهر اللامس » فى مدينة « سلوقية »[١] .

وكانت طريقة المفاداة من أطرف ما عرف عن الأقدمين ، وذلك أن يعقد العرب جسرا على النهر ويعقد الروم جسرا آخر ، فيرسل العرب الرومى على الجسر ، ويرسل الروم العربىِ على جسرهم ، ويكون المشرف من جانب الروم بطريقاً من البطاريق .

وقد كانت الإمبراطورة (تذورة Théodora) أم ميخائيل الثالث معاصرة للمتوكل ، كما كان تيوفيل معاصرا للمعتصم .

ويقول « فاسيلييف » إن الحرب لم تكن على الدوام بين العرب والروم ، وإنما كانت تنقطع حينا فيحدث بين المملكتين مصادقات ، وألفة وسفارات ، ويكون بينهما التهادى ، فلقد أرسل الملك تيوفيل أحد علماء النجوم إلى قصر المأمون لأمور تتعلق بعلم الرياضيات كان يحبها المأمون .

وأن مجلس العرب فى المآدب الملوكية البيزنطية كان قبل مكان « الفرانك » وأن مسلمى الشرق كان لهم المكانة العليا فى هذا النظام ، وكان البيزنطيون يسمونهم (الأصدقاء)[٢] .

وقد أثر العرب بنظام حكمهم فىِ نظام الحكم ببيزنطة فكانت الطريقة العامة للحكومة العربية مثل طريقتها عندهم[٣] ، وقد شبه فاسيلييف استبداد الترك بالخلافة حتى صيروها اسمية فى يد الخليفة ، وفعلية فى أيديهم زمن المتوكل ومن بعده ، بما كان مثل ذلك عند الزعماء القواد الرومانيين الشرقيين واستبدادهم بالمملكة دون الإمبراطور وكان يعرف هؤلاء المستبدون باسم (الحكام Les Prétoriens) .

وسنرى فى الكلام على شعر الحرب لدى المتنبى المقارنة والموازنة بين الجيشين العربى والبيزنطى فى القيادة ولبوس العسكر وعتاد الحرب وغير ذلك . وقد وجدت ابن الأثير[٤] يذكر عادة قطع الرؤوس عند الروم ، وحملها والطواف بها كما عند العرب ، فقد روى أنه فى عهد قسطنطين بعد الملكة « تزورة » خرج خارجى من الروم يقال له أرميناس ودعا

---

(١) نهر اللامس هو Lamos بالرومية و (قوق صو) بالتركية . وسلوقية (سلفكر) بالتركية .
انظر الخريطة المعربة عن (بروك) فى آخر الكتاب ، وراجع تاريخ الطبرى ١١ / ١٩ .

(٢) كتاب فاسيلييف Byzance et les Arabes ص ١٢ . بالفرنسية .

(٣) المصدر السابق ص ١٢ .

(٤) الكامل فى التاريخ ط أوربا ج ٩ ص ٣٤٢ .

إلى نفسه فكثر جمعه حتى زاد على عشرين ألفا ،فأهم قسطنطين أمره وسير إليه جيشا كثيفا فظفر به وقتله ، وحمل رأسه إلى القسطنطينية .

ومن كل ذلك يتبين أن العرب والروم فى العصر العباسى كانوا متشابهين فى أمور الحرب وقوام الحكومة وطريقة العقاب .

كذلك كانت الحروب بين العرب والروم زمن العباسيين ، تنقطع قليلا لتتصل طويلا ، وقد حرص العرب على إعداد جيش منظم فائق التعبئة ، له زعماؤه وله قواده ، وفيه فرقه ، وله عطاؤه وجراياته . وقد كان معدا على الدوام لكل وجهة ، ورهنا للعمل فى كل حرب ، وقد قدر فاسيلييف جيش المعتصم المؤلف من الترك والبربر بسبعين ألفا[١] .

٦ – خاتمة أسد الثغور

ينسحب البحترى على آثار أبى تمام فى كل شعره ، على الرغم مما لزم الآمدى من تفضيله فى موازنته ، ولم يكن أبو تمام معلما للبحترى فحسب ، بل كان قدوة لكل من قال الشعر العربى بعده إلى اليوم .

روى صاحب معجم الأدباء أن البحترى « صار إلى أبى تمام وهو بحمص فعرض عليه شعره ، وكان يجلس للشعراء فيعرضون عليه أشعارهم[٢] » .

وقد لزم البحترى أبا تمام فعلمه الصناعة وهداه السبيل فى أساليب النظم ، وأغراض الشعر وفنونه وثقافته ، فرأيت طبيعيا أن ينسحب البحترى على آثار أستاذه فى المعانى والموضوعات ، حتى فى شعر الحرب فيمدح بطولة أسد الثغور (محمداً أبا سعيد بن يوسف) ويخلد ذكر حروبه بقصائد كثيرة ، تقارب فى عددها قصائد أبى تمام فى حارس الحدود الإسلامية تلقاء الروم ، وزاد عليه فيها أن مدح ابنه (يوسف بن محمد) من بعده وامتد عمره حتى رثى الأب وابنه ، وبكاهما ! راثيا الفروسية والبأس ، وباكيا على المكرمة والجود .

---

(١) كتابه السابق ص ٤ .

(٢) معجم الأدباء ط دار المأمون بمصر ج ١٩ ص ٢٤٩ .

وقد أفادنا فى شعره بأبى سعيد ما لم يذكره المؤرخون ، وشرح ماجمجموه إذ ذكروه .

فلقد كنت أتقصى أخبار أبى سعيد فوجدت الطبرى يقول عن خاتمته فى سطر واحد « إنه هلك فولى المتوكل ابنه يوسف بن محمد مكانه فى حروب الروم ، فضبط أرمينية ووجه عماله فيها » . فكانت كلمة (هلك) — وقد عودنا الطبرى أن لا يستعملها إلا للمصادرين والمقتولين ، والمغضوب عليهم من أعوان السلطان — باعثة عندى القول بنكبة وقعت بأبى سعيد شأن النكبات التى كانت تقع حينا بعد حين بالولاة والحكام فى زمن العباسيين دسيسة وكيدا ، وانتقاما وقهرا ، فنقبت فى شعر البحترى فإذا هو يرثى لأبى سعيد وقد (سُلم) إلى كاتب نصرانى (لسعيد الحاجب) ، وأمر بتعذيبه والغلظة عليه فى المطالبة والاستخراج[٢] فيقول فيه :

هذا ابن يوسف فى يدىْ أعـداثه ... يُجـزى على الأيـام بالأيـام

نامت بنو العباس عنـه ولم تكن ... عنـه أميـة لو رعت بنيـام

فيكون من هذين البيتين أن أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى قد اتهمه أعداؤه وحساده باحتجان مال الدولة أو ضاق به الخليفة إذ رأى شاعره البحترى قد خصه بأروع مدائحه ، فسلمه المتوكل إلى حاجبه الكبير ، وسلمه هذا إلى كاتبه ليعذبه ويغلظ عليه بالعذاب فيستخرج منه أموال الدولة التى احتجنها فى ولايته على الثغور .

وقد وجدت أن هذه الطريقة فى المصادرة والتعذيب وتكليف بعض الأمراء والحكام بمصادرة بعض وتعذيبهم ، مما انفردت به الدول العربية القديمة دون دول الغرب ، وكانت هذه الطريقة معروفة ومتداولة فى عهود الدول الإسلامية القديمة ، كما جرى أيام المتوكل « لنجاح بن سلمة » وكان على ديوان التتبع على العمال ، فأراد الإيقاع بخصومه فوجد نهزة ذلك حين اعتزم المتوكل بناء قصره الجعفرى ، ووجد الإنفاق عليه معسرة ، فقال له (نجاح) لو سمعت نصحى فى مصادرة رجال أذكرهم لك لأخرجت منهم كل الإنفاق على قصرك . فقال الخليفة سم من شئت ، فذكر له (الحسن بن مخلد) وكان على ديوان الضياع ، و (موسى بن عبد الملك) وكان على ديوان الخراج . فلجأ هذان المحتجنان لزعيمها الوزير عبيد الله بن يحيى فسعى (بنجاح بن سلمة) إلى المتوكل وقلب عنده الآية ،

---

(١) ج ١١ ص ٤٨ .

(٢) ديوانه ط هندية بمصر ٢/٢٦٤ .

فإذا المتوكل يأمر الوزير بمصادرة (نجاح) وإذا الوزير يسلم (نجاحا) إلى خصميه الحسن وموسى ليقتلاه — ولا يسلمه لصاحب الشرطة — فيجوران عليه بالحبس ويقتلانه شر قتلة بعد أن يحملاه بصنوف الضرب والعذاب على الإقرار بالمال الذى عنده ، وقد ظهر أن لديه الألوف الكثيرة من الدنانير .

فيكون إذن واضحاً أن ساعياً اتهم (أبا سعيد) عند المتوكل بأخذه مال الثغور ، فصادره المتوكل على ذلك النحو المتقدم ، وعزله عن حرب الثغور وأطاع فيه حساده ، فقال البحترى :

صرفوك عن حرب الثغور بقدر ما ... عرفوك يا ابن محمد بسواكا
والروم تعلم أن سيفك لم يزل ... حتفا لصيد ملوكها وهلاكا
لن يأخذ الحساد مجدك بالمنى ... الله أعطاك الذى أعطاكا

ثم لا يلبث بطل الثغور — كما يظهر من قول البحترى فيه وقد رثاه مرتين — أن يموت بعيداً فى البلد المنقطع ، حيث لا يزار ولا يلم به أنيس ، فى قبر إذا مر به الأبطال ، ذكروا بطولة صاحبه فكسروا فوقه رماحهم ، وشققوا عليه الرايات .

وقد استراح الروم من حروبه فناموا ملء جفونهم ، بعد أن أيقظتهم سيوفه طوال عهده على أرمينية فيقول[1] :

لا يهنىء الروم استراحتهم فقد ... هدؤوا بأفواه الدروب وناموا
أمنوا وما أمنوا الردى حتى انطوى ... فى الترب ذاك الكر والإقدام
يا صاحب الجدث المقيم بمنزل ... ما للأنيس بحجرتيه مقام
قبر تكسر فوقه سمر القنا ... من لوعة وتشقق الأعلام

ثم يصرح البحترى بنكبته وأسبابها ، فيصوره قد توسد يده فى لحده وبقى شامتوه أحياء فيقول :

وبرغم أنفى أن أراك موسدا ... يد هالك والشامتين قيام

ولا شك أنه بعد مصادرته وتعذيبه ، قد عاد إلى أرمينية وفيها أهله ، وجمعه ، مؤثرا الابتعاد عن دار الخلافة التى أصبح فيها مهانا ، وكان من أعاظم الأبطال ويدعى بالأمير

---

(١) كانت وفاة الثغرى سنة ٢٣٧ هـ .

أيام المعتصم ، فمات هنالك حزنا ، وكان قد عود ابنه يوسف الحرب وجعله يألف مداخل ديار الروم ومخارجها ، فلذلك أرى أن المتوكل قد اضطر بعد مهلك الأب إلى عقد ولاية الثغور لابنه .

لكن هذا الفتى لم يلبث أن لحق بأبيه ، إذ وثب عليه بطارقة أرمينية — كما ذكرت — فقتلوه وقطعوه ، وبلغ المتوكل أمره فانتقم له أروع انتقام[١] .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٠ .

الفصل الرابع

الحرب البحرية

١ – الحرب البحرية عند العرب

حاول العرب منذ أيام عمر بن الخطاب أن يكتنهوا (الحرب البحرية) ويعرفوا خطرها وكانت السياسة والفتح يقتضيانهم معرفة أخطار هذه الحرب واكتناه البحار من أجلها ، لأن سواحل الشام التى أخذوها من أيدى الروم ، كانت مرتبطة التجارة والحكومة بالقسطنطينية وسواحل أوربا الجنوبية . وكان للروم أسطول ، وهم أمة قبل المسلمين عرفوا البحار ومخروا عبابها .

فلما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامله عليها أن صف لى البحر . وكان عمر يقصد (بحر الروم) فكتب إليه عمرو بن العاص[1] : « إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف ، دود على عود » .

فأوجس عمر خيفة على المسلمين من البحر وأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه وهو يقول : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما وتالله لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوت الروم » .

ولما بلغه أن (عرفجة بن هرثمة الأزدى) سيد بجيلة غزا عمان فى البحر أنكر عليه ذلك وعنفه إذ ركب البحر للغزو .

ولم يكن المسلمون أمة حرب فى البحر حتى عصر معاوية ، وكان معاوية محبا لأسباب الحضارة يغرى العرب بها ويحملهم عليها ، وأعده أول من فتح باب التطور للأمة العربية منذ كان عاملا لعمر على ديار الشام ، فقد كانت طقوس حفلاته مشابهة لطقوس الحفلات عند الروم من حشد العسكر على جانبي الطريق وقرع الطبول . وقد أنكر عليه عمر ذلك لما زاره (زيارته التفتيشية) التى جاء بها إلى ديار الشام وبيت المقدس[2] فقال له « يامعاوية

---

(١) مقدمة ابن خلدون الطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٩٣٠ ص ٢١١ .

(٢) قال عمر : لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حاجات تقطع دونى أما عمالهم فلا يرفعونها إلى وأما هم فلا يصلون إلى (التاريخ الكامل لابن الأثير ط أوربا ٣ / ٤٢٩) .

أأنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف الناس ببابك » . فقال معاوية : يا أمير المؤمنين إننا فى بلد قريب من العدو الرومى وبيننا جواسيسه ، فلا بد لنا من إظهار مثل ما ترى ليحسن وقع خطبنا عنده . فأعجب بفعله عمر وتحفظ فى إقراره عليه ، ولم ينهه :

فلا غرابة إذن من معاوية أن يدخل الحرب البحرية على الجيش العربى زمن خلافته ، فيخرج العرب من بداوتهم إلى الحضارة ويجعلهم أنداداً للروم فى حرب البحر ، ولم يكن على الماء من عدو لهم غير الروم . وإن بلاد الشام والأناضول وسواحل مصر كانت يومئذ خطا محيطا بحوض الروم ، وأسطول البيزنطيين يعبر ذلك البحر من القسطنطينية إلى السواحل الأفريقية جيئة وذهوبا ، دون أن يجد فى طريقه معارضاً . وكانت أمم الفرنجة والصقالبة والروم مهرة فى ركوب البحر وأهل تجارات ، وقد عرفوا الحرب البحرية من طويل الزمان

وما راع الروم إلا معاوية وقد عبأ أسطولا عربيا يرسل فيه المسلمين ليجاهدوا على أعواده وليركبوا البحر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولم يكن عمرو بن العاص ليخاف من البحر مثل عمر ، فلما استقر أمره فى مصر بعد فتحها أبه للبحر ، وعرف أنه عين الخطر من جهة الروم فعنى بالحرب البحرية ، وكان لديه أسطول جسيم . فقد ذكر المقريزى(١) أن عبد الله بن سعيد بن أبى سرح « كان أمير البحر فى شواطىء مصر سنة ٣٤ للهجرة وكانت مراكب المسلمين نيفاً ومئتى مركب » وكان (بسر بن أرطأة) أميراً للبحر ، معينا لعبد الله بن سعيد، وكان خصمهم فى أحدى المواقع البحرية مع الروم (ابن هرقل) فقاتلوهم بالنبال والنشاب ثم التحمت المراكب وعددها من قبل الروم ألف مركب فاقتتلوا بالسيوف حتى هزموا الروم وشتتوهم ، وسميت هذه المعركة البحرية (بغزوة ذى الصوارى) فى مياه الإسكندرية بعد فتحها أيام عمرو بن العاص وكان مع عبد الله (علقمة ابن زيد) و (كُريب بن أبرهة) من أمراء البحر ، وقد كان للنساء العربيات نصيب فى هذه المعركة البحرية . فقد روى المقريزى أن أمير البحر عبد الله بن سعيد كانت معه امرأته (بسيسة ابنة حمزة بن يشرح) وكان الناس يغزون بنسائهم فى المراكب ، وكانت بسيسة تشارك فى القتال وتعطى رأيا فيه ، وهلك عنها عبد الله فتزوجها علقمة بن زيد ، وهلك عنها هذا ، فتزوجها كريب بن أبرهة(٢) .

---

(١) الخطط للمقريزى ط مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) شأن العرب بعد الإسلام فى الحروب حين كانوا يتزوجون الأيامى زوجات الأبطال والشهداء جبراً لخواطرهن وصوناً لكرامتهن .

وقد تقصى أخبار (معركة الصوارى) هذه (جاستون فييت)[١] فذكرها فى الجزء الذى ألفه عن (تاريخ الوطن المصرى) فى مجموعة (جبرائيل هانوتو) وقال إن (ماريوس كانار)[٢] تعقب ذكر هذه المعركة فى (كتب الروم) و (العرب) فتوصل إلى أن قائد الأسطول الرومى فى هذه المعركة كان البطريق (مانويل) وأن الجنود البيزنطيين خرجوا من الأسطول إلى البر ودخلوا الإسكندرية فخف إليهم (عمرو بن العاص) بجيش برى ، وكان يعينه أسطول عربى فهزم العرب الروم فى البر ، ورمى الروم بأنفسهم على مراكبهم ، وقتل رئيسهم البطريق (مانويل) فى معركة جرت فى شوارع الإسكندرية بين العرب والروم . . .

وإن العرب منذ تلك المباغتة فكروا ببناء أسطول ضخم يناظر أسطول الروم[٣] . وكان المصريون من أبرع البحارة أيام البيزنطيين قبيل الفتح العربى لمصر ، فصاروا لدى العرب بناة أسطولهم الجديد .

وذكر (جاستون فييت) أن معاوية فى سنة ٦٤٩ للميلاد قاد أول أسطول عربى فى البحر وكانت معركته الأولى مع الروم ظافرة فبشرت بنجاح حربى قابل .

وناقش جاستون فييت نفسه فى اسم هذه المعركة فقال إن العرب تسميها (معركة الصوارى) لأن أعمدة المراكب البيزنطية والعربية قد التحم بعضها ببعض فى هول التقابل . أما ماريوس كانار فيدعى (أن الصوارى) اسم قرية على البحر فى ساحل مصر بالقرب من مكان يسمى (Phoenix) أى العنقاء .

وقد هد انهزام الروم فى هذه الوقعة جيشهم البحرى حتى كان (تيوفان البيزنطى) المؤرخ « يقرن هذه الخيبة التى منى بها الروم ، بخيبة واقعة اليرموك » .

وفات جاستون فييت أن المقريزى صاحب الخطط قال : إن الصوارى اسم مكان فى مياه مصر وأنه ليس ماريوس كنار أول من قال ذلك[٤] .

وكان أمراء البحر فى خلافة عثمان بن عفان[٥] عبد الله بن نافع بن الحصين ،وعبد الله

---

(١) جاستون فييت كان أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة باريس ، وكان مديراً للمتحف الوطنى فى القاهرة ، ألف كتاباً جليلا عن مصر فى عهد الإسلام منذ الفتوح إلى حملة نابليون ونشر هذا الجزء فى المجموعة التاريخية الكبرى المسماة (Histoire de la Nation Egyptienne, Par Gabriel Hanotaux) طبع بلون بباريس سنة ١٩٣٧ tome IV .

(٢) ص 28 من هذا المصدر .

(٣) ص 29 من المصدر السابق .

(٤) الخطط للمقريزى الطبعة السابقة ج ١ ص ٢٧٣ .

(٥) التاريخ الكامل لابن الأثير ط أوربا ج ٢ ص ٧٢ .

ابن نافع بن عبد القيس ، وعبد الله بن قيس الجاسى ، وكان لهذا الأخير نحو من خمسين غزوة فى البر والبحر ، ولم يغرق فى غزواته فى البحر أحد من جمعه .

وذكر (آغابيوس المنبجى)(١) فى (كتاب العنوان)(٢) أنه فى السنة الثالثة لعثمان ، ركب معاوية البحر وصار إلى قبرس ، فافتتحها وكان معه ألف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحا وأموالا . وأن معاوية(٣) غلب فى البحر (قسطوس) ملك الروم وأحرق سفنه وهزمه . ولحقه إلى الروم فلجأ (قسطوس) إلى صقلية ، وفى السنة الرابعة عشرة لمعاوية(٤) غزت العرب الروم فى البحر فانهزم أسطول معاوية وأحرقه الروم . ثم غزوا سواحل سورية فجاؤوا إلى صور وصيدا فى السنة نفسها .

فيتبين من روايات آغابيوس المنبجى(٥) أن الحرب البحرية كانت سجالا بين المسلمين الروم فى عهد معاوية ، ويقول ابن خلدون(٦) « إنه استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، استخدموا من (النواتية) فى حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافه وشغفهم الجهاد فيه ، فأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، والعساكر والمقاتلة ، لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر على حافته

---

(١) كتاب العنوان لأغابيوس المنبجى من المصادر النفيسة للتاريخ الإسلامى وأول من ذكره المستشرق (Assemanie) سنة ١٧٤٢ فى جدول نشره لمجموعة المخطوطات الشرقية فى مكتبة فلورنسا ثم عقب بعده المستشرق (هوار) فأشار إليه سنة ١٩٠٢ م حتى جاء (اسكندر فاسيلييف) المستشرق الروسى فنقله من العربية إلى الفرنسية ونشرته على أجزاء متفرقة (مجلة) آباء الكنائس الشرقية التى تصدر عن باريس باسم **Patrologia Orientalis**

(٢) كتاب العنوان Fascicule 3 tome VIII بإشراف فاسيلييف طبع باريس ١٩٠٨ (220) من مجموعة (Patrologia Orientalis)

(٣) المصدر السابق ص (224)

(٥) أما أغابيوس المنبجى مؤلف كتاب العنوان Kitab al-unvan فهو مؤرخ عربى رومى يقال له (Agapius) بن قسطنطين المنبجى وكان أسقف منبج فى القرن العاشر للميلاد وكان للحوادث التى ذكرها فى كتابه أثر بعيد فى توضيح المعالم التاريخية لدى المؤرخين الروميين . ولم يأبه له العرب كثيراً ، وقد عنى فى كتابه بتاريخ الروم وحوادث الفرس كما عنى بحوادث التاريخ العربى (من مقدمة فاسيلييف على الجزء الأول من الكتاب) .

(٦) مقدمة ابن خلدون الطبعة السابقة الصفحة نفسها .

مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس .

وما جاء عبد الملك بن مروان حتى كان العرب قد تمرسوا بآفات البحار . ولم يعد يذعرهم فيها الذعر ، مما دعا عبد الملك أن يكتب إلى عامله على أفريقية حسان بن النعمان، بأن يتخذ داراً لصناعة الآلات البحرية والسفن ، (وهو ما يعبر عنه فى زمننا بترسانات) وكانت استجابة عامله إلى ذلك وسيلة إلى فتح صقلية .

ثم أخذ العرب فى الأندلس بهذه الضرورة البحرية فأنشؤوا الأساطيل . ولا ريب فى أنهم كانوا أقرب إلى تجويدها من المشرقيين ، لوجودهم فى الغرب ، ولأن الأمة الإسبانية كانت أمة بحار ، وصاحبة أساطيل ، فكان تقليدهم واقتباسهم فى ذلك أسهل وأجدى . . . لكن الأسطول العربى بقى ضعيفا تلقاء الأسطول الرومى فى الحوض الأبيض ، لحداثة عهد العرب فى ذلك ، ولاشتغالهم فى حروب الشرق فيما وراء النهر من بلاد فارس ، وبالفتن الداخلية فى أرجاء العراق وديار الشام .

ولم يكن بدعا من العباسيين أن يحصنوا الإسكندرية من جهة البحر[١] ، وأن يكلفوا من كان فى سيف البحر فى الشام ومصر من الصناع والنوتية ، أن يصنعوا السفن البحرية، لا سيما اللبنانيين القدامى ، فإنهم كانوا بحريين من سوالف العصور ، والأمة الفينيقية التى كانت على سواحل لبنان هى التى علمت الأمم القديمة فن السفن ، وشق البحار ، وكان شجر الأرز فى لبنان هو الذى تصنع منه أخشاب السفن معوانا على ذلك .

فلم يلبث العباسيون أن أوجدوا لجيشهم أسطولا ضخما يكاد يبذ الأسطول البيزنطى ، ولا شك أن هذا الأسطول كان فى إبان عظمته وقوته . أيام الرشيد والمعتصم ، ثم تخاذل وتضاءل بعد عهد المتوكل . ودليل على أن البيزنطيين قد اجترؤوا فى عهد المتوكل على أن يشقوا البحر الأبيض من شماليه إلى جنوبه ليغزوا مصر ، ما روى صاحب (النجوم الزاهرة) الذى عنى خاصة بالحوادث التى لابست تاريخ مصر . أنه فى سنة ٢٣٨ هـ[٢] وهى موافقة لخلافة المتوكل قصد الروم دمياط فى ثلاثمئة مركب فكبسوا البلد ، وسبوا ستمئة امرأة ، ونهبوا وأحرقوا وبدعوا ، ثم فصل هذه المباغتة الرومية[٣] ، فقال : « إنهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون الطبعة السابقة ص ٢٩٣ .

(٢) ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٣) ص ٢٩٥ .

تركوا دمياط بعد أن حاربهم أهلها ، إذ كان الجند الموكل إليهم حراسة دمياط ، غائبين فى القاهرة ، حفاوة بحفل كان أقامه ليلة العيد عامل المتوكل « أبو رجاء عنبسة بن إسحاق) ثم إن الروم الذين نزلوا من الأسطول ذهبوا من دمياط إلى بلدة (أشموم)[١] ، فلم يقدرو عليها فعادوا إلى بلادهم ولحقهم أبو رجاء بجيوشه فلم يدركهم » .

وقد ذكر هذه الحادثة الطبرى[٢] ، وذكر أسماء الربابنة الذين قادوا الأسطول ، وكان ثلاث فرق ، كل فرقة مئة سفينة ، فأرسى (ابن قطونا) بدمياط ، فأحرق سفن المصريين التى كانت فى شطها ، وسبى نساء قبطيات مع المسلمات ، وأحرق المسجد الجامع بدمياط والكنائس ، وحاز المال الكثير والسلاح .

* * *

يقول « ستيفان رونسيمان[٣] فى كتابه (الحضارة البيزنطية) عند كلامه على (البحرية البيزنطية) إن البيزنطيين لم يكونوا يعبؤون بحرب البحر ولا (يعطونها كل أنفسهم) قبل أن يستفحل أمر العرب ، فلما أنشأ العرب أسطولهم قضت الضرورة على البيزنطيين أن يبذلوا جهودهم فى تنظيم أسطولهم وإعداده على الدوام « للمصادمات العربية » وأن أسطول البيزنطيين أبعد أسطول العرب عن القسطنطينية مرتين حافظ على جزيرة صقلية من غزوات العرب .

وكان أسطول البيزنطيين يهمل أمره كلما ضعف أسطول العرب ، وكان العرب يفرغون كل ما فى وسعهم على أن يأخذوا من الروم صقلية ثم كريت ، وأن يجعلوهما قاعدتين للمهاجمة الدائمة على بيزنطة واليونان فى بحر (إيجه) حتى كان عهد (تذورة وميخائيل الثانى) ثم من بعدهما (بازيل) فنفخ هؤلاء روحا جديداً فى الأسطول البيزنطى ، وأنشؤوا دور صناعة السفن على شواطىء بحر الروم ، وكان أعظم أمير للروم على البحر يوم ذلك (أوريفاس Oryphas) ويقول رونسيمان إن المؤرخ الرومى (تيوفان قونطينواطوس[٤]) يصف غزوة

---

(١) يسميها الطبرى (اشتوم) وهى اشموم على ما ورد فى معجم ياقوت .

(٢) تاريخه ١١ / ٤٨ .

(٣) La civilisation Byzantine

تأليف Stevan Runciman الأستاذ بجامعة كامبردج ، الترجمة الفرنسية طبع بايو بباريس سنة ١٩٣٤ ص (157) .

(٤) Théophan Continuatus

بحرية قام بها سنة ٩٠٤ للميلاد أحد أبطال البحر عند المسلمين وهو ليون (الطرابلسى [١]) ، فبلغ تساليا[٢] ، فنهبها وأقام فيها زمنا ولم يستطع الأسطول الرومى أن يقف فى سبيله ، أو أن يجلى العرب عن تساليا إلا بعد سنين إذ حاربه الروم وقتلوه .

وفى عهد (نيسيفور فوكاس) سنة ٩٦١ للميلاد أصبح الأسطول العربى (فى حيز العدم) واستطاع هذا الإمبراطور الجبار أن يقول فخورا : « أنا وحدى سيد البحار [٣] » .

لكن الحروب المتوالية لم تلبث أن عفت على آثار الأسطول البيزنطى ، وهدمت دور الصناعة البحرية على ساحل البحر ، ثم عاد الروم إلى النهوض حينا بعد حين ، بحرب البحار حتّى كانت الحروب الصليبية .

* * *

أما المعتصم الذى كسر شوكة الروم فى البر ، بعد خراب عمورية ، حتّى لم تقم لها قائمة فى البحر فى زمنه ، فكان ذا نزعة للحرب البحرية فقد بنى سفينة كبرى سماها (الزو) وكان يحب أن يشهد العسكر فى البحر ، كما فعل ذات مرة إذ أمر (بعرض عسكرى بحرى) وذلك أن (الزط) وكانوا ألوفا وقد شمسوا عليه ، ثم أطاعوا وسلموا ، فأمر بعرضهم فى دجلة وكان عددهم سبعا وعشرين ألفا فيهم اثنا عشر ألف مقاتل، فأمر بقائده (عجيف) الذى كسر الزط ، أن يمر بهم[٤] (وهم فى زواريقهم على هيئتهم فى الحرب معهم الأبواق، حتى دخل بهم بغداد) وكان المعتصم يشاهد هذا العرض وهو فى سفينة الزو حتّى مر به الزط على تعبئتهم وهم ينفخون فى الأبواق .

فى تسريح الخيال نحو هؤلاء الزط وعددهم اثنا عشر ألفا . يمكن للفكر أن يحسب عدد سفنهم ، وأن يتمثلهم وعليهم دروعهم ، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم ونشابهم ، والأبواق فى أفواه النافخين ، تملأ سماء (الشماسية)[٥] التى كان يعرضهم فيها المعتصم ، وأحسب أن هذا أول عرض بحرى عرفه العرب . وكان الأمين قبل المعتصم ، معتنيا بالسفن البحرية؛ وكان يجعل بعضها للنزهة ، فقد بنى سفينة (الدلفين) وقد وصفها (أبو نواس) بقصيدة .

---

(١) Leon de Tripoli

(٢) Thessalonique

(٣) المصدر السابق من كتاب رونسمان

(٤) تاريخ الطبرى ١٠/٣٠٦

(٥) مكان بسامرا .

وذكر أبو الفداء المؤيد[1] أن الأمين عمل خمس حراقات فى دجلة على صورة أسد وعلى صورة الفيل والعقاب والحية ، وعلى صورة الفرس ، وأنفق عليها مالا عظيما ، حتى قال أبو نواس يصف هذه السفن ويعجب لما فيها من الهيئات والأشكال مما لا يعرفه العرب وإنما كان معروفا عند الروم :

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برا ... سار فى الماء راكبا ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات سور ومنسر وجناحين ... تشق العباب بعد العباب

والظاهر من قول أبى نواس أن (العقاب) كان (قطعة) جبارة من قطع الأسطول عند الأمين وكان يركبها فى حروبه البحرية ، وكانت ذات منسر ومقدم وجناحين ، والمراكب ذوات الأسوار من اختراع العرب كما يرسم ذلك المؤرخ الفرنسى (شلمبرجة) فى كتابه عن الإمبراطور (نيسيفور فوكاس)[2] فقد أثبت فيه صورتين للسفن الحربية العربية فى العصر العباسى ؛ وهى سفن مسورة فيها بروج مبنية على طريقة أبراج الحصون بشرفاتها المكشوفة المحيطة بوسطها التى يسميها الفرنجة (Créneau) وفيها مقاذف جسام ومنجنيقات . كما أثبت شلمبرجة صورا ثانية للسفن العربية البحرية التى كانت تحمل قذائف النار .

٢ ـ أسطول المتوكل والمعركة البحرية

لئن تغفلت المتوكل (تذورة) (تيودورة)[3] ، فأرسلت أسطولها إلى غزو دمياط ـ كما قدمتُ ـ فإنه كان يملك أسطولا جرارا ثقيلا . لم يصفه المؤرخون ـ جريا على عاداتهم فى اقتضاب بعض الحوادث القيمة الخطيرة ـ وإنما الذى نهض بوصفه وحده هو البحترى

---

(١) تاريخه ج ١ ص ٢١ .

(٢) سأصف هذا الكتاب عند الكلام على شعر الحرب لدى أبى الطيب المتنبى وعصر الحمدانيين فى حروبهم مع البيزنطيين .

(٣) Théodora وكانت تسمى (تيودورا الغاصبة) وهى من الأسرة العمورية حكمت بيزنطية من سنة ٨٤٢ إلى سنة ٨٥٦ للميلاد . فهى معاصرة للمتوكل إذ كانت خلافته حسب أعوام الميلاد من سنة ٨٤٧ إلى سنة ٨٦١ الموافقة للهجرة من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٢٤٧ .

والمؤرخون البيزنطيون الذين نقل عنهم المستشرقون المعاصرون ، فقد ذكر (ماريوس كانار)[١] أنه لم يصف أحد من مؤرخي العرب هذه الحملة البحرية أيام المتوكل التي سار فيها الأسطول العربي نحو بيزنطية وأن البيزنطيين يسمون قائد أسطول المتوكل Apodenar وهم يعنون (أحمد بن دينار) ، وأن المؤرخين البيزنطيين يذكرون هذه الغزوة البحرية التي انتهت بهلاك الأسطول الرومي ، بسبب الإعصار والعواصف البحرية .

ذلك ما لاحظه (ماريوس كانار) على تاريخ الغزوة البحرية أيام المتوكل ، لكن البحتري قد وصف هذه الغزوة وصفاً رائعاً حتى قال عنه النويري صاحب نهاية الأرب[٢] : « لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحتري » ، فكانت هذه القصيدة من البحتري[٣] نفيسة القدر ، في شعر الحماسة العربية ولاسيما كونها (في الحرب البحرية) عند العرب ، التي غزا فيها (أحمد بن دينار بن عبد الله) بلاد الروم ، وقد ذكر البحتري اسمه في هذه القصيدة وفضله على البحر . بعد أن تولى الإمرة عليه وتدبيره فيه ، وحمله الرماح العوالي على الماء ، فكأنه ليس يمخر في البحر فقال :

بأحمد أحمدنا الزمان وأسهلت ... لنا هضبات المطلب المتوعر
ولما تولى البحر والجود صنوه ... غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ... ولا عزم إلا للشجاع المدبر
إذا شجروه بالرماح تكسرت ... عواملها في صدر ليث غضنفر

ثم يصف البحتري أوان سفره بالأسطول ، وقد ركب (أمير البحر) أحمد بن دينار (قطعته البحرية) الخاصة واسمها (الميمون)[٤] وكان الوقت صباحا .

ولا يفتر أبو عبادة — على عادته — عن التلاعب بالمعاني وقلب الألفاظ فقد جعل ابن دينار هو المظفر والميمون غدا تحته بعد أن غدا هو فوقه . ويظهر من وصف البحتري أن ابن دينار مضى في أسطوله بادئ السير على هيئة « عرض بحري » ؛ فوصفه وقد

---

(١) في أعقاب كتاب (فاسيلييف) (Byzance et les arabes) المتقدم ذكره ووصفه .

(٢) ج ٦ ص ١٩٧ .

(٣) ديوانه ط هندية بمصر ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) أعدها من سوابق العرب في فن البحار إذ كانوا يسمون (قطعهم البحرية) بأسماء خاصة كالعقاب التي سماها الأمين ، والميمون هذه ، وقد جرت على ذلك الأمم الحديثة حتى سمعنا مسميات كثيرة لقطع الأساطيل الغربية مثل (أجاكس) و (آرك رويال) عند الإنكليز و (جان دارك) عند الفرنسيين .

(أطل) ثم (مر) وكأنه فارس على حصان مشهر ، ثم كانت بعد هذا العرض (زمجرة النوتى فوق العلاة)[١] وقصد بها البرج المرتفع فى وسط السفينة الذى يمر الصارى الكبير من أسفله إلى أعلاه ، ومنه يستكشف النوتى طريق البحر ، وما زمجرة النوتى إلا (الأوامر العسكرية) للجنود البحرية وقد صور البحترى نظامهم واصطفافهم لتلقى الأوامر من رئيسهم (الإشتيام) (Ichtyame) [٢] فمثله فى وصفه بأن النوتيين وهم فى حضرته كانوا يغضون أبصارهم وهم فى صفين متقابلين كأنهم وقوف فى سماط انتظاراً لمرور الأمير العظيم فقال :

غدوتَ على الميمون (صبحا) وإنما	غـــدا المركب الميمون تحت المظفر
(أطل) بعطفيه (ومر) كأنمـــا	تشرف من هاذى حصان مشهَّر
إذا زمجر النوتى فوق (عـــلاته)	رأيت خطيبـــاً فى ذؤابة منبر
يغضون دون (الإشتيام) عيـــونهم	وقـــوف السماط للعظيم المؤمر

ثم قفز البحترى من هذا الوصف الهادئ المطمئن إلى مقدمة المعركة البحرية وهى قفزة مألوفة فى عادة شعرائنا الأقدمين ، فى ضيق الذرع وقِصَر النفَس فى الشعر ، فصور كيف اهتز الأسطول لهبوب الريح . فتسلق الإشتيام أعالى الصوارى (ليشد القلاع) صموداً لريح الجنوب العاصفة ، فكأنه على جناح عقاب ، ذاهب فى السماء . ثم ينكفئ هذا الأسطول فى الماء ، فيندفع متلففاً بعبابه ، فكأن الماء أبراد محبرة تلفع بها جسمه .

ويلتفت البحترى بعد ذلك إلى جنود البحر ، فيصفهم بأنهم ملتفون حول ابن دينار ، وهم ركابون للهول معاقرون لكؤوس المنايا ، فيهم دارعون وفيهم حسّر قادة الآلات الذين ليس عليهم الحرب : وإنما هم متخففون من الدروع ومن عائق الثياب ، أمام آلاتهم

---

(١) العلاة فى اللغة سندان الحداد . ومن شكله ذهبت إلى أن البحترى أراد به (برج الصارى) فى السفينة الذى يكون فيه المرصد ومكان النوتى الآمر ، ودليل على ذلك أن البحترى شبه وقفة النوتى فيه كوقفة الخطيب فى رأس المنبر .

(٢) الإشتيام كلمة معربة ولفظها فى الفرنجة (Ichtyame) وقد ورد فى معجم (Augé) الفرنسى أن (إشتى) كلمة يونانة معناها المسيح المنقذ (Christ Sauveur) و (آم) من معانيها الروح والحرارة فكلمة إشتيام التى أوردها البحترى فى وصف من يسمى بها بأنه ذو أمر ونهى ، ينبغى أن تكون وصفاً لرئيس المركب الذى ينقذه ، ويكون له فى البحر بمنزلة المسيح . والكلمة فى أصلها رومية . وذكر معناها صاحب (لسان العرب بمادة شتم) فقال (الاشتيام رئيس المركب) .

يديرونها وكان الداعون ضاحين للعدو والخاسرون فى غير ذلك .

فقال فى هذا الوصف وهو يعنى المركب (الميمون) :

إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى لها جناحا عقاب فى السماء مهجر(١)
إذا ما انكفا فى هبوة الماء خلته تلفع فى أثناء برد محبر
وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسر

وآذن البحترى بوصف (المعركة البحرية) فصور الجنود وهم يميلون (بالنشاب) ، فحيثما مالت أكفهم بحد الحديد مالت المنايا .

ثم باشروا (قذف اللهب)(٢) ، فرشقوا بالنار فأحرقوا السفن وجسوم من فيها ، حتى (شم القتار) وهو اللحم المشوى ، وقد خاطب البحترى ابن دينار كيف صدم بجنوده هؤلاء الصلاد ، جنود البيزنطيين ، أصحاب اللحى الشقراء (صهب العثانين) فكان ضرب جنود المسلمين عليهم كإيقاد النار المشتعلة :

تميل المنايا حيث مالت أكفهم إذا أصلتوا حد الحديد المذكر
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليقلع إلا عن شواء مقتر
صدمتَ بهم (صهب العثانين) دونهم ضراب كإيقاد اللظى المستعر

وقد وصف (شلمبرجة) البيزنطيين والمسلمين فى الحرب البحرية فذكر القذائف النارية التى كان العرب يستعملونها فى أساطيلهم فى العصر العباسى وقد نقل هو هذا الوصف عن المؤرخ Saulcy بأن العرب افتنوا فنا فى القذائف النارية ، لم تعرفه الروم . وذلك أنهم اخترعوا (الرمانة العربية) يصنعونها من الفخار . وكان عندهم ثلاثة أسماء لها . الزيت المحرق ، النار البحرية ، الشعلة الذائبة .

وكانت هذه (الرمانة) تشتعل وهى على سطح الماء وقد تلحق بالجنود السابحين الهاربين(٣) .

---

(١) عصف هذه الريح على أسطول ابن دينار مصداق لما ورد عند المؤرخين البيزنطيين كما نقل ماريوس كنار من أن المعركة كانت محفوفة بالعواصف المهلكة .

(٢) وهو ما يعبر عنه بلغة الفرنجة فى عصرنا (Projectile de feu) وفى لغتنا اليوم (صواريخ نارية) وكان يسمى عند الروم الأقدمين (feu Grégeois) : (النار الأغريقية)

(٣) قلت لعمرى هذا هو وحى (الطوربيد) torpille عند الأمم الغربية المعاصرة . انظر هذه الصور الأصلية للرمانة المتفجرة فى ص ٥٩ من كتاب شلمبرجه .

ويقول (شلومبرجة) إن هذه الرمانة قنبلة كانت تحشى بالنفط يرميها العرب على الأساطيل البيزنطية أو على الحصون المحاصرة ، وهى حين تنفجر تنفذ شعلتها من كل الجهات فى الأسفل كما فى الأعلى فتصدع كل شىء حتى الحجارة ، وأن البيزنطيين صاروا يستعملونها، وقد أثبت هذا المؤرخ صوراً ثانية لهذه (القنبلة العربية) وهى على شكل الجرة الصغيرة ذات فروع وفى كل فرع ثقوب . وأثبت فى كتابه صورا لسفن من الأسطول العربى ، وقد صففت هذه القنابل على أخشاب فيه ، معدة لحملها ، واحدة بجانب الثانية، وفى كل سفينة عدد كثير منها[١] .

ثم يصف البحترى الروم بأنهم أصحاب اللحى الشقراء ، كانوا يسوقون أسطولا لم تلبث سفنه أن تقشعت وتكشفت (كسحائب الصيف) بعضها كان سفناً قوية صلبة ، كالسحاب الممطر ، وبعضها كان سفناً سخيفة كالسحاب الجهام الذى ليس فيه مطر .

وضج البحر بين الرماح المشجرة والسيوف المتراطمة على الحديد ، فكانت هذه الأصوات فى الأسماع مثل أصوات الإبل الهادرة المجرجرة ، وكانت السفن المتقارعة فى هذه المعركة الهائلة تتدانى رؤوسها فكأنها أعناق وحوش نافرة ، كان يؤلف بينها ، ويروض شماسها (أحمد بن دينار). ذلك سحر البحترى فى تصويره للمعركة البحرية حيث يقول عن الروم :

يسوقون (أسطولا) كأن سفينه ... سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم ... إذا اختلفت ترجيع عوْد مجرجر
تقارب من زحفيهم فكأنما ... تؤلف من أعناق وحش منفر

فكان البحترى فى تشبيه ضجيج البحر والرماح بالفحل الصائح، وتشبيه تلاقى المراكب من رؤوسها بأعناق الوحش النافر ، بدوى الخيال لم تصقل الحضارة خياله ، وهو الذى عرف البداوة فانطبعت عليها حداثته .

ويظل البحترى يخاطب فى القصيدة أحمد بن دينار مما يبعث على الحكم أنه أنشده إياها بعد عودته من المعركة ظافراً ، وفى حفل استقباله عند أوبته من غزوة الروم فى البحر .

فيذكر أنه لم يترك المعركة البحرية حتى انتهت الحرب عن أعناق مقطعة ورؤوس مطيرة ، والهام المقطعة تدلنا على أن العرب خالطوا بسفنهم سفن الروم ، فقفزوا إليها وأعملوا السيوف فى رجالها ، فقطعوا رقابهم ، ودليل هذا التقارب قول البحترى بأن ابن دينار نا

(١) الصفحات 56، 85 ، 85، 87 من كتاب (شلمبرجه عن الإمبراطور البيزنطى (نيسيفور فوكاس).

(يقارب الزحفين ويؤلف بين أعناق السفن) والهام المطير هو أثر القنابل الفخارية التى كانت تنفجر فتطير الهام عن الأجسام .

ثم يعلمنا البحترى فى آخر القصيدة ، بأن أحمد بن دينار بن عبد الله فارسى الأصل (ابن كسرى) قديماً وحديثاً ، (فهو يستحق لقب سليل الملوك) وهو بذلك اللقب جدير بأن يصدع صخرة ابن قيصر (ملك بيزنطية) وهو دليل على أن أسطول الروم ، كان بقيادة ابن صاحب القسطنطينية ، وأرى أن هذه الغزوة البحرية التى كانت فى خلافة المتوكل قد حدثت فى أوائل خلافته ، وإبان قوته على الروم تلك القوة التى ورثها عن والده المعتصم ، وعن أخيه الواثق ، فى حوالى سنة (٨٥٠ للميلاد) زمن تيودورة على عرش القسطنطينية أى بعد حكم تيوفيل[١] المعاصر للمعتصم ، والذى كانت فى أيامه وقعة عمورية . وقد ذكره أبو تمام فى رومياته الحربية .

وفى نهاية القصيدة وصف البحترى فرار (ابن قيصر) طائراً على ألواح خشب طويلة مسمرة ، ويعنى البحترى بذلك مركبه المصدوع بعد المعركة وقد ساعدته الريح العاصفة فنجا من الهلاك . إنه لمحتمل فى التفسير لشعر البحترى أن تكون الريح قد عصفت فى إبان المعمعة أو عند انتهائها ، فرضى ابن دينار بهذا القسط من النصر ، فأوقف الحرب وتركها خشية من متابعة الالتحام مع الأعداء وما يجر ذلك من سوء العقبى ، أو أن ابن قيصر نفخت شراعه الريح فطار به مركبه ، فكان بذلك مولى للريح التى أطلقته .

وراح هذا المهزوم الرومى يرمى الموج بنظرة المصعوق المرعوب ، إذ كان يود أن يراه مندفقاً متدافعاً فى ظهر سفينته الهاربة ، يزجيها على يد الريح ، حتى فاز فى فراره متعلقا بأرض الروم الكبيرة ، وفاته الردى الذى كان مسرعا إليه .

وقول البحترى (الأرض الكبيرة) يدلنى على أن المعركة البحرية جرت فى مياه الروم البعيدة عن القسطنطينية ، أى فى مياه الإسكندرية وما جاورها ، إذ تمكن (ابن قيصر) من أن يفر من المياه التى فى أرض الروم الصغيرة ، إلى أرض الروم الكبيرة ، وينبغى أن يكون ابن قيصر هذا هو البطريق الذى كان أمير البحر على أسطول الروم فى معركته مع العرب .

---

(١) حكم تيفيل Théophile من سنة ٨٢٩ إلى سنة ٨٤٢ للميلاد وهو من الأسرة العمورية .

فى ذلك يقول البحترى لابن دينار :

فما رِمتَ حتى أجلت الحرب عن طُلى ... تقطعها فيها وهام مطيَّر
وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... ملياً بأن توهى قناه (ابن قيصر)[١]
جدحت له الموت الزعاف فعافه ... وطار على ألواح شطب مسمر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها ... عليه ومن يول الصنيعة يشكر
إذا الموج لم يبلغه إدراك عينه ... ثنى فى انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما ... تنقصه جرى الردى المتمطر

ولولا ما أعرف من براعة البحترى فى التصور والتخيل ، لجزمت أنه كان فى هذه المعركة البحرية ، كما كان فى وقعة (عقرقس) بأرض الروم .

(١) يشير هذا البيت إلى أن قائد البحر (ابن دينار) من أصل فارسى .

الفصل الخامس

خصائص شعر الحرب فى العصر العباسى

١ – فن أبى تمام فى شعر الحرب

يقول (پول ڤاليرى) : « أنا لا أقول الشعر لكنى أصنعه وأبنيه » . وما أجدرنى بأن أصف أبا تمام بما وصف فاليرى به نفسه ، فأبو تمام فى الشعر صناع بناء ، بل هو فى الألفاظ والمعانى (معمارى ومهندس) .

انظر إلى أبياته ، أى بيت شئت . من أية قصيدة ، تجد ميسمه بادياً ، وطريقته فى النظم متجلية . وفكر فى التصوير الإسلامى إلى عهده تجد (الزخرف العربى(Arabesque) يملأ جدران المساجد ، ويزوق المحاريب ، ويلتف حول الكوى والنوافذ ، فى القصور والدور . وإنك لتعلم أن فن التصوير فى الإسلام ابتلى بعوائق التزمت ، فوجد العرب المصورون منجاة لهم من ذلك بالزخرفة والتلافيف ، والتشجير والفسيفساء ، فكان (التناظر) أساس هذه الفنون فإذا صور مصورهم مربعاً ومسدسين عن يمين ، كان عليه أن يصور مربعاً ومسدسين مثلهما عن يسار ، وإذا خط دائرة من فوق ، لزمه أن يخط دائرة من تحت ، وأن يكون بين الدائرتين من فواصل التلافيف ما يناظر حول خط واحد ، وما يتحاكى فى نطاق الصورة .

من هذا (الفن التناظرى) ، ومن ذلك المذهب فى محاكاة الخطوط كان الطائى صاحب طريقة البديع فى الشعر العربى ، والباعث عليها منذ عهده ، على أن العرب فى جاهليتهم وإسلامهم وإن عرفوا هذه الطريقة ، فإنما كانت تأتيهم على رسلها بغير تكلف ، وكان فى القرآن مضرب أمثال لها ، لكن أبا تمام جعلها دأباً فى الصنعة ، وتعمداً فى القريض فصار بها معروفاً واتُّخذ فيها أستاذاً لمن بعده من الشعراء ، وتلك سنة فى أكثر المذاهب الأدبية أو الفلسفية ، فإنها تنسب إلى من يتخذها دأباً ، ويعتنقها كالدين ، ومثال ذلك فيكتور هوجو فقد نسب إليه مذهب (الرومانطيقيين) والمتقصى لعروق هذه النزعة فى

الأدب العالمى ، يجد أصلها فى الشعر الرومانى القديم عند (كاتولوس) . ثم يراها فى الأدب الفرنسى متسربة فى فن (مدام دوستال) و (شاتوبريان) قبل أن تصير إلى زعامة (فيكتور هوجو) فيحمل لواءها ويهجم بها على المذهب الكلاسيكى حاطماً مياسمه القديمة.

وقد ناقش مثل هذه الفكرة أبو القاسم الآمدى فى موازنته ، بين أبى تمام والبحترى [١] فقال يزعم المحتجون بأبى تمام ، أنه انفرد بمذهب ابتدعه وصار فيه أولاً وإماماً متبوعاً ، حتى قيل هذا مذهب أبى تمام ، ثم قال ويزعم أصحاب البحترى أن هذا الأمر ليس من اختراع أبى تمام ولا كان سابقاً فيه ، بل سلك مذهب مسلم بن الوليد ، واحتذى مثاله ، وأفرط وأسرف . ثم أتبع الآمدى قوله ، بأن مسلماً أيضاً غير مبدع لهذا المذهب وإنما هو موجود فى أشعار المتقدمين .

وإذ كان أبو تمام من طلع الشام فإن طريقته سميت « بالطريقة الشامية » فى الشعر العربى عصر بنى العباس وطبع على غرارها ، الشاميان البحترى وأبو العلاء .

ذلك ميسم أبى تمام ، وقد كان يطبعه فى كل شعره ، وفى فنون قوله ، فإذا درست فنه فى شعر الحرب ، فإنما أدرس إذن فنه فى كل شعره . ولعلى أجد من جرس الكلام فى حربيات أبى تمام ، ما يوافق جرس السلاح وصليل الدروع وخفق البنود والموسيقى العسكرية.

وليس عندى أفضل لدراسة فن أبى تمام فى شعر الحرب من أشعاره التى جعلتُها شواهد للكلام عليه .

فمن فنه فى الشعر الحربى فى بابك أنه جعل يوم أرشق وسيلة (للتناظر اللفظى) الذى دللت عليه فى مذهبه فيقول :

يا يوم (أرشق) كنت (رشق) منية[٢]

ويجعل هذا دأبه فى أكثر الألفاظ التى سميت بها البلاد البيزنطية ، فيقول فى قصيدته عن معارك أبى يوسف الثغرى فى ديار الروم ، وقد ذكر البلدين — (صاغرى وأوقضى وأرض قرة) :

أورثت (صاغرى) صغاراً ورغماً وقضت (أوْقَضَى) قبيل الشروق
كم أفاءت من أرض (قرّة) من قر ة عين وربرب مومـــوق

(١) طبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٢٨٧ هـ ص ٦ .
(٢) أرشق جبل عند البذ . مدينة بابك الخرمى (ياقوت) .

وليس هذا لعباً بألفاظ كما زعم ناس من الناقدين ، وإنما هو (موسيقى لفظية) و (إيقاع بالحروف) ، فبين أرشق والرشق ، وصاغرى والصغار وما فى شبه ذلك تآلف ناغم ، ولحن للكلام ، صاغ أبو تمام أشعاره فيه وساق عليه معانيه وكانت معانيه خالبة فزادت خلابتها .

وطال ما تشوّف نفر من النقاد إلى شعر الغربيين ، وعجبوا للموسيقية التى فيه فلاموا شعرنا ورأوه – كما حسبوا – محروماً هذه الموسيقى ، وفاتهم أن الموسيقى زينة شعر أبى تمام وأضرابه ، وأن العرب عرفوا قبل أولئك الغربيين المعاصرين هذه الموسيقى اللفظية بألف عام .

وكما تكون اللحون متآلفة بالوتيرة ، فإنها تكون متخالفة ومتقابلة . فهى تارة بين صعود وحيناً بين هبوط ، وهى تنساق خلال ذلك بين الدقة والرهافة ، والجسامة والجهارة .

كذلك فن أبى تمام فى شعره الحربى ، فقد يأتى بنغمة على (السينات) يؤلف بين أجزائها بالطباق والمقابلة وبالجناس ، فيقول إن أبا سعيد الثغرى :

فى كماة يكسون نسج السلوقى وتعدو بهم كلاب سلوق
يتساقون فى الردى كأس موت هى موصولة بكأس الرحيق

ثم يقول :

سار مستقدماً إلى البأس يزجى رهجاً باسقاً إلى (الأبسيق)
فحوى سوقها وغادر فيها سوق موت طمت على كل سوق

فهذه خمس عشرة سيناً فى أربعة أبيات ، تسرى فى السمع مثل لحن حربى ، وتنزلق على اللسان فى أنشودة حماسية .

أما فن أبى تمام الولوع (بالأضداد) فى المعنى وفى اللفظ ، فما أحبَّ إلى نفسى أن أبحث عن مرده ومنبعه فى شىء من خلقه وقوام شخصيته ، فقد روى عن مستهل عيشه أنه كان يخدم حائكاً ويعمل عنده بدمشق[١] فوجدت من ههنا عدوى مذهبه فى الصناعة ،

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان تصحيح البارون أوسلان ط باريس سنة ١٨٣٨ جـ ١ ص ١٨٠ ودائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية جـ ١ ص ٣٢٠ .

فإن صناعة الحائك عمل فني يقوم على هندسة الأشكال ، وقد يعمد إلى تصوير الأضداد فى الوضع والتقسيم ، وإذا جرينا مع علماء النفس المحدثين ، وجدناهم يردون أعمال المرء إلى أوائل ما يتمرس به فى صغره ، فكان لنا من نظريتهم هذه مساعد على تعليل السبب فى فن أبى تمام فى الصناعة اللفظية والطباق المعنوى ، وما إلى ذلك من فنون البديع ، ومن هذه الفنون ذكر الشيء وضده ، وتكاد تكون الأضداد أكثر أنواع البديع عند أبى تمام .

وإذا انسابت فى السمع بائيته فى فتح عمورية ، تملك أبو تمام من النفوس الشاعرة فصرفها كما يشاء فنه ، إنه ليشعرها حيناً بحصار عمورية وبهدمها ، مستغلاً ما عندها من الإيمان بالدين ، فيقابل بين معنيين ويجعل الأول علة للثانى ، فيقول للمعتصم :

رمى بك الله برجيها فهدمها   ولو رمى بك غير الله لم تصب

ويهدهد السمع حيناً آخر بازدواج اللحن ومزاوجة اللفظ على أنغام الطاعة لله فيقول :

تدبير معتصم بالله منتقم   لله مرتقب فى الله مرتغب

(وقد أشرت إلى هذه الظاهرة فيما سبق) .

ولا يظهر فنه الحماسى فى اللفظ وحده ، وإنما يتجلى فى المعانى أيضاً ، وكان أبو تمام صائغ اللفظ وصيقل المعانى ، ومتى لف معانيه بالحكمة بالغ فى سحر النفوس ، إنه يقول فى أبى سعيد والروم :

ثلمتهمو بالمشرفى وقلما   تثلم عز القوم إلا تهدما

فطرح فى مطارح الحماسة هذه الحكمة التى لا تفنى ، فما من أمة شق الدهر شقاً فى عزها إلا آل ذلك إلى هدمه وزواله .

وحين ذكر أن أبا سعيد حارب الخرمية فى (البذ) فى بلدة (ميمذ) قبل أن يفر منهم فريق إلى الروم ، أتبعهم بمعركة الروم ، فكنى عن الأمر الأول بالبنان وعن الأمر الثانى بالكف والمعصم ، وهو فى ذلك يذكر الشيء وما يلازمه من فن البديع فيقول :

قطعت بنان الكفر منهم (بميمذ)   وأتبعتهم بالروم كفا ومعصما

وحين يقول :

يتساقون فى الوغى كأس موت   هى موصولة بكأس الرحيق

يذكر الكأس بعد التساقى ولو أنه قال يتساقون فى الوغى الموت لقصر قوله فى حلبة فنه.

وزاد فى إحكام هذا الفن أن وصل كأس الموت بكأس الرحيق فجاء بمعى حماسى لم يسبق إليه ، وهو أن الأبطال وهم يحتسون كئوس الموت يسكرون بها ، فهم هيام بالردى سكارى بالقتال .

ثم أتبع قوله فى الخيل : وطئت هامة الضواحى . . . ثم ألهبتها السياط .

فالضواحى مثل شخوص لها هامات ، قد مرت الخيل على هاماتها فداستها ، وفى هذا تهويل للصورة وتجسيم للخيال ، يزيد أثر هذه الخيل التى يشبه فى جريها الكلاب السلوقية ، عادية ممعنة فى عدوها ، تخفق سنابكها على الحجر كمطارق الحدادين ، وفوقها فرسانها الكماة ، بأيديهم السياط ، نازلين بها عليها ، فتثور ممعنة جارية ، وكأنها السهام المرسلة ، فهى شعلة لاهبة من النار .

وحين بلل أبو تمام حماسته بالدمعة المحرقة ، وراح يسكبها على بطولة الطوسى ويخلع عليه جلابيب الخلود وهو فتى ، قال : إن البواتر اليوم من بعده بتر . فى كلمتين من حروف واحدة يصف أبو تمام الحزن الخالد على البطل الطوسى ، ويلبس السيوف البواتر حداد التثلم فى الضريبة ، والانكسار والخذلان فى الحرب .

ومن يدرى كيف أنشد أبو تمام قصيدته فيه ؟ وأين أنشدها ؟ ، فإن « المداد الذى غمس طرف ردائه فيه ثم ضرب به كتفه وصدره » (١) ، لما بلغه مقتل محمد بن حميد » يدلنى على أن أبا تمام قام عليه مثل (نوّاحة) فإن تعداد كلمة (فتى) فى أول كل بيت خمس مرات ، هو من بكاء الوالهين ، وعويل النائحين .

٢ ــ مياسم عامة لشعر الحرب

لم يحد شعر الحرب فى أدب العصر العباسى الأول ، وفى الأعصر التى تلته حتى أواخر عهد سيف الدولة ، عن جوهر خصائصه التى عرفت له فى العصر الأموى ، فإن آلات الحرب لم يطرأ عليها تغير ولا تطور ، وبقيت المشابهة رابضة على أكثر المعانى ، مما كان مألوفاً قوله فى الحروب السابقة ، لكن حضارة العصر وتمازج العرب بالأمم الفارسية والرومية والتركية ، وفيض الأدب والعلم وعناصر الفلسفة أدى إلى تطور بعيد فى طريق الأداء والتلاعب بتلك المعانى الحربية التى جاء بها الجاهليون والأمويون ، وأفضى ذلك التطور إلى ابتكار معان حديثة وإن تكن قليلة لكنها تعد تجديداً فى أدب العصر الجديد ، وفى

---

(١) هبة الأيام الطبعة السابقة ص ١٤١ .

اتباع أساليب مبتكرة فى الصنعة ، تكثر عند فريق وتقل عند آخر ، ولم تكن فى العصور السابقة مقصودة لذاتها ، مثال ذلك :

١ ــ المعانى الحماسية التى جاء بها حبيب بن أوس الطائى ، فإنه مزج فيها الحكمة بالتصوير الفنى ، وألف بين الوصف وحسن التعليل ، (وقد ذكرتُ فنه هذا فى كلامى على شعر الحرب عنده فيما سلف) .

٢ ــ (الصياغة) فى فن البلاغة ، وهى المزاوجة اللفظية والمطابقة بين الكلام ، والمجانسة بين التراكيب ، مما سنه أبو تمام فجعله صنعة مقصودة لذاتها ، أى أن أبا تمام جعل هذا الفن غاية لفظية فى أكثر أبياته ، مع الحفاظ على المعانى من الابتذال ، وابتكار المعانى الجديدة التى قاضاه عليها الناقدون بعده كالصولى والآمدى ، وقد ورد دليل هذا عند الكلام على شعره الحماسى .

٣ ــ (التزويق) فى الوصف كما عند البحترى ــ إذ أن أبا عبادة زخرف شعره كله ، فكانت حماسياته ــ وهى من جملة شعره ــ مطرزة موشاة بهذا الفن الوسيم .

٤ ــ (التهويل) فى الصورة ، وهو فن أبى الطيب المتنبى ــ كما سيأتى ــ فإنه حشد تهاويل الصور فى أكثر شعره الحربى ، ومزجها بالحكمة وفصل الخطاب ، كدأبه فى كل فنه .

٥ ــ شيوع الحماسة فى وصف الحروب الرومية فى شعر العصر العباسى ، وذلك لضرورة الموضوع ، فإن حروب العباسين مع الروم كانت شغلهم الأكبر ، على خلاف ما كان فى عصر بنى أمية ، وقد التحم العباسيون بالروم فى هذا العصر بحروب متداولة شغلت شعراءهم جميعاً ، وكانت لهم موضوعاً ثراراً ، بينما كان ذلك الشاغل قليلاً فى شعر الأمويين .

كانت حروب العرب مع الروم فى زمن العباسيين سجالاً ، فقال شعراؤهم فيها شعراً كثيراً يصفون فيه وقعاتها بتفصيل وإحكام وتاريخ ، وقد تناولت وصف هذه الحروب الإماراتُ التى انفضت من حول العباسيين حين ضعفوا ، فكانت دولة الحمدانيين زعيمة هذه الحرب المستعرة مع الدمستق وسائر الروم أكثر من نصف قرن ، فقال أبو الطيب قصائد جمة فى الروم ، ووقف الشعراء الحمدانيون شعرهم على غزوات سيف الدولة ، فحمل أكثر حماستها أبو الطيب المتنبى ثم أبو فراس الحمدانى .

وامتد تلاحم الحرب بين العرب والروم ، فجاوز حدود الجوار ، ولم تعد القسطنطينية آخر تخومه الغربية ولا فيها قيادته ، وإنما تجاوز إلى أوربا حتى جر (الحروب الصليبية) أيام

نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، وكان ذلك موضوعاً حماسياً زاخراً (ممزوجاً بالدين) عم الشعراء المتأخرين [١] .

٦ – لئن كان (الخوارج) زمن بني أمية ضرام الفتنة الواعية لتنفيذ فكرة (الجمهورية) فإن (القرامطة) في عصر العباسيين كانوا نأمة العدوان ومنبع الفتن لإشاعة (الفوضوية) ، وقد كانت حروب العباسيين وحروب الأمراء المنفردين لهؤلاء القرامطة ، موضوعاً غزيراً لشعر الحرب في هذا الزمن وفي أيام هؤلاء الأمراء.

٧ – وجود (الشعر الحربي المذهبي) وأعني به الشعر الحماسي الذي قاله القرامطة وبثوا فيه نزعاتهم الدينية الخاصة – وقد ذكرت ذلك في فصل خاص عنهم .

٨ – ضعف النزعة العصبية السياسية في شعر الحرب زمن العباسيين ، بل زوالها في بعض الحماسة المأثورة ، خلاف ما عهد في العصر الأموي إذ كانت السياسة هي التي تسير شعر الحرب .

فقصائد أبي تمام وأبي الطيب وغيرهما من الشعراء في العصر العباسي اتخذت شعر الحرب (غاية لا وسيلة) فكان لأبي تمام وللمتنبي روائع في شعر الحرب خاصة ، بوصف البطولة وتصوير الفروسية ليجعلاها سجلاً شعرياً للحرب مقصودة لذاتها ، فكأنهما مضيا في هذه النزعة على مذهب (الفن للفن) .

ذلك أهم خصائص الشعر الحربي في أدب الشعر العباسي ، مما زاد على جوهره الأصيل الذي كان معروفاً لدى الأمويين ، وثابت الأصول عند الجاهليين .

ملحق
الرمزية والحرب
– ١ –

لا يتباعد معنى الرمزية المذهبية في مفهوم لغات الغرب عن معاني الإيماء والإشارة في مفهوم لغة العرب ، والفرق بين الرمزيتين زهيد في أصوله ، وإن تشعب في فروعه ، فإذا رددنا كلا الرمزيتين الغربية والعربية إلى منابتهما ، تبين لنا أنهما صدرا عن نبع طبيعي واحد هو عدول الإنسان عن التصريح ، إلى التلميح والتلويح ، وتلك طبيعة في كل بيان ، فلقد

(١) راجع كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لشهاب الدين المقدسي .

تكون كامنة حتى يحركها من مكانها ، لسان أو قلم ، فتبدو من خلال الكلام والكتابة فى أبراد شتى . بل الرمزية ظرف كان فطرياً فى الأدب دعا إليه التشويق للأسماع والتملك للأفهام ، ثم صار لوناً من الترف فى الأدب الحديث دعا إليه التعمق فى المعانى والتفنن فى إيراد الصور الشعرية .

وقد كانت الرمزية العربية فطرية فى الجاهليين فكان فى ضرورة بيانهم وعبارات لغتهم أن توجد التشابيه وتراكيب البلاغة الأولى السليمة من التكلف لتخلع على تلك الرمزية الفطرية حلل البهاء والرواء . ولقد كان بمستطاع امرئ القيس أن يقول عن (عنيزة) إنها طويلة العنق ، فعدل عن هذا التصريح الجاف إلى رمزية كنائية محببة للذوق ، مشوقة للفهم فقال : (بعيدة مهوى القرط) ، ولم يكن فى وسع امرئ القيس وكل شعراء الجاهلية وخطبائها إن يجيئوا بعباراتهم عارية جافة ، غير كاسية ، لأن الرمزية كانت فطرة فيهم ، وهى وإن استسرت فى كثير من عباراتهم ، فإنما كانت كالقوة الكامنة فى الفعل ظهرت صاخبة مجلجلة عند ما مد إليها أبو تمام يده السحرية ، فأخرج تلك القوة الكامنة من حيز فعلها فكانت حركة «مدوية» وخلع على البيان العربى من بعده أروع جلابيب الرمزية التى سماها العلماء بلاغة ومعانى . وبياناً وبديعاً .

وقد كان رمز الكلام منذ زهد الإنسان باللفظ الصريح . وليس لآداب الغرب أن تدعى فى مواجهة الأدب المقارن ، أنها بدأت باستعمال الرمز مكان العبارة ، فإن العرب عرفوا الرمز فى لغتهم منذ نطقوا بها فى البادية من أعماق الجاهلية ، بل أقول إن فى لغة العرب من الرمز ما لا وجود لمثله فى لغة ثانية ، قديمة أو حديثة ، فكل عبارات العرب التى أغنى بها علماء البلاغة باب المجاز والاستعارة والنكاية ، داخلة فى باب (الرمز الصرف) فإن طول الفارس حين يقف بقامته السامقة رمز له العرب بعبارة (طويل النجاد) ، ورمزوا لكرم الجواد بقولهم (كثير الرماد) ، وبذلك رثت الخنساء صخراً أخاها ، وإذا قلتَ رأيت شمساً ، وقصدت بها الحسناء ، أو قلت أبصرت فيلا ، وأنت تعنى رجلاً ضخماً ، فإنما أجريت الرمز فى أدب كلامك من حيث لا تدرى .

إن الذين يؤثرون فى نهضة أدبنا المعاصر أن يدخلوا على هذا الأدب الرمزية مخطئون ، لأن الرمزية بين أيديهم فى شعر العرب وأدبهم ، وكان الرمز طرفة التجديد منذ استعمله الإنسان . إن أهل فلورنسا حين ملوا من اسمها القديم أسموها (الزنبقة) ورمزوا إليها بزنبقة

حمراء ، فلما كتب أناطول فرانس روايته عنها ، ووصف فنها وآثارها ، وأجرى قصته فيها ، وسماها بهذا الاسم أيضاً . وكان الفرنسيون يرمزون لمدينة باريس (بمركب) كناية عن أنها أبداً تجرى فى بحر الحضارات .

وليس يبعد عن هذا الرمز الغربى ، ما عرف العرب من رموز فى تسمية مدنهم ، فدمشق سموها (الفيحاء) لأن فيها الغوطة والأنهار ، وسموا حلب (الشهباء) ، وأراد الأندلسيون مثل ذلك عند ما قالوا (الزهراء) وكان العرب فى هذه الرموز التى خلعوها على مدائنهم وقصورهم ، (خياليين أصحاب معان) ، ولم يكونوا كالغربيين فى تلك التسمية الرمزية لمدنهم وقد سموها برموز (مادية) .

يقول (بيير كورنيه) بلسان أحد ابطال رواياته « وأخيراً تركت الثوب فى سبيل السيف » ، وهذا رمز معناه فى لغته (تركت لباس الحكام لأكون من رجال العسكر) .

وكان اليونانيون يعنون بكلمة (Sumbolon) [1] الكلمات والإشارات المستسرة ، وكانوا يستعملون الصور والأشكال رمزاً للشبهات بها وهذا ما صنعه لافونتين حين أشار إلى الجاحد (بثعبان مقطوع الرأس) فى القصيدة العاشرة من مجموعة قصائده الخرافية .

ولم يمض العرب عن ذلك بعيداً فى فن الرمز ، فرمزوا (للفتنة المستكينة بثعبان نائم) .

ولا أرغب فى الاستقصاء فإن الرمز فى كثير من كلامنا وكلام الأمم . وأراه فى منبته من وحى الدين ، فقصة إبليس فى دخوله إلى الجنة متمثلاً بالأفعى رمز لا سابق له ، وما يقوم فى الأذهان معنى لكلمة إبليس إلا أن تكون الأفعى الصورة الأولى من هذه المعانى ، وقد استقر فى مصطلح الرموز أن يكون المنجل رمز الحصاد أو الموت ، والميزان رمز العدل ، والعلم رمز الأمة ، وراحت الألوان تحمل فى ملامحها كثيراً من الرموز .

أخذ العرب نصيبهم من كل ذلك فكان لهم العقاب فى الجاهلية وهى راية عهد بها إلى أبى سفيان ليحملها على رؤوس قريش فى زحمات القتال ، وكان اللون لهم رمزاً ، فالأحمر رمز المضريين ، والأسود رمز العباسيين .

وكثر الرمز فى كلام الشعراء وأعمالهم ، فكان (برناردان دوسان بيير) يقول ، « إنى أحمل زرا من الورد مع شوكة » ، وهو يرمز إلى أمله الممزوج بكثير من المخاوف » .

---

(١) Symbole بالفرنسية .

فأذكرتني هذه المخاوف بطيرة ابن الرومى ، فقلت إن طيرته (رمزية خاصة) دبت ألوانها فى شعره ، أفلم يسكب رمزيته الفنية على العود فى حضن المغنية (وحيد) فجعله طفلاً يرتضع منها ، وكانت رمزيته هذه لا تفارقه فى شعره وفى قوله وفعله ، حتى مات فكان وهو يجود بنفسه يسمع العصافير فى دوحة مجاورة لبيته ، فقال لآخر عواده « إن العصافير تقول سيق سيق ، وهأنذا فى السياق » .

وقد تذكرت رمزية المصريين الأقدمين حين رأيت ، (شاتوبريان) يقول فى أول كتابه (عبقرية المسيحية) ، « إن السر طبيعة إلهية ، ولذا فإن أوائل الآسيويين ، كانوا لا يتكلمون بسوى الإشارات » .

فقلت علام لم يقل (الفراعنة) فإنهم أعم شهرة وأبعد عهداً فى الدهر بالكتابة والإشارة فلغتهم دنيا من الرموز الصافية ، ومن يدرى لعل لغتهم كانت أصواتاً مشابهة للرسوم ، على أن عالم المصرية (ماسبيرو) لم يسمعها منهم ، ولا استطاع (شامبليون) الذى اكتشف ، كتابتها بالمقارنة مع كتابات عتيقة إلى جانبها على حجر وجده فى بلدة (رشيد) حين جاء مع نابليون فى غزاته لمصر – أن يعرف كيف حال النطق بها وما صوت كلامها المرموز .

ولم يكن الرمز مقصوراً على قدماء المصريين ، فقد أثر أيضاً عن الهنود ، وامتلأت به الميثولوجية اليونانية .

وحين ارتقى الفكر الإنسانى وتمرس بالمعقولات صارت الرمزية تعبيراً فلسفياً ، فهى حالة الفكر واللسان اللذين لايعبر بهما عن الأمور إلا برموز . ومن ههنا أرى إخوان الصفاء جعلوا الرمز وسيلة إلى غايتهم الفلسفية فى التعبير والكلام . وهذا مصداقه فيما قاله (ديديرو) فى القرن الثامن عشر حينما تكلم عن الفيلسوف فيثاغورس : إن فلسفته سرية ورمزية ، واضحة لأناس معماة على آخرين .

ومن ههنا أيضاً تصفى كلام الصوفيين ، فكان لفظهم إيماءات عبروا بها عن خوالج الشطحات ، وقد صار لهم من جراء تتابعهم – ناساً بعد ناس – مذهب للتجلى ، ولهم معجم خاص برموزهم وإشاراتهم ، وهو وإن يكن معجماً غير مكتوب على نحو المعاجم التى نعرفها ، لكنه مسطور فى ضمائرهم ، وإذا لم يحذقه حذاقه كانت الصعوبة فى فهم أشعارهم ومقولاتهم الصوفية .

ولقد وجدت الرمزية المذهبية على النحو الذى عرفها فيه (فيرلين وبودلير) وأشياعهما

قريبة الصفات والغايات من الصوفية الإسلامية . فإن الرمزية التى أبدعها فيرلين فى تاريخ الأدب الفرنسى وكانت نقضاً للحركة البرناسية فى هذا الأدب [1] قائمة على (كلام المعانى خلف كلام المبانى) . لقد كان (فيرلين) وصحبه حريصين فى شعرهم على أن تكون تلاوين معانيهم تبعد شيئاً بعد شىء وذلك بأن جعلوا معانى عباراتهم غير محدودة ، وإنما هى منشورة الأطراف مذرورة متدرجة من اللون الصبيغ إلى اللون الناصل الضائع . فهم أبداً لا يخرجون دخائل نفوسهم إلى خوارج كلامهم ، فيكون لخلجات الخيال مكانة فى الأثر الذى يؤثر عنهم ، وكانوا يحرصون فى أن تشف عباراتهم عن الأسرار الروحية المتناهية فى دقتها جاعلين الموسيقى اللفظية هدهدة لتلك المعانى الشفافة .

وما ذكرت موسيقاهم هذه اللفظية ، إلا مرت بالخاطر نغمات النايات الصوفية موسومة بصنوجها ، مواجة بهفهافها على قصائد ومقطوعات لمحيى الدين بن عربى ، وللشيخ عبد الغنى النابلسى .

وإن (بودلير) الذى سكب خمرته فى كؤوس الرمزية فغنى بها أشعاره الرقراقة فى (زهرات الشر) يذكرنى – على شقائه وبلائه فى نعيم الدنيا – بالخمرة الصوفية المعتقة التى سكبها ابن الفارض فى أشعاره الرمزية الملهمة فسكر بها من قبل أن يخلق الكرم وتسكب الدنان .

* * *

فلا يذهبن إذن ذاهب إلى أن الرمزية تجديد فى أدب العرب المعاصر ، فإن فى أدبنا العربى رمزية كبرى هى كالكنز الدفين فى أطباق الكلام ، وإنها لتحتاج لمن يكشف عن بدائعها للناظرين .

وإذا كان فى الأدب الغربى (فيرلين) و (بودلير) أعظم من رمز فى القرن التاسع

---

(١) البرناسية مذهب البرناسيين وهم فرقة (الكونت دوليل) وفيهم سوللى برودوم وفرانسوا كوبيه وجوزى ماريا دو هيريديا ، وكلهم شعراء فرنسيون من أواخر القرن التاسع عشر فى فرنسة وجد أدبهم فى بحران التأثير الإبداعى ، والوجدانى (الرومانتيك والليريك) فقلب الادب وفن البلاغة والكتابة ، وكان مرام البرناسيين أن يكون الشاعر غير شخصى فى شعره Impersonnel فكانت نزعتهم الكبرى تزويق الديباجة إلى حد أقصى وقلة العناية بالرواء الروحانى ، كانت كلماتهم جلجلة بغير موسيقى ، وبغير فكر . وقد تبسط (دوميك) النقادة الفرنسى فى تحليل مذهبهم فى كتابه : Histoire de la litterature française. Par René Doumic الطبعة الحادية والعشرين سنة ١٩١١ إصدار المكتبة الكلاسيكية بباريس ص ٥١٢ .

عشر فى الأدب العالمى ، وكان الشاعر الألمعى (بول فاليرى) [١] شيخ الرمزية المعاصرة فى أوربا ، فإن عندنا جبار المعرة (أبا العلاء) وفى شعره من الرمزية ما لاحد لوصفه ورصفه ، وكم أرى من الرمزية الفنية الصافية فى بيته الذى يقول فيه :

لبثتُ حول المـــاء من سغب   إن غربى ما له مـــرس

فقلت إن الماء حقيقة الوجود ، والسغب عطش العقل الذى ما زال ظامئاً يبتغى ارتواء من معرفة سر الوجود. والغرب السّجْل ، هذا العقل الذى رُكب فى رؤوس البشر ولكنه محدود ناقص لا يستطيع أن يعرف ما خارج حده وما بعد نقصه ، والمرس وسيلة الوصول إلى حل قضية الوجود .

فالمعرى يلوب حول سر الدهر من طول شوقه إلى المعرفة ، ولكن عقله لا يوصله إلى بل الغليل .

وإن يكن (بول فاليرى) فيما أثر عنه من رمزية ممعنة قد مزج رموزه بالفلسفة ، فإن أبا العلاء لم يقصر فى ذلك ، وإن كان بيت فاليرى فى قصيدة (المقبرة البحرية) الذى يقول فيه :

زينون ، يا زينون القاسى ، زينون الإيليائى .

يدعو إلى معرفة زينون اليونانى ومذهبه فى فلسفة السكون والحركة ، فإن أبا العلاء دعا فى كثير من أبياته إلى معرفة فلاسفة أقدمين بحثوا فى العدم والفناء والنفس والروح ، ومن لأبى العلاء بمن يظهر رمزية شعره على النحو الذى أظهر فيها علماء الأدب الغربى رمزية الشعراء ؟

— ٢ —

كان عرب الجاهلية إذا حزبتهم الحرب عصبوا لها رؤوسهم بالسواد . فعل ذلك امرؤ القيس حين وثب بنو أسد على أبيه حجر ، وقد أتته وفود القبائل المعادية تعرض عليه الصلح والفداء . وطلع عليها وعلى رأسه تلك العصابة السوداء ، وعصب الرأس على هذا النحو

(١) بول فاليرى P. valery أكبر شعراء فرانسة فى العصر الحاضر توفى سنة ١٩٤٥ وأشهر قصائده الرمزية (المقبرة البحرية ، وأنشودة الأعمدة) وكان ذا مذهب فلسفى الرمزية يكتب للخواص دون العوام بل يكاد يكتب لأنداده ، وأصحابه ، ولقد كانت رمزية (فاليرى) حفية بالمادة اللفظية أكثر من حفاوتها بالمعانى وكان الشعر عنده كالهندسة والبناء .

كان عند الجاهلين رمزاً للحرب .

وفى حروب على ومعاوية ، رفع قوم معاوية المصاحف على رؤوس الرماح ، فكان فعلهم هذا رمزاً حربياً يدعو إلى تحكيم كتاب الله فى أمر السلاح ، كذلك بدت الرمزية عند العرب فى اللفظ والتعبير على سنتها ومذهبها فى دنيا الأدب وعالم البيان .

ولكن أين الرمزية الحربية فى الشعر العربى ؟

١ – يقول عبد الشارق بن عبد العزّى الجهنى أخو (جوين) الذى كان له القتل زينا.

فلما لم ندع قوساً وسهماً ... مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألوء مزنة برقت لأخرى ... إذا حجلوا بأسياف ردينا

والحجل عند العرب مشى المقيد ، والرديان مشية فوق الحجل ، فكانت رمزية الجهنى الحماسية رمزية طبيعية غير متكلفة بعامل الفن ، إنه أعرابى مطيل النظر إلى السماء ، وما غير الأعرابى الذى يسبح طرفه فى تقلب السحاب يستطيع أن يعرف تلألؤ الغادية ، وبرق المزنة ، فلقد شاهد فى طويل ما رعت عينه السماء ، أن البرق يلمع فى سحاب جون ، فيتلألأ ثم لا يلبث أن يسرى ذلك البرق ، حتى تجاوب سحابة ثانية باللمع والبرق ، وكانت السماء حين يهيج برقها ويجلجل رعدها ، لا تقل شأناً فى الجلبة والرعد عن الحرب التى يعرفها الشاعر على الأرض فى حلبتها وقعقعة سلاحها ، فطاف به خيال رمزى جعل الكلام فيه أعز وأغلى فى الاستعارة والتمثيل والتصوير من أن يقول : لما لمعت سيوف أعدائنا فى وهج الشمس على كتائبهم ، جاوبناهم بلمعان سيوفنا على كتائبنا ، لكنه اتخذ الرمز بديلا وجعل صدر البيت كله رمزاً مصوراً لخاطره وشافياً لخياله ، وجعل بقية البيت انتقالاً من الرمز الذى حل محل التصريح والتوضيح ، إلى صورة ثانية من مشى العسكر بعضهم إلى بعض ، قبل الالتحام ، فى بطء وحفاظ ، وخفة وحذر .

قد تكون الرمزية فى الشعر القديم فطرية عند بعض الشعراء ، أو رمية من غير رام عند البعض الآخر ممن وجدت عنده ، لكنها فى شعر العباسيين مقصود إليها ، وقد يحمل عليها التعمد أو تكون من فنون الصنعة .

تكثر المعانى الرمزية عند أبى تمام ، ومن استقصى شعره الحماسى وجد عنده من الرمز الكثير ، لننظر قصيدته فى بابك الخرمى ، وقد غدا إلى حربه الأفشين فأسره فى أيام المعتصم وكان بابك قد قتل الناس ، واعتصم فى مدينة (البذ) فى جهات خراسان ، وجاء به

الأفشين إلى سامرا مغلولاً وفى رجليه أصفاد ، فحمله على الفيل المشهر ، فنظر أبو تمام إلى هذه الصورة التى جاء عليها ضبع خراسان ، فألبسه برمزه (طوقاً من دم) تلقاء طوق الخلاخيل الحديدية ، التى دارت حول رجليه . فطوق الدم رمز لما سكب من دماء القتلى ، وقد جعله أبو تمام سبباً إلى طوق من دم ، سيدور حول عنقه بيوم الدين فقال :

متلبساً للموت (طوقاً من دم) لمـــا استبان فظاظة الخلخال

وتظهر الرمزية عند أبى تمام حيناً ملونة تتخذ من الألوان كلاماً كقوله :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فالأحمر رمز حماسى للدم . فصور (الطائى) (الطوسى) مجلبباً بثياب حمر وعنى بذلك تلطخ جسده بالدم ، فلما جاء عليه الليل وهو طريح فى فلاة المعمعة استحال اللون الأحمر الذى كان دليلاً على حربه إلى لون سندسى أخضر وهو (رمز النعيم والجنان) فأراد بهذه الرموز بديلاً من أن يقول لبس فى موته عوضاً عن ثياب الدم ، ثياب الخالدين فى جنات النعيم . (ولقد عرضتُ لتحليل هذه القصيدة الحربية عند الكلام على شعر الطائى فى حماسة هذا العصر) .

لم يعلم علماء البلاغة بهذه الرمزية الطائية ، وإنما جعلوها نوعاً من أنواع البديع المسمى عندهم بالتدبيج وهو ضرب من الطباق البديعى تزدحم فيه الألوان للكناية أو التورية ، ولو عرفوا أن الكناية والتورية هما من فن الرمز فى الأدب الغربى لجذلت نفوسهم لهذه السابقة فى علم البلاغة العربية .

والظاهر أن أبا تمام — وقد ملك على ناصية الألفاظ الموسيقية — كان يقصد إلى الرمز وإذا كانت الموسيقى اللفظية من خصائص أدب الرمز فإن شعر أبى تمام كله ألفاظ موسيقية ذوات جرس . وقد سماه علماء البلاغة العربية (بالجناس اللفظى) . وقد مزج أبو تمام جرس السلاح بجرس الكلام فى قصائده الحماسية فجمع بين اللحنين وألف بين هذه الموسيقى . فشعره الحربى هسيس سلاح ، وصلصلة كلام ، ووسوسة حروف مؤتلفة اللحون كما فى الموسيقى من ائتلاف التناغيم .

ويدل على بلوغه قمة الفن الموسيقى فى كلام الشعر مثال واحد من تآلف السينات فى قوله ببعض شعره الحماسى :

بسنة السيف والخطى من دمه　　لا سنة الدين والإسلام مختضب
إن الأسود أسود الغاب همتها　　يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب

ولو تتبعنا ، لوجدناه يوالف بين الصادات ، والميمات ، والنونات فى طور موسيقى « غريب » .

أما ابن الرومى فأحسب أنه ظل يرمق بيت أبى تمام الذى أشرت إلى الرمزية فيه ، حتى قال بيتاً يشبهه فى رمزيته ومعناه ، حين رثا بطلاً صريعاً لبس حلة الدم .

كسته القنا حـلة من دم　　فأضحت لدى الله من أرجوان

فلم يجىء بيت ابن الرومى ، وهو الآرى فى تصوره وخياله ، أروع من بيت أبى تمام ذى الطبع العربى ، وقد يستعين ابن الرومى بالرمزية فى هجائه فيكون الهجاء عميق المعنى كما هجا ابن أبى طاهر بقوله :

رأيتك (تنبحنى) سـادرا　　كفعلك بالقمرِ البـاهر

فإنه ليقع فى الذهن أن ابن الرومى يقول لابن طاهر : إنك تذمنى كما تذم شعاع القمر ، فمن عادتك ذم كل ناضر باهر ، والرمز فى البيت أن ابن الرومى — وهو الممعن فى معانى الهجاء ، جعل ابن طاهر كلباً ، لأن من عادة الكلب أن ينبح النجوم وينبح القمر ولكن ابن الرومى ، كغيره من شعراء العرب الذين مرت فى بلاغاتهم صور رمزية غير مقصود إليها ، لم يخل بيته من (رمزية صرفة صافية) ، ولو فعل لأبدل كلمة (تنبحنى) بتقدحنى فقال :

رأيتك (تقدحنى) سادرا　　كفعلك بالقمر الباهـر

وحين أرسل شاعر الطيرة على ابن طاهر بيته الثانى ، إرسال النبال استعمل فيه (القسى) الشديدة القتل (رمزاً) لقوارص هجائه فقال :

وإن قسى لمـبرية　　بـكل أمين القوى حـادر

ثم أمعن فى رمزية هاجية حين قال فى بيته الأخير :

فلا تخش من أسهمى صائبا　　ولا تأمنن من العـائر[1]

---

(١) السهم العائر الذى يقع طائشاً .

فجعل أسهمه صائبة ، ثم قال : لا تخش منها . وهذا (رمز متناه فى دقته) معناه أن ابن طاهر وهو الواقع عليه السهم صائبا ، ليس يصيبه السهم ولا يقع فيه ، لأنه (هباء) فلا عليه من هذا السهام الصائبة .

وأما أبو الطيب المتنبي فإنه استعمل ألفاظ الصوفية فى بعض معانيه الحماسية ، وقصائده الحربية لا تخلو من رموز ، وقد عاب عليه صاحب (يتيمة الدهر) [1] استعمال كلمات الصوفية المعقدة ومعانيهم المغلقة » .

وقد حسب الثعالبي أن تتابع الحروف فى قول المتنبي (لها منها عليها) وهو يصف فرسه ، طريقة صوفية فى التعبير :

وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة　　　سبوح لها منها عليها شواهد

ولست أرى غير كلمة (سبوح) مواتية للرمز . أما قوله (لها منها عليها) فما فيه شيء من روح الصوفية التى تخيلها الثعالبي :

ولكن الرمز كل الرمز فى شعره الحربى حيث يقول فى قصيدته بسيف الدولة حينما أم ديار مضر لاضطراب البادية ثم ارتد على الروم :

لقيت بدرب القلة الفجر لقية　　　شفت كبدى والليل فيه قتيل
وخيل براها الركض فى كل بلدة　　　إذا عرست فيها فليس تقيل
على طرق فيها على الطرق رفعة　　　وفى ذكرها عند الأنيس خمول
سحائب يمطرن الحديد عليهم　　　فكل مكان بالسيوف غسيل

رمز أبو الطيب إلى شفاء الكبد بلقاء الفجر ، وما شفاء كبده إلا بطول السرى وتحمل الشوق فى فراق الحبيب ، ولكن ما هذا الفجر الذى لقيه أبو الطيب حتى شفى كبده ؟ إنه السيف ، سيف الأفق المحدودب بانحنائه الأبيض ، وهو السيف الذى ضرب النهار به الليل فصدعه وقتله .

ثم رمز فى البيت الثانى ، فجعل الطرق التى تدوسها خيل سيف الدولة ، طرقاً فيها رفعة على غيرها من الطرق . ومن أين لها تلك الرفعة وكل درب طريق ، ولكن خيل سيف الدولة إذا مرت بأرض باتت بعدها الأرض مختالة ، وهى خيل إذا ذكرت عند الإنسان جملت

---

(١) يتيمة الدهر طبعة ، إسماعيل الصاوى بمصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١٤٥ .

ذكر الإنسان ، لأنها أعز منه قدراً وأبعد بأساً ، وأبقى ذكراً (لمآثرها الحربية) .

ثم رمز فى البيت الأخير إلى الخيل (بالسحائب) لأنها وهى تعدو يكاد يحسبها الطرف مرتفعة عن الأرض ، وقد أمعن فى رفعها خيال أبى الطيب فجعلها بمنزلة السحائب ، ورمز إلى الفرسان على ظهورها بالحديد . . .

وقد عرف الرمزية الحربية بعض شعراء الجاهلية كزهير بن أبى سلمى فإنه نبه إلى ويلات الحرب بطريق الرمز فقال عنها :

متى تبعثوها تبعثوها ذميمـــة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها ... قرى فى العراق من قفيز ودرهم
فتغلل لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمـــر عاد ثم تلقح فتتئم

ويلاحظ تآلف الضاد فى عجز البيت الأول . وعلى موسيقى اللفظ يقوم فن الرمزيين ، وقد وفق زهير إلى هذه النغمة الموسيقية الحماسية ، وأحسبه وهو المتأنق فى لفظه ، الحولى فى قصائده ، قد جاء بها تعمداً فخرج على سجاحة الجاهليين .

ثم استعمل الرمزية فى البيت الثانى بأسلوب التهكم ، وكان يعرف قيمة (الغلال) عند العرب وهم فى واد غير ذى زرع ، فذكر كلمة (تغل) ثلاث مرات فى بيتين ، لكنه صدمهم بتهكمه واستهزائه ، حين رمز إلى ويلات الحرب والخطوب بالقفيز والدرهم تهويلا للامتلاء ومبالغة بالكثرة ثم زاد التهويل فى البيت الذى يلى بغلال من نوع آخر ليس نباتاً ، وإنما هو إنسان وحشى مشؤوم يشب ويكبر ويتزوج ، وينسل فيسد على المتحاربين فى (حرب داحس والغبراء) عرض الصحراء والوحوش الحمر الرهيبة .

وكل ذلك رموز حربية متعاقبة فيها بتهاويلها ليحبب زهير بن سلمى السلام إلى العرب ولو سبق الدهر بجائزة نوبل للسلام ، أو كانت حرب داحس والغبراء فى عصرنا ، لحاز جائزة السلام زهير بن أبى سلمى . إذ كان يدعو إلى السلم وحقن الدماء فى دعوة لا تقل فى نفع الإنسانية عما عند الغربيين فى هذا العصر من دعاة السلام فى عصبة الأمم المنقرضة ، ومجلس الأمن الحديث . ولقد كان زهير فى أعماق الدهر يدعو إلى سلم نبيلة صحيحة غير السلم التى يدعو إليها دعاة السياسة الغربيون ، ويريدون بها سلب الأمم الضعيفة حقوقها أو إعداد العدة إلى حرب جديدة ، تكون أشد هولاً على الإنسان والعمران ، بنكباتها وفجائعها .

البابُ الثالِث

شعر الحرب فى ظل الحمدانيين

الفصل الأول

الدولة الحمدانية

١ – قيام الدولة الحمدانية

قامت الدولة الحمدانية فى الموصل ، ثم فى حلب زمن الخليفة العباسى المقتدر حوالى سنة ٣٠٢ للهجرة أى فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى . وأسرة الحمدانيين أسرة نبيلة عريقة الأصول من أشهر البطون العربية ، يرتفع بها النسب إلى الجاهلية ، ولعل فروسية أهليها وشغفهم بالشعر والأدب نزعة سرت إليهم من جدهم الأعلى فى الجاهلية الفارس عمرو بن كلثوم .

إنهم تغلبيون أقحاح نشؤوا من بلدة (رَباح) فى العراق ، وكانت أيام دولتهم فى النصف الثانى من حكم قسطنطين السابع إمبراطور بيزنطة ورومان الثانى من بعده ثم نيسيفور فوكاس . وكان جد الأسرة الأقرب هو حمدان بن حمدون العدوى . فكان من حفدته (سيف الدولة أمير حلب) وأخوه (ناصر الدولة أمير الموصل) .

وقبل أن ينفرد الأخوان الحمدانيان بالإمارة والسلطة كانا من قواد الدولة العباسية . وقد قيض لهما حظهما المقرون بالرأى والشجاعة أن يتبوآ لدى الخلفاء العباسيين المقتدر والراضى والمتقى أعز مكانة ينزل فيها القواد العظام . فقد أسكتا نأمة الفتن التى قام بها عصاة الدولة حتى خلع الخليفة المتقى على الأمير الحمدانى أبى محمد الحسن لقب (ناصر الدولة) وعلى أخيه على لقب (سيف الدولة) [١] ، وبلغ من تكريمهما لنصر الدولة العباسية أن أمر الخليفة بضرب اسميهما على الدنانير والدراهم .

وروى أميد روز Amedroz فى تعليقه على كتاب (تجارب الامم) لأبن مسكويه وكان هو الذى قام بنشره [٢] « إن سيف الدولة ورد بغداد وهو راكب فرسه وبيده رمحه ،

(١) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء الحموى ج ٢ ص ٨٩ الطبعة الحسينية ، وشلمبرجة فى كتابه عن تاريخ الإمبراطور نيسيفور فوكاس ص (١١٩) .

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٣٩ هامش . وقد وصفت هذا المصدر القيم فى هذه الرسالة . هامش .

وبين يديه عبد له وقد قصد الفرجة وأن لا يعرف فمر بشارع دار الرقيق على دور بنى خاقان وفيها فتيان يطربون فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وقد خدموه فاستدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ففتحوا الدواة فإذا فى الرقعة (ألف دينار على بعض الصيارف) فعجبوا وحملوا الرقعة وهم يظنون أنها ساذجة فأعطاهم الصيرفى الدنانير من فوره ، فسألوه عن الرجل فقال ، « ذاك سيف الدولة بن حمدان » .

وقد زاد عجبى لهذا الخبر الذى رواه أميد روز عن كتاب التكملة [1] فعرفت منه أن مكانة سيف الدولة لدى العباسيين كانت كريمة عظيمة . وأنه كان معروفاً شائع الشهرة فى بغداد . وأن الشعب عامة كان به سامعاً ومعجباً بفروسيته ونصرته ، وقد ورد فى هذا الخبر أن سيف الدولة خرج مستخفياً (Incognito) كما يقول الغربيون . وفيم يفعل ذلك لولا أنه كان ذائع الشهرة عند جميع البغداديين خاصتهم وعامتهم . وناهيك بتألق شهرته وانبساط معرفة الناس به ، هذا الصيرفى النقار العيار الذى عرف توقيع سيف الدولة فدفع الدنانير فى الحال والوقت نفسه كما جاء فى هذا الخبر العُجاب ، وقد دلتنى هذه الرواية أن نظام الحوالات والسفاتج كان معروفاً لدى العباسيين ، كما كانت عندهم دور الصيارف .

إذن قامت الدولة الحمدانية الشرقية فى الموصل فى ديار أهليها العراقيين ، فلم تكن طارئة أو غاصبة ، وقامت الدولة الحمدانية الغربية فى شمالى سورية بالفتح والحرب ، فقد كان ملك الإخشيديين قد بلغ إلى أعالى سورية فشد سيف الدولة عليهم بجمعه ، وكان ذلك أوائل طلوع نجمه فى الفروسية والشجاعة فاستولى على حلب وسائر الثغور الشامية ، وكان فى إمارته حصن الغرب أنطاكية وحصن الجنوب حمص . وكان راغباً فى مد سلطانه إلى الجنوب حتى دخل دمشق وسرعان ما خرج منها . ولم يكن فى فاتحة عمله الحربى إلا داعية للخليفة العباسى وظل محافظاً على صلته هذه بالعباسيين التى لم تتعد الاسم لكنه بقى مستقلاً فى دولته الخاصة وشغلته عن العباسيين بعد تأسيس دولته حروبه الطوال مع البيزنطيين التى أخذت منه طول الحياة حتى قال فيه أبو الطيب فى رسالة إليه بعد مفارقته :

أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم   فعلى أى جانبيك تميل

---

(١) هو تكملة تاريخ الطبرى لأبى الحسن بن عبد الملك الهمدانى من مخطوطات المكتبة الأهلية بباريس .

٢ ـ سيف الدولة ورجال دولته

لا نستطيع أن نتمثل عصر سيف الدولة فى حروبه وفق ما تقضى الدراسة الحديثة إلا إذا درسنا التاريخ البيزنطى فى القرن العاشر للميلاد ، فإن الكلام على سيف الدولة وعصره الحربى لم يبق مصدره فى كتبنا العربية فحسب ، وإنما ثمة كتب ألفها البيزنطيون ، ونقلها الغربيون ، ذكروا فيها سيف الدولة أمير حلب كما كانوا يذكرون أباطرة القسطنطينية ، وكتبوا عنه وعن حروبه ورجاله ، ووصفوا حلب وما والاها كطرافة ما كتب العرب ، بل لم أجد إلى اليوم كتاباً عربياً وقفه صاحبه على سيف الدولة وعصره مثلما وقف المؤرخ شلمبرجه كتابه الكبير الذى سماه : « نيسيفور فوكاس الامبراطور البيزنطى [١] » فى القرن العاشر ، وقد تقصى المصادر البيزنطية والمخطوطات العربية التى لم يصل أكثرها إلى أيدى العرب المحدثين ، وتنخل الكتب العربية القديمة حتى استخلص تاريخ سيف الدولة فى كتابه النفيس هذا وقرن سيف الدولة بنقفور الروم ، فأبان أن كلا منهما كان موازياً للآخر فى حروبه وجلاده ، وكان خصما عنيداً لا يفتأ يهدأ من الوثوب على عدوه حتى يعود فيثور أشد ضراوة وأبعد فتكاً .

وقد نقبت فى كتابه وتتبعت حوادث سيف الدولة فيه ومضيت إلى ذلك متتبعاً قصائد المتنبى فى ديوانه التى نظمها فى حروب سيف الدولة مع الروم . وكنت أتقصاها حرباً حرباً لأستطيع أن أحصل على تحديد دقيق ووصف زمنى لما لابس حوادث العرب فى حوادث الروم فى تلك الفسحة من الزمن الذى كان يقتتل فيها سيف الدولة مع نيسيفور عاهل الروم. إن الشخصية العبقرية التى كانت لسيف الدولة ، لا يستطيع التاريخ مهما جار كاتبوه أن ينقصوا من أطرافها شيئاً من مزاياها الرائعة ، ولو أن سيف الدولة كان جرمانياً أو من الرومان لنسج له مؤرخو تلك الشعوب سجل تاريخ مذهب الحروف فإن أمثاله فى البطولة والذكاء وكرم الطبع وبسطة العلم كان نادراً عند الفرنجة .

---

(١) Gustave schlumberger (Un Empereur Byzantin au dixième siècle ."Nicephor Phocas"
طبعة معهد باريس سنة ١٨٩٠ . وقد وقف شلمبرجه علمه التاريخى على تاريخ البيزنطيين والعرب وكان قبل فاسيلييف معدوداً من أوائل الأعلام الذين ألفوا فى هذا الصدد . وكان من أعضاء المعهد الفرنسى المسمى Institut وهو مجمع الأكاديميات الخمس .

ولم ينهض أحد بتسجيل ما اتصفت به هذه الشخصية العربية الفذة مثلما نهض أبو الطيب المتنبي الذى يعد سيف الدولة شرف القبائل وفخر العواصم فيقول فيه :

تشرّف عدنان به لا ربيعة وتفتخر الدنيا به لا العواصم

ووفّاه حقه أبو منصور الثعالبي فى يتيمة الدهر [١] فحلل أخلاقه وأبان قدره ، ودرس عصره ، ونهضة الأدب فيه ، واختص شاعره المتنبي بقسط جليل من هذه الدراسة الطريفة.

وذكر أبو منصور خطر سيف الدولة على طاغية الروم وفداحة غزواته (كما سيأتى الكلام عليه عند ذكر حروبه) ، وجلالة قدره فى الشعر والأدب وبأسه وسلطانه فى الإمارة والفتوح .

ويمكن الحكم – حسب ما كتبه عنه المؤرخون منذ عصره وما بعده – بأنه كان قضاء مسلطاً على الروم وكان حمى الثغور وسد الإسلام تجاه سيل الروم العارم ، فكانت الخلافة فى أيامه مستريحة من غارات الثغور إذ كان سيف الدولة قد تكفل بها حسب ما تقضى عوامل إمارته واستقلاله بالحكم فى منطقة حلب وما والاها من البلدان التى كانت إليه .

وقد ارتكب بنو حمدان ومعهم سيف الدولة غلطات سياسية لا يغفرها التاريخ ، فقد حمل الطمع بنى حمدان على أن يجوروا على بنى عمومتهم آل حبيب بصنوف العذاب حتى فر من هؤلاء اثنا عشر ألف فارس إلى بلاد الروم واندمجوا فيها ديناً وحرباً .

ومن غلطاتهم الفادحة أيضاً أنهم كانوا يجورون على الرعية بالجبايات وأخذ الأموال والمكوس فى حدود الظلم والاعتساف . وكانوا يبذخون ، حتى إن قصور سيف الدولة بحلب كانت تبذ قصور الخلفاء فى بغداد ، وأروع من قصور القسطنطينية .

أما المؤرخون البيزنطيون الذين كتبوا تاريخ حروب القسطنطينية مع حلب منذ القرن العاشر فإنهم كما يروى (شلمبرجه) كانوا يرون سيف الدولة نفسه الدهر العربى الجاثم فى

---

(١) الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٣٤ ج ١ ص ١١ .

(٢) (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) لآدم متز . ترجمة الدكتور أبى ريدة طبع مصر سنة ١٩٤٠ ص ٢١٢ .

جوارهم وكان اسمه عندهم فى البيزنطينية (Apochaudas) وكانوا يسمونه أيضاً (الكافر الحمدانى) ويعده رجال سياستهم « المحارب الوحيد الأعظم السامى الذى أعلن الحرب المقدسة على النصرانية » ومتى قال أحدهم (الحمدانى) فإنما كان يعنى سيف الدولة .

ويقول (شلمبرجه [١]) « إن اسم سيف الدولة العظيم يكاد يكون مذكوراً فى كل صفحة من صفحات كتابى هذا المثير [٢] » .

وظل اسم هذا المغوار العربى مشهوراً فى حروب الشرق فى القرون الوسطى ، ولم تخل من ذكر اسمه صفحة من صفحات الكتب البيزنطية التى ألفت فى القرن العاشر للميلاد — كما يروى (شلمبرجه) — وكان اسمه أبداً موصوفاً بأنه أقوى خصم وأشرس بطل على الجيوش البيزنطية . وقد وجدت (شملبرجه) على ما عنده من تحوط فى إيراد الحوادث الإسلامية قد يبدر منه حيناً بعد حين طيش المؤرخين الذين لا يملكون شعورهم . فقد كان يرخى زمام القلم وراء ألفاظ طاعنة فينا ، كما فعل وهو مأخوذ بسحر وصفه لظفر كسبه نيسيفور فوكاس على سيف الدولة بعد فتح حلب وإحراقها وهدمها . فنكأ هذا المؤرخ الكبير جراحات صدره المكبوتة منذ ظفر سيف الدولة على الروم ، وقد عجبت له ، فإنه حينما وصف ظفر سيف الدولة على نيسيفور وجمعه سكب على سيف الدولة من بيانه الرائع صفات المجد والسؤدد التى لم يسكبها عليه مؤرخ من بنى جلدته . فقد قال عنه إنه كان فارساً شجاعاً إلى أقصى ما يمكن من وصف الشجاعة والإغارة وأنه كان لا يعرف الخوف ولا الخور ، وطال ما كان جديراً بأشرف الأعمال وأكرمها ، فهو حامى ذمار الديار ومنهض الأدب والمغرم بالفنون ، ومضى هذا المؤرخ فى تسكاب بيانه هذا فى مدح سيف الدولة حتى قال عنه : « كأن سيف الدولة كان مخلوقاً ليسكن فى قصور ألف ليلة وليلة أو فى خيام الضاربين فى

---

(١) كتابه السابق عن نيسيفور ص ١٢٠ .

(٢) من الكتب التى اعتمد عليها شلمبرجه فى وضع كتابه — وقد جاء فى ثمانمئة صفحة من القطع الكبير .
مخطوطات : عقد اللؤلؤ للعينى .
تاريخ كمال الدين . مخطوط بدار الكتب الأهلية بباريس .
كتاب عن الإمبراطور بازيل البلغارى مخطوط ليحى بن سعيد بن البطريق الأنطاكى .
كتب بالألمانية : المتنبى وسيف الدولة لـ Dieterici طبع برلين سنة ١٨٤٦ (قد اطلعت على هذا المصدر وأثبته فى مصادرى وهو موجود فى مكتبة جامعة القاهرة برقم (٣١١١١ عام) . ديوان المتنبى للواحدى أخرجه Carmina المتنبى ألفه Hammer بالألمانية طبع فيينا سنة ١٨٢٤ .
وكتاب (درهمان حمدانيان) وضعه Sauvaire طبع المجلة الفرنسية الأثرية بباريس سنة ١٨٨٥ .

عرض الصحراء » .

لقد أقام سيف الدولة لنفسه ملكاً فى شمال سورية يضارع فى نفسه وسلطانه ملك الخلافة ، بل لقد كانت الخلافة فى انخذال وضعف فى أيامه وكانت تتردى فى الهوة السحيقة التى بدأت تسقط فيها منذ قتل المتوكل . فأقام سيف الدولة الدساكر والضياع وأحسن الحرث وأغزر النسل ، وكانت له حلب دار الإمارة ومستقر السفرة ، وفيها قصره فى محل يسمى (الحلبة) فكان إذا عاد من غزوته أمر تحت المساء بإقامة المآدب فى قصره[1] فجالت نساؤه وراء الستر معطرات متبخترات ، ونهر قويق ذو الماء البارد يجرى فى القصر فى مجار من المرمر المسنون ، وكان الصوت الفضى الذى يحدثه الماء ينشر البرودة فى جو ذلك المكان تحت رواق منصوص على الأعمده العالية التى تشبه صوارى المركب حتى يخيل إلى النظر أن أمير حلب إنما يعيش فى عالم جنى ، محفوف بالجمال والطيوب .

وكان يهوى أن يسمع وهو حالم الفكر شارد النظر — فى أجواز مجده وخلوده — شعراءه ومنشديه يرتلون بين يديه آيات مجده الحربى ، ومفاخر معاركه . فإذا هجم قطع من الليل أخذ فى المسامرة . وكم كان يحن بكل جوارحه إلى شاعره الأعظم أبى الطيب المتنبى يفيض شعره عذوبة معنى وحرية لفظ فى مديح المحارب الذى لا يهدأ . ومن يدرى ؟ لعل « خولة » أخت سيف الدولة فى إحدى تلك الأماسى والأسمار كانت تصيخ بالسمع ومعها جواريها إلى إنشاد أبى الطيب وهى وراء خصاص من الفضة ، فى جو عابق بمجامر البخور فإذا شاعر أخيها وشاعرها يقول :

وما شرقى بالمـــاء إلا تذكراً ... لماء به أهــل الحبيب نزول
يحرمه لمــع الأسنة فوقــه ... فليس لظمآن إليه وصول

لقد شرقت بدمعها هوى إلى أبى الطيب ، قبل أن يشرق هو أسى بعد عشرين سنة حين ماتت ووروده خبر وفاتها فى الكوفة فقال يومئذ البائية التى بها :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر ... فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

يقول (شلمبرجه) « لا شىء يشبه ولوع سيف الدولة بالشعر إلا تلك المساجلات التى

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٤ .

كانت بين الشعراء فى فرانسة الذين كانوا يسمون (تروبادور) فى (البروڤانس) و (لانكدوق) حيث كانوا ينشدون الشعر بين أيدى الأمراء فى ولائم كأنها من صنع الأساطير [١] » .

وكان هذا البطل الذى نذر عمره لحرب البيزنطيين فسكب الغزير من دمائهم ، قد أسكن قصره – فعل خاطف من مردة الشياطين – فتاة بيزنطية سابية الحسن ، وكانت بنت كبير من البطارقة سباها فى إحدى حروبه للروم فتزوجها، وكان لها عليه سلطان عظيم [٢] « فكان يهيم بها مثل بطل من أبطال الروايات ، ويروح وقد نظم عن هيامه بهذه الرومية الحسناء أرق شعره الغزلى». وقد ذكر أبو منصور صاحب اليتيمة [٣] أن هذه الفاتنة من بنات ملوك الروم ، كان يهيم بها سيف الدولة حتى أسكنها إحدى قلاعه خوفاً عليها من ضراتها ، وذكر له فيها شعراً ، فيه صبوة ، وفيه هيام ، وخوف من العاذلين .

ولكن تلك الرائعة المفتان لم تستطع أن تمنع سيف الدولة من حرب قومها ، وكأنى به حين كان يتركها إلى مغزى أهليها كان يودعها وهو متمثل بقول شاعره المتنبى :

وللخود عندى ساعة ثم بعدها قلاة إلى غير اللقاء تجاب

تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعـــاب

أما رجال سيف الدولة فلم يصفهم المؤرخون كما تريد السياسة ، وإنما وصفوهم كما يريد الأدب ، فكان أبو منصور الثعالبى صاحب اليتيمة أفضل من أبان أقدارهم وجمع غرر أقوالهم . إنه ليورد الكلام على أدبائهم ويشير إلى أثرهم فى بلاط سيف الدولة . ولقد كان الشعراء والكتاب الحمدانيون متصفين بالسياسة والرئاسة ، وبالأدب والبيان معاً . ولم تكن السياسة حتى أواخر العصور العباسية لتفترق عن الأدب ، أفلم يكن الوزير كاتباً ، والقائد خطيباً ، وحاشية الخلفاء والأمراء من الشعراء والأدباء . كذلك فإن رجال الدولة الحمدانية كانوا أدباء حربيين وشعراء من الفرسان ،وكان الشعر والأدب صناعتهم جميعاً ؛ لأن سيف الدولة نفسه كان أديباً شاعراً ، أثر له شعر جيد روى بعضه الثعالبى ، وكان أمير حلب يعرف مواطن النقد الفنى ، وهذا أحد الأسباب الصحيحة التى رفعت مقام أبى الطيب عنده وجعلته يطمع بالخلود فى قصائده الخالدة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(٣) الطبعة السابقة ج ١ ص ٢٥ .

كان من رجال الدولة الحمدانية أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ابن عم سيف الدولة وعضده فى السلم والحرب ، وإنى لأسميه بحق (شاعر الفرسان وفارس الشعراء) . وكان أبو فراس تلو أبى الطيب فى شعر الحرب وتأجج الحماسة . وكان من رجال هذه الدولة المصاليت ومن أبطالها المناجيد أبو العشائر الحمدانى [1] وهو الذى ورد عليه أبو الطيب بإمارته فى أنطاكية قبل أن يعرف سيف الدولة ، وقد أسر أبو العشائر فى بعض حروب سيف الدولة مع الروم وحبس فى حصن (خرشنة) ثم نقله البيزنطيون إلى القسطنطينية ومات فيها سجيناً . وفى هؤلاء الرجال أبو وائل تغلب بن داود الحمدانى الذى أوفده سيف الدولة لمحاربة الخارجى فى أطراف الشام فأسره الخارجى واستنقذه سيف الدولة . وفيهم أبو زهير مهلهل بن نصر بن حمدان رجل حرب وأدب . وبقية من أمراء حمدان بين عمومة وخؤولة كانوا منبثين فى عمالات سيف الدولة على ثغور الشام . وكان يرفد هؤلاء الأمراء قضاة سياسيون وأدباء، فقاضى قضاة سيف الدولة الذى كان يحارب معه أبو الحصين على بن عبد الملك الرقى وابنه من بعده أبو الهيثم . وإلى هؤلاء كان لدى سيف الدولة قواده من غلمانه وكانوا عماده فى حروبه ، فغلامه (نجا) كان يحارب معه وهو الذى شغل جيوش نيسيفور فوكاس يوم تحدرت على حلب حتى تمكن سيده سيف الدولة من الابتعاد . ولكن (نجا) لم يبق خالص الود لمولاه ، فقد خرج عليه فى أواخر أيامه حين تقاعس حظه وبدأ أفول نجمه ، وقد روى ابن مسكويه أن سيف الدولة أمسك به وقتله جزاء خروجه عليه . فأمرت زوجته (وهى ابنة عمه وأخت أبى فراس) أن يطرح الخائن (نجا) من مجرى الأقذار [2] . كما أظهر غلامه الآخر (قرعويه) محبة لمولاه وإطاعة فى حياته ، ثم جعل بعد موته يتلاعب بابنه (أبى المعالى) وكان هو الذى حارب أبا فراس وأمر بقتله ، ثم ثار بعدئذ على سيده أبى المعالى سعد الدولة بن مولاه سيف الدولة فى أيام عزه وسطوته . وكان من هؤلاء الغلمان بعد سيف الدولة أن كاتبوا الروم بالخيانة ، وكان (قرعويه) هو الذى راسل (بيرفوكاس) أحد قواد البيزنطيين واسمه عند العرب (طربازى) حسب رواية (شلمبرجة)وحده نقلاً عن النصوص البيزنطية [3] فدخل الروم أنطاكية بقيادة (ميخائيل بورتزيس) ونهبوها وانفتحت أبواب سورية بعد ذلك أمام جيوش القائد الأعظم يوحنا تزيميسيس فى

(١) هو الحسن بن على بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوى.

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٨ . والكامل فى التاريخ لابن الأثيرط أورباج ٨ ص ٤٠٨ . فى حوادث سنة ٣٥٣ .

(٣) كتابه عن نيسيفور فوكاس ص ٧١٤ .

غزواته اللاحقة ، وكان مراده ومناه الوصول إلى بيت المقدس مسوقاً بنزعته الصليبية المبكرة.

وقد غطى على كل أولئك الرجال سيف الدولة وحده كنسر قشعم نشر جناحيه على الصقور ، وكانت تلك عادة سيف الدولة فقد استبد برأيه حتى فى أوقات مهالكه ومعاطبه . وقد نقد سياسته ابن مسكويه فى تجاربه فقال عنه [١] : « كان هذا الرجل ، أعنى سيف الدولة ، معجباً يحب أن يستبد برأيه وألا تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره ، وكان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذى يريد الخروج منه وشحنوه بالرجال ، فلم يقبل منهم ، ولجّ ، فأصيب المسلمون بأرواحهم ، وأصيب هو بماله وسواده وغلمانه » .

والظاهر أن (ابن مسكويه) لم يكن ظالماً لسيف الدولة بنقده لسياسته أو متحاملاً عليه ، على الرغم من النفرة التى كانت بين الفرس والعرب ، وقد كان هذا المؤرخ وأمير حلب فى عصر واحد ، إذ كان المؤرخ كاتباً عند أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة الذى ورد عليه أبو الطيب بفارس أواخر أيامه .

٣ ــ لون سياسة الحمدانيين

بينت فى أوائل هذا البحث لون سياسة الحمدانيين تلقاء العباسيين . أما لون سياستهم تلقاء الروم فكانت كما يصفها (شلمبرجة) « محاربة البيزنطيين بصلابة وشجاعة عظمى ودفعهم عن الحدود الغربية إذ كان العدو الأوحد للعرب يومئذ هم البيزنطيون » .

ولكن هل كان الحمدانيون يحاربون البيزنطيين لرفع كلمة الله ، وإتمام ما قام به الخلفاء الراشدون ، والخلفاء الأمويون ، كالوليد بن عبد الملك ، والعباسيون كالمعتصم والمتوكل ؟

أحسب ذلك كان السائد وأن الحرب المذهبية كانت الدافع الأول وأن خوف الحمدانيين على بلادهم من استيلاء الروم عليها كان السبب الثانى . ولعل الحمدانيين كانوا يجمعون بين الأمرين فتكون حروبهم تارة لهذا السبب الدينى وآونة لذلك الدنيوى . وكانت أكثر الثغور على أيدى التداول بين الفريقين .

---

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨١ .

أما سياسة الحمدانيين مع الدول العربية التى عاصرتهم فقد كان سيف الدولة فيها مدره السياسة مع البويهيين ، حتى كان معز الدولة البويهى يوقره ويلتمس البعد عن أذيته ، وكذلك فإن سياسته مع الإخشيديين كانت بعد أخذه حلب وظلت صلته بالعباسيين حميدة بينما كان العباسيون يضطهدون الشيعة فى كل مكان وفى كل سانحة .

٤ ـ حروب الحمدانيين مع الروم

(ا) الجيوش العربية والبيزنطية فى عصر سيف الدولة

حارب الحمدانيون البيزنطيين نحواً من ستين عاماً ، وافتخر بذلك أبو فراس تلقاء إمبراطورهم حينما جلس لمنادمته[١] . وقد بسطتُ أسباب هذه الحروب الطويلة عند الكلام على حروب سيف الدولة من شعر المتنبي ، فما أحبّ إلىّ أن أصف الآن صورة لكتيبة عربية من القرون الوسطى من مخطوط عربى يملكه (شارل شيفر) أحد أثرياء الفنون من علماء الفرنجة المعاصرين ، وقد أثبت (شلمبرجة) هذه الصورة فى كتابه عن ملك الروم نيسيفور فوكاس ، وهى تمثل خيلاً عراباً متراصّة النحور وعليها دارعون بأيديهم الأعلام ، وإن أعلامهم لمطرزة ملونة مخططة عليها وشى كثير وزركشة فنية . وفوقها كتابات منها (لا إله إلا الله) بطراز كوفى ، وهى أعلام عراض . وفى وسط الصورة فارس بين صحبه الفرسان قد أكب على طبل تحت يديه يقرعه بحماسة وعنف ، وقد رفع مقرعة فى الفضاء ، وأهوى على الطبل بمقرعة ، وعلى جانبيه فارسان مع كل منهما بوق طويل ينفخ فيه جهد أنفاسه وهم جميعاً فى سحنات عربية عليها لحى وفوق رؤوسهم عمائم مكورة ، ولباسهم سراويلات

وقد تبين لى أن هذه الصورة هى صورة الموسيقى العربية التى كانت تمضى أمام الجيش فى العصر العباسى ، عارية من السلاح ، شأن فرق الموسيقى المعروفة فى عصرنا فى جيوش الأمم ، وقد ذكر (شلمبرجة)[٢] أن قسطنطين الرومى البورفيرى Porphyrogénète وصف فى كتابه المسمى (الإدارة) فى الفصل العشرين كيف كان طراز المسلمين المحاربين مع سيف الدولة وأن (كريمر)[٣] الذى ألف كتاباً عن أدوات الحرب عند

---

(١) كما سيأتى الكلام فى شعر الحرب عند أبى فراس .

(٢) ص ٢١١ من كتابه السابق .

(٣) أحد المستشرقين الألمان .

العرب قد أخذ عن البورفيرى أكثر ذلك الوصف فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب فحينما يكون منهم ألف يدافعون عن مكان فإنه يظل من الإغراق فى المستحيل أخذه منهم . إنهم ليقعدون على ظهور أفراسهم فى المعمعة وليس عليهم لباس السلاح التام ، فهم لا يكترثون بلبوس (الجانبيات) [١] ولكنهم يضعون على وجوههم مغافر من المعدن المصفح ، سلاحهم الرماح الطوال والتروس الكبيرة التى تغطى الجسد كله ، وأقواسهم من خشب لين واسع ما بين السيتين ويعسر على الرجل القصير أن يرمى بالنشاب».

ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ورحى المعركة تدور ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً .

وهم إذا ساروا أعدوا عدتهم — كما يصفهم شلمبرجة — فزحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة ترف منها على الرؤوس قصاصات مضفورة تلوح فوق الرماح المنصوبة التى لا ينتهى الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزهوين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ترنموا فى مسيرهم بأغان يخرجون أصواتها من أنوفهم نعيراً Chant nasillard مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون لكى يسرعوا فى السير يزحف مع كل فارس منهم جندى راجل وراءه .

يقول (رامبود [٢]) لم يكن لباس الجندى العربى مختلفاً عن لباس الجندى اليونانى الذى سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة . وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ودرع من المعدن تغطى الجذع ، وجانبيات تستر رجليه والساعدين ومقاود من الفولاذ للخيل ، وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطى الفرس . . ويقول (رامبود) لم يكن شىء ليختلف بين الروم والعرب فى نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقى فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين ، وأما طراز المبارزة فقد وجدتُ أن شرعته من وضع العرب منذ حروبهم فى الجاهلية ، يتبارز بطلان من كل

(١) الجانبيات صفائح من الدرع على شكل الفخذين تشد فوق الساق والرجل من كل جانب .

(٢) ص ٢١٠ المصدر السابق (لشلمبرجه) .

جهة ويتعاوران المطاعن والمضارب ، حتى يصرع أحدهما الآخر على نحو ما كان معروفاً عند الرومانيين من صراع الـ Gladiateurs إلا أن هؤلاء كانوا يتصارعون راجلين ولم يكن صراعهم للحرب ولكنه للنجاة من الأسر أو الذنوب (١) فإذا فرغ البطلان الفارسان من الصراع ولم يقو أحدهما على الآخر انصرفا فعاد إلى مكانهما غيرهما ، أو وقع أحدهما قتيلاً فجاء مكانه آخر من صحبه . فإذا نفذ المتصارعون هجم كل فريق على الآخر هجمة (السلاح الأبيض) .

ولا شك أن نظام المبارزة بين الفرسان فى القرون الوسطى فى أوربة مقتبس عن العرب فكان هؤلاء الفرسان الأوربيون يتحاربون على طريقة المبارزة ثم تتلاحم جموعهم كما يفعل العرب . وقد أثبت (بيديه) فى كتابه عن تاريخ الأدب الفرنسى (٢) صورة لمبارزة بين فارسين من القرون الوسطى متواقفين كل منهما أمام الآخر وبيد كل منهما رمحه وترسه وعليه درعه ، وهذه الصورة منقوشة على وجه كنيسة (أنغوليم فى فرنسة) (٣) .

أما جيوش البيزنطيين وأخصها جيش الإمبراطور نيسيفور فوكاس فكان كما يقول مؤلف عصر هذا العاهل ، إن الجيش البيزنطى كان على غاية لتمرس والدربة والفن العسكرى وكانت المعتقدات الدينية والشعور الوطنى يدفعانه إلى أقصى الحمية والحماسة ، وأن الأباطرة البيزنطيين كانوا يجودون بالخيرات الجمة على الجيش ويقطعون الأجناد قطعاً من الأرض (٤) .

وقد اعتدل (رونسيمان) حينما وصف جيش البيزنطيين فلم يصفه وصف (شلمبرجة) وإنما قال عنه « ولم يكن البيزنطيون (أمة حرب) ولم يكونوا كمحاربى الغرب — وهو يعنى اليونان والأوربيين — فرسان معارك . وكانت الضرورة وحدها هى التى تقتضيهم الاعتناء بالأمور العسكرية (٥) » .

---

(١) لا يزال بناء (القوليزة) جاثماً فى ضاحية روما فقد كان يجرى فيه أيام عمرانه على عهد الأباطرة الرومان الأقدمين عرض رياضى يشهده الإمبراطور ورجال الدولة ونساؤها من الأشراف والأعيان ويدخل إليه بالمجرمين والأسرى فيصطرع كل اثنين منهم على حدة فمن قتل الآخر سلم من ذنبه وأطلق ، وكان ذلك تسلية لجبابرة روما وطغاتها بعد أن يشاهدوا افتراس الأسود لضرب آخر من الأسرى والمجرمين .

(٢) المجلد الأول ط لاروس بباريس سنة ١٩٢٣ .

(٣) أنغوليم Angoulême كنيسة كبرى على نهر شارانت فى طريق أورليان بفرنسا .

(٤) كتاب (شلومبرجة) عن نيسيفور فوكاس ص ١١٨ .

(٥) كتابه بالترجمة الفرنسية (الحضارة البيزنطية) ص (١٤٢) السابق وصفه ، الذى يقول فيه إن =

لكن (شلمبرجة) الذى جعل من اختصاصه التنقير فى تاريخ البيزنطيين يصف دهشة سكان الحوض الأبيض المتوسط حين كانوا يعاينون الجنود البيزنطيين بقاماتهم العالية سيوفهم عراض ، ورماحهم طوال سنانها ذو رأسين وبجانبه فأس حديد ، ويصفهم هذا المؤلف بأنه لم يكن شىء يقف فى وجه هجومهم ولا من يستطيع أن يهزمهم عن مواضعهم حينما يندفعون أمواجاً وصفوفاً ، ولقد كانوا ببطولاتهم أوائل الفرسان فى أوربا البربرية . وكانت عددهم ثقيلة كل الثقل لا تصلح إلا للمقاومة والفتوح .

ثم أرسل المؤلف أوصافاً فى لباسهم الحربى فكانت على رؤوسهم خوذ ثقال من الحديد وعلى أطرافهم وجسومهم الزرد المضاعف المظاهر بينه وكان يسترهم تروس كبيرة . وكانوا يحاربون وهم مولون هاربون ، فكانوا يلقون بهذه التروس على أكتافهم فتقيهم النبال ساعة الهزيمة .

ويصف تعبئتهم فى بعض المعارك بأنهم كانوا يؤلفون صفاً واحداً ، كتفاً إلى كتف ، متراصاً كالجدار . لا يمكن اختراقه وهذه تعبئة قديمة موروثة ، حدث عنها تاسيت ووصفها بأنها (حائط الحديد) يتلاحم فيه صف الجنود [1] منصوبة عليه الرماح ويلمع على رؤوسه المغافر تتلألأ بأيديه التروس المعدنية .

يقول مؤرخ الروم إن الإمبراطور نيسيفور فوكاس ألف كتاباً للروم فى فن الحرب وصف فيه خيالة سيف الدولة بأنها تهاجم عن الرجالة ، وبين فى كتابه هذا أساليب المحاربة الروم للعرب ، ونصائح لهم فى حروبهم مع المسلمين ، وقد ذكر فى أحد فصوله أن العرب يقاومون مقاومة عنيفة فيصمدون وراء متاريس من متاعهم وجمالهم الهلكى . ويوصى الجنود البيزنطيين بأن ينزلوا فى مثل هذه الحالة إلى الأرض ويباغتوا العرب (بالسلاح الأبيض) .

بيزنطة كانت مدافعة حتى قويت فصارت مهاجمة . وإن لقب القائد الأكبر عندهم هو (Akritae) وإن فرق جيوشهم فى القرن العاشر كانت بأيام نيسيفور ذوات أسماء خاصة بها كفرقة tagmata وفرقة Hicanate ومنها الحرس الإمبراطورى . وإن أرض بيزنطة قد سميت مقاطعاتها بأسماء فاتحيها وبأسماء بلاد فى يونان . فأرض بيلوبونيز هى تسمية ثانية للأرض الأولى فى بلاد اليونان الغربية ، فأذكرنى هذا ما صنع العرب حينما مصروا الأمصار ، فإن الكوفة موطن أبى الطيب المتنبى كانت تحمل فى سككها أو بقاعها أسماء بقاع اليمن وفى ذلك يقول أبو الطيب فى الحنين إلى هذه البقاع الكوفية :

أمنسى (السكون) و (حضرموتا) ووالدتى و (كدة) و (السبيعا)

التى قرنها بحب أمه .

(١) لقد عرف المسلمون مثل هذه التعبئة إذ قيل فيها (مثل البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) .

وفى كتابه فصل عن حرب الليل (البيات) فيوصى فيه جنوده أن يستعملوا المشاعل والقناديل لإخافة المسلمين [١] ، وفيه فصول كثيرة عن السبي والسلب ومحاصرة الحصون .

ويذكر (شلمبرجة) أن العرب كانوا حينما يفتحون بلدة من بلاد الروم سرعان ما يطبعونها بطوابعهم فى الحرث والسقاية ومرافق الحياة .

وكانت جيوش البيزنطيين تهدر بأصوات أناشيدها بدمدمات أشبه بهدير البحر . وقد وصفهم ليون الشماس[٢] Leon le Diacre بأنهم جنود نذروا حياتهم للموت وأن من أخفق منهم كان يغرس سيفه فى أحشائه فينتحر ، وكانوا يعتقدون أن الذى يموت بطعنة أعدائه تهيأت له حياة أخرى .

وقد أنشد شعراء البيزنطيين قصائد طوالاً عن حروبهم مع العرب ، ضاع أكثرها فقد روى (رونسيمان) [٣] أنه فى العصر العاشر للميلاد [٤] ظهرت فى بيزنطة ملحمة شعبية مطولة فى عشرة كتب سجل فيها مؤلفوها الحوادث الحربية التى جرت على الحدود الشرقية فى حروب (ديجينيس أقريطاس (Digénis Akritae) الذى قضى عمره [٥] فى محاربة المسلمين فى البر والبحر وكانت له أكبر درجة فى الجيش البيزنطى وأن أبا هذا البطل قد أسلم !

ومن يدرى ؟ لعل كتاباً من هذه الكتب العشرة هو عن سيف الدولة وأهوال الروم معه . إذ كان المسلمون هم العدو المخيف للبيزنطيين وهم الخصم الوحيد [٦] .

أما تلك الأناشيد البيزنطية التى كان ينشدها الروم فقد كانوا يقولون فيها [٧] :

« النصر لله الذى هدم البلاد العربية ، والنصر لله الذى شتت شمل من ينكر التثليث المقدس . والنصر لله الذى جلل بالخيبة هذا الأمير القاسى عدو المسيح ، النصر لله النصر لله . »

وكانوا إذا ظفروا على العرب أقاموا فى كنائسهم تقديساً مسيحياً إذ كانت الحرب ضد

(١) عبر بكلمة Sarrasins أكثر المؤرخين البيزنطيين عن المسلمين فى القرن العاشر للميلاد .

(٢) مؤرخ بيزنطى فى النصف الثانى للقرن العاشر الميلادى أرخ حروب سيف الدولة مع الروم ونشر تاريخه بالفرنسية سنة ١٨١٩ فى مجموعة Byzantine بمكتبة Bonn .

(٣) ص ٢٦٧ من كتاب (La cvilisation Byzantine) لرونسيمان المذكور .

(٤) وهو عصر سيف الدولة والإخشيديين .

(٥) ١٤٧ من المصدر السابق .

(٦) ص ١٥٤ المصدر نفسه .

(٧) كتاب (شلمبرجه) عن نيسيفور فوكاس ص ١٩١ ويقصد البيزنطيون بعدو المسيح سيف الدولة .

العرب فى نظر البيزنطيين (حرباً صليبية) .

وليت شعرى أى شىء كان يقول جنود سيف الدولة بعد ظفرهم على الروم؟ ما أحسبهم بعد أن يفرغوا من تلاوة آيات الذكر الحكيم إلا منشدين مقطوعات حماسية من شعر المتنبى فى سيف الدولة فى هزيمة (الدمستق) فيبيتون متندرين بفرار عاهل الروم . معجبين بمعانى أبى الطيب فى سيفياته التى كانت صدى خواطرهم ، ومرآة بطولتهم التى خلدها الشاعر العظيم فى حروب سيف الدولة .

(ب) الدمستق وقواده

(الدمستق) Domestique هو لقب إمبراطور القسطنطينية ومعناه (الخادم الأعظم لجيش الشرق) أو (القائد الأعظم لجيش آسيا) Généralissime وكان لقب قسطنطين ماليينوس السابع Constintin Maléinos) ملك القسطنطينية ، وهو المعاصر لسيف الدولة وقد حاز عاهل الروم هذا اللقب عقب ظفره الكبير على المسلمين ، وهو أيضاً لقب نيقفور الروم Nikiphoros (نيسيفور فوكاس) إمبراطور آسيا الوسطى ولم يصر نيسيفور إمبراطوراً على القسطنطينية إلا بعد حروبه العديدة لسيف الدولة . فكان الدمستق قسطنطين هو الإمبراطور ونيسيفور قائده الأعظم .

وقد تقصيت أخبار القواد البيزنطيين فى زمن سيف الدولة من خلال المصادر التى وقعت إلىّ عن حروب البيزنطيين مع العرب فى القرن العاشر للميلاد فوجدت أن قواد ملك الروم قسطنطين [1] وضباطه فى حروبه مع سيف الدولة هم :

نيسيفور فوكاس Nicephor Phocas (أعظم القواد) .

ليون فوكاس أخو نيسيفور Léon Phocas

برنغاس Bringas حارب فى جزيرة كريت ثم وجهه مولاه إلى محاربة الحمدانيين [2]

حنا قرقواس الأرمنى Jen courcouas وهو الذى ورد أسمه فى شعر المتنبي وأبى فراس (قرقوش) .

---

(١) ص ٩٩ من المصدر نفسه والهامش .

(٢) حكم قسطنطين السابع البورفيروجينى – هذا – من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٥٩ م وكان بعده على عرش القسطنطينية رومان الثانى من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ للميلاد .

ميخائيل بورتزيس Michel Bortzès وقد حارب سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة)

توفلس أخو قرقواس Théophile

ملياس Mélias

برداس فوكاس Barbas Phocas أبو نيسيفور .

بازيل Basile

يوحنا تزيميسيس Jen Tzimiscsés وقد صار أمبراطوراً على القسطنطينية بعد أن اغتال نيسيفور .

شماشيق Chamachic ابن جان تزيميسيس وهو الذى ورد ذكره فى شعر المتنبى وأبى فراس باسم (الشمشقيق وهو تصحيف صوبتُه بـ (الشميشيق) تصغير (الشمشيق) كما سيأتى :

وكانت كلمة (البازيل) لكل عاهل على القسطنطينية أيضاً .

أما قواد العرب فكان ينظر إليهم الروم نظرة المنافس والضريع ، فإن نيسيفور وأخاه ليون كانا يعدان نفسيهما مثل سيف الدولة وأخيه ناصر الدولة أمير الموصل .

وكانوا ينحتون فى لغتهم البيزنطية أسماء لأكثر قواد العرب ، كما سموا (عبد العزيز بن عمرو بن سعيد القطربى قائد (كريد) وأميرها وكان شديد الصولة عليهم (بالقرباس Kouroupas) ومعناه بالرومية (الحاكم ولى الأمر)[١] ، كما سموا (أبا العشائر) وقد وقع فى أسرهم Apolasar

وكان نيسيفور فوكاس [٢] كبير أولئك القواد وزعيم الجيش كله وهو الموكل إليه فى أيام قسطنطين حرب سيف الدولة وشن الغارات على الحدود الإسلامية والدفاع عن بيضة الروم إذا هجم عليها جيش المسلمين ، لكن الحيف الذى سجله التاريخ على هذا الجبار العظيم أنه كان مطواعاً لزوجته (تيوفانو) اللعوب ، وكان الشعب البيزنطى يعجب لأمره كيف أقدم على الزواج بها وهى الايم من الإمبراطور رومان الثانى ، والتى كانت لها سمعة تخوض فيها الألسن ، وقد جر عليه هذا الزواج خسارة ملكه وعمره ، فقد مهدت تيوفانو

(١) هامش ص ٨٠ من المصدر السابق لشلمبرجه .

(٢) يروى (رونسمان) أن أبا الإمبراطور نيسيفور فوكاس كان من دم عربى (كتابه الموصوف فيما سبق ص ١٩٢) .

سبيلاً إلى عاشقها (تزيميسيس) فقتله — وهلك نيسيفور مخذول الهوى خاسراً للمجد فنُقش على ضريحه هذه الكلمة : « أنت يا من قهرت الدنيا إلا امرأة » [١] .

٥ — الأدب الحمدانى

يؤلف أدب الحمدانيين الحلقة الذهبية التى وصلت أدب العباسيين الزاهر بما بعده من آداب ظلت تترجح بين صعود وهبوط حتى انحطت أواخر العصر العباسى .

وكان أدب الحلقة الحمدانية شعراً ونثراً مع أخذ بالنحو وفنون اللغة ، فقد كان لسيف الدولة مجالس أدب فى حلب بدارة (الحلبة) كانت مجمع الرواة والشعراء ، فطالما استمع ، تحت قباب هذه الدارة فى أماسية الرائعة النشوى بالظفر ، إلى قصائد أبى الطيب المتنبى فيه ، وطالما تناظر فى حضرته ابن خالويه وسائر الأدباء ، وكان هو الحكم بين المتناظرين . وأرى مجلسه الأدبى الحافل قد سبق إلى ما عرف فى أوربا منذ القرن السادس عشر فى فرنسة من الأبهاء (Les Salons) وفى هذا البهو الحمدانى الرحيب نوظر أبو الطيب المتنبى فى قصيدته الميمية المشهورة وعنف عليه حساده وفيهم ابن خالويه وأبو فراس حتى أوغروا عليه صدر سيف الدولة فضربه بالدواة وشجه فرد الشاعر على أميره بقوله :

إن كان سركمو ما قال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكمو ألم

فقام إليه سيف الدولة وقبله مستغفراً . وشهد هذا البهو أكابر الشعراء الحمدانيين كأبى الفرج الببغاء المخزومى وكان يجمع بين الصناعتين ، ورافق سيف الدولة إلى دمشق وقصر عليه مدحه وذكر فى شعره ورسائله غزوات سيف الدولة وهو القائل فيه :

---

(١) كتب هذه الكلمة على قبر نيسيفور فوكاس (يوحنا بطريق ملطية) وأول من ذكرها (ليون الشماس Léon le diacre) وهو مؤرخ بيزنطى فى النصف الثانى من القرن العاشر . قص فى عشرة كتب حوادث بيزنطية من سنة ٩٥٩ — ٩٧٣ للميلاد وكان أصدق شاهد للحوادث البيزنطية الهامة مع العرب .

أنظر ص ٤٤٨ المجلد ١ من كتاب Histoire de l'Empire Byzantin Par : Alexandre Vasiliev
طبع باريس سنة ١٩٣٢

وهذا الكتاب من أثبت المصادر عن البيزنطيين وقد خصص فاسيلييف المجلد الثانى منه للحروب الصليبية . ومجلداه يقعان فى تسعمئة صفحة من القطع الكبير وقد كتب مقدمتهما مؤرخ البيزنطيين المعاصر شارل دييل الفرنسى

كأنما ادخر الرحمان معظمة … دون الملوك لسيف الدولة البطل
رآه أكرمهم في الخير إن ذكروا … وصفا وأفضلهم فى القول والعمل
فهزه وظبا الأسياف مغمدة … واستله غير منسوب إلى الفلل
حتى غدا الدين من بعد العبوس به … جذلان يرفل من نعماه فى حلل

ومن رجال هذا الأدب الحمدانى الشاعر أبو العباس النامى وكان من فحول الشعراء الحمدانيين قربه سيف الدولة فكان عنده تلو المتنبي كما يقول الثعالبي [1] . ومن أدباء حلب فى عهد سيف الدولة أبو الحسين الناشىء وأبو القاسم الزاهى وكانا من الشعراء الظرفاء ومثلهما الوأواء الدمشقى والسرى الرفاء . وجاء السرى سيف الدولة فلزمه واستكثر من المدح له . وكان فى بلاط أمير حلب الشاعران الناثران الأخوان الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ، وغيرهم كثير من أهل الشعر والنثر أحصاهم أبو منصور الثعالبي فى اليتيمة واسترسل فى الكتابة عنهم وعرض غرر أشعارهم وألوان نثرهم .

ووجدت أبا الفداء الحموى يروى فى مختصر تاريخه [2] أن أبا الفرج الأصبهانى ألف كتاب الأغانى فى خمسين سنة وحمله إلى سيف الدولة فأجازه عليه بألف دينار واعتذر إليه. فإذا كان كتاب الأغانى وهو ما هو فى عظمة التأليف والتصنيف فى الأدب والشعر وأخبار الغناء واللحون قد ألف فى عهد سيف الدولة ، فقد كفى الأدب الحمدانى فخراً أبد الدهر. وكان الفارابى فيلسوف العقل والغناء ممن ورد على سيف الدولة . وكان زعيم اللغة فى عهد سيف الدولة أبو الفتح عثمان بن جنى وزعيم النحو ابن خالويه ، وشيخ المؤرخين الشمشاطى ، ولم يشهد عصر من عصور الأدب العربى مجمع علم وأدب ولغة وشعر مثل مجمع سيف الدولة غير الرشيد والمأمون . وكان الخلفاء العباسيون الذين عاصروا سيف الدولة يحسدونه على قصوره الممردة ، ورجاله الأفذاذ .

وقد قلت لنفسى بعد الوقوف على أدب الحمدانيين وعجبى له إذ زخر بأفاضل الأخباريين وأساطين اللغويين ، وأكرم الشعراء ، قلت لولا حروب سيف الدولة للبيزنطيين لملأ دنيا العرب بالعلم والأدب ، قال عنه أبو منصور الثعالبي [3] : إن محمدا القاضى الكاتب وأبا الحسن الشمشاطى جمعا من مختار مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف

---

(١) يتيمة الدهر طبعة اسماعيل الصاوى بمصر ج ١ ص ١٩٠ .
(٢) المختصر من أخبار البشر الطبعة الحسينية بمصر ج ٢ ص ١٠٨ .
(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ١١ .

بيت من الشعر . وكان لتفرغه لكل ذلك أثر فى ازدهار عصره فى الشعر وفنون الثقافة المعروفة إلى عهده فكان أغنى عصر عرفه العرب بعد عهد الرشيد ، زمن المأمون .

ثم قلت آسفاً أين الحماسة فى شعر هؤلاء الأدباء جميعاً وفى نثرهم؟ إننى نقبت عنها فما وجدت لها أثراً عندهم يذكر ، وإنما وقفت على شعر كثير للأدباء الحمدانيين فى زمن سيف الدولة صرفوه فى وجوه اللهو ، كالغزل والمطارحات ووصف الفاكهة والغلمان والشراب ، وتوليد المعانى النواسية مما ملأ به الثعالبي جانباً من يتيمته ، فعز عندى حينئذ مقام شاعر الحماسة الحمدانية أبى الطيب المتنبي وتلوه أبى فراس ، وعرفت منزلتهما من شعر الحرب الحمدانية . فلولاهما لما ذكر سيف لسيف الدولة ، ولما خلد ذكر لواقعة من وقائعه الأربعين .

فحق علىّ إذن بعد ذلك ، أن أتفرغ للكلام على شعر الحرب عند المتنبي وأبى فراس وأن أجلى النقاب عن أروع حماسة عرفها الشعر العربى ، منذ عمرو بن كلثوم فى الجاهلية إلى يومنا هذا .

الفصل الثانى

شعر الحرب عند المتنبي

١ ـ حروب سيف الدولة من شعر المتنبي

صحب المتنبي سيف الدولة منذ مدحه فى أنطاكية حين استجم فيها من غزوته لحصن برزويه إلى أن فارقه قاصداً إلى كافور الإخشيدى، أى أنه لزم الشاعر أمير حلب نحواً من تسع سنين منذ سنة (٣٣٨ ـ ٣٤٥) للهجرة [1] فلم يفارقه فى شمالى ديار الشام ودساكرها وفى رحلاته وغزواته للروم وللأعراب. وكان يسجل فى قصائده الكثيرة التى اختصه بها كل حوادثه فيتتبع بالذكر حروبه وسفره وقفوله وارتحاله ونزوله ويصف ظفره الصاعق وانخذال الروم، وفرار ملكهم وقوادهم، وتشتت جيوشهم واندحارها.

وكانت أول قصيدة له فيه عند لقائه (فى حربه للروم)، وآخر قصيدة له عند فراقه (فى حربه للروم)، وأكثر شعره خلالهما قد قاله فى هذه الحرب.

وإن هذه القصائد فوق ما حوته من قيمة أدبية وسحر بيان وتحليق فى فن المعانى والأسلوب وسمو فى الصنعة فإنها تجمع فى أبياتها (قيمة تاريخية) و(جغرافية) غالية القدر، وتعد (وثائق) فى غاية الخطورة لكتابة التاريخ السياسى والتحقيق الأدبى عن عصر سيف الدولة.

ولهذه القصائد بقى الدهر منشداً يردد ذكر سيف الدولة على خلود المتنبي. وكان من حظ أمير حلب أن ينظم فيه شاعره أبو الطيب أحسن قصائده وأروعها فى كل عمره الشعرى، فيقرن خلوده بخلوده، ومجده الأدبى بمجده الحربى، ولست مع أبى منصور الثعالبى ـ سامحه الله ـ الذى يقول أن سيف الدولة هو الذى رفع من قدر المتنبي «ونفق شعره وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر وسافر كلامه فى البدو

(١) ديوان أبى الطيب المتنبي بتصحيح الدكتور عبد الوهاب عزام ومقارنة طبع مصر سنة ١٩٤٤ ص ٢٤٢ وكذلك قال (شلمبرجه) (فى كتابه عن نيسيفور فوكاس ص ١٢٦) إن المتنبي لزم سيف الدولة قرابة عشر سنين من سنة ٩٤٨ إلى سنة ٩٥٧ للميلاد.

والحضر » (١) . إذ أن أبا منصور كان ينظر إلى الشعراء بمثل النظرة التى كان يراهم بها الخلفاء والأمراء ، وطال ما كان هؤلاء يعدون الشاعر من أداة المنادمة . وغفل أبو منصور عن أنه هو أيضاً أديب مؤرخ ، وكاتب مترسل ، وأن له شعراً كالذى مدح به أبا الفضل الميكال ولولا أن كتابه (اليتيمة) معدود فى جملة الذخيرة من تراثنا الأدبى ككتاب ابن خلكان ومعجم الأدباء والأغانى لما أبهت إلى حطه من كرامة المتنبى — حين شاء مدحه — فأثقل عاتقه بمنة سيف الدولة الذى ألقى عليه شعاع السعادة وكان من قبل خاملاً مجهولاً .

وكيف اتفق أمر المجد واكتسابه بين سيف الدولة وشاعره فكأن كلا منهما كان مرصوداً للآخر . فوجد سيف الدولة شاعره الخالد ووجد المتنبى أميره الأعظم ، وإن أبا الطيب كان يعد نفسه ملكا فى شعره وأميراً بلسانه ، وها هو ذا الدهر ينطوى عصوراً والمجد يزيد المتنبى حللاً من خلوده لا تبلى .

ولم يكن شىء فى شعر المتنبى أعذب نغماً ولا أبعد أثراً من (سيفياته الحماسية) التى نسجها على هفوف الصحراء ، ومزجها بحمحمات الخيل صافقة سنابكها على درب الروم تسم عليها صدور البزاة بمقدوح الشرر ، ومزج هذه الصور بصليل السلاح فى ضجيج الفرسان وعجيج الغبار . وفى هامة الجيش الذى يسد هزيمه وجوه الجو كان يترنح (أمير حمدان) على جواده المطهم كأنه فارس الأساطير يهب فى عالم الحروب فيملأ (قليقيلا والناطلوق والقبذوق والأبسيق) ، وسائر أقاليم بيزنطة (٢) . برهبة حربه وسطوته وبأسه ، حتى تجىء أخباره القسطنطينية فيراع من فيها ، ويهب البيزنطيون إلى خيولهم بأثقال الحديد لرد هجمة العرب وسد الثغور ، وإغلاق الحصون .

وقد وصف (رونسيمان) (٣) ما كان يجرى عند هبوب العرب على بلاد الروم فى عصر

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى الطبعة السابقة جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) أنظر الخريطة التى عربتها لأقاليم الروم فى آخر الكتاب .

وقد وصف أقاليم بيزنطة هذه (ابن خرداذبة) فى كتابه (المسالك والممالك) الذى نشره dc goeje سنة ١٨٨٩ بطبعة ليدن . وقد اعتنى أبو القاسم بن خرداذبة بقياس المسافات بين هذه البلاد وبعدها عن حواضر الإسلام ولم يصفها من الوجهة التاريخية أو الاجتماعية . وفى هذه الأقاليم جرى أكثر حروب سيف الدولة مع الروم وأسماؤها بالرومية .

Cilician, Anatolikoi, Cappadocia, Opsikion, Buccelarii. Armeniakol, Paphlagonia, Optimat oi Seleukeia...

وكل واحد من هذه الأقاليم يحتوى مدناً ذكر أكثرها من شعر أبى تمام والبحترى ثم فى شعر أبى الطيب وأبى فراس .

(٣) بكتابه السابق عن (الحضارة البيزنطية) الترجمة الفرنسية ص ١٤٨ .

سيف الدولة ومن قبله ، وما يتخذ الروم من التعبئة فقال : «لقد حصنت الحدود الإسلامية من جهة الروم تحصيناً قوياً فإذا هجم المسلمون على ناحية كان على الفرقة الرومية الحامية أن ترسل الخبر إلى كل الفرق التى بجوارها ، وهؤلاء يشيعون الخبر فيمن يجاورهم من الفرق وأهل الحصون ، ويتأهب الجميع للدفاع ريثما يأتيهم المدد من جيش القسطنطينية ، وتندب كل ناحية فرقة من حرسها فيتألف جيش سريع التعبئة يرفد الفرقة التى هاجمها المسلمون » . وكانت المعارك بين الروم والعرب سجالاً فى عهد سيف الدولة يكتب فيها الظفر حيناً للمسلمين وحيناً للبيزنطيين .

المعارك

١ ــ معركة خرشنة

لخرشنة (١) معركة وصفها المتنبي فى قصيدته العينية التى أولها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وقد مر سيف الدولة فى طريقه إلى هذه الغزوة على مدينة سمندو Tzamandos وعبر نهر (آلس Halys) الذى ذكره أبو تمام فى رومياته وهو نهر عظيم ، ونزل على مدينة ضارجة (٢) فأحرق ربضها وكنائسها وأرباض خرشنة وما حواليها ، وأعمل سيوفه ولبث أياماً هناك ، ثم كر راجعاً فعبر (آلس) وأخذ سمته إلى خرشنة بعد عزلها ــ بإحراق ربضها وما حواليها ــ فبلغها ليلا وحط رحاله فى بطن (اللقان) فجاءه الدمستق فى ألوف من الخيل وكان سيف الدولة ماهراً بفنون الحرب ، فلم يطلع على الدمستق إلا بسرية واحدة من سراياه ففرح بذلك ملك الروم وهو يظن أنها كل ما فى جيش أمير حلب ، وما راعه إلا سيف الدولة وقد طلع

(١) خرشنة Charsianon وهى بين إقليم أرمينيا والبقلار ، وقد وصفها شلمبرجه بأنها كانت مدينة ذات قلعة حصينة جبلية فى جهات ملطية Méliténe مسيرة خمس ساعات على الفرات . أما (ياقوت) فاقتصر على قوله فيها أنها مدينة قرب ملطية من بلاد الروم .

(٢) ضارجة Dharija فى أرض البقلار بناحية خرشنة .

ويتبين لى مناسبها بالرومية أنها (ضارجة) لا صارخة كما وردت فى قصيدة أبى الطيب هذه . وهو تصحيف لم يشر الى تصحيحه أحد . وقد روى ياقوت اسم هذه المدينة كما ذكرها ديوان أبى الطيب واستشهد عليها ببيته هذا :

مخلى له المرج منصوباً بصارخة له المنابر مشهوداً بهـــا الجمع

و ضبطها ياقوت صارخة بقوله بعد الراء خاء معجمة بعد الراء .

عليه بجيوش تملأ الفضاء كثرة لا قبل له بها . فنشبت المعركة بين الجيش العربى والجيش البيزنطى فى بطن اللقان، هائلة ضارية قتل فيها من فرسان الدمستق خلق كثير، وأسر من بطارقة رجاله وأعيانهم ما نيف على الثمانين شخصاً وأفلت الدمستق .

وغر سيف الدولة وجمعه مثل هذا الظفر فآبوا مترنحين بنشوة النصر ومعهم — كما يذكر (شلمبرجه) — مئة وعشرون بطريقاً . ولم يعلموا أن الروم قد ارتدوا بقيادة (قسطنطين بارداس) فقعدوا لهم فى بعض الطريق وأخذوا عليهم بعض مخارم الجبال ، فصبوا عليهم الصخور وأصلوهم غارة شعواء وأمعنوا فيهم قتلاً حتى تشتت جيش سيف الدولة وفر جمعه وتقطع جنده، فجعل سيف الدولة يستنفرهم فلا ينفرون ، فلم يجد بداً من أن يقتل أسراه خلاصاً من عبثهم وغدرهم ، واجتاز سيف الدولة فنجا وعاد إلى حلب (مهزوماً) .

ولهذا استفتح أبو الطيب قصيدته بذكر من يخدعون بالرجال ويظنون بهم بأساً . وما هؤلاء الرجال إلا أدعياء شجاعة، جبناء عند القتال .

وفى الأبيات الأولى من هذه القصيدة يقرر أبو الطيب أدب الحرب وشروط الفروسية، فليست عنده جمال وجه وإنما هى بأس كفاح . وما الفارس إلا الذى يثبت على الخيل ويوقرها إذا خفت وأرادت الفرار ، وكان دمه هو الذى ينسكب من أعطافها فيقول فى شرط الفارس :

وفارس الخيل من خفت فوقرها ... فى (الدرب) والدم فى أعطافه دفع [١]

وكان مفروضاً فى أبى الطيب أن يتمدح بقيادة سيف الدولة وتوحده بالشجاعة حتى يخفف من أحزان إنكساره فى هذه الموقعة فقال :

بالجيش تمتنع السادات كلهم ... والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع
قاد المقانب أقصى شربها نهل ... على الشكيم وأدنى سيرها سرع

ثم ذكر مسيره فى البلاد البيزنطية لا يعوقه بلد عن بلد فهو يزرع الموت أينما سار فى ديار الروم حتى جثم على أرباض (خرشنة) فكان فيه شقاء الروم وبيعها وصلبانها ، فسبى

(١) الدرب طريق الروم . وورد فى كتاب مراصد الأطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ج ١ ص ٣٩٧ « إذا أطلق لفظ الدرب فإنما يراد به ما بين طرسوس والروم » .

نساءها وقتل ولدانها وأخذ أموالها ، وأوقد النار فى مزارعها الكثيرة .

لا يعتفى بلداً مسراه عن بلد ... كالموت ليس له رى ولا شبع
حتى أقام على أرباض (خرشنة) ... تشقى به الروم والصلبان والبيع
للسبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا ... والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وكانت عادة سبى المغلوب وانتهاب ماله واسترقاقه وبيعه وتخريب مدنه وتحريقها ، عادة حربية معروفة منذ كان الإنسان المحارب على الأرض . فإن الأمم القديمة كانت شديدة الضراوة ، فقد كان الآشوريون والكلدانيون يثقبون شفاه الأسرى ويربطونها بحبال يشدونهم منها ، ليقودوهم ، وليعرضوهم على الناس فى هذا العذاب والهوان . وكان الفراعنة والرومان يربطون أسراهم بحبال يعلقونها وراء العجلات ثم يطلقون الخيل بالسياط ما وسع السوط . ويشهد عذاب الأسرى القوم الظافرون فى حفل عظيم ، كما تقدم وصفه .

وإذا فعل سيف الدولة ذلك بمدن الروم وأسرى البيزنطيين ، فإنما هو يكيل لهم بمثل ما كالوا به إذ كانت الحرب سجالا بين المسلمين والروم منذ فتوح الخلفاء الراشدين إلى آخر الحروب الصليبية ، يغزو الروم ثغور العرب فيحرقونها وينهبونها ويسبون نساءها ويسترقون الرجال ويقفلون بالأسرى والغنائم ، كما فعلوا (بزبطرة) .

فيغزوهم العرب للانتقام أو للفتح وينتقمون منهم مساءتهم التى أسلفوها ويصلونهم النار التى أصلوها كما فعلوا (بعمورية) .

ثم يمضى أبو الطيب بقصيدته — كما قدمت فى وصف المعركة من أن الدمستق ظن أن القلة فى جيوش سيف الدولة ثم لم يلبث أن طلعت عليه جحافله فيصف ذلك متخذاً من عينى الدمستق (اللتين خانتاه فى تقدير العدد) وسيلة إلى أداء هذا المعنى معبراً بسواد الغمام عن كثافة الجنود وخفيف الغمام وهو القزع عن قلة الجنود .

لام الدمستق عينيه وقد طلعت ... سود الغمام فظنوا أنها قزع

ويعكف أبو الطيب بعد هذا البيت على تصوير خيل الحمدانيين فيصف الكماة عليها بأن الرجل فيهم من طول ما تمرس بالحرب وركوب الخيل هو بالنسبة إلى الأعمار الحربية فى سن الفطام ، فقد رضع لبان الحرب حتى استتم غذاءه منها ففطم وهو فى عمر الرجال . أى أن الفارس الحمدانى سلخ سن الرضاع من الحرب منذ الصبا حتى صار فى عداد

الرجال (وسن الرجال هو سن الفطام الحربى) .

وهؤلاء المفطومون الرجال هم على جياد كسبت بمرانتها على الحرب كل عام من عمرها عامين ، فحوليها وهو ذو السنة الواحدة معدود بمنزلة (الجذع) من الخيل وهو ذو العامين.

فيا عجبا لأبى الطيب فى مقدرته على الوصف الدقيق واستعماله معانى الأعراب وتعابيرهم البدوية ولقد جعل كثرة السنين فى الحرب شرفاً لعمر الرجال ، وقلة السنين فى عمر الخيل إصالة لها وكرماً مع التمرس بالحرب . فقال فى الجيوش الحمدانية الكثيفة :

فيها الكماة التى مفطومها رجل   على الجياد التى حوليها جذع

ثم ذكر (اللقان) وهو مكان بالروم وراء خرشنة وقد جاءته تلك الخيول راكضة فملأ غباره مناخرها وكان الماء الذى كرعته الخيول من نهر (آلس) ما زال يعتلج فى حناجرها ، فقال :

يذرى (اللقان) غباراً فى مناخرها   وفى حناجرها من (آلس) جرع

فلم يعجب هذا المعنى ياقوتاً فقال فى معجم البلدان [١] « وهذا البيت من إسرافات المتنبى فى المبالغة لأنه يقول إن هذه الخيل شربت من ماء (آلس) فلم يتعد حناجرها حتى أذرى اللقان الغبار فى تلك الحناجر . يعنى سارت من آلس إلى اللقان فى مدة هذا مقدارها وبينهما مسافة بعيدة .

وتابع المتنبى وصفه فقال إن هذه الخيل وقد جاءت راكضة ممعنة فى عدوها كان فرسانها يتلقون بها أعداءهم لتدوسهم بحوافرها ، وكان طعن الفرسان وهم فوقها يشق لها طريقها ويحدث لها بين صفوف الروم أجوافاً تسعها . وأظلمت الوقيعة من كثرة ما علا من الغبار ولكن كان يهدى تلك الخيل فى ظلمات تلك المعركة المتلاطمة شمع تضىء ناره ، خلقته عبقرية الخيال عند المتنبى فجعلته من أجسام الرماح ، وأما ناره التى كانت تضىء فهى الأسنة .

وكانت تلك الخيل العربية الضامرة الواثبة إذ تخشى الروم تدمر عليهم مسرعة ، حتى تركبهم وتغشاهم ، لا يصدها فى قفزها عليهم سهام ، ولا يعوقها عن وثوبها برد بلادهم . فقال فى تلك الخيول وفى الروم .

---

(١) مادة اللقان .

كأنهـــا تتلقاهم لتسلكهم ... فالطعن يفتح فى الأجواف ما يسع
تهدى نواظرها ، والحرب مظلمة ، ... من الأسنة نار والقنا شمع
دون السهام ودون القر طافحة ... على نفوسهم المقوّرة المزع (١)
أجل من ولد (الفقاس) منكتف ... إذ فاتهن وأمضى منه منصرع (٢)

ولم يترك أبو الطيب وصف البطارقة المقيدين بالأغلال ، وكانت أغلالهم على أيديهم وأرجلهم أمينة لا تخون من وكل إليها الحفاظ عليهم حتى تؤدى بهم إلى السيوف فتضرب أعناقهم . لكن هذه القيود الأمينة غير ورعة لأنها لا تشفق على الأسرى من عض الحديد . وهذه القيود تعوق البطارقة عن الخطو فتثقل خطاهم ، وإذا أرادوا النوم طردت أثقالها النوم عن جفونهم فقال :

كم من حشاشة بطريق تضمنها ... للباترات أمين ما له ورع
يقاتل الخطو عنه حين يطلبه ... ويطرد النوم عنه حين يضطجع

إلى ههنا يصف المتنبي فوز سيف الدولة ونصرته على الدمستق ولكنه لا يصارح كيف تحول النصر إلى هزيمة وإنما جعل أولئك الأسرى من الجيش الحمدانى الذين وقعوا فى قبضة الروم عسكراً خونة متخاذلين جازاهم الله بما صنعوا من خذل الأمير حين استنفرهم . وقد وصف هؤلاء الجنود لتهاونهم على الحرب ، بأنهم كالأموات فليس يأكلهم إلا الضباع فقال :

قل للدمستق إن المسلَمين لكم ... خانوا الأمير فجازاهم بما صنعوا
لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق ... فليس يأكل إلا الميتة الضبع

ولولا الإنكسار المر الذى ألم بسيف الدولة لما ذكر أبو الطيب أسرى العرب ، ولا ناقش فى أمرهم الروم ، ولا استخف بأسرهم ، ولكان الظفر المطلق سد عليه أمثال هذا الكلام الذى لا يطمع فيه إلا المقهور . ثم يتخذ من أولئك الأسرى عزاء للقهر فيزعم أن أسر الروم لهم كان فضلاً على سيف الدولة ، إذ تخلص منهم ، وكانوا جنوداً فيهم الفسل الدنىء ، وفيهم الرعديد . حتى إذا عاد الجيش العربى إلى حلب عاد وهو خالص من أولئك الجنود المأسورين . فقال فى هذا التعليل :

---

(١) المزع الخيول الخفيفة جمع مزوع ، والمقمورة الضامرة .

(٢) الفقاس هو Bardas Phocas فولده Nicephore Phocas أى قد هرب ابن فوكاس (نيسيفور) وسبق الخيل بفراره فلم تدركه « فأجل منه ماسور مشدود ، وأشجع منه مقتول مصروع » .

وإنما عرّض الله الجنود لكم　　لكى يكونوا بلا فسل إذا رجعوا

ثم يأخذ أبو الطيب بما أوتى من فن الحماسة ودقة الأداء فيهون الأمر على سيف الدولة فى هذه الهزيمة التى كانت بعد الظفر ، فيجعله بمنزلة من كان فوق الشمس فهو لا يكترث بمن يرفعه ولا بمن يضعه . ثم يجعل — فى شعره — الدهر يسعى إلى الأمير بالعذر . والسيف مؤتمر بأمره ، ينتظر يوم الانتقام ، وها هى ذى أرض الروم على طاعة فى الربيع والصيف فيقول :

من كان فوق محل الشمس موضعه　　فليس يرفعه شىء ولا يضـع

الدهر معتــذر والسيف منتظر　　وأرضهم لك مصطاف ومرتبـع

ويدل هذا الوصف على أن أبا الطيب كان مع سيف الدولة فى هذه المعركة لأنه كان قد حدث المتنبي بها صاحبه ابن جنى فروى له كيف كانت نصرة سيف الدولة وكيف ارتد الروم على المسلمين .

وإنى لأجد الدليل على شهود أبى الطيب لهذه الوقعة والهزيمة قوله يخاطب سيف الدولة فى آخر هذه القصيدة :

وقد حمدتك فى هول ثبت له　　حتّى بلوتك والأبطال تُمتقع

فيتبين من هذا البيت أن أبا الطيب شاهد سيف الدولة وهو يثبت فى الهول فحمده على ذلك ، ثم داخله الشك فتأكد عنده ثباته حير اختبره فى هذه الهزيمة التى كان فيها الأبطال المسلمون يقتلون ووجوههم ممتقعة .

كما أن (شلمبرجة) يذكر أن أبا الطيب كان مرافقاً لسيف الدولة فى هذه الوقعة وهزيمتها ويقول بأن اسمها (غزوة القفزة) وذلك أن الجواد الجبار الذى كان يركبه سيف الدولة قفز به من على عدوة الجبل قفزة عجيبة فنجا بها من القتل والأسر ومعه فئة من الرجال فيهم (أبو الطيب) [(١)] ، وكانت هذه الوقعة عليه أسوأ الوقعات ، وقد حدد هذا المؤرخ هذه المعركة بيوم ٢٠ تشرين الثانى سنة ٩٥٠ للميلاد [(٢)] .

---

(١) ص ١٣٣ من كتاب (شلمبرجة) عن نيسفور (هامش) .

(٢) يحدد ابن مسكويه فى كتابه تجارب الأمم ج ٢ ص ١٢٥ وقد وصف الوقعة باختصار على أنها جرت سنة ٣٣٩ للهجرة وسيأتى وصف هذا المصدر وطبعته .

ويذكر هذه الوقعة (يحيى بن سعيد الأنطاكى) فى تاريخه الذى نشره فاسيلييف وكراتشكوفسكى فى مجموعها Patrologia orientaliste الجزءXVIII طبع باريس١٩٢٤ص٧٦٨ ، أنسيف الدولة بلغ خرشنة منتصف ربيع=

وظل الدمستق بعد هذه المعركة يراوح ثغور العرب ويغاديها حتى أتى (مرعش) [١] فهم به سيف الدولة ، فلاذا بالفرار ، فلحقه بعد التحام قصير ، وكان الدمستق قد ترك أمواله وقتلاه .

ويظهر من شعر أبي الطيب أن الدمستق لما أتى (مرعش) بعد (معركة خرشنة) أوقع فى سورها تهديماً ، فشخص سيف الدولة (سنة ٣٤١ هـ) لطرد الروم ، ففرق المال على أهل الثغور الفقراء ، وبنى السور فأقامه وعلاه ، وبنى القلعة فى شاهق السور . وكان شخوصه بجيش لجب يسد الفضاء ويملأ وجه الليل . وأرى أن المتنبي (لم يكن فى هذه السرية) وإنما لبث فى حلب . ولما قفل سيف الدولة من طرد الدمستق وإغاثة المنكوبين من أهل الثغور خرج أبو الطيب للقائه . فلما استشرف وفد اللقاء الذى فيه المتنبي ، ولعله كان على ربع فى ظواهر حلب) ترجل المتنبي وصحبه للإلمام بسيف الدولة كرامة أن يصلوا إليه راكبين فى مكان لقائه ، فقال .

فديناك من (ربع) وإن زدتنا كربا ... فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
نزلنا من الأكوار نمشى كرامة ... لمن بان عنه أن نسلم ركبـــا

* * *

هنيئاً (لأهل الثغر) رأيك فيهم ... وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
فيوماً بخيـــل تطرد الروم عنهم ... ويوماً بجود تطرد الفقر والجدبـــا
سراياك تـــترى والدمستق هارب ... وأصحابه قتـــلى وأمواله نهـــبى
أتى (مرعشاً) يستقرب البعد مقبلا ... وأقبل إذ أدبرت يستبعد القربـــا
مضى بعدما التف الرماحان ساعة ... كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولـــكنه ولى وللطعن ســـورة ... إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبـــا

الأول سنة ٣٣٩ وأنه بعد ظفره أخذ عليه الروم ناحية فى (الدرب) معروفة (بمقطع الأظفار) فأوقعوا به وهلك جمعه وارتجع الروم السبى الذى كان المسلمون غنموه ، وأخذوا سواده وكراعه وأمواله ، وغنموا غنيمة عظيمة ، أفلت سيف الدولة مع نفر يسير (منهزماً) فى منتصف جمادى الآخرة من هذه السنة (فتكون غزوته فى ثلاثة أشهر) وقد سمى الثغريون هذه الغزاة (غزاة المصيبة) .

(١) مرعش بالرومية Germanikeia .

ولا بد من الإشارة إلى أن ترتيب أبيات هذه القصيدة فى كل نسخ الديوان جاءت على صورة واحدة . وذكر البيت الذى يشير فيه المتنبي إلى بناء سور مرعش منفرداً عن (ضميره) ولا صلة له بسابقه وأرى صواب ترتيبه أن يذكر بعد بيت (كفى عجبا) ، فيكون :

كفى عجباً أن يعجب الناس أنه ... بنى مرعشا تبا لآرائهم تبـا

فاضحت[1] كأن السور من فوق بدئه ... إلى الأرض قد شق الكواكب والتربا

ثم يتم أبو الطيب القصيدة بوصف الجيش الذى شخص به سيف الدولة :

وجيش يثنى كل طود كأنـه ... حريق رياح واجهت غصناً رطبـا

كأن نجوم الليل خافت مغاره ... فمدت عليها من عجاجته حجبا

وكان ملوك الروم فى تاريخ حروبهم مع المسلمين يطلبون منهم الهدنة أو الفداء أو تبادل الأسرى وتدفعهم إلى ذلك أسباب من فتن السياسة التى كانت تقع كثيراً فى القسطنطينية ، أو من ضعف الجيوش البيزنطية أو اختلاف قوادها أو لوجود كثرة فى

---

(١) أى مرعش .

الأسرى . وقد يطلب العرب هم الفداء وتبادل الأسرى أيضاً وقد يطلبون الهدنة .

وفى كتاب (التنبيه والإشراف) للمسعودى مؤلف مروج الذهب [١] باب خاص بالأفدية. فمن أيام الخليفة الرشيد إلى أواخر خلافة المتوكل حصل خمسة أفدية جمعت عدد ما فودى فيها من المسلمين بين ذكر وأنثى فى عشرة آلاف وسبعمئة أسير [٢] . وكانت تحصل هذه الأفدية على نهر (اللامسُ) (الذى قدمت ذكره ووصف الفداء عليه) .

وقد حصلت المفاداة والهدنة بعد أن أرسل ملك الروم وفداً إلى سيف الدولة عقب معركة خرشنة وسرية مرعش ، فجاء الرسول البيزنطى فى سبيل الفداء والهدنة ورأى فى طريقه قتلى قومه .

فذلك حيث يقول أبو الطيب فى القصيدة القافية :

رأى ملك الروم ارتياحك للندى   فقـــام مقام المجتدى المتملق
وكاتب فى أرض بعيد مرامها   قريب على خيل حواليك سبق
وقد سار فى مسراك منها رسوله   فما سار إلا فوق هام مفلق

وينبغى أن يكون سيف الدولة قد تلقى سفير ملك الروم فأقام له (استقبالاً) فى صفين فى سماط وتصدر وهو فى ذلك على عرشه . فوصف أبو الطيب هذا اللقاء بقوله عن السفير :

فأقبل يمشى فى السماط فما درى   إلى البحر يمشى أم إلى البر يرتـــقى

وكان دليل الهدنة المؤقتة بين العرب والروم فى تلك الفترة قول أبى الطيب بعد ذلك :

فإن تعطه بعض الأمان فسائل   وإن تعطه حد الحسام فأخلق

---

(١) طبع ليدن سنة ١٨٩٣ وقوف de goeje ص ٢٨٩ .

(٢) من أمر ما حصل للمسلمين خلال هذه الأفدية ماذكره المسعودى فى كتاب(التنبيه والإشراف)هذا ، أنه فى الفداء الثالث فى خلافة الواثق أمر القاضى أحمد بن أبى دؤاد ولى الفداء أن يمتحن المسلمين من الأسرى فمن قال (بخلق القرآن) فودى به ومن لم يقل بذلك ترك بأرض الروم بغير فداء وأن جماعة من الأسرى المسلمين اختاروا الرجوع إلى أرض النصرانية إباء منهم أن يقولوا بتلك المقالة التى لا يعتقدونها .

٢ – معركة الثغور

سميتها معركة الثغور لما وقع فيها من سلسلة معارك فى أمصار الثغور ، رقد وقعت سنة ٣٤٣ للهجرة بعد أن أطلق الحمدانيون أسرى الروم وانقضت الهدنة إذ كان سيف الدولة فى ديار بنى مضر يخمد ثورة بنى عقيل وقشير وعجلان ، ويأخذ منهم الرهائن فحدث له رأى فى الغزو ، فجاء الثغور حتى بلغ سميساط ، وبلغه أن العدو فى بلد المسلمين فخرج إلى بلاد دلوك وصنجة وعرقة وموزار وملطية وقباقب وهنزيط وسمنين ، وهو معمل سيوفه يلقى الروم بالمعركة بعد المعركة حتى انهزموا. وكان يقود الجيوش البيزنطية (قسطنطين برداس فوكاس) القائد (وهو رأس الجيش الأعظم زمن إمبراطور الروم قسطنطين السابع البورفيروجينى)[١] وثالث أرلاد قسطنطين برداس فوكاس وكان ما يزال شاباً. ففر الأب القائد وترك أبنه أسيراً فى أيدى الحمدانيين .

وقدورد فى تاريخ (شلمبرجة) لعصر نيسيفور أن هذه الموقعة كانت سنة ٩٥٣ للميلاد[٢] فراح خيال المتنبى فى وصف هذه المعارك بادئاً بتصوير الخيل وهو المولع فيها العارف بحقيقة شياتها وصفاتها ، فرسمها وقد رمى بها سيف الدولة درب الروم إلى العدى ، فانطلقت وكأنها السهام . ومضت وهى تغذ الركض رافعة أذنابها وهى فى مرح وصهيل تحت الفرسان، وإنها لخيل شفها الركض لا تقف فى بلد نهاراً حتى تسرى إلى غيره ليلاً ، إلى أن كبست الروم فما شعروا حتى رأوها تمطرهم بالحديد وتظلهم بالسيوف ، كما يصف ذلك أبو الطيب بقوله :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى　　وما علموا أن السهام خيول
شوايل تشوال العقارب بالقنا　　لها مرح من تحته وصهيل
وخيل براها الركض فى كل بلدة　　إذا عرست فيها فليس تقيل
فما شعروا حتى رأوها مغيرة　　قباحا وأما خلقها فجميل
سحائب يمطرن الحديد عليهم　　فكل مكان بالسيوف غسيل

---

(١) Constintin Porphyrogénète

(٢) ص ١٣٣ وكتابه هذا موصوف فيما سلف .
وذكر هذه الوقعة ابن سعيد الأنطاكى فى تاريخه المتقدم ذكره فقال فى ص ٧٧١ يزيد على ذلك أن البطريق لأون الملائنى Leon le Maleinos قتل فى هذه المعركة .

وكان جنود هذه المعركة من الفرسان فلم يزايلوا ظهور الخيل ، وظلوا يمرون من قرية إلى قرية يسكبون دماء الروم ويخوضون فى اللبات والنيران تسايرهم؛ والروم بين ذلك صرعى، حتى أتت خيول سيف الدولة إلى ملطية :

فخاضت نجيع القوم خوضاً كأنه | بكل نجيع لم تخضه كفيل
تسايرها النيران فى كل منزل | به القوم صرعى والديار طلول
وكرت فمرت فى دماء (ملطية) | ملطية أم للبنين ثكول
ودون سميساط المطامير والملا | وأودية مجهولة وهجول

ووصف المتنبى سيف الدولة كيف فر منه برداس وكيف بقى ابنه قسطنطين ممتلىء القلب عجباً رازح الساق من القيود الوهمية التى يحس بها فى الأسر ، ثم جعل المتنبى يتهكم بطول جيوش الروم وعرضها ويعد عليا الحمدانى — وهو سيف الدولة — أكول تلك الجيوش وشروبها . ولكم أبدى علماء البلاغة وبعض الناقدين [١] امتعاضاً من قول أبى الطيب (علىّ شروب للجيوش أكول) لما فيه من تفاهة الوصف والصوغ . ولكنه فى معرض الحماسة والبعد عن الصنعة قد أفاد فى الرد على تلك الجيوش الرومية ذات الطول والعرض، فقال فى سيف الدولة والروم :

فودع قتلاهم وشيع فلهم | بضرب حزون البيض فيه سهول
على قلب (قسطنطين) منه تعجب | وإن كان فى ساقيه منه كبول
لعلك يوماً (يا دمستق) عائد | فكم هارب مما إليه يؤول[٢]
أتسلم للخطية ابنك هارباً | ويسكن فى الدنيا إليك خليل
أغركم طول الجيوش وعرضها | علىّ شروب للجيوش أكول

ولم يدع أبو الطيب ذكرى هذه المعركة الكبرى التى وقعت فى بلاد كثيرة من الثغور فقد ردد هذه الذكرى حين هنأ سيف الدولة بعيد الأضحى إذ أنشده فى ميدان حلب وتحت دار سيف الدولة وهما على فرسيهما قصيدة التهنئة بالعيد وبالنصر [٣] فوصف ابن

(١) يتيمة الدهر الطبعة السابقة ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) يريد (بالدمستق) قائد الحملة (برداس فوكاس) واسمه الكامل (قسطنطين برداس فوكاس) الذى قيدت ساقيه هذه الهزيمة وملكت عليه قلبه بالدهشة والتعجب .

(٣) راجع الكتاب القيم الذى ألفه بلاشير عن أبى الطيب المتنبى وهو :

Un Poète arabe du IVe. siècle de l'Héjire (Xsiècle de j-c) About — tayyibb al Motanabbi

طبع باريس سنة ١٩٣٥ حيث يقول فيه عن هذه القصيدة وقد ترجم كل أبياتها إلى الفرنسية فى كتابه (ص 172) إن فيها نفحة حماسية تميزها من سائر قصائد المتنبى ويطرفها ما فيها من وصف الأقاليم

(الدمستق) الذى وقع فى الأسر كأنه قد مات وقد عاش أبوه لفراره ونجاته . وشرح أبو الطيب فى هذه القصيدة أيضاً أن الجيش كله قد وقع فى الأسر . وأن (برداس) الهارب لم يجد له عزاء سوى لبس المسوح التى يلبسها الرهبان والاعتكاف فى الدير . وكان ذلك دأب القادة البيزنطيين حين يخسرون الحروب فيلجؤون إلى الديارات للسلوى . فصور أبو الطيب كل ذلك وخلع على فنه فيه مسحة تهكم فقال فى الدالية بعداللامية التى أنشدها سيف الدولة فى تهنئة العيد :

لذلك سمى ابن الدمستق يومه ... مماتا وسماه الدمستق مولـدا
فولى وأعطاك ابنه وجيوشه ... جميعاً ولم يعط الجميع ليحمدا
وما طلبت زرق الأسنة غـيره ... ولكن قسطنطين كان له الفدى [١]
فأصبح يجتاب المسوح مخافة ... وقد كان يجتاب الدلاص المسردا [٢]
ويمشى به العكاز فى الدير تائبا ... وما كان يرضى مشى أشقر أجردا

ومن المفروض أن ملك الروم بعد أسر ابنه جعل يتحبب إلى سيف الدولة ويرسل إليه الرسول إثر الرسول لفكاك ولده ، وقد كان ذلك . فجاءه (رودس) [٣] رسول قسطنطين السابع سنة ٣٤٣ للهجرة فحشد سيف الدولة للقائه جيوشاً حال ثقلها بالباب دون دخول أبى الطيب. فلما أدخل أبو الطيب حيث كان الحفل، وصف السفير أنه (قبل الأرض ثم قبل كم سيف الدولة). وأجد هذا عند أبى الطيب تسجيلا للطراز الديبلوماسى الذى كان يسلم به السفراء البيزنطيون على الملوك فى القرن العاشر للميلاد ، وهو طراز السلام لدى سفراء الفرنجة فى القرون الوسطى ، ولكنهم لم يكونوا يقبلون الأرض ، وإنما كانوا يرجعون خطوتين إلى الوراء ووجوههم تلقاء الملوك الذين يؤدون التحية إليهم ، ثم يمسون الأرض بأطراف قبعاتهم ذوات الريش، ثم يلوحون بها ميلامع الخطوتين الراجعتين . لكن السفير البيزنطى قد قبل الأرض قبل أن يقبل كم سيف الدولة .

= البيزنطية التى جرى فيها القتال فهى بلا ريب واحدة من أروع قصائد أبى الطيب .

(١) كان ابن قسطنطين برداس قسطنطين فوكاس (فاسمه كاسم أبيه) .

(٢) يجتاب يلبس ، والدلاص المسرد : الدرع البراقة المنسوجة .

(٣) يذكر (بلاشير) فى كتابه عن المتنبى ص 174 أن هذا الرسول كان الحاكم بول (le Magester Paul) ومعه وفد من السفراء .

وأرى أنه أدى التحية لسيف الدولة لدن مثوله بين يديه ، تلك التحية (الرسمية) وهو يمس بيده الأرض ثم يعيد يده إلى فمه . وهو نظام (البروتوكول الرومى) فقال أبو الطيب عن هذا الرسول وهو يتقدم متجهاً نحو سيف الدولة فى مكان مثوله بين صفين من الكماة :

وقبّل كـُمـًّا قبّل التربَ قبـلـه   وكل كميّ واقف متضائل

وأخذ المتنبي يمن على رسول الروم بتقبيل كم الأمير فقال :

مكان تمناه الشفاه ودونـه   صدور المذاكى والرماح الذوابل

ولم يصرح أبو الطيب فى هذه القصيدة بأن سيف الدولة منّ على الرسول بفكاك ابن قسطنطين فقبِل سفارة الرسول ، أو أن ابن قسطنطين كان سجيناً أو عزيزاً فى أسره ، أو أنه قضى نحبه فى ديار المسلمين . وليس عليه كل ذلك وهو من الشعراء ، وإنما ذلك على المؤرخين ، فقد ذكر (شلمبرجه) أن الشاب الأسير (قسطنطين فوكاس) ابن قسطنطين برداس قائد إمبراطورية بيزنطة [1] مات فى حلب لأن سيف الدولة رفض تسليمه فقال هذا المؤرخ [2] : « لكن سيف الدولة وهو البطل الأبى على الدوام الشريف فى خلاقه كتب كتاب تعزية إلى أبيه التعس وسلم الجثة إلى نصارى حلب فلفوه بأكفان ثمينة وأدرجوه فى ضريح من أضرحة كنائسهم » .

فكان قول (شلمبرجه) الذى استقاه من المؤرخين البيزنطيين ، وقول الأنطاكى ، تتمة لما جاء فى شعر أبي الطيب عن أخبار معركة الثغور وعقباها [3] .

٣ — معركة الحدث الحمراء

وصف المتنبي (الحدث) بالحمراء [4] لكثرة ما أريق عليها من دماء البيزنطيين . وكان الروم قد خربوا مكانها المنيع منذ سنة ٣٣٧ هـ فجاءها سيف الدولة لإعادة بنائها سنة

(١) أبناء الدمستق قسطنطين برداس فوكاس شيخ القواد البيزنطيين هم :
نيسيفور فوكاس ، ليون فوكاس ، قسطنطين الشاب هذا .

(٢) ص 134 من تاريخ نيسيفور السابق . وذكر ذلك يحيى بن سعيد الأنطاكى بكتابه المتقدم ص 771 أنه جرى موت ابن قسطنطين بحلب ودفنه ، ولم يذكر كتاب التعزية الذى ذكره (شلمبرجه) .

(٣) يزيد (بلاشير) فى كتابه عن المتنبي (ص 176) أن ابنا شاباً لنيسيفور فوكاس مات فى هذه الوقعة أيضاً .

(٤) قامت الحدث على تل يسمى بالأحمر فسميت لذلك بالحمراء (ياقوت) .

(٣٤٣ هـ) فباشر بيده خط أساسها فدهمه (برداس فوكاس) قائد الروم بعد يومين بجيش من البيزنطيين فيه خمسون ألفاً من الرجالة والفرسان ، فيهم البلغار والأرمن ، وكان معه ابنه (نيسيفور فوكاس) فحارب الحمدانيون البيزنطيين ، من طلوع الشمس إلى غروبها ، ولم يكن مع سيف الدولة غير خمسمائة من حرسه الخاص ، فخفقت الحماسة فى صدور رجاله حين رأوه يشق الصفوف إلى الدمستق . ويقول (شلمبرجه) لقد انهزم الروم وخسروا ثلاثة آلاف قتيل [١] . وأسر سيف الدولة جمعاً من البطارقة والأراكنة Archontes فظلوا فى أيدى العرب ، وقتل فى هذه الوقعة (ابن بنت برداس وصهره كوديس الأعور ، وأسر قائد بلدى ليكاندوس وتزامندوس وسجن . وهما بلدان بيزنطيان خطيران) أما نيسيفور فوكاس وكان يومئذ أحد القواد فى جيش أبيه فلم ينج إلا باختفائه فى نفق حتى إذا سطا الليل فر تحت ظلامه ولحق بفلول جيشه المنقطع فى الدرب ، المحثحث خطاه نحو القسطنطينية .

لم يعتن مؤرخو العرب بتفصيل وقائع سيف الدولة الخطيرة التى غيرت تاريخ الإسلام برمته فى غربى العراق زمن الدولة العباسية ، حتى إن شراح قصائد أبى الطيب جميعاً كانوا يقدمون على القصائد نتفاً تبين بعض معالمها التاريخية ، غير أن ذلك غير واف بغرض التاريخ السياسى الذى ينبغى أن يفهم فى نوره مثل هذا التاريخ الأدبى . على أن القصائد لا تتطلب فى مفاتيحها مثل ذلك ، لكن تاريخ الأدب الصحيح لا بد أن يرفده التاريخ السياسى ليفهم (النص) على وجهه الأسمى . لذلك فقد وجدت (جوستاف شلمبرجة) و (فاسلييف) و (دييل) و (ماريوس كانار) قد أفاضوا فى تحقيق التاريخ البيزنطى وربطه بحوادث العرب وانفرد (شلمبرجة) من بينهم بالتوضيح والإسهاب فى ربط هذه الحوادث الرومية بحوادث سيف الدولة . وبه قد استعنت ، فقد درستُ قصائد المتنبى الحماسية فى الحرب الرومية مستنيراً بالحوادث التاريخية التى رواها عن سيف الدولة والبيزنطيين لتجىء هذه الدراسة الحماسية أقرب إلى القصد ، وأتم لغرض تاريخنا الأدبى الحديث .

فكذلك يقول (شلمبرجة) إن سيف الدولة لم يترك مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها وحتى وضعت فيه آخر لبنة بمشارفته [٢] فى ١٢ تشرين الثانى سنة ٩٥٤ للميلاد ١٣ من

---

(١) (تاريخ نيسيفور لشلمبرجه) ص 135 . وقد انفرد (شلمبرجه) بهذه الأخبار الخطيرة وأسماء الأسرى الروم دون مؤرخى العرب .

(٢) إن التواريخ التى جاء بها (بلاشير) لهذه الموقعة فى كتابه عن المتنبى ص 176 =

رجب سنة ٣٥٣ للهجرة) .

ولما استقر الدمستق فى القسطنطينية « طلب البيزنطيون الهدنة فرفض سيف الدولة لأنهم كانوا قد قتلوا من قع فى أيديهم من الأسرة الحمدانية » [١] .

* * *

وضع أبو الطيب المتنبي عن معركة (الحدث) قصيدة أولى أردفها بعد عام بقصيدة ثانية عن (الحدث) نفسها ، إذ كان الروم عادوا إلى شن الغارة عليها بعد بنائها .

أما القصيدة الأولى التى يصف فيها معركة (الحدث الحمراء) فإنه يبدأ وصف المعركة بتهويل ، فيتساءل هل كانت الحدث الحمراء تعرف لونها من كثرة الدم الذى صبغ أرضها والنار التى حمرت بناءها وجوها ؟ وهل كانت الحدث الحمراء تعلم أى الساقيين يسقيها الغمام أو الجماجم ؟ لكثرة ما ضرب الحمدانيون من رؤوس الروم ، فقال :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أى الساقين الغمائم [٢]
سقتها الغمام الغر قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم [٣]

فكان ذكر الغمائم التى سقتها أمطارها قبل وصول سيف الدولة إليها تأريخاً لوقوع المعركة فى الشتاء ، وقد وقعت المعركة والبناؤون ماضون فى بناء سور الحدث وإعلائه ليكون دريئة المسلمين من الروم والروس ، فكانت المنايا تتلاطم حوله تلاطم الأمواج ، فقال أبو الطيب

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطم
وكيف ترجى الروم والروس هدمها وذا الطعن آساس لها ودعائم [٤]

ثم وصف الجيش الرومى الذى زحف به الدمستق وقواده (وقد أوردت ذكر هذا

= أن موعد التلاحم بين البيزنطيين والحمدانيين فى هذه المعركة يوم الاثنين ٢٩ جمادى الثانية سنة ٣٤٣ الموافق ٣٠ من تشرين الأول سنة ٩٥٤ وأن الانتهاء من بناء سور الحدث كان فى ١٣ رجب سنة ٣٤٣ الموافق ١٢ من تشرين سنة ٩٥٤ .

(١) هامش ص 135 من كتاب (شلمبرجه) السابق .

(٢) شرح هذا البيت المعلم البستانى فى نسخة الديوان ط بيروت سنة ١٨٦٠ هامش ص ٢٥٦ فقال (أى : وهل تعلم أى الساقيين يسقيها : الغمائم أم الجماجم ، وحذف الجماجم اكتفاء بالغمائم) .

(٣) الضمير فى نزوله ودنا عائد إلى سيف الدولة .

(٤) كان فى الجيش البيزنطى مطوعة من الروس من جهات شمال أرمينية ومن بلاد القفقاس . وكانت على أفراسهم الجواشن تغطى قوائمها فذلك قول المتنبى فى هذه الجياد المصفحة :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم

الجيش عند الكلام على وصف الشعر العباسى للجيوش) وتبسطتُ فى تحليل هذه القطعة الحماسية التى صور فيها أبو الطيب سيف الدولة وقد وقف (يستعرض) جيشه المنتصر ويشهد انهزام جيش الروم، فكان واقفاً فى جفن الردى والردى عنه نائم، والأبطال البيزنطيون الكلمى من الهزيمة تمر به وهو وضاح الوجه باسم الثغر .

وكان من دأب أبى الطيب المولع بوصف الخيل أن يتبسط فى شعره الحماسى عند ذكرها ، فصور هذه الخيل كيف لحقت بالروم المنهزمين فى قنن الجبال وقد انتشروا فوق جبل (الأحيدب) (١) فكانت خيول سيف الدولة تتبعهم فى تلك الذرى فتدوس وكور النسور التى كثرت عندها جثث القتلى من الروم فكانت خير وليمة للنسور الجياع . وأن فراخ العقاب وقد هيجتها تلك الخيول لتطل من أوكارها تظن أن الخيول أماتها وقد جاءتها بالمطاعم . وأن تلك الخيول التى تمرست بصعود الجبال ، إذا زلقت قوائمها مشت بسيف الدولة وأجناده على بطونها كأنها الأفاعى تتمشى على الصعيد .

فقال شاعر المعارك الحمدانية مع الروم فى هذا الخيال الرائع ، وهو يعنى سيف الدولة والروم :

نثرتهم فوق (الأحيدب) نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم
تدوس بك الخيل الوكور على الذرى ... وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظن فراخ الفتخ أنك زرتها ... بأماتها وهى العتاق الصلادم (٢)
إذا زلقت مشيتها ببطونهـــا ... كما تتمشى فى الصعيد الأراقم

---

(١) يقول الأستاذ بلاشير فى كتابه عن المتنبى ص 176 إن (الأحيدب) اسم حصن، وأراه جبلا كما يظهر من شعر المتنبى وكما يدل عليه اسمه . وقد حدد بلاشير جيش البيزنطيين فى هذه الوقعة بخمسمئة ألف من الجنود المنظمين .

(٢) الفتخ جمع فتخاء وهو العقاب . والعتاق الصلادم كرائم الخيل الصلاب .

ثم يستغرب أبو الطيب كرور الدمستق على الثغور حيناً بعد حين بغير أن يحيق به الخجل من كثرة هزائمه وانكساره . وكان جديراً أن يولى ظهره ولا يولى وجهه ، وها هنا يذكر أبو الطيب أحد أبناء قائد الروم الذى قتل فى هذه المعركة وقتل معه صهره وابن صهره فيقول :

أفى كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم
وقد فجعتــه بابنه وابن صهره وبالصهر حملاتُ الأمير الغواشم

وكان أبو الطيب أول من وصف هذه الحروب مع البيزنطيين بأنها ليست حروباً خاصة بين ملك الروم وملوك العرب (ولكنها حرب بين الإسلام والشرك) فقال :

ولست مليــكاً هازماً لنظــيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

فكان منه ذلك أول أعلان لوصف الحرب الحمدانية بأنها ملحمة كبرى بين الإسلام كافة والروم كافة . وقد دعا الروم منذ ذلك اليوم لمثل هذا المعنى فعمموا دعوتهم حتى بلغت أوربا وانتشرت فيها كلها . وجعلت هذه الدعوة تقوى فى بلاد الفرنجة وراء البحار حتى تحولت على عهد عاهلَى الإســلام نور الدين وصلاح الدين إلى (حرب صليبية [١]) يجىء بها ملوك الغرب الجبابرة إلى حرب المسلمين فى طول الشواطىء الشامية(لسورية)، وفى عكا وصور وعند أسوار بيت المقدس ، فتكون الغلبة الأخيرة للعرب بعد أن تتصدع تلك البلاد سنين طوالاً ، وقد كانت بركاناً يغلى على الشاطىء الشرقى للحوض الأبيض ، ثم عرفت الهدوء حيناً من الدهر ونامت لتستريح ، ثم نهضت من غفوتها فى تاريخنا الحديث على نار ثانية تلفحها من صوب الغرب. وعلى يقظة قومية هبت لها العروبة فى كل بلاد العرب لتتصل حاضرها العربى الكبير بماضيها العظيم

يقول (شلمبرجة) [٢] إن أبا الطيب كان مع سيف الدولة فى هذه المعركة الرابحة ، وكان يحارب الشاعر إلى جنب الأمير ، فنظم لهذه المعركة قصيدة أنشدها سيف الدولة فى راحة من المعركة عند المساء « وهذه القصيدة ذات شعر فياض وتفصيل يغرى ، وهى الأنشودة الحقيقية للأبطال المسلمين المتقين الظافرين على المسيحيين » ثم يترجم شلمبرجة قصيدة (الحدث الحمراء) إلى الفرنسية ترجمة دقيقة حافظ فيها على روح الشعر العربى

---

(١) يقول شلمبرجه فى ص 139 من كتابه نقلا عن المؤرخ (رامبولد) : إن قسطنطين السابع كان يدعو الشرق والغرب والهيلانيين والفرنك إلى البدء بعصر (الحرب الصليبية) .

(٢) كتابه ص 128 (السابق) .

الذى خلد فيه أبو الطيب سيرة حروب سيف الدولة .

ولعل اسم المتنبي قد بلغ البيزنطيين وعرفوا خطر شعره عليهم، فوجب أن يذكروه فى تاريخ حروبهم مع المسلمين . وكان مؤرخهم (سيدرنوس Cedrénus وهو أكبر مؤرخى البيزنطيين فى القرن العاشر يذكر تلك الحروب ويسجلها بإسهاب وتفصيل .

* * *

كان بناء الحدث الحمراء وتملُّك العرب لحصنها شوكة فى جنب الروم ، لأنها باب الطريق إلى القسطنطينية . فجاء جيشهم الشرقى [١] إلى الإغارة عليها بعد عام من بنائها سنة ٣٤٤ للهجرة [٢] بقيادة ابن ملكهم (ليون) فوصف أبو الطيب سرية الروم هذه وما دار عليها من الأقدار التى دارت قبلها على آباء الروم وأخوالهم ، فقال .

لا ألوم ابن (لاون) ملك الروم وإن كان ما تمنى محالا [٣]
أقلقته بنية بين أذنيه وبان بغى السماء فنالا
يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها فيجمع الآجالا
نزلوا فى مصارع عرفوها يندبون الأعمام والأخوالا

ولم يأل أبو الطيب جهداً فى تسجيل وقائع سيف الدولة فى شعره الحماسى ، فقد كان يحثه عليها : حماسته ، وحبه للفروسية ، وكرم الأمير ، ومطالبته إياه بأن يقول فيها أكرم القصيد [٤] .

٤ — معركة الدرب

لئن كانت (معركة الدرب) هى آخر معركة وصفها المتنبي لسيف الدولة مع الروم ، وكانت قصيدته فيها هى آخر قصيدة فى سيف الدولة قبل رحيل الشاعر من حلب ، فقد وفر

---

(١) فى جمادى الأولى سنة ٣١٤ الموافق أواخر أب سنة ٩٥٥ (بلاشير . المتنبى ص 178) .

(٢) كان للبيزنطيين جيش خاص كامل النظام والعدة متهيئاً على الدوام لغزو المسلمين فى الشرق ولصد غزواتهم فى بلاد الروم ، وهو غير جيوش بيزنطة التى كانت معدة لمغازى بلاد البلغار والحروب الأوربية ، وهو غير الفصائل الحارسة التى كانت كل واحدة منها موكلة بإقطاع من أرض الروم لحماية الثغور الرومية من بغتات المسلمين .

(٣) أى تمنى تخريب قلعة الحدث .

(٤) ديوان المتنبى ط بيروت ص ٢٦٤

الدهر على أبي الطيب كبرى حوادثه وأفدح خطوبه ، إذ نجى عينيه — وكانتا تحبان سيف الدولة — أن تشهدا انكساره الأكبر ودوران الدائرة عليه وعلى جيوشه فى وقعة (مغارة الكحل [١]) التى سحق فيها نيسيفور فوكاس الجيش الحمدانى وكتب على سيف الدولة القهر الأخير ، وأفول النجم الحمدانى من سماء حلب ، إذ تصدعت أمام جيوش الروم الجرارة أبواب حلب فدخلوها وأحرقوها ، وجن فيها جنونهم فى النهب والسلب والقتل والاستعباد .

من لعينى أبى الطيب يوم ذاك ؟ وقد لجأ الأمراء الهاشميون والحمدانيون إلى قلعة حلب فاعتصموا بها ، وهى مشرفة من أعاليها وسط حلب [٢] على المدينة التى تخوض فى دمائها خيول الفرسان البيزنطية ، ونيسيفور يحرض عسكره على أن يمثلوا بالقتلى ويعملوا اليد فى المال والسلاح فى الرجال ، والسبى فى النساء ، ما استطاعوا من أقصى الجهد ، انتقاماً لعصور رومية مدخرة الأحقاد فى صدور البيزنطيين منذ الأجداد الأوائل . فشفوا أكبادهم فى تسعة أيام دامية .

لقد كانت هذه الفاجعة سنة (٩٦١ للميلاد) (٣٥١ للهجرة) وجرنيسيفور الأسرى معه وكلهم من خلص الرجال وسادة حمدان ونساء العرب ، فساقهم مصفودين إلى القسطنطينية فملأ بهم أطرافها وعرضهم الروم فى حفل عظيم بساحة (السيرك) [٣] وكان بين هؤلاء الأسرى (أبو العشائر الحمدانى Apolasar) كما يسميه (سيدرنوس) المؤرخ البيزنطى ، ووضع بين هؤلاء أيضاً أبو فراس الحمدانى ، الذى سنرى صورة فروسيته الشاعرة عما قليل — إذ كان قد وقع أسيراً قبيل حصار حلب .

لم يكن أبو الطيب يومئذ فى حلب وإنما كان فى مصر حزيناً عند كافور ، ومن يدرى لعله بكى طويلاً فى الفسطاط على الحبيب الأول غير المعمم فتى الفتيان الحلبى . أو لعله أشفق على نفسه أن يبقى فى حلب ، وقد توقع لها مثل هذا المصير المخيف . وكان قد قوى عليه ضغط الحساد فى بلاط سيف الدولة فزهد فى المقام . وطالما ذكر همه من الحساد فى خلال قصائده الأخيرة التى نظمها فى حروب سيف الدولة ، فقوى عنده ذلك الإشفاق على نفسه ، فارتحل يود الخلاص من بلد قد اضطرب حظه فى يد القدر وبات معروفاً مصيره الأليم .

---

(١) يقول سيدرينوس عن وقعة مغارة الكحل بأنها كانت فى مكان اسمه andrassos

(٢) من أروع الحصون العربية قلعة حلب وهى فى سعتها كمدينة وفيها ممرات سرية وأقبية وكانت شرفاتها فى أعالى أسوارها مبنية على طراز حربى عجيب ضمن لها الثبات فى هذه الغمرة وقد ارتد عنها امبراطور الروم عاجزاً متحيراً

(٣) (شلمبرجة) ص 143 .

ولست أخلى أبا الطيب من عتاب عنيف على سكوته بعد تركه سيف الدولة ، فهو لم يذكر فى شعره (نكبة حلب) وكان عليه أن يذكرها مسفوحاً عليها من دمعه الصبيب وهى إن فارقها عن قِلًى لمساءة حسادها إليه فإنها ظلت أبد الدهر له ذاكرة ، وبه مكاثرة ، ولقد رثى خولة أخت سيف الدولة بعد مفارقة السنين . ومن يدرى لعله كان نظم فى تلك النكبة القصائد الطوال البواكى فكانت من شعره الضائع ، أو لعل هذا الشعر الأخير لم يذعه أبو الطيب لأنه كان يومئذ قد اتخذ الليل جملاً وفر من عند كافور ، وأخذ يضرب بالبوادى ، وكافور يطلبه بالأرصاد حتى بلغ الكوفة وهو خائف من أن يدركه كافور ، وخائف من العبيد الذين معه وفيهم لصوص وقد كان من عادة أبى الطيب إذا ارتحل أن يحمل معه أوراقه ودفاتره وصناديقه ، ودليلى فى ذلك ما رواه البغدادى فى خزانة الأدب [1] . والبغدادى هذا كان من ثلبة أبى الطيب فلقد سلقه بضروب من السباب والملامز ، فكان مما رواه عن اصطحاب المتنبى لصناديقه فى ترحاله أنه لما بلغ الأهواز نزل عن فرسه وفتح (عيابه وصناديقه [2] لبلل مسها فى الطريق) ومما ذكره عن دفاتره وأوراقه التى تكون معه أنه فى حادث مقتله حمل (فاتك عليه وطعنه فى يساره ونكسه عن فرسه وكان ابنه أفلت إلا أنه رجع يطلب (دفاتر أبيه) فقنع أحدهم الفرس خلفه وجز رأسه . وصبوا أمواله يتقاسمونها بطرطوره ، وأن قاتليه (بدير قنة والنعمانية) اقتسموا عقائله وصفاياه .

فمن هذه الروايات التى أوردها البغدادى — نقلاً عن كتاب أسماه (إيضاح المشكل لشعر المتنبى من تصانيف أبى القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهانى ، وهذا الإيضاح مقصور على شرح ابن جنى لديوان المتنبى) — يتبين أن دفاتر أبى الطيب وصناديقه ومتاعه وأثقاله قد نهبت عند قتله . فلا يبعد أن يكون فى هذه الدفاتر شعر للمتنبى كتبه فى نكبة حلب وفيه حنان على سيف الدولة وفيه إشفاق ، وضاع هذا الشعر لأن قاتليه نهبوا متاعه وماله ، كما روى البغدادى فى كلامه هذا عن أبى الطيب فقال : (إن للمتنبى شعراً كثيراً) والباقى منه الذى تداوله الناس هو برواية أبى الفتح بن جنى . وكان ابن جنى معاصره ومصاحبه فى بعض رحلاته .

* * *

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٨٢ .

(٢) العياب جمع عيبة وهى أوعية من أدم يكون فيها المتاع (اللسان) .

فلئن فات أبا الطيب أن يشهد آخر معارك سيف الدولة ويصفها [١] فبحسبه ووسع وفائه أن يصف آخر معركة وقعت قبل أن يفصل عن سيف الدولة وهى معركة الدرب .

كان سيف الدولة شاغل البلاط البيزنطى فى القرن العاشر للميلاد . وقد تداول الروم وجوه الرأى فى أمر الحمدانيين والفتك بهم فأقسم البطريق [٢] لملك القسطنطينية أن يعارض سيف الدولة فى (الدرب) وسأله أن ينجده ببطارقته وعَدده وعُدده ، ففعل ملك الروم وجهز البطريق (شاماشيق chamachic) ابن جان تزيميسيس Jen Tzimiscés . لكن ذلك القسم الذى آلى به البطريق على نفسه قد أحنثه وخاب فأله ، فاندحر واندحرت جنوده . وكانت هذه المعركة آخر المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم فراح أبو الطيب قبل التوديع « يجود بقصيدة من أعلى شعره كما يقول ابن جنى [٣] ينشدها مقطوعة من ملحمته [٤] الكبرى التى نظمها قصائد فى حروب سيف الدولة لتكون (أنشودة الدهر) فى فروسية آل حمدان وبطولة ابن أبى الهيجاء سيف الدولة .

بدأ المتنبي القصيدة بالحكمة فلام من يقسم لعقبي الحرب لأن عقباها مجهولة :

---

(١) بعد نكبة حلب انكسرت نفس سيف الدولة فكان يحارب وكأنه جريح وقد أثر فى نفسه مصابه بحاضرة الحمدانيين فأصيب بفالج بعد سنتين من فتح حلب بأيدى الروم ، وكان مثل نسر قد رماه صائده فلم يقتله بالرمية الأولى ، فجعل يتحامل على نفسه . وكانت تصيبه غيبوبة يظل فيها نحو ساعة ثم يستفيق « وكانت هذه الغيبوبة من أثر فالجه » كما يروى أحمد بن مسكويه صاحب تجارب الأمم (ج ٢ ص ١٩٩) ولكن كل ذلك لم يقعده عن الحرب والمعارك فقد جرى له مع الروم معارك عدة بين نكبة حلب وموته أى بين سنتى (٣٥١ — ٣٥٦) للهجرة ولم يكن فيها شأنه كما سلف فى مزدهر أعوامه الفائتة . وقد كثرت عليه الفتن فى داخل بلاده وفى ديار الموصل فى بلد أخيه ناصر الدولة وابن أخيه أبى تغلب ، ووثب عليه بعض غلمانه واحتال لبعضهم فقتله كما فعل بغلامه (نجا) ، وكان مثل شمعة نفد فتيلها وبقيت منه ذبالة توشك على الانطفاء .

(٢) من الملحوظ أن كلمة البطريق كانت لقبا لكل قائد عظيم من قواد البيزنطيين .

(٣) ص ٤١٧ من نسخة الديوان للدكتور عبد الوهاب عزام .

(٤) الملحمة فى لغة العرب معناها الوقعة العظيمة فى الفتنة على ما فى اللسان وغيره من معاجم العربية وقد عرفها الجاهليون فى معناها هذا ولكنهم لم يطلقوها على القصيدة الحربية وفيها أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم (أنا نبي الحرب والملحمة) انظر مفيد العلوم للخوارزمى الطبعة العلمية بمصر سنة ٣١٠ ص ٢١٤ باب (ثواب الغزاة والمجاهدين) وكذلك كان شأن الأمويين والعباسيين وقد ورد ذكر (الملاحم) فى شعر الشعراء منهم القطامى الذى يقول :

ولو تستخبر العلمـــاء عنا ومن شهـــد (الملاحم) الغلابا

فكان معناها عنده مرادفاً للحرب والمعمعة ولم يطلق العرب كلمة الملحمة بالمعنى المعروف عند الغربيين سوى فى عصرنا الحديث وقد قصدت بكلمة الملحمة فى هذا الكتاب المعنى الحديث (أى القصيدة الحربية الكبرى) وهذا جائز فى باب المجاز المرسل فى العلاقة السببية .

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يفيدك فى إقدامك القسم

ثم ذكر البطريق الذى أحنث يمينه سيف الدولة . فقال ، وقد صغر اسمه هواناً وكان أبو الطيب مولعاً بالتصغير لا يقنع منه بخلسة المغير كما يقول أبو العلاء المعرى . فصغر أبو الطيب المتنبى اسم قائد الروم فجعله (شميشيق) .

آلى الفتى ابن شميشيق فأحنثه فتى من الضرب تنسى عنده الكلم [١]

وصف أبو الطيب ببيانه جيش الحمدانيين فى هبوبه إلى هذه الحرب ، فما فتحت مدينة (سروج) ناظرها عند الصباح إلا كان جيش سيف الدولة يزدحم منظره فى جفونها ، فتجلجلت مدينة (حران) على صوته ، وكان مغزاه فى يوم ناضر تخالط وجهه السحب غير ممطرة فتروح عليه الشمس وتجىء . وكان جيش سيف الدولة يطاول الأرض بطوله وجسامته فلا هو ينتهى ولا هى تنتهى . وفى هذا الجيش خيول ضوامر تلوح شكائمها الحرى وقد عدت بفوارسها حتى تغمرت من بحيرة (سمنين) فجعلت أفواهها تنش بالماء وتغمر فيه اللجم [٢] .

كذلك يخلع على الشعر أبو الطيب تصاوير وصفه فيقول :

فلم تتم سروج فتح ناظرها إلا وجيشك فى جفنيه مزدحم
والنقع يأخذ (حرانا) وبقعتها والشمس تسفر أحياناً وتلتثم
سحب تمر (بحصن الران) ممسكة وما بها البخل لولا أنهـــا نقم
جيش كأنك فى أرض تطاوله فالأرض لا أمم والجيش لا أمم

---

(١) فى نسخ الديوان جميعها ذكر اسم هذا القائد (شمشقيق) وذكره كذلك ابن مسكويه صاحب تجارب الأمم (ج ٢ ص ٢١٣) وكل من عرض له ذكره بهذا اللفظ . وهو غلط وصوابه (شميشيق تصغير شمشيق) . ويدل مطلع القصيدة على دقة التلقف لأخبار الروم فلقد بلغ الحمدانيين قسم البطريق فهب إليه شاعرهم يحاوبه على قسمه بالظفر بعد انهزام الروم .

(٢) فصل (بلاشير) مراحل المعركة فى كتابه عن المتنبى ص ١٨٠ / ١٨١ فروى أن سيف الدولة ترك حلب لهذه الغزوة فى ١٤ المحرم سنة ٣٤٥ الموافقة ٢٨ نيسان سنة ٩٥٦ ، فمر على الرقة ثم على حران وأران وأركنين وبلغ هنزيط . وفى المحرم الموافق ١١ مايس بلغ حصن زياد (وهو اليوم خربوط) على الشاطىء الأيسر من الفرات الشرقى فى الشمال الشرقى من هنزيط anziténe . ثم أرسل من يتعرف له أحوال الروم على نهر ارسناس ، ثم عبر النهر إلى جيوش البيزنطيين وهم بقيادة (يوحنا تزيميسيس) فى تل البطريق . وتل البطريق على الشاطىء الأيمن من الفرات الغربى ، فهزم الروم وسحقهم وعاد فعبر النهر بعد أن أحرق أرباض الروم ثم حمل على الروم حملة لاحقة فى ١١ صفر الموافق ٢٤ مايس فأهلكهم وأسر منهم سبعة آلاف أسير وقتل منهم مقتلة . وفى عشية اليوم الثانى دخل سيف الدولة آمد وفيها أنشده شاعره المتنبى هذه القصيدة الميمية المستوحاة من المعركة .

وشزب أحمت الشعرى شكايمها ووسمتها على آنافها الحكم (١)
حتى وردن (بسمنين) بحيرتها تنش بالماء فى أشداقها اللجم

ثم أعقب هذه الجيوش العربية سيرها فأغذته حتى جاوزت نهر (أرسناس) فأمر سيف الدولة جيشه أن يخوض النهر . فيالمنظر الموج وهو ينكشف عن صدور الخيل فيجفل منها وهى لا تجفل منه . وكان سيف الدولة فى مقدمة الجيش أول الخائضين فى نهر (أرسناس) يعبر بالجيش إلى بلد مقدور عليه الحريق . فيقول المتنبي فى هذه الصوره الفنية ويعنى نهر الروم :

وما يصدك ، عن بحر لهم ، سعة وما يردك ، عن طود لهم ، شمم
ضربته بصدور الخيـــل حاملة قوما إذا تلفوا قدماً فقد سلموا
تجفل الموج عن لبات خيلهم كما تجفل تحت الغارة النعم
عبرت تقدمهم فيـــه إلى بلد سكانه رمم مسكونهـــا حمم

ويعرض أبو الطيب صوراً فنية من معانيه الحماسية فيجعل السيوف فى أكف الحمدانيين ناراً وقد عبدت قبل أن يكون المجوس وما زالت إلى اليوم فى اضطرام . وذلك عنده عمر السيوف وتاريخها فى دهر الحروب ، يعبدها الأبطال كما يعبد النار المجوس ، وطال ما عبد أبو الطيب سيفه أما بات بعد خلوصه من كافور يقبل أسيافه ويمسحها من دماء العدى (٢) :
كذلك يقول عن الحمدانيين :

وفى أكفهم النار التى عبدت قبل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم

ثم يسرى خياله على وصف الجياد التى كلف بها كلفه بالغيد الأماليد ، وينتقل إلى وصف السفن (السماريات) التى أعدها سيف الدولة يمضى عليها بعض الجنود مسارعة للزحف فى طول نهر أرسناس وهى سفن أعدها هنالك (مهندسوه الحربيون) بأرض الروم حين دعت إليها الحاجة فجأة فكانت من نتاج رأيه فحملت الفرسان فى بطونها لا على الظهور ، وكانت خيلاً مكدودة بغير ألم وإنما الألم كان براكبيها .

دهم فوارسهـــا ركاب أبطنها مكدودة وبقوم لا بهـــا الألم

---

(١) الشزب ضوامر الخيل ونجم الشعرى من نجوم القيظ والمراد به أن الخيول من طول ما لاكت شكايمها حميت تلك الشكايم من ذلك اليوم القائظ

(٢) وبتنا نقبل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى

ولم تكن هذه (الجياد البحرية) ذوات حلق كالخيول ولا لها شيم مثل شيمها :

من الجياد التي كدت العدو بها وما لها حلق منها ولا شيم
نتاج رأيك فى وقت على عجل كلفظ حرف وعاه سامع فهم

وقد أذكرنى قول أبى الطيب بنابليون بونابرت ، حين وصف نباهة سيف الدولة وسرعة خاطره فى تدبير خطط القتال . فكان نابليون كذلك يرتجل منافذ الخلاص ارتجالاً فى زحام المعارك (نتاج رأى فى وقت على عجل) .

فلما بلغ سيف الدولة صدر الدرب واقع البطريق صاحب القسم فصدم جيشه بخميسه الذى كان هو غرته وطلعته ورماحه شعر وجهه .

ودارت المعركة فوق (الدرب) فثبت الروم لسيف الدولة ثبات جسوم بغير أرواح إذ جعل أبو الطيب تلك الجسوم الرومية هى التى ثبتت فى المعركة (ثبتت طريحة على الأرض بغير أرواح) والأرواح هى التى انهزمت (فخرجت من جسومها منعتقة هاربة .)

وقد تمنوا غداة الدرب فى لجب أن يبصروك فلما أبصروك عموا
صدمتهم بخميس أنت غرته وسمهريته فى وجهه غمم[1]
فكان أثبت ما فيهم جسومهمو يسقطن حولك والأرواح تنهزم

وملأت الخيول الأعوجية [2] الطرق خلف الروم المنهزمين بعد المعركة ، وجللتهم السيوف طوال يومهم فكانت تعلو رؤوسهم .

والأعوجية ملء الطرف خلفهم والمشرفية ملء اليوم فوقهم

وويل (ابن شميشيق) من تهكم المتنبي وروعة تصوره للمعانى وتجسيدها ، فقد تصور أبو الطيب أن ابن شميشيق اعتذر من يمينه التى حلفها فسألها . (أن تسمح له فينثنى عن الحرب) وقد انثنى فنكص وهرب ، فراحت يمينه تبتسم استهزاء به وهو يفر ، وكلما أمعن بالفرار أمعنت يمينه متبسمة مستهزئة .

وأسلم ابن شميشيق أليته إلا انثنى فهو ينأى وهى تبتسم[3]

---

(١) الغمم كثرة الشعر فى الوجه .

(٢) المنسوبة إلى أعوج وهو فحل كان معروفاً فى العرب. وأراها وصفاً للسيوف المحدودبة المعوجة وهى سيوف العرب وقد أرى التصحيف بحرف الفاء فى الطرف وصوابه الطرق بجواز سكون الراء

(٣) على هذا النحو أرى فهم البيت وروايته . وقد روى فى بعض النسخ بادئاً بكلمة (وأعلم) كما فى نسخة بيروت . وفى جميع الروايات كلمة (إلا) بالتشديد – وشميشيق صواب لشمشقيق كما صححت ذلك فى هامش من هذا الكتاب وأبنت الدليل .

وغاب الفتى البطريق قائد الروم ممعناً فى هربه بين الأدغال والآجام فأتبعه المتنبي بهذا البيت .

فلا سقى الغيث ما واراه من شجر   لو زل عنه لوارت شخصه الرجم

وقفل سيف الدولة بالفخر إلى موطنه واندفع الناس يغنون ويطربون فرحة بهذا الظفر العظيم حتى أنساهم طربهم السبب الذى من أجله طربوا . وقد دخل سيف الدولة حلب على جواده الجبار مردداً شكر الله وبيده سيفه الماضى (ذو شطب) فقال أبو الطيب يصف ذلك .

ألهى الممالك عن فخر قفلت به   شرب المدامة والأوتار والنغم
مقلداً فوق شكر الله ذا شطب   لا تستدام بأمضى منهما النعم

ووسم أبو الطيب الروم فى (قصيدة الوداع هذه) ميسماً لا يبلى على الزمان ، فقال فى آخرها يخاطب سيف الدولة :

ألقت إليك دماء الروم طاعتها   فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم

* * *

كذلك يأخذ تاريخ الأدب العربى المعاصر قسطه من دراسة حماسة المتنبى وتصوير شعره الصورة التى يستحقها أعظم شاعر عرفته العربية ، قد خلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين الفروسية وتهاويلها فى دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان . وكان يطبع هذا الشعر الحماسى الرائع بميسم خلود هو عنوان البطولة ورمز الفروسية العربية ، سيف الدولة .

فلا يعجب علماء البلاغة حين يتدارسون مثل هذا البيت السابق الذى يجعل فيه أبو الطيب دماء الروم ملقاة فى طاعة سيف الدولة يدعوها بلا ضرب فتجيب ، فإنهم متى تفهموا هذه الحماسة وعرفوا مغامرات صاحبها وجدوا المتنبي غير صائغ للمبالغات ، ولا ملحف فى أوهام التصوير .

٢ ـ وأما أبو الطيب المتنبى فقائد عسكر

سلاماً أبا الطيب على كرور العصور ، مر على هلكك ألف عام فقام الأدباء فى دنيا العرب من أجلك وقعدوا ، ورددوا ملء سمع الأرض شعرك وتدارسوا فنك ، وبسطوا سيرتك وجددوا عهدك ، وعهودك لا تبلى فى الشعر ، وسيرتك لا تنتهى فى فم راويات الزمان . ولقد يأتى عليك ألف عام ثانية بعد ، وأنت مورد ثرار لم يفرغ ما عندك من سلسبيل الشعر والفكر .

كتبتُ عنك فى مصر وكنتَ فيها قبل عشرة قرون ، ومن يدرى لعل منزلك كان على عدوة هذا النيل الجميل حيث أسكن اليوم ، وكنت تزور كافوراً فى جيزة الفسطاط وتسكن بالقرب منه ، بعين قريرة لكن كان ذلك قرباً يخالطه البعاد ، فقلتَ فيه :

أرى لى بقربى منك عيناً قريرة   وإن كان قرباً بالبعاد يشاب

ولو أحسن إليك كافور فلم ينفـّرك عن مصر نفار الأطيار السواجع عن الأشجار النظرة ، لخلدت بأسه وسطوته . وكان كافور ذا بأس وكان شجاعاً حازماً ذا سطوة . ولكن حظ سيف الدولة أبى إلا أن يستأثر بحبك وحده ، ويحوز الخلود فى شعرك ، فقلت فيه (السيفيات) وهى لهب حرب ، وصفحة مجد ، وعنوان أمة كانت تسكن شمالى بلادى ، فتصد عنها العاديات . لقد أنشدت فى شعرك بطولة سيف الدولة ، لأنك ضريعه فى ثقاف الرماح واستحلاس ظهور الخيل ، وكان هوى العروبة فى قلبك ، فاجتمع على مروءتك النبيلان . الحمية والفروسية . وكثر فى شعرك خفق البنود وجلجلة السلاح ،وكنت طروباً فيه لحمحمة الخيول التى وقـّرتها الحرب . وقَدَحَ حوافرها الدرب .

لقد نام طرفك وأنت قتيل مغدور به ــ فى دير العاقول ــ حيث يهتف بك الصدى على المدى ، وقد عرفتَ فى حياتك أن العرب معتزون بك ، وطال ما تأرق أدباؤهم فى تفهم شعرك وسبر غورك ، فسهروا جراء قوافيك واختصموا كما تقول ، لكنك تركت الدنيا وأنت غير عالم أن دنيا بزنطة كانت بذكرك مملوءة كما امتلأت بسيف الدولة ، وأن دنيا الفرنج بعدك بألف عام أطلعت فى شعرك كتباً لأقوامها بلغت العشرات (١) . وقد تبلغ المئات بعد ألف

---

(١) أعد كتاب المسيو بلاشير عن المتنبى أخطر كتاب صدر عن شاعر سيف الدولة فى ديار الفرنجة ، فقد ألفه مسيو بلاشير الأستاذ فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩٣٥ فى ٣٦٦ صفحة تتبع فيه أبا الطيب من فاتحة أمره إلى خاتمته فى دراسة حياته وشعره وتحليل ذلك وترجمته أروع قصائده .

عام تأبى ، فاسمع من خلف الغيوب هذه الأبيات الحماسية التى قلتـها فى الخيول والحروب وفروسية سيف الدولة ، إنها ثلاثة أبيات من البائية تخاطب بها سيف الدولة فتقول :

فبتّ لياليـــاً لا نوم فيهـــا   تخب بلك المسومة العراب
يهز الجيش حولك جانبيـــه   كما نفضت جناحيهـــا العقاب
وخيلا تغتذى زيح الموامى   ويكفيها من المـــاء السراب

لقد نقلها شاومبرجة أحدالمعجبين بلك إلىلغة قومه ، أواخر القرن الماضى فيما نقل من شعرك العجيب فقال : هذه الترجمة لها :

Dans ta course rapide par les meilleurs chevaux auxquels l'Arabie ait donné naissance, tu as passé plusieurs nuits à la poursuite, de l'ennemi, sans gouter les douceurs du sommeil, entouré de tes escadrons qui s'agitaient à tes cotés, com me l'aigle agite ses ailes dans son vol précipité .

Il ne faut aux chevaux de tes cavaliers d'autre nourriture que le vent qui souffle dans les deserts, ils se contents pour étrancher leur soif de la vapeur qui s'élève sur les terres brulées des ardeurs du soleil.

* * *

كان سيفالدولة (محارباً بالوراثة) [٢] بل كان مصاباً بهوى الحرب ، فعبر أبو الطيب عن حقيقة هواه ، وظل يهدهد آماله الحربية الجسام فى العزة والنصر ومفاخر الفتوح طول عهده معه ، ولم ينس أن يغنّيه فى هذا الهوى وهو بعيد عنه مفارق يوم كان فى العراق سنة (٣٥٢) فأرسل إليه هذا البيت فى قصيدة (مالنا كلنا جو يا رسول) . [١]

أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون قفـــول

وقد استغل العباسيون هذا الهوى فى سيف الدولة ، فأعدوه لحماية ثغور الجزيرة من الروم [٣] وكان الوضع الجغرافى لبلاد سيف الدولة يقضى أن يكون أمير حلب محارباً كبيراً فأعطى سيف الدولة الحرب كل حياته ولذلك يقول عنه الثعالبى فى اليتيمة إنه (قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب ، وقد دعاه أبو فراس ليلة ليسمع غناء أبى عبد الله المنجم ، وقد أحضره من أجله وأرسل إليه شعراً

(١) Gustave Schlumderger (Un Empéreur Byzantin au dixième siècle Nicephor Phocas)
طبع معهد باريس سنة ١٨٩ (ص 128)

(٢) كتاب المتنبى لبلاشير بالفرنسية صفحة 127 ط باريس سنة ١٩٣٥ .

(٣) كان الخليفة المتقى بالله أبو إسحق والمستكفى بالله أبو القاسم والمطيع لله ، أيام الدولة الحمدانية .

يدعوه فيه ، فأجابه سيف الدولة بهذه الكلمة الرائعة :

« أنا مشغول بقرع الحوافر عن المزاهر [١] » .

وقد وقع المتنبي لسيف الدولة وقوع الأليف للأليف فعلق كل منهما بصاحبه حتى فرق بينهما الحساد . وكان فى بلاط سيف الدولة شعراء كثير فلم يعجب سيف الدولة أحد منهم كالمتنبي . فكان أبو الطيب (جريدته الحربية) على مصطلح زماننا من جرائد الحروب التى ألفناها .

وأرى أن فروسية المتنبي هى التى كان لها أكبر نصيب فى هذا الإعجاب لدى سيف الدولة . كان المتنبي فارساً وقد اكتسب الفروسية من حياته البدوية التى عاشها فى صباه ، ألم يصحبه أبوه إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حواضرها ، ومن برها إلى مدرها[٢] فأكسبته البادية والتنقل فيها فروسية وشجاعة وفصاحة. وما كان أهل البادية غير فرسان فصحاء ومحاربين .

فلما خالط سيف الدولة رافقه فى أكثر حروبه وشهدها معه وحارب فيها إلى جانبه ولقد وفى مطالب الشعر الحماسى من شاعر فارس مثله ، فنظم غرر قصائده فى حروب الحمدانيين للروم وكتب له الخلود . فهو أكبر شاعر عربى أعطى الحروب العربية الرومية من شعره أكبر نصيب . فلئن كانت الملحمة العربية الرومية قد بدأت — كما قلت — بشعر أبى تمام ثم بصاحبه البحترى فلقد تلقفها أبو الطيب المتنبي فأنشد أروع فصولها . إنه حشد لها كل ما وسعه فنه من بيان ساحر ، ومعان سامية ، فى أنق لفظ ، وأشرف أسلوب [٣] . وكان سيف الدولة شاعراً (يعبد نفسه فى شعر غيره فيه) فوجد فى المتنبي بغيته فأمده بالمال والتكريم ليمده بخلود المجد وبقاء الذكر .

وكانت الفروسية متبادلة الشعور بين سيف الدولة وشاعره ، فكان إذا شاء سيف الدولة إكرام أبى الطيب أهدى إليه سيوفاً ورماحاً ودروعاً وأفراساً [٤] وكان زى المتنبي فى ركوبه

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ط بيروت سنة ١٩١٠ ص ٨٣ .

(٢) يتيمة الدهر السابقة ج ١ ص ٩٣ .

(٣) يقول (بلاشير) فى كتابه عن المتنبى ص 183 عند دراسته لشعره الحماسى إن صوت أبىالطيب المتنبى ليطن مجلجلا خشناً فى قصائده الحماسية كأنه صوت أولئك الجرمانيين الذين تملأ أنفسهم فرحات حشرجات أعدائهم المقتولين .

(٤) ص ٣٦٢ و ٣٦٧ من نسخة الديوان للدكتور عبد الوهاب عزام و ص ٢١٧ من نسخة الديوان طبع بيروت سنة ١٨٦٠ للمعلم البستانى .

زى الفرسان ومعه رمحه ، فقد روى الثعالبي فى اليتيمة (١) أن الحسين بن أحمد الصنوبرى خرج من حلب يريد سيف الدولة (٢) فلما برز من السور إذا هو بفارس متلثم قد أهوى نحوه برمح طويل وسدده إلى صدره ، فكاد الصنوبرى يطرح نفسه على الفارس فرقاً ، فلما قرب منه الفارس ثنى السنان وحسر لثامه فإذا هو أبو الطيب المتنبى .

وعرف المتنبي بالفروسية فى أشد مواقف حياته وهو (ساعة قتله) فقد قال لعبده (سراج) لما قرب (فاتك) منه يريد قتله :

– يا سراج أخرج إلىّ الدرع .

وأخرجها ولبسها وتهيأ للقتال .

وذكره غلامه ببيته الحماسى المشهور :

الخيل والليـــل والبيداء تعرفنى والطعن والضرب والقرطاس (٣) والقلم

وقد عرف أبو الطيب الخيل وكان يجد أصائلها قليلة كالصديق ، فبرع فى وصفها واقفة وسائرة ، وعادية فى الحرب ومتمطرة ، وكان عبقرى الفروسية يشهد بذلك كل شعره ، ويكاد يكون أكثر شعره الحماسة ، فلا تخلو له قصيدة من ذكر الخيل والرمح والسيف ، أحب الخيل والسيف والرمح منذ فاتحة شعره ، فداليته التى يقول فى أولها وهو فى ميعة صباه :

أهلاً بدار سباك أغيدها .

ملأى بالخيل المرتميات به نحو الممدوح وطافحة بعوالى الرماح ، وبحد السيوف .

وكانت قصيدته الأخيرة التى يقول المتشائمون من نقاده إنه جعل من قوافيها كلمة الهلاك فهلك (٤) ملأى كذلك بمعالم فروسيته ، ففيها وقع الأسنة وفيها السلاح والذعر والأعداء .

فنى روعة من جلجلة السلاح فى شعره ، وبوحى من معانيه التى لا تنفد حول الحرب

---

(١) ج ١ ص ٩٧ .

(٢) لعل سيف الدولة كان يومئذ خارج حلب لغرض من أغراضه .

(٣) لعل غلامه هو أبو الحسين المستهام الحلبى . فلقد ذكر فى (تتمة اليتيمة للثعالبى) طبع طهران سنة ١٣٥٣هـ نشر عباس إقبال ج ١ ص ١١) أن أبا الحسين المستهام هذا كان غلام أبى الطيب وكان شاعراً . فلا يبعد عندى أن يكون هو الذى حث أبا الطيب على القتال فى ساعته الأخيرة ببيته الحماسى المشهور .

(٤) اليتيمة السابقة ج ١ ص ١٨٩ .

والطعان والسير والنزال قال فيه الشريف الرضى : (وأما أبو الطيب المتنبى فقائد عسكر[١]) .

وكان ابن الأثير يقول عن فن المتنبى وروعة تصويره للمعارك « إنه إذا أفاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتّى تظن الفريقين قد تقاتلا والسلاحين قد تواصلا . »

يقول صاحب الصبح المنبى أيضاً « ولا شك أن المتنبى كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أداه بيانه [٢] » .

ويقول « ديمو مبين : كان المتنبى هو (المسجل التاريخى Historiographe) للأمير الحمدانى حينما احتكت الحضارة الإسلامية بالحضارة النصرانية فى القرون الوسطى وإن المرء حين يقرأ المتنبى ينساق فكره أحياناً إلى ذكر لويس الرابع عشر وعبور نهر الراين » .

ثم عقد « ديمومبين » موازنة خفيفة بين شعر المتنبى وشعر كورنيه الأكبر من حيث العقل واختيار المعانى وتوقد الحماسة وسلطان المنطق . ثم خرج من هذه الموازنة إلى القول بأن للعرب فى الأندلس تأثيراً فى الأدب الإسبانى وأن هذا الأدب هو الذى تسلل إلى فرنسه فأثر فى شاعرها الأكبر كورنيه أوائل أمره ، وأن أجداد كورنيه النورمانديين الذين تراموا على غزوة صقلية اختلطوا بالعرب الذين من جنسهم المتنبى [٣] .

أما الأستاذ ماريوس كنار [٤] فيقول إن المتنبى كان أعظم شاعر خلد حروب العرب

---

(١) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للشيخ يوسف البديعى . مخطوطه بدار الكتب المصرية (رقم ٥٣٣ أدب) أوراقه ١٣٢ ورقة منسوخ فى سنة ٢٦٤ للهجرة ، وقد وردت كلمة الشريف الرضى فيه فى الورقة ٤٨ .

(٢) المخطوط السابق ورقة « ٤٧ » .

(الملحوظ أننى أوثر الرجوع إلى المخطوط – وقد يكون مطبوعاً – حفاظاً على رواية النصوص الأصلية)

أما الغربيون الذين درسوا شعر أبى الطيب فأحق مؤلف فيهم بأبى الطيب هو (بلاشير) كما قدمت . لكنه يخفف من غلواء إعجابه بفن الحماسة فى شعر المتنبى فهو يذكر فى كتابه عنه (ص 183) أن روح الحماسة الحقيقية لا تشيع فى كل قصائده ، فإن له أبياتاً حماسية رائعة خارقة لكنها منفردة ومنشورة بين سواها من الأبيات التى دونها فى القيمة الحماسية ويقول نصاً :

« وإن أفضل ما فى فنه الحماسى براعته فى وصف بغتات الحمدانيين لبلاد بيزنطة وخطفاتهم الصاعقة فى حرب عدوهم وقفوهم مسرعين بالأسرى والغنائم . ولقد كان أبو الطيب يحمل القوم بشعره على أن يشعروا بالرواية العظمى التى كان هو ممثلا فيها » .

(٣) "Al Mutanabbi" recueil publié a l'occasion de son millénaire. طبع بيروت ١٩٣٦ ص٨٨ مقالة الأستاذ (Gaudeferoy Demonbynes)

(٤) مقالته فى المجموعة نفسها لذكرى ألف عام على المتنبى .

مع البيزنطيين فبذ بذلك كل شاعر قبله قال الشعر فى حرب الروم ، والمتنبي فى ذلك وحيد غير مدافَع .

وقد استعان هذا الأستاذ بشعر المتنبي فى هذه الحروب على معرفة العتاد الذى كانت عليه الجيوش البيزنطية فاتخذ من قول المتنبي :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم

دليلاً على ثقل جيش الفرسان عند البيزنطيين المسمى بالرومية (Scholorioi) أى المطاردون المدججون بالحديد الذين ركبوا خيلاً مستورة القوائم برداء من الدروع يكاد يبلغ الأرض (كما أشرت إلى ذلك فيما تقدم) .

وأردف ماريوس قائلاً : « إن هذه القصيدة الميمية هى المثل الأعلى عند أبى الطيب فى سيف الدولة ، والمثال المحتذى للقصص الحربى ، فإن كل نأمة حربية أو حركة من هذه المعركة كان المتنبي يرسمها بعبقريته المصورة الجبارة » .

وقد كان أبو الطيب إلى فروسيته الشاعرة الخارقة وروعة تصويره للمعارك عفيف الحب ، كان حبه كحب فرسان القرون الوسطى فى أوروبا . أفلا نظرت إلى هوى (سيرانودو بيرجراك) بابنة عمه. كذلك كان أبو الطيب ، لقد مات ودفن هواه فى ضلوعه. أكانت (خولة أخت سيف الدولة) تحبه . إنه رثاها بعد فراق أخيها بسبع سنين فطوى الجزيرة إليه خبر موتها — فأشرقه بدمعه حتى كاد يشرق به . وكان من قوله :

وأشنب معسول الثنيات واضح سترت فمى عنه فقبل مفرقى
وما كل من يهوى يعف إذا خلا عفافى ويرضى الحب والخيل تلتقى

وقد سألوه عن معنى هذا البيت فقال لهم أبو الطيب « المرأة من العرب تريد من صاحبها أن يكون مقداماً فى الحرب فترضى حينئذ عنه » .

كذلك كان أبو الطيب فارساً فى شعره وفى حبه . ومن يدرى ؟ لعل الحب كان وقيد شجاعته عند سيف الدولة لترضى عنه (خولة) فتجده مقداماً فى الحرب ، كما يقول .

وبحسبه دليلاً على هذا الحب أن كان ينتهز الفرصة ، فى عادة الشعراء بدء القصائد بالنسيب ، فيقدم على كل قصيدة رسالة من هواه ، فياضة بالفروسية كأنها أنشودة البطولة فى الحرب ، ورسالة العفة فى الحب ، إلى (خولة). وسجل التخليد (لسيف الدولة) ، عبقرى الحرب .

٣ – فن المتنبي فى شعر الحرب

الشعر العربى مثل معادن بعضها قد مزج ببعض – وقد يكون بين هذه المعادن قطعة صافية من الذهب الخالص ، وقطع ممزوجة بمعادن من الفضة وغير الفضة . فعلى الجوهرى أن يستخرج ما يريد من السبيكة .

كذلك وجدت شعر العرب سبائك . فأكثره قصائد فى شؤون شتى وبعضه القليل فى موضوع واحد . وإذا ضربت المثل بشعر الحماسة وجدت هذا الشعر فى الأدب العربى قد توزعته ثلاثة أوصاف .

١ – شعر المديح : فإن فيه شعراً حماسياً كثيراً لكنه قد مزج بموضوعات المدح ، فالشاعر يذكر سجايا ممدوحه من كرم ومعروف وشهامة وأعراق ، ثم يذكر شجاعة الممدوح فيعرض إلى ذكر حروبه ووقعاته إن كان من القواد ، أو يذكر وقائع آبائه وجدوده إن كان من الحفدة .

٢ – شعر الفخر : فإن الشاعر المفتخر يعرض إلى ذكر أيامه الحربية إن كانت له مأثرة فى الحرب ، أو يفتخر بأيام آبائه وأجداده ، كما فعل الفرزدق . وهذا الضرب من الشعر الحماسى كثير فى أدب العرب .

وهذان النوعان السابقان من شعر الحماسة يشبهان السبيكة المخلوطة ، ومهمة دارس الأدب فيهما عسرة لأنه يتنخل أبياتاً ومقطوعات حماسية من بين أبيات كثيرة فى شؤون أخرى تتناول المديح أو تتناول الافتخار .

٣ – الشعر الحربى الصريح الذى قيل خاصة لوصف الوقائع والمعامع .

وهذا النوع يقل فى شعر العرب القديم فى الجاهلية والإسلام ، ويظل ممزوجاً مع غيره من الشعر فى القصيدة الواحدة . أما فى العصر العباسى وخاصة زمن أبى تمام والبحترى ، فقد أخذ شعر الحرب (المتوحد فى موضوعه) يظهر فى قصائد أبى تمام ثم فى قصائد البحترى ، على نحو ما قدمت فى الكلام على شعر الحرب عندهما ، وأجلى ذلك وأكثره وضوحاً وحدوداً وصفهما لمعارك العرب مع البيزنطيين فى حروب أبى سعيد الثغرى .

ولما جاء المتنبي أصبح هذا الضرب الصريح من شعر الحرب كامل التحديد واضح الظهور فى مبادئه وخواتمه . وبرزت حدوده للعيان متميزة من غيرها . فإن

أبا الطيب المتنبي وقف أحسن شعره على سيف الدولة ثم جعل هذا الأحسن رهيناً بوصف الحروب العربية البيزنطية التى نهض بها سيف الدولة طوال عهده على حلب . فكان أن نظم أبو الطيب قصائده الطوال موقوفة على حروب الحمدانيين . ولولا ما كان يأخذ به نفسه من مفاتيح الغزل وختام الحكمة ، لجاءت قصائده مثالاً فنيا رائعاً ينبغى أن يحتذى بعده فى كل شعر حربى ، إذ كان يجمع فيه بين سمو الديباجة وروعة المعانى . وقد كانت قصائد العرب الحماسية منذ عرف العرب الشعر إلى عهد سيف الدولة لا تخرج عن أن تكون واصفة لوقعة واحدة أو واصفة لجملة وقائع متتابعة . وكان شعر أبى الطيب فى الحرب لا يحيد عن هذين الوصفين ، فكان يصف فى بعض قصائده وقعة واحدة وكان يصف وقعات متعددة . وفى كلامى على معارك سيف الدولة التى وصفها المتنبي (فيما سبق هذا البحث) تتبين حقيقة هذا التقسيم الفنى فإن « معركة خرشنة » ومعركة « الحدث الحمراء » مثال لقصائد المتنبي الحربية التى وصف فيها (معركة واحدة) . أما « معركة الدرب » فهى المثال الآخر لقصائد المتنبي التى وصف فيها (عدة معارك) أو على الأصح (عدة مواقف حربية) فى « تل البطريق » ودخول الجيوش العربية إلى (سروج) [1] عند انحسار الليل وافتتاح الجفون ، وإلمام الجيش (بحران) تحت يوم ناضر فيه غمام يستر الشمس ثم ينحسر .

ثم اجتاز الجيش بقلاع (أرسناس [2]) بعد أن هد عصمتها ثم محاصرة الحمدانيين لحصن (الران) حتى كانت (الوقعة الكبرى القاطعة) فى (الدرب) الذى نذر البطريق القائد أشد النذور ، وأقسم أغلظ الأيمان ليكسرن سيف الدولة وليلقينه فيه فيعارضه بجيش لا قبل له به . فكان أن خاب نذره ونقضت الحرب قسمه كما يصف كل ذلك أبو الطيب بقصيدته الحربية الأخيرة التى اعدها وداعاً لسيف الدولة فكانت آخر شعره فى حلب .

فى هذه الوقعة من الأرض بين (أرمينيا وقليقلا وبر الأناضول) ، جعل المتنبي أعظم قصائده الحربية وقفاً على سيف الدولة فى حروبه مع البيزنطيين . وقد كانت هذه الديار الواقعة فى شمالى الشام الآخذة إلى الغرب (موطناً فسيحاً للشعر الحماسى) لأن الدولة

---

(١) Saros سروج عند ثغور الشام قال عنها (ياقوت) فى معجمه : ؟ بلدة عربية من حران فى ديار مضر ، وحران على طريق الروم من جهة الشام .

(٢) ذكر المسعودى فى كتاب (التنبيه والإشراف) طبعة ليدن سنة ١٨٩٣ بوقوف de goeje ص ١٨٩ أن أرسناس اسم نهر يصب فى الفرات بين باسورين وقبر سابور وقد رسمه Brooks على خريطته التى عربتها فى آخر الكتاب واسمه بالرومية Arzanene .

العباسية لم تصطلح عليها الفتن فى الداخل كما اصطلحت على الأمويين ، وإنما كان الخصم الألد للعباسيين والعدو الأشد لكل العالم الإسلامى والعربى ، البيزنطيين . فكان جلاد العرب معهم طويلاً فى تلك المواطن العربية التى ارتبطت أرضها بأروع الشعر الحربى العربى وكانت مهداً لغرر قصائده فى عصر بنى العباس من أيام المعتصم إلى عهد سيف الدولة . وكان أبطال هذا الشعر (كما ذكرت) أبا تمام والبحترى ، ثم جباره أبا الطيب المتنبى .

ومات المتنبي ومن بعده سيف الدولة وعم الخراب البلاد الحمدانية ، إذ نهض الروم آخر عهد (نيسيفور فوكاس) لإكمال غزواتهم فى أرض الإسلام بعد فتحهم حلب ، فاندفع قائدهم الأرمنى الجبار (يوحنا تزيميسيس) بجيوشه كعباب البحر فاكتسح ثغور الشام جميعها وامتد إلى العراق حتى بلغ حدود بغداد ثم أحس ببعد الشقة وقلة الزاد فخاف على جيشه من الخذلان ، فعاد به حيناً إلى جانب أنطاكية ، وقفل هو إلى القسطنطينية ، فقتل مولاه نقفور وكان يهوى زوجته (تيوفانو) واستولى على العرش ، ثم عاود الكرة فكانت النوبة للشام فحارب فيها الإخشيديين .

وقد روى (شلمبرجه) فى كتاب جليل آخر عن (الحروب البيزنطية فى الشرق والغرب فى أواخر القرن العاشر على عهد الخليفتين العباسيين المطيع لله وابنه الطائع [1]) فكان من منن الدهر على الشعر الحماسى أن يسبق فى دنيا العرب بحوادث الظفر فيشهدها أبو الطيب وصاحباه من قبله ليسجلاها فى شعرهم الباقى ، ويتاح لأعينهم أن تغفو قريرة فى أجداثها قبل أوان الخذلان الذى جلل به الروم أرض العرب حيناً من الدهر ، حتى انجلت سماؤهم فعادت ضاحية ضاحكة وأنجاب أعداؤهم فراحوا يتعثرون بالخيبة ويلوذون بالفرار ، لامعة وراءهم صفحات السيوف بأيدى البطلين العظيمين نور الدين ، وصلاح الدين .

---

(١) طبع هاشيت بباريس سنة ١٨٩٦ .

الفصل الثالث

شعر الحرب عند أبى فراس الحمدانى

١ — فروسية أبى فراس

يقول أبو منصور الثعالبى فى يتيمته عند تعداده لمزايا أبى فراس إنه «كان فرد دهره مجداً وبلاغة وفروسية وشجاعة [(١)] » فجمع الثعالبى فى كلمة واحدة أعراق أبى فراس وسمو شعره ، إلى حماسته وحربه .

وإن القدر الذى كُتب لسيف الدولة فى حرب الروم قد أصاب أبا فراس ، فكان ابن عمه [(٢)] سيف الدولة يميزه بالإكرام من سائر قومه ويصطنعه فى غزواته ويستخلفه على أعماله [(٣)] .

وكان يصحب سيف الدولة فى حروبه منذ صباه ، فقد قال : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا (حصن العيون) سنة ٣٣٩ وسنى إذ ذاك تسع عشرة سنة [(٤)] » .

وكان هذا الفتى الوسيم يعرف حق القربى عليه وما يطالبه به مجد قومه ، وهو الذى يقرر سبب وجودهم فى الدنيا بقوله :

فلم يخلق بنو حمدان إلا   لمجد أو لبأس أو لجود

فجمع الشمائل كلها فى المجد والبأس والجود . وكان البأس أظهر صفاته ، فنشأ على الفروسية حتى غدا أشجع قومه وأعز فرسانهم بعد سيف الدولة وكان يحمل على وجهه ميسم الشجاعة ، فلقد أصابت خده طعنة من سنان ، وأصابته ضربة فى فخذه فشق فخذه عنها ، وجعل يعزى نفسه فى جراحاته فيقول :

فلا تصفنّ الحرب عندى فإنها   طعامى مذ بعت الصبا وشرابى

---

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٧ الطبعة السابقة .

(٢) سأثبت فى الصفحة التالية جدولا بنسب هذه القربى .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٢٧ الطبعة السابقة .

(٤) كتاب Abou Firâs بالألمانية لمؤلفه رودلف دفوراك طبع ليدن سنة ١٨٩٥ (ص 342) .

وقد عرفت وقع المسامير مهجتى   وشقق عن زرق النصول إهابى

وطالت جراحاته فلم تندمل فراح ينفس عن نفسه بالشعر فيقول :

جراح تحاماها الأساة مخافة   وسقمان باد منهما ودخيل

يقول (شلمبرجة) : « إنه كان ألمع الشخصيات فى بلاط حلب[1] ، وكان سيف الدولة يقدر فروسيته وشعره فيجرى عليه ألف دينار كل سنة ، وأن أبا فراس كان أنجب أهل الفروسية فى كل عصره ، وكان جندياً منقطع النظير » .

وأراه قد كُتب له أن يبقى بعد سيف الدولة ابن عمه [2] ، فتصرع حلب وتلقى الهوان وهو حى موجود . ويموت سيف الدولة قبله ، فيبقى وحيداً ويصير شريداً على نحو ما سأروى مصرعه الدامى الفظيع .

٢ – تحت أسوار منبج

منبج Bambyce بالبيزنطية ، وكانت تسمى باليونانية القديمة « المدينة المقدسة » (Hiérapolis) ومن تاريخها فى الحروب أنها كانت البيت الدينى للجيوش اليونانية القديمة ومثابة للرهبان والقديسين ، يجيؤونها من الديار البعيدة كل عام . وكانت سوقاً لآسيا طوال

---

(١) كتابه عن نيسيفور المتقدم ذكره ص 219 .

(٢) أثبت Dieterici وكان أستاذاً بجامعة برلين فى كتابه Mutanabbi und Seifuddau la طبع ليدن سنة ١٨٧٤ ص 142 نسب سيف الدولة وأبى فراس كما يأتى تعريبه :



الزمن القديم ومستجماً تتقابل فيه القوافل الكبرى الذاهبة إلى الشمال والآيبة إلى الجنوب أما هيكلها فقد هدمه الغزاة الكثيرون من طول ما عاودوه ، بهجمات خيولهم من جنوب وشمال ، أما اليوم فقد انهدم فيها كل شيء قديم ، ولم يبق من آثار ماضيها إلا بقايا الهيكل وانتشرت حواليها قبور المسلمين . وقد نام تحتها أبطال مناجيد كانوا فى عصر بنى العباس أيام سيف الدولة وأبى فراس حماة الديار ، وغلبة الروم .

وصف مدينة منبج قاضى القضاة محمد بن الشحنة الحلبى [١] ، وكان من أهل القرن التاسع للهجرة فذكر أن سورها كان إلى أيامه ووصف بناءه .

فليت شعرى كيف سأذكر الحارث الحمدانى أبا فراس إذا مررت يوماً بمنبج [٢] فوقفت حيث كانت تعلو تلك الأسوار .

لأذكرن أن جيوش البيزنطيين كانت تنحدر فى طول الأناضول وعرضها وقد تجمعت ألوفاً فى عسكر مجر لم تعرف بلاد العرب حشد مثله قد أقبل عليها من قبله ، وكان سيف الدولة فى كفاحه الأخير المضعوف وانكفائه على نفسه. فما راعه إلا الجيش البيزنطى يسد الشمال فينحدر من جبال طورس ، فاستجاش العدة أمير حلب من فوره ، وهب بمن معه من بقايا الأعوان ليصد رعيل البيزنطيين فى مدينة أعزاز فى شمال الشام . وحين عاين الخطر الداهم والسيل الرومى ، قفل مسرعاً وأمر بأبواب حلب فأغلقت واستعد أهلوها للحصار [٣] .

بل لأذكرن هذا الجيش البيزنطى إذ انحدر من أقاصى الشمال سنة (٣٥١) للهجرة ، وكان يرغو كبركان ويقصف كعواصف ، وقد حلف نيسيفور فوكاس لا وقف به زحفه إلا عند أسوار بيت المقدس ، فانتشر جيشه فى مدن الشمال [٤] فكان ابن أخيه (تيودور théodore) قائد الحملة التى حاصرت منبج ، وكانت منبج إقطاع [٥] أبى فراس وكان

---

(١) الدر المنتخب فى تاريخ حلب وقوف إليان سركيس الدمشقى ط بيروت سنة ١٩٠٩ .

(٢) ليس اليوم فى شمالى حلب بلدة شامية أغن من منبج وأفيح ، فهى فى نطاق من البساتين وفيها عيون وسكانها أكثرهم من الشراكسة .

(٣) لم يكن سيف الدولة فى حلب حين حاصرها نيسيفور فقد انحدر إلى بعض القرى المنعزلة ولعله فعل ذلك إبقاء على نفسه ليستطيع نصرة قومه إبان الحصار أو بعده .

(٤) يقول « أومان » فى كتابه (الإمبراطورية البيزنطية) — ص ١٨١ (ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر) إن سورية الشمالية كلها حتى حمص واللاذقية وحلب وأنطاكية مقر حكم الأمير (سيف الدولة) كانت فى حوزة نقفور فوكاس حين غزا الثغور والبلاد الشرقية .

(٥) تاريخ أبى الفداء الطبعة الأولى الحسينية بمصر ج ٢ ص ١٠٨ .

متقلداً لها [١] فأصحر فارس حمدان للقائد البيزنطى ودافع عن مدينته منبج بضراوة حتى أثخنه البيزنطيون جراحاً وغلبه الرومى بكثرة جمعه ، فوقع أبو فراس أسيراً وأسلم نفسه للروم ومعه سبعون من فرسانه فحمله الروم إلى القسطنطينية .

٣ – روميات الأسير

يروى المؤرخان اليونانيان (سيدرنوس وغليكاس) حوادث حصار نيسيفور فوكاس لحلب وما ذاقت على يديه حاضرة سيف الدولة سنة ٩٦١ للميلاد (٣٥١) للهجرة من القهر والهوان .

ويروى المؤرخون العرب هذه الواقعة فى اقتضاب أو تفصيل .

فيكون من حوادث هذا التاريخ وقوع أبى فراس فى قبضة الروم وبقاؤه سنين فى القسطنطينية . لكن (شلمبرجة) يقول إن أبا فراس نزل فى بلاط القسطنطينية حتى افتداه سيف الدولة سنة ٩٦٦ . وأبو منصور الثعالبى يقول إنه «حصل مثخناً بخرشنة ثم بقسطنطينية وهو يقول فى شعره :

إن زرت خرشنة أسيرا فلقد حللت بها أميرا

فيتبين من الروايتين العربية والفرنجية ومن بيته هذا أن البيزنطيين حملوه أسيراً من منبج إلى خرشنة مثخناً بالجراح ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية .

هذا رأى ، ورأى آخر حسب روايتين أخريين عربية وفرنجية . أما الفرنجية فقد رواها (بركلمان Brockelman) فى فصله المختصر الذى كتبه عن أبى فراس فى معلمة الإسلام الفرنسية [٢] ، فقال إن أبا فراس أسر مرتين : مرة سنة (٩٥٥ للميلاد ، ٣٤٨ للهجرة) وهو أمير حمص وحبسه البيزنطيون فى حصن (خرشنة) ففر منه بأن ألقى بنفسه من مشارفه بقفزة مهلكة .

وأسر مرة ثانية فى سنة (٩٦١ م – ٣٥١ ﻫ) فأخذ فى هذه المرة إلى القسطنطينية . ويقول (بروكلمان) أفسر ما رواه (شلمبرجة) بأن أبا فراس كان أعرج من أثر ضربة فى رجله .

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٢ ص ١٩٢ .

(٢) ج ١ ص 88.

والرواية الثانية العربية هى رواية (ابن خلكان [١]) . ولا أشك أن بروكلمان قد صدر بقوله عنها . فقد روى أديبنا القديم أن أبا فراس أسر أول مرة بوقعة (مغارة الكحل) سنة (٣٤٨) ولم يتعد به الروم خرشنة ، ووصف ابن خلكان خرشنة بأنها كانت قلعة للروم ، والنهر يجرى من تحتها ، وقال إن أبا فراس ركب فى هذه القلعة فرساً وركضه ، فأهوى به من أعالى الحصن إلى النهر ، والمرة الثانية التى أسر فيها ، هى أسر الروم له فى منبج وحملهم إياه إلى القسطنطينية .

فأبو فراس إذن لم يكن فى وقعة حلب حين دخلها الروم وأبادوها ، وإنما كان عندئذ فى الأسر يتقلب على مثل الشوك من قلقه وأشواقه إلى ابن عمه ، ولم يكن له عزاؤه فى أسره سوى أن ينعطف إلى أشعاره ، فيسكن تباريحه بحماساتها ، ويبكى لهفة على أمه (صهيجة .)

وكانت (صهيجة) نبيلة الصفات فى قومها ، ربطتها مودة إلى ابنها كأنها الجنون ، ولذا فإننا نحس طائف هذا الجنون فى شعره إليها وهو يتظلم فى أسره ، ويحن إلى الوطن ، فإذا هدأ فى جنح الليل أرسل طرفه الباكى ، فتخيل أمه العجوز باكية عليه بمنبج ، وهى البارة الرحيمة والعابدة لله التقية ، فسكب خواطر أحزانه على الشعر وبات يقول :

لولا العجوز بمنبـــج ما خفت أسباب المنيهْ

وكان يعز عليه لولاها أن يطلب من ابن عمه الفداء (على عادة العرب والروم فى تفادى الأسرى كما ذكرت) فقال :

ولكان لى عما سألت من الفدا نفس أبيـــهْ

والظاهر أن أمه هى التى كانت تلح عليه ، برسالاتها أن يطلب الفداء من ابن عمه ، فشرح هذا فى البيت الآخر :

لـــكن أردت مرادهـــا ولو انجذبت إلى الدنيهْ

وكم يحزننى أن أذكر أمه — وأنا الفاقد أمى — إذ يقول لها فى آخر هذه الرسالة الشعرية :

يا أمتـــا لا تحزنى وثقى بفضل الله فيّـهْ
يا أمتـــا لا تيأسى لله ألطاف خفيهْ

وكانت أمه تخرج إلى طريق القوافل المارة بمنبج ، فتسأل عنه الركبان ثم لما أعياها

(١) وفيات الأعيان طبعة البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٦/١٨٨ .

سؤال القوافل بغير جواب ، خرجت من منبج إلى حلب ، ودخلت على سيف الدولة فسألته فداء ولدها ضازعة إليه شاكية .

ولما طال فداؤه انطوى على نفسه يقول هذا الشعر :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابى الفرار أو الردى فقلت : هما أمران أحلاهما مر

وإذا عدنا إلى (شلمبرجة) فإنا نجده يقول إن أبا فراس كان نزل وهو أسير فى بلاط القسطنطينية .

ولكنى أجد فى شعره الذى قاله فى القسطنطينية أنه كان يرسف فى القيود ، فكان إذن سجيناً عند الدمستق (رومان الثانى [1]) ولعله نزل سجيناً بعد وصوله إلى القسطنطينية ثم أطلقه الدمستق ، فكان يدعوه إلى مكالمته ومناظرته فى آراء الحرب والدين .

وقد رأيت فى شعره أنه حمل مقيداً على الرغم من جراحاته ، وأنه إذ جاء به البيزنطيون إلى خرشنة كان القيد فى رجله ، ثم مضوا به فى درب الروم وهو مصفود بالأغلال . فهو فى إحدى رسالاته الرومية يصف أمه بأنها عليلة حزناً عليه ، فيقول فى قيوده :

عليلة بالشـآم مفردة بات بأيدى العدى معللها
تسأل عنـا الركبان جاهدة بأدمـع ما تكاد تمهلها
يامن رأى لى (بحصن خرشنة) أسد شرى فى القيود أرجلها
يا من رأى فى (الدروب) شامخة دون لقاء الحبيب أطولها
ليست تنال القيود من قدمى وفى اتباعى رضاك أحملها

وفيها يشير إلى سؤال العجوز لسيف الدولة فداءه . وأرى أنه كان فى هذه النوبة الثانية من أسره حبيساً فى حصن (خرشنة) أيضاً قبل أن ينقل إلى القسطنطينية ، لأن إقليم خرشنة واقع فى الدرب إلى القسطنطينية فهو يقول بتلك الإشارة .

جاءتك تمتاح رد واحدها ينتظر الناس كيف تقفلها

---

(١) توفى قسطنطين السابع سنة ٩٥٩ للميلاد فنصب البيزنطيون بعده على القسطنطينية رومان الثانى Roman II إمبراطوراً . وكان نيسيفور فوكاس القائد الأكبر لم يثب بعد على العرش .

ولم تكن رسائل أبى فراس إلى أمه من القسطنطينية إلى منبج ، رسائل بكاء والتياع فحسب وإنما كان فيها شعر حماسى يتأسى به الفارس الحمدانى يدعو فيه أمه إلى الاعتزاز ، فهو بعد أن يقول :

وإن وراء الستر أمًّا بكاؤها ... علىّ وإن طال الزمان طويل

يقول :

لقيت نجوم الأفق وهى صوارم ... وخضت سواد الليل وهو خيول

وكان أبو فراس يلح بفكاكه فى كل قصائده الرومية — كما يظهر من شعره — ويعاتب سيف الدولة فى القعود عن ذلك . وقد أفسح سيف الدولة بقعوده عن فكاك أبى فراس مجالاً لقول الحاسدين الذين كانوا عند سيف الدولة يؤثرون بقاء أبى فراس فى الأسر حتى لجأ أبو فراس إلى تهديد سيف الدولة بأنه سيلتجىء لأهل خراسان فى فكاكه[1] .

وقد فات مؤرخى العرب الذين ذهبوا مذهب التعليل الخاطئ إذ زعموا أن سيف الدولة تجافى عن ابن عمه وقعد عن فدائه ، فاتهم أن يعرفوا الحالة السياسية والاجتماعية التى كان عليها سيف الدولة حينذاك .

إنه كان كالخارج من الموت ، حلب مهدمة ، ورجاله منفكون عنه ، وبعضهم قتل أو أسر ، وماله الذى كان فى بيته فى حلب فى (الحلبة) منهوب ، حمله البيزنطيون إلى القسطنطينية ، وغلمانه شامسون يتربصون به الوثوب عليه ، والرومان ظافرون ظفراً لم يحلموا بمثله منذ عهد الفتح الإسلامى ، زمن الخلفاء الراشدين حين جاء الإسلام بلادهم . فلم يعد لسيف الدولة عندهم ذلك المجد الحديدى ، وتلك الصولة التى كانت ترهبهم . كل هذه الأمور لم يعرض إلى واحد منها ، أحد من مؤرخى العرب بما فيهم ابن خلدون ، كما لم يعرض لها مؤرخو التاريخ البيزنطى الذى نقله لنا ثقات البحث فيه من مؤرخى الفرنجة .

هذا هو الذى أقعد سيف الدولة عن فكاك أبى فراس وغيره من أعزاء الحمدانيين لديه وإن أبا العشائر بن حسن بن على الحمدانى ، كان فى الأسر أيضاً ، فقد أسر فى معركة تل (البطريق) عند (حصن عرمدا) والذى أسره ليون بن الدمستق وحمله إلى القسطنطينية ومات فى الأسر سجيناً[2] وكان فى الأسر من أشراف حمدان ابن أخى سيف الدولة

---

(١) أعلل مقصد أبى فراس بضرب من التهديد لابن عمه بأنه سيلجأ إلى الخراسانيين الذين جاؤوا ديار الروم من أصحاب بابك الخرمى بعد هزيمته ومقتله وقد دخلوا النصرانية وأصبحوا فى عداد الروم ولعل هؤلا قد أصبحوا فى الديار الرومية ذوى مكانة ومال وأنهم قادرون على فكاك أبى فراس لو لجأ إليهم .

(٢) من أجل المصادر وأوثقها (تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى) وقد اعتمد عليه كل المحتفون بالتاريخ البيزنطى فى العصر الحديث فى أوربا فأضافوا حوادثه التى رواها عن عصر سيف الدولة إلى الكتب البيزنطية التى وقعت إليهم واستجلوا بها حقائق التاريخ البيزنطى والإسلامى فى ثغور الشام و بلاد الروم فى القرن العاشر للميلاد .

محمد بن ناصر الدولة وكان أبو الهيثم ابن قاضى سيف الدولة أبى الحصين وخلق كثير من رجاله و (حرسه الخاص) فقعد عن فداء كل هؤلاء . ولا شك أنه قد كان يحزنه موت أبى العشائر وهو الفارس البطل والشاعر الحماسى .

ولقد كان فى نية قائد الروم (نيسيفور فوكاس) أن يستأصل شأفة الحمدانيين جميعاً ويلحق سيف الدولة فى ملجئه خارج حلب لولا أن عاجلته القلاقل السياسية فى القسطنطينية ولولا مقتل ابن أخيه (تيودور) الذى كان قد أسر أبا فراس ، إذ اقتحم ممرًّا لقلعة حلب فأسقط عليه الحمدانيون من أعاليه حجراً رضخ رأسه فأهلكه[١] فتشفى نيسيفور بمقتلة أشراف أسراه على مرأى من الحمدانيين المعتصمين بالقلعة فى بهرة حلب ، وحلب يومئذ تموج بدم سكانها . (ولم يرو هذه الحادثة الأخيرة) « يحيى بن سعيد الأنطاكى » ، وإنما رواها « شلمبرجة » .

وحين ارتد نيسيفور فوكاس إلى حاضرة بلاده وجد السبيل إلى الاستيلاء على عرش بيزنطة بمعونة (تيوفانو) زوجة مولاه وعشيقته التى صارت له زوجاً بعد أن آمت من الإمبراطور (رومان الثانى) وهى التى قتلت نيسيفور فوكاس بعد ذلك بمعونة (يانيس[٢] تزيمسيس) عشيقها الأخير[٣]

وقد شاء الحظ أن يخدم أسرى الحمدانيين وأن يرفع الستار عن كاهل سيف الدولة فأتاح له أن يطلب فكاك أسراه ، وكان البيزنطيون فى بحران سياسى واختلاف داخلى ، فقبلوا منه (ملتمسه) .

= وقد نشر (تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى) كراتشكوفسكى وفاسيلييف الروسيان المتخصصان بالتاريخ العربى وأدبه أول مرة بالعربية فى مجموعة Patrologia orientalis المجلد XVIII طبع باريس سنة ١٩٢٤ مع الترجمة الفرنسية لنصوص هذا التاريخ القيم نقلا عن أقدم مخطوط فى دار الكتب الكبرى فى لينن‌جراد ومكتوب فى القرن الخامس عشر للميلاد وقد دلهما على هذا التاريخ العالم الألمانى البارون (Van Sosen سنة ١٨٨٣) .

ويحيى بن سعيد الأنطاكى هذا من مؤرخى القرن الحادى عشر للميلاد وقد ذكر فى أول تاريخه أنه تاريخه « تبعاً لتاريخ (سعيد بن البطريق إذ كان ابن البطريق انتهى فى تاريخه بالسنة الخامسة من خلافة الراضى وهى سنة ست وعشرين وثلاثمئة) .

(أنظر هذا المصدر من ص 728 — 787 ففيه نبذ مختصرة عن عصر الحمدانيين وسيف الدولة تنقع غليل الباحث المقارن بين التاريخ العربى والتاريخ البيزنطى) .

(وأسر أبى العشائر وموته ورد فى ص 772 من هذا المصدر) .

(١) شاقنى أن أرى هذا المكان فى حصن حلب فصعدت إلى موضع الثغرة التى رمى منها الحمدانيون ذلك الحجر الذى أهلك المحارب البيزنطى (تيودور) .

(٢) أومان — الترجمة العربية السابقة ص١٨٢ . (وهو جان تزيمسيس وكان من أكبر القواد على حداثة سنه)

(٣) عرب يحيى بن سعيد الأنطاكى فى تاريخه اسم Jean بيانيس لكنه أخطأ فى إطلاق كلمة (الشمشقيق) كغيره من المؤرخين على القائد Tzimiscés وصوابها الشميشيق كما قدمت وهو تصغير chamachic تزيميسيس

كذلك يقول (يحيى بن سعيد الأنطاكى) إن سيف الدولة (التمس) من نقفور الملك المفاداة بمن أسر من المسلمين بمن عنده من أسرى الروم فأجابه إلى ذلك وسار سيف الدولة من (ميافارقين [١]) إلى سميساط (وأقام الفداء على شاطئ نهر الفرات) فى رجب سنة ٣٥٥ [٢] .

ففادى بابن ناصر الدولة محمد وبأبى فراس وبالقاضى أبى الهيثم وغيرهم وبغلمانه ممن أسرهم الروم، ودفع للروم (أعور حرم) و (ابن بلنطس) وجميع من كان عنده من أسارى الروم ، ولما لم يبق عند سيف الدولة من الروم من يفادى به اشترى من الروم بقية أسرى المسلمين وكان عددهم (ثلاثة آلاف نفس) بمئتين وأربعين ألف دينار رومية وأجحف ذلك به [٣] » .

هذا ما رواه الأنطاكى ، وليس فيه الكفاية .

وقد أتم بغية هذا البحث عندى ما رواه أبو منصور الثعالبى فى اليتيمة [٤] بقوله : « ولما خفف عن أبى فراس ورفه ونوظر فى أمر الهدنة والأسارى أجيب إلى ملتمسه بعد أن اكرم وبجل » .

فيظهر من هذه الرواية أن أبا فراس عقد الهدنة وكتب صكاً بفك أسره وصحبه فسفر بذلك لسيف الدولة .

ورواية ثانية تكمل هذه أوردها أميدروز amedroz الأستاذ بجامعة اكسفورد وهو ضريع (مارغوليوث) . قال نقلاً عن تاريخ (على بن محمد الشمشاطى [٥]) فى حاشية له على كتاب تجارب الأمم الذى نشره [٦] :

---

(١) Miphracta

(٢) عين (شلمبرجه) (ص 696 من كتابه عن نيسيفور فوكاس) الفداء بحزيران سنة ٩٦٦ . وأبو الفداء بتاريخه الطبعة السابقة ج ٢ ص ١٨ عينه بسنة (٣٥٥) أيضاً .

(٣) ص 803 من المصدر السابق مجلة (Patrologia).

(٤) الطبعة السابقة ج ١ ص ٦٦ .

(٥) فى يتيمة الدهر للثعالبى ج ١ ص ٨٩ ذكر زهيد للحسن بن على بن محمد الشمشاطى ، وكان شاعراً فى شعراء الدولة الحدانية وأدبائها .

(٦) ج ٢ ص ٢٢٠ هامش رقم (٢) .

كتاب تجارب الأمم لأحمد بن محمد بن مسكويه طبع شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٩١٥ بوقوف Amedroz وقد ترجم أجزاءه إلى الإنكليزية ونشره بلندن سنة ١٩٢١ . وابن مسكويه هذا من مؤرخى أوائل

أن رسول سيف الدولة إلى الروم فى هذه المفاداة كان (أبا القاسم الحسين بن على المغربى[١]) أرسله سيف الدولة لتقدير المبلغ الذى تكون عليه الفدية ومعه هدية بعشرة آلاف دينار منها ثلاثمئة مثقال مسك .

ولا ريب فى أن هذا الفداء أبهظ سيف الدولة وكلفه ما بقى معه من المؤونة بعد أن تضعضع ملكه (فيروى صاحب تجارب الأمم ويروى كذلك يحيى بن سعيد الإنطاكى) أن سيف الدولة انصرف من الفداء ودخل حلب وأقام بها ليلة واحدة وخرج وهو عليل من الاسترخاء العارض له . فكان يحمل فى قبة[٢] .

إن هذا الهوان الذى أصاب أمير حلب طحن نفسه . ولا أرتاب فى أنه كان السبب فى هذا الفالج الذى أصابه ، فآذنت أيامه بالزوال .

* * *

كأن البطل الحمدانى خرج من الأسر فجاء حلب ليودع سيف الدولة الوداع الأخير . لقد مات سيف الدولة على فراشه سنة (٣٥٦ هـ . ٩٦٧ م) وكم كان يؤثر أن يموت فى الحرب وألا يجود بنفسه حتف أنفه .

إنه أوصى أن يوضع رأسه فى قبره على لبنة كان جمعها (من نفض غبار غزواته) ، فأذكرنى مرة ثانية بضريعه نابليون إذ أراد أن ينصب تمثاله على عمود من ذوب المدافع التى كسبها فى حروبه . وكذلك كان فقد أقاموا له عموداً شاهقاً فى ساحة (فاندوم) بباريس وعليه تمثاله يقف أبداً فوق ذوب المدافع التى هزم عنها أعداءه . كذلك فعل سيف الدولة من قبل نابليون (بثمانمئة وخمسين عاماً) لقد ذكر صاحب اليتيمة أنه غزا أربعين غزوة له وعليه . وقد تبسط « شلمبرجة » فى وصف هذه « اللبنة الحربية المقدسة » فقال إنها كانت مزيجاً من غبار معاركه مع الروم ملبوكاً بعرقه ، فكانت تجمع من ثيابه ومن بدنه قبل أن يستحم عند قفوله من الحرب .

= المئة الرابعة للهجرة وكان فى زمن من حياته كاتباً عند أبى الفضل بن العميد الكاتب الصناعى المشهور . وذكر عن ابن العميد فصلا ضافياً فى كتابه ، إذ كان فى خدمته بضع سنين . وقد تعصب على سيف الدولة فرماه بالعجب والكبرياء والاستبداد فى الرأى . (ج ٢ ص ١٨١) .

(١) هو لاشك صاحب (أبى العلاء المعرى) الذى عرف فيما بعد (بالوزير المغربى) ورثاه أبو العلاء فى اللزوميات وحده .

(٢) 804 من مجموعة Patrogia السابقة ، و ج ٢ ص ١٩٩ (تجارب الأمم) .

إنى لأشعر بحماسة تشيع فى أعطافى فتملأ علىّ منافذ العين ومسارب السمع حين أتصور سيف الدولة وقد أسند لاحده خده الأصْيَدَ إلى هذه اللبنة الهائلة فى جانب أمه الحنون بمدينة ميافارقين، وهو الذى كان فى الحياة يحب أمه كما يحدثنا شاعرنا المتنبى ، إذ ألبس جنوده التجافيف [1] وراح بهم إلى زيارة أمه فى (ميا فارقين) . ولم يكن جنوده فى هذه الزيارة يسيرون إلى الحرب ولكن حماسة سيف الدولة زينت له كرامة البطولة ، فكان جنوده خمسة آلاف ومعهم غلمانه بألفين . وقد هاجت هذه الزيارة الحنون بلابل أبى الطيب فراح يصف هذا الجيش الذى وقف سيف الدولة يعرضه فوق تراب أمه ، وكان كأنما يريد أن يشعرها ببأسه وسلطانه لتظل فى نومها الأبدى مطمئنة عليه . ومد أبو الطيب خياله إلى الخيل فجعل هذا الحيوان الحنون يشارك سيف الدولة بالرقة والرحمة ، فهو أبداً كلما ركب الخيل مالت بأعناقها نحو اليمين حناناً من حلب إلى ميا فارقين ، وأمطرت السماء يومذاك فقال عن الغيث :

فزار التى زارت بك الخيل قبرها ... وجشمه الشوق الذى تتجشم
ولما عرضت الجيش كان بهاؤه ... على الفارس المرخى الذؤابة منهم
حواليه بحر للتجافيف مائج ... يسير به طود من الخيل أيهم

وفى هذه الخيل يقول :

وأدبها طول القتال فطرفه ... يشير إليها من بعيد فتفهم
تجانف عن ذات اليمين كأنها ... ترق لميا فارقين وترحم

* * *

وعن تلك اللبنة الحماسية قال (شلمبرجة) العظيم :

« هى وحدها فى ظلمة قبر سيف الدولة الشاهد الفخور لألف معركة » . كذلك شهد أبو فراس موت ابن عمه سيف الدولة . ولكنه لم يقل فى رثائه شعراً ، وكان ينبغى أن ينوح عليه فى شعره . ولعل له شأناً كشأن أبى الطيب فى نكبة حلب فيما فاتنا من شعره . فحُرم الجبار الحمدانى شاعريه . مات المتنبى قبله ، ومات هو قبل أبى فراس ، فلم يرثه أبو فراس . وإن مثل مصابه ليلجم الشعر ويبكم الأفواه .

---

(١) التجافيف آلة الحرب .

٤ ـ حربيات أبى فراس

هل حاول أبو فراس نظم الملحمة ؟

سألت نفسى ذلك حينما فرغت من دراسة قصيدته الرائية الكبرى التى أولها : لعل خيال العامرية زائر .

وقد سكبها قصيدة على روى الراء ، كلها من بحر واحد فى مئتين وخمسة عشر بيتاً . فكانت قصيدته هذه قد جاءت إلى عهده أطول قصيدة محكمة فى شعر الحرب ، يفيض بها شاعر ملء الشوط فى معان قوية ولفظ مكين .

بدأها بالغزل على عادة شعراء العرب القدامى فى عصره ، ثم افتخر بفروسيته وبمجد قومه ذاكراً سوالف المحامد لعمومته وأهليه ، حتى بلغ سيف الدولة صاحب حلب ، وناصر الدولة صاحب الموصل فقال فيهما :

ففينا لدين الله عز ومنعـــة   ومنا لدين الله (سيف) و (ناصر)

وذكر صوراً من مغازى سيف الدولة لديار الروم . وكان بيته الرائع الذى يقول فيه عن سيف الدولة :

وأوطأ حصنى (ورتنيس) خيوله   وقبلهما لم يقرع النجم حافـــر [1]

يهيج عندى خيالاً من معارك سيف الدولة . وإن أبا فراس ومن قبله أبو الطيب ليعجزهما وصف فروسية سيف الدولة . فأبو فراس يعتذر عن ذلك بقوله فى هذه الملحمة .

ألا قل لسيف الدولة القرم إننى   على كل شىء غير وصفك قادر

ووصف فى الملحمة هروب الدمستق بعد أن جرح فى وجهه فقال :

وولى على الرسم الدمستق هارباً   وفى وجهه عذر من السيف عاذر

وقد أشار أبو الطيب إلى هذا الجرح فى وجه الدمستق فى قصيدته اللامية فقال يعير الدمستق بفراره .

نجوت بإحدى مهجتيك جريحة   وخلفت إحدى مهجتيك تسيل

وأمعن أبو فراس فى ملحمته بذكر ما تبقى من قومه الأبطال بعد طويل الحروب فذكر

---

(١) فى نسخ الديوان (رستنيس) .

أسماءهم وأعمامهم حتى قال فى آخرها وهو يجل نفسه أن يكون مادحاً متملقاً أو شاعراً مأجوراً:

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى ... فما أنا مداح ولا أنا شاعر

وقد غلبه الفخر بالقبيلة فى هذه الملحمة على التبسط بذكر الحرب وتصوير المعارك . وهو إن أجمل الكلام على حروب الحمدانيين للروم فى رائيته الكبرى ، فقد تبسط فى قصيدته التى قالها بعد أن أضافه الدمستق فى مناظرة جرت بينهما فى القسطنطينية حين كان عنده أسيراً فكان يزور البلاط ويجالس الملك (١) بعد أن فكت قيوده . فقال له ملك الروم (٢) « إنما أنتم كتاب ولا تعرفون الحرب ، فقال له أبو فراس نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام ؟ » .

وازدحمت فى صدر أبى فراس ذكريات الحروب وهو فى أسره وما كسب العرب من نصر على الروم فراح يذكر – فى قطعة واحدة – مفاخر الحمدانيين فى الحروب البيزنطية وأسرى الروم وأقيالهم وقوادهم بأسمائهم وأيام انكسارهم فى حروبهم مع قومه ، فقال وهو يعير الدمستق ويزجره ويقدم صورته فى أول بيت بأنه ضخم العنق فيقول (٣) :

أتزعم يا ضخم اللغاديد أننا ... ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا (٤)

فويلك من للحرب إن لم نكن لها ... ومن ذا الذى يُضحى ويمسى لها تِرْبا

ومن ذا يقود الجيش من جَنَباته ... ومن ذا يقود العين أو يصدم القلبا

وويلك من أردى أخاك (بمَرْعَشٍ) ... وجلل ضرباً وجه والدك العضبا (٥)

وويلك من خلّى ابن أختك موثقاً ... وخلاك (باللقان) تبتدر الشعبا (٦)

أتوعدنا بالحرب حتى كأننا ... وإياك لم يعصب بها قلبنا عصبا

---

(١) أعلل سبب مجالسة أبى فراس لملك الروم واختلاف هذا الأمير الحمدانى إلى بلاط الامبراطور البيزنطى (بأن أم أبى فراس كانت بيزنطية) . وأظهر دليلى هذا فيما يلى .

(٢) اليتيمية ج ١ ص ٦٥ .

(٣) المصدر نفسه والصفحة . وديوانه السابق ص ١٠٤ .

(٤) اللغاديد لحم الحلق ويقصد بها أبو فراس ضخامة العنق، والرومان كانوا جسوماً طوالا وأعناقاً ضخاماً.

(٥) أى جعل العضب وهو السيف يجلل وجه والدك بالضرب .

(٦) شدد اللقان وكان أبو الطيب يخففها .

فسل (بردسا) عنا أباك وصهره وسل أهل (برداليس) أعظمهم خطبا [١]

وسل (قرقواسا) والشميشيق صهره وسل سبطه البطريق أثبتهم قلبا [٢]

وسل صيدكم (آل الملايين) إننا نهبنا ببيض الهند عرضهم نهبا [٣]

بأقلامنا أحجزت أم بسيوفنا وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا

رعى الله أوفانا – إذا قال – ذمة وأنفذنا طعناً وأثبتنا ضربا

ولو أن أبا فراس كتب تاريخ حياته فى حربه لما زاد على البيتين الآتيين اللذين يصف فيهما هذه الحياة التى كثرت فيها الغارات وركوب المطايا بعد كسر أعدائه فى كل البلاد .

جمعت سيوف الهند من كل بلدة وأعددت للهيجاء كل مجالد

وأكثرت للغارات عندى وعندهم مئات البكيريات حول المراود [٤]

وهو يسرد فى بعض شعره كيف سار بجيش لجب جياش بالصناديد وعليه الرايات الحمر تخفق بها الرياح وكان صاحب هذا الجيش سيف الدولة الذى يفرغ ثباته على قلب الجيش وجناحه . وقد وصف هذا المسير بعد أن أتى رسول ملك الروم يطلب الهدنة من سيف الدولة – بعد حرب من حروبه – (على نحو ما وصفت فى كلامى على شعر الحرب عند المتنبى) فأمر سيف الدولة الجند أن تركب بسلاحها لاستقبال الرسول وركب هو من

---

(١) رجعت فى هذه القطعة وهى أكثر قطع أبى فراس بأسماء الروم وأحشدها ذكراً لحروبهم مع الحمدانيين فى جملة واحدة ، إلى مخطوط الديوان . وهو أوضح مخطوطاته الموجودة فى دار الكتب المصرية برقم ١٨٣٢ خصوصى أدب فى ٦٧ ورقة وهو نسخة بخط محمد بن أحمد الخياط الشافعى مغفل التاريخ .

وقد جاءت هذه القطعة فى المخطوط بأسماء البطارقة والبلاد على وجه فى غاية التصحيف والغلط وجاءت بعدها نسخ الديوان المطبوعة على هذا النحو من الغلط – فكلمة (بردسا) جاءت فى المخطوط وفى نسخ الديوان وفى يتيمة الثعالبى (فسل برد، سل عنا أباك وصهره) . وبردس هو برداس قائد (قسطنطين السابع ملك القسطنطينية المعروف بالبرفيروجينى) .

(٢) فى المخطوط والنسخ : (وسل قرقاشا والشمقمق) . وقرقواس هو الأرمنى Jean Courcouas من قواد الدمستق (ص 116 من كتاب « شلمبرجة ») .

والشميشق بتصغير شميشيق هو Chamachiq ابن تزيميسيس على نحو ما بينت فيما سبق فى هوامش الكلام على حماسة المتنبى .

(٣) آل الملايين هم آل البطريق قسطنطين ماليئونوس (C. Maleinos)

(٤) البكيريات ضرب من النوق ، والمراود الحلقات التى تربط بها المطايا .

داره المسماة (بالدارين) فى ألف جندى من (حرسه الخاص [١]) المماليك وعلى أفراسهم ألف جوشن مذهب من دروع الخيول على ألف (فرس عتيق) وألف (خفاف [٢]) وركب الناس والقواد على طبقاتهم فى الجيش .

وما أحسب سيف الدولة فعل ذلك إلا ليرى رسول الروم عدة العرب وعديدها وليقوم بتكرمة السفير فى استقباله الرائع ، فوصف أبو فراس هذا المظهر الحماسى بقوله :

علونا جوشنا بأشـد منه ... وأثبت عند مشتجر الرماح

بجيش جاش بالفرسان حتى ... ظننت البر بحرا من سلاح

وألسنة من العذبات حمر ... تخاطبنا بأفـواه الرياح

وأروع جيشه ليـل بهيم ... وغـرته عمود للصبـاح

صفوح عند قدرتـه كريم ... قليل الصفح ما بين الصفاح

وكان ثباته للقلب قلبـا ... وهيبتـه جناحا للجناح

كان أبو فراس الحمدانى متمماً لأبى الطيب المتنبى فى قصر سيف الدولة [٣] وكان فى وحى هاتين الشخصيتين اللتين تمم إحداهما الأخرى شيوع الشعر الحماسى فى عهد سيف الدولة الذى أبدع القصائد فيه هذان الشاعران وإن كان المتنبى عظيم الشعر وأبو فراس عظيم الحرب .

وبحسب أبى فراس ، وأكثر شعره فى الحروب والحماسة ، أن يبقى مطاولاً بفروسيته ، وأن تكون مكانته فى الحرب مكانة القواد الذين يجرون الكتائب الظافرة ، وهو البطل الذى يظمأ حتى ترتوى السيوف والرماح ، ويظل طاوياً حتى يترك فى ساحة الحرب قتلاه فيأكل قبله الذئب والنسر ، فيقول :

وإنى لجـرار لـكل كتيبة ... معودة ألا يخل بها النصر

وأصدأ حتى ترتوى البيض والقنا ... وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

---

(١) يعبر المؤرخون العرب بكلمة (الغلمان) فى حق سيف الدولة وأمثاله من الأمراء عما نسميه فى عصرنا (الحرس الخاص) .

(٢) ديوانه ط بيروت سنة ١٩١٠ ص ٥٩ .

(٣) لم أقصد فى هذا الرأى أن أقيس أبا فراس على قد المتنبى . فأبو فراس فى شجاعته وبطولته قد يفوق المتنبى . لكنه لا يقاس به فى الشعر وفى قصائده الحماسية . فليس للمقارنة من سبيل بين قصائدهما إلا فى الموضوع . أما فى ديباجة اللغة وأسلوب السبك . وعبقرية المعانى فإن أبا الطيب المتنبى هو الجبار الوحيد . وقد قصدت إلى أن أبا الطيب كان متمما لأبى فراس فى بلاط سيف الدولة (إتمام الشخصية فحسب) و (إتمام الموضوع) .

٥ ـ نهاية النسر الحمدانى

ما أشبه النسر بالبطل ! فلقد كان النسر رمزاً للبأس والقوة . ويموت النسر فيتحامل على نفسه جبار الجناحين معكوف المنسر ، منشور المخلب . وكذلك يموت البطل .

وأفل نجم حلب بعد سيف الدولة فغلب عليها ابنه أبو المعالى سعد الدولة ، فأنكر على أبى فراس ولاية حمص ، وكان سيف الدولة جعلها إليه . وكان أبو فراس قد استقر بعمله فى حمص بعد فكاكه من الأسر فى الروم . فاعتل عليه سعد الدولة وزعم أنه يجور فى الحكم على أهل حمص فحاربه بغلامه (قرعويه) .

وكان (دڤوراك) من المستشرقين الذين ولعوا بأبى فراس لفروسته (وشخصيته) الشعرية ، ولشعره فى حروب العرب مع الروم وشهوده المعارك بنفسه التى كانت بين الروم وبين المسلمين ، ولأنه نزل فى ملك البيزنطيين وجاورهم .

وقد روى (دڤوراك) صورة من حياة أبى فراس قبل نهايته فقال [١] « إن أبا فراس أصبح يوم مقتله حزيناً كئيباً ، وكان قد قلق تلك الليلة قلقاً شديداً ، فرأته ابنته امرأة أبى العشائر [٢] كذلك فأحزنها حزناً شديداً فبكت وهو على تلك الحال . » فلما ركب جواده للقتال « أنشأ يقول ورجله فى الركاب والخادم يضبط السير عليها » وكانت بنته تبكى لحاله :

أبنيتى لا تجزعى كل الأنام إلى ذهاب [٣]
نوحى علىَّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى إذا كلمتنى فعييتُ عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب

ثم خرج أبو فراس إلى لقاء (قرعويه) بجمع من الكلبيين تركوه فى زحام المعركة ،

---

(١) كتابه (أبو فراس البطل الشاعر) Rodolph Dvorak طبع ليدن سنة ١٨٩٥ ص 342 . وقد جمع فيه دڤوراك شعر أبى فراس الذى رواه أبو منصور الثعالبى فى تيمية الدهر . ودرس شعره بمقدمة كتابه بعد أن رأى النسخ المخطوطة من ديوانه فى دور الكتب بأوربا . وذكر أنه نقل دراسة الثعالبى (من الجزء الثالث) مع أن هذه الدراسة فى كل النسخ العربية جاء بها الثعالبى فى الجزء الأول . ويظهر من قدم الطبعة التى نشرها (دڤوراك) لكتابه أنه نقل أقوال الثعالبى فى أبى فراس عن مخطوط ولعل ترتيبه كان أجزاء مختلفة عن ترتيبها فى الطبعات العربية .

(٢) تقدم أن أبى العشائر الحمدانى وقع أسيراً فحمل إلى القسطنطينية ومات فيها سجيناً .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٧١ ويذكر ابن خالويه أن هذا آخر شعر قاله أبو فراس قبيل موته .

فوقع أسيراً . ولم يشفق عليه (قرعويه) التركى فكلم بالتركية أحد المماليك ممن كان معه أن :

– « اقتل أبا فراس » .

فألقى المملوك بنفسه على أبى فراس وكان أعزل، نزع أعداؤه سلاحه، فخبطه خبطة واحدة بدبوس من شوك الحديد على رأسه فسقط الشاعر البطل . ونزل الغادر عن جواده فجز رأسه وعلقه بركاب أميره (١) وبقى جسد الصريع رفيق سيف الدولة ومنافس المتنبى فى الشعر والفخر عارياً مطروحاً جزر السباع ، تنوشه جوارح الطير فى عرض الصحراء بظاهر حمص، حتى مر به أعرابى فأشفق على الجسد الهامد ، فلفه بكفن وأدرجه فى التراب . وكان ذلك فى ربيع الآخرة من سنة ٣٥٧ الموافقة آخر شباط سنة ١٦٨ للميلاد (٢) .

وبلغ أمه (صهيجة) (٣) الخبر الصاعق فخفت إلى مكان ثراه وطاف بها من هول

(١) تاريخ أبى الفداء الطبعة الحسينية بمصر ج ١ ص ١٠٨ وكتاب شلمبرجه (تاريخ نيسيفور فوكاس) ص 698 وقد ذكر (دفوراك) فى كتابه السالف أن أبا فراس وأخاه (أبا السرايا) كانا شاعرى بنى حمدان وكان أبو السرايا الأصغر (ص 9) .

(٢) مات أبو فراس وعمره ٣٧ عاماً .

(٣) يقول شلمبرجه (ص 698) من كتابه عن نيسيفور فوكاس أن (صهيجة Sahyjah) أم أبى فراس كانت من قديم عهدها (أمة) ثم علا شأنها فصارت عزيزة غالية . وقد وجدت الدليل على أن أمه كانت بيزنطية من قوله وهو فى القسطنطينية أيام أسره فقد أرسل إلى ابن عمه سيف الدولة فيما أرسل من القصائد يعاتبه بها لقعوده عن فدائه قصيدة فيها بيتان يذكر فى أولهما أنه قضى فى القسطنطينية سنتين إلى يوم قصيدته وأنه إن خاف من (أخواله الروم) أمراً واحداً تخوف من أعمامه العرب أربعة أمور . والبيت الأول أورده أبو منصور الثعالبى فى جملة القصيدة ولم يرد فى الديوان ، والبيتان هما :

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى ... من الناس محزوناً ولا متصنعـا

إذا خفت من (أخوالى الروم) خطة ... تخوفت من أعمامى العـرب أربعا

لقد أقر لنا أبو فراس (بهذا) أن أمه كانت بيزنطية ولكنه لم يذكر أنها كانت (أمة) وقد رجعت إلى معاجم العربية فى مادة (صهج) فلم أجد فيها ولا فى مادة (سهج) إسماً لامرأة بهذا الوزن عند العرب . فسألت نفسى عن صهيجة (حسبما قال « شلمبرجه») بأنها كانت أمة ، هل كانت إحدى السبايا من البيزنطيين أو أن هذا الاسم رومى ؟ ومن يدرى ؟ فإن بعض السبايا من الروم كن زوجات للحمدانيين (وقد قدمت فى كلامى على سيف الدولة أنه كانت له زوجة من بنات ملك الروم وكانت أكثر نسائه حظوة عنده فكان يحفظها فى بعض الحصون خوفاً عليها) . فأم أبى فراس إذن بعد قوله (أخوالى الروم) امرأة بيزنطية تزوجها أبوه وكانت من السبايا . وقد روى ابن خلكان فى وفيات الأعيان (ط البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ ص ١٨٨) أن ثابتاً بن سنان الصابىء ذكر فى تاريخه أن أبا المعالى سعد الدولة قتل أبو فراس فى الحرب وأخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة فى البرية حتى جاء بعض الأعراب فكفنه ودفنه (كما ورد فى قول شلمبرجه)، لكن رواية ابن خلكان تسمى أم أبى فراس (سخينة) ، فيقول إن سخينة قلعت عينيها لما بلغتها وفاته . وقيل أنها لطمت وجهها فقلعت عينيها

التفجع طائف الخيبة الأخيرة فرفعت أصابعها إلى عينيها ففقأتهما[1] ، كما فعل (أوديب الملك) ، وهبطت بغير وعي ميتة على ثرى أبي فراس ولدها البطل الشاعر ، يملأ أذنها صمماً صوته وهو باك مرن في عرض الصحراء ينشد آخر بيت قاله :

زين الشباب أبو فراس لم يمتع بالشباب

* * *

تلك خاتمة البطل الثانى من آل حمدان ، مات مهدور الدم فى بلد أهليه [2] ، وكأن الشعر أوحى إليه بمثل هذا المصير حين قال عن أهليه :

أرانى وقومى فرقتنا مذاهب وإن جمعتنا فى الأصول المناسب
فأقصاهمو أقصاهمو عن مساءتى وأقربهم مما كرهت الأقارب

* * *

لقد فسر سعد الدولة ما كبت فى نفس أبيه سيف الدولة [3] كان أبوه يمنعه العقل وتغلب عليه الشجاعة ، فخنق البطل فى ظلام ضميره حسده لابن عمه البطل . وراح من الدنيا وهو لا يظهر منه غير المودة لأبى فراس وغير الإكرام . فلما جاء ابنه سعد الدولة خرج من نفسه الغل يفح مثل ثعبان كان حبيساً فأصاب أبا فراس فقتله .

---

(١) كتاب شلمبرجه السابق ص ٦٩٨/٦٩٩ ولم يذكر شلمبرجه ولا غيره من كتاب التاريخ البيزنطى أن أم أبى فراس كانت (بيزنطية) ولا ذكر ذلك أحد العرب . لكن أبا فراس وحده هو الذى أعاننى على تفسير كلام شلمبرجه بعد بيتيه السابقين .

(٢) رحم الله أبا فراس ، لقد كان متهوراً . أفلم يطرح نفسه من فوق حصن خرشنة على نهر آلس ، أفلم يبرز لتيودور فى ظاهر منبج ومعه سبعون فارساً فحسب ، كذلك خرج فى حمص للقاء قرعويه بحفنة من الكلبيين الضعاف ومن يدرى لعل أبا الطيب كان يعرف فيه شجاعته المحرومة الرأى ويعرف لابن عمه سيف الدولة الرأى والشجاعة معاً ، فراح يقول فى مدح سيف الدولة : (الرأى قبل شجاعة الشجعان) .

(٣) كان سعد الدولة طياشاً فى سياسته ، فلعب به غلمان أبيه حتى خشيت أمه على نفسها منه وخافت أن يكون نصيبها كنصيب ناصر الدولة من أولاده فقد أسروه ووثبوا إلى الحكم ، ولذلك فإنها أغلقت أبواب (ميافارقين) وكانت (ميافارقين) حصنها وحصن زوجها قبل موته ، ولم تفتحها لابنها سعد الدولة حتى أخذت عليه العهود والمواثيق بإطاعتها . وكانت زوجة سيف الدولة هذه امرأة حصيفة من نوادر النساء فى الأدب والجمال وهى (أخت أبى فراس الحمدانى) بنت أبى العلاء سعيد بن حمدان . وأختها زوجة أبى العشائر الحمدانى الذى أسره البيزنطيون ومات فى سجنهم بالقسطنطينية .

(راجع تجارب الأمم لابن مسكويه ج ٢ ص ٢٠٨ النسخة المتقدم ذكرها) وكتاب شلمبرجه عن نيسيفور فوكاس ص ٧١٤ نقلا عن Fraytag فى كتابه عن الأسرة الحمدانية الذى يروى فيه أن زوجة سيف الدولة هذه كانت تبذ الرجال بالشجاعة وكانت لا تتقاعس عن أن تقود الجيش العربى للمحاربة بعد موت زوجها مع بذل مالها الكثير على الجنود .

فختم الدهر مجد الحمدانيين بعد أن ملأ بهم غرة شعر العرب وأسكنهم التاريخ . وبقيت ذكرى هذا المجد وهاجة بالنور والنار ، خالدة فى أدب العرب الذى امتاز من أدب الأمم بأصدق حماسة وبطولة وأروع فن وبيان ، على ترادف الزمان .

مؤلفات الحماسة القديمة

١ - كتاب الحماسة للطائى

الحماسة (أى الفروسية Bravour) [١] هى القصائد التى تتمدح بذكر الشجاعة فى القتال ، والبطولة فى المعارك . ويرى لويس ماسينيون أنها تضم الجزء العظيم من الشعر العربى القديم وكان لها المكانة الأولى فى (المنتخبات) المسماة « كتاب الحماسة » .

ويعد مارغوليوث أبا تمام شاعراً و (ومنتخباً للشعر Anthologue) [٢] ويذكر أن له غير كتاب الحماسة كتاب (المختار من شعر القبائل) وكتاب (المختار من شعر الشعراء الفحول) .

ولا شك أن مارغوليوث قد لخص ما قاله الآمدى فى الموازنة [٣] من أن أبا تمام كان مشغولاً مدة عمره بتخير الشعر ودراسته والتنوق فيه وأن له ذينك الكتابين . على أن لأبى تمام كتباً أخرى من المختارات وهى كتب انتقى فيها شعر الشعراء المقلين والقدامى والمحدثين وأن بعض كتبه هذه كانت متداولة فى أيدى الناس .

ولعل يوماً تظهر فيه هذه الكتب التى يسميها الآمدى ومارغوليوث فنرى أى ذوق قد استولى على الطائى فى هذه الكتب ، ونعرف أين كتبها ، وهل كان يوم ذلك يعوقه صيف أو يحبسه شتاء . ومن يدرى أين تكون اليوم فلعل بعضها فى رف من رفوف المكتبات الغربية وكان قد عبر البحر إلى ديار الغرب مع آلاف مثله فى أسلاب الصليبيين التى أخذوها من ديارنا . وكيف جاء الأمر فإن أبا تمام قد أغنانا حتى حين بكتاب الحماسة .

فلئن دل على منتخبٍ ذوقُه ؛ فإن كتاب الحماسة يدل على أن أبا تمام كان حربى النزعة أو كان يحب شعر الحرب فانتقى أروعه وليس كتابه مقصوراً على الحربيات فحسب وإنما فيه غير الحماسة ، المراثى والأدب والتشبيب والهجاء والوصف والملح ومذمة النساء . وقد غلب عليه اسم الحماسة لأن العرب بها أحفى ولها أروى . ولأن شجاعة العرب ومآثرهم

---

(١) المعلمة الإسلامية بالفرنسية المجلد ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) المصدر نفسه المجلد ١ ص ١١١ .

(٣) طبعة الجوائب ص ٢٣ .

الحماسية ألمع سجاياهم وأعرق ما فيهم من الصفات . ولعل أبا تمام أحس فى مقطوعات الهوى ثورة الحب ، ووجد فى أشعار الأحزان لهيب الوجد فطبع كتابه بطابع الحماسة .

وليس هو المتوحد بهذا الاسم فى كتب العرب القديمة فثمة (حماسة) البحترى . (وسأحللها) عند الكلام على كتابه الحماسى . و (حماسة) أبى هلال العسكرى وحماسة الأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ والحماسة للخالديين الحلبيين وهما أبو عثمان سعيد وأخوه أبو بكر محمد من شعراء سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، وحماستهما الآتية تسمى (الأشباه والنظائر) . و (الحماسة) لعلى بن الحسن المعروف بشميم الحلبى المتوفىسنة ٦٠١ للهجرة . و (الحماسة) لابن الحجاج يوسف بن محمد الأندلسى البياسى المتوفى سنة ٦٥٣هـ ، وآخرها (الحماسة) البصرية لصدر الدين على بن أبى الفرج البصرى المتوفى سنة ٦٥٩ هـ .

أما كتاب الحماسة لأبى تمام فقد سمى باسمين . أحدهما شرح ديوان الحماسة لأبى زكريا التبريزى ، تلميذ أبى العلاء المعرى . وأقدم طبعة منه التى طبعت بمدينة (بن) بألمانيا سنة ١٨٢٨ ووقف عليها الدكتور (ولهلم فريتاغ [1]) . والثانى ديوان أشعار الحماسة وأقدم طبعاته طبعة الزهار ببيروت سنة ١٨٨٩ .

وقد أفرغ التبريزى فى شرحه للحماسة كل جعبة لغته وأدبه . فهو يذكر البيت من القطعة ويشرح ألفاظه اللغوية ثم يفسر معناه . وإذا تضمن البيت اسم (علم) أو ذكر يوم من أيام العرب أو ألمع إلى حادث ، استطرد فترجم لذلك (العلم وأفاض فى ذكر ذلك اليوم وأحاط بالحادث) . وقد يفضى به القول إلى نقد لإظهارخطأ فى تركيب أو باتهام بسرقة لفظ أو انتهاب معنى . فإذا فرغ من كل ذلك انتقل إلى البيت الثانى .

وتلك طريقة عامة قد اتبعها أكثر الشراح الأقدمين ، وهى خالية من العرض الأدبى والمقارنة ، وبعيدة عن الدراسة والتحليل .

وقطع هذه الحماسة بين مطولات وقصار (وقد أوردت منها نماذج عدة فيما تقدم من هذا الكتاب حسب اقتضاء الشواهد فى شعر الحرب ووصف الوقائع) وكان أكثر هذا الشعر الحربى جاهلياً وأموياً .

ولم يكن أبو تمام متبعاً لطريقة علمية فى أنتخابه لشعر الحماسة وإنما كان (يجمعه جمعاً بغير تصنيف) . فقد تجىء قطعة فى وصف قوس أو رمح . ثم تتلوها قطعة فى طراد

---

(١) كان أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة فريديك ولهلم .

الخيل . ثم من بعدها ثالثة فى السيوف . وتتوزع المعانى شعر الحماسة من أوله إلى آخره من غير نظام أو ترتيب .

فهو لم يتبع ترتيباً زمنيًّا فى شعر الحماسة ، فنحن نجد له قصيدة لشاعر أموى بعدها ثانية لشاعر جاهلى . ومن بعد هاتين قطعة لشاعر من عصر الخلفاء الراشدين ، أو من أعماق الجاهلية .

وإذا كان شعر الحماسة متنوع الضروب ، فكان على الطائى أن يجعله ضروباً حسب موضوعاته أو حسب شعراء القبائل . وكان عليه ألا يخليه من ترتيب الزمن ، بادئاً بالجاهلية منتهياً بعصره وأيامه . فقد بحثت الحماسة الطائية فما وجدت فيها من شعر العباسيين المحدثين أو المولدين إلا النزر القليل . وقد جاءت هذه الحماسة كلها فى شعر الجاهلية وصدر الإسلام وفى عصر بنى أمية ، حتى إذا كان عصرنا استدرك هذا القصور (سيد على المرصفى) أحد أدباء النهضة فى مصر فألف كتابه أسرار الحماسة قاصداً به ترتيب حماسة الطائى (١) فجعل أشعار الحماسة قسمين :

أولهما للموضوعات الأدبية .

وثانيهما لشعراء الوقائع الجاهلية والإسلامية .

وقد قدم الشعر الجاهلى على الإسلامى ، والشعر الإسلامى على العباسى ، وألزم نفسه فى حواشيه إتمام أكبر القصائد الطوال التى اكتفى الطائى منها بالأبيات القلائل . وقد عرضه هذا التطويل فى ذكر القصيد للخروج بها عن الحماسة التى اختارها الطائى . إذ أن الطائى عمد إلى مواطن الحماسة فى تلك الطوال فآثرها بالذكر وحدها .

وإن المرصفى ، وإن يكن من أهل فاتحة العصر ، فى طريقة شرحه وعرضه لم يزد على ما عرف عند الأدباء الأوائل من حذق بمعانى النصوص مع شرح للكلمات وبيان لأوجه الكلام فى الفقه اللغوى ، وطرائق الإعراب . فجاء كتابه لا يختلف فى كثير عن شرح التبريزى ، ولا يزيد عليه جدة أو طرافة .

إنا لنعذر أبا تمام — على الرغم من وصف الأدباء الأقدمين له بأنه كان فى انتخابه لشعر الحماسة أشعر منه فى شعره — فإنه لم يقصد إلى الانتخاب وإنما جاءه عرضاً وحمله الزمان عليه . فقد انقطعت به الطريق وهو عائد فى الشتاء من خراسان بعد أن قصد بمدحه عبد الله بن طاهر وزير المأمون وأعانه على هذا الأمير أبو العميثل وأبو سعيد الضرير ، فأخذا

(١) مذكور فى ثبت المصادر فى خاتمة الكتاب .

له منه ألف دينار مكافأة مدحه وكان عبد الله بن طاهر يعتمد عليهما فى تقدير الشعر الذى يمدحه به الشعراء . فلما عاد أبو تمام من خراسان يريد العراق دخل (هَمَذان) فاغتنمه (أبو الوفاء بن سلمة) أحد أدباء البلد وسراتها فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج غطى الطريق وقطعه على السابلة ، فغم أبا تمام سقوط الثلج فقال شعراً يذم فيه الشتاء [1] والبرد بتلك النواحى خارج عن حد الوصف كما يقول البديعى . وأفرح الثلج أبا الوفاء ليزداد لزوماً لضيفه الشاعر العظيم فقال له [2] : « وطن نفسك على المقام فإن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان » . وأحضره خزانة كتبه فجعل أبو تمام يطالعها واشتغل فيها مدة انحباسه فى دار أبى الوفاء فصنف خمسة كتب فى الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات ، وهذه كما يروى التبريزى طوال . ثم إن الشاعر حين تكشفت الأرض وذاب الثلج هم بالذهاب تاركاً فى خزائن آل سلمة (مخطوطاته) هذه وانصرف يريد بغداد . فجعل آل سلمة يضنون بتلك المخطوطات الطائية ولا يكادون يبرزونها لأحد حتى تغيرت أحوالهم كما يروى التبريزى ، فورد عليهم همذان رجل من أهل مدينة (دينور) يعرف (بأبى العواذل) فظفر بكتاب الحماسة وحمله إلى أصبهان فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب فى معناه فشهر فيهم ثم فى من يليهم [3] .

وقد افتتح أبو زكريا التبريزى شرحه حماسة الطائى بباب سماه باب الحماسة ، فبدأ بذكر الحماسة لغة ومعنى واصطلاحاً ، وعدد قبائل العرب التى كانت فى الجاهلية مشهورة بالحماسة كقريش وكنانة وخزاعة وجماعة من بنى عامر بن صعصعة الذين كانوا يسمون (حُمُساً) لتشددهم فى أحوالهم ، ثم مزج بين معانى الشجاعة ومعانى الحماسة باقتضاب دخل منه على شرح أول الحماسيات :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيْبانا

وكان على التبريزى أن يعرض على قرائه أشهر المعانى التى تداولها شعر الفروسية ، وأن يعرض إلى تحليل القبائل العربية وتقسيمها ، وبيان مواطنها ليسهل فهم شعرها الحماسى ، وأن يفيض القول فى ذكر العصبيات التى كانت تسيطر على العرب من عدنانية وقحطانية ، وما كان يعترى الطبقات الاجتماعية من فوارق بين أمراء وشعبين وسوقة وصعاليك . ومثل هذا

(١) هبة الأيام للبديعى ص ١٣٧ وأخبار أبى تمام للصولى ص ٢٢٢ (الطبعتان السابقتان) .

(٢) ، (٣) مقدمة التبريزى على شرحه لديوان الحماسة ص ٢ ط أوربا .

كان مطلوباً من مثله لمعاصرته أنضر عهود العرب فى العلم ، ولوجوده فى أغزر زمن بمؤلفاتهم القديمة .

ولقد نعذره عذرنا لبعض من مؤلفى تلك العصور الذين كان غرضهم الجمع والإطراف لا التنقير والتصنيف .

٢ ـ كتاب الوحشيات

كتاب الوحشيات [١] المسمى بالحماسة الصغرى هو طوائف من الشعر الجاهلى والمخضرم اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائى بعد اختياره كتاب الحماسة الكبرى المتقدم ذكره . وقد جرى فيه على وجه يقارب أبواب حماسته الأولى فقسمه إلى أبواب الحماسة والمراثى والأدب والنسيب والسماحة (فيما يتعلق بالأضياف والمديح) والصفات والسير والملح ومذمة النساء .

وقد وجدت فى أوله [٢] أن أبا تمام (لم يروه وإنما وجد بعده مكتوباً فى مسودة بخطه موسوماً بكتاب الوحشيات) .

وقد أورد الطائى فى فاتحته قطعة للمنتفق الضبي وختمه بأبيات لنُصَيْب ، أما باب الحماسة فيه فهو مجموع مقطوعات وأبيات من روح الحماسة فى كتابه الأول فى ذكر الحرب والفروسية وضروب الشجاعة والفخر بالنسب والكرم . وشعر شعرائه لا يفترق فى أسلوبه ومعانيه عن شعر أندادهم فى « الحماسة » المعروفة .

أما طريقة أبى تمام فى كتاب الوحشيات هذا ، فلا تزيد على جمع الشعر دون أن يسير فيه بطريقة علمية أو فن جديد أو أن يتتبع ترتيباً خاصًّا ، أو أن يشير إلى مناسبة فى ذكر القطع أو الأبيات التى يوردها . وما أوردته من النقد على كتاب الحماسة الكبرى ونقصه الفنى وارد على كتاب الوحشيات هذا . وكل ما يمكن أن يضيفه هذا الكتاب ، إلى قيمة أبى تمام أنه يصفه بشاعر جمّاعة لنماذج الشعر من كل فن ، فى حسن اختيار ، وبراعة فى فنون الحماسة . ويدل مذهبه هذا فى اختيار الشعر واصطفائه أنه كان

---

(١) نسخة المخطوطة الفوتوغرافية بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٧ أدب . (٢٤٣) ورقة ، نسخ أصلها ابن أبى الجيش البوازيجى فى ربيع الآخر سنة ٦٣٧ للهجرة .

(٢) ورقة ٢ .

(ذوّاقه) . ولعل هذا المذهب الذى ذهبه فى انتقاء الشعر هو تفسير لطبعه فى اختيار شعر نفسه وفنون قوله وتنوقه فى ألفاظه وعنايته بالبديع وسائر فنون البلاغة . وكل هذه الأمور مردها رهافة الذوق وسلامة الاختيار . وكيف تم الأمر فإن أبا تمام كان ذا سابقة فى هذا الفن وهو (فن اختيار الشعر وتأليف الكتب فى نماذجه وعيونه) .

٣ ـ كتاب التنبيه فى شرح أبيات الحماسة [١]

وهو كتاب لأبى الفتح عثمان بن جنى . ولا أزيد بالتعريف علم ابن جنى وسعة (موسوعيته) فقد كفاه أن يحمل أعباء اللغة وفنون البلاغة فى عصره ، وأن يتفرد بهما حتى قال عنه مترجموه وفيهم غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن) [٢] إنه أقدر أهل عصره بالتصنيف وقد بلغ كتابة الإنشاء لصمصام الدولة وابنه عضد الدولة .

فإذا عرفت ابن جنى بهذا القدر ، قلت إنه سن شروح الشعر الحماسى وإعرابه والنظر فى مشكله لكل من جاء بعده ممن خدم حماسة أبى تمام وسعى لها بالذيوع ، فأنا أعد بذلك ابن جنى أستاذاً لأبى زكريا التبريزى تلميذ المعرى المتوفى سنة ٥٠٢ ﻫ الذى شرح ديوان الحماسة الطائية كما تقدم ، فلقد سبق ابن جنى التبريزى إلى إظهار درر الحماسة الكبرى بمئة عام أو تزيد إذ كانت وفاة ابن جنى سنة ٣٩٢ للهجرة .

وقد وجدت هذا المخطوط القيم حاوياً كنزاً فى اللغة والنحو ، وضع فيه ابن جنى خلاصة مجهوده العلمى النحو واللغة وفن العروض . وألفه (للخاصة) مترفعاً فيه عن العامة والدهماء والمبتدئين فى الأدب ، فقال فى مقدمته وهو يشير إلى أنه ألفه لأحد أصحابه الملتمسين .

« وقد أجبتك أيدك الله إلى ملتمسك من عمل ما فى الحماسة من إعراب وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف ، أو عروض أو قواف وتحاميت شرح أخبارها أو تفسير شىء من معانيها إلا ما ينعقد بالإعراب فيجب لذلك ذكره من حيث كان ذلك . »

---

(١) مخطوطته بدار الكتب المصرية برقم ٤٤ آداب .

(٢) انظر كتاب المبهج فى شرح المعانى لأسماء شعراء الحماسة الطائية لابن جنى طبعة الترقى بدمشق . سنة ١٣٤٨ للهجرة إصدار القدسى و بدير (المقدمة).

ثم يقول[١] . « وبعد فإن هذا الكتاب لست أعمله لمبتدئ ولا لمتوسط ، وإنما أخاطب به من قد تدرب فكره وقوى نظره » .

أما وصف هذا المخطوط فقد وجدت صفحته الأولى بخط محدث عهده سنة ١٢١٠ ﻫ وسائره بخط عتيق لعلى بن عبد الرازق بن عمر الجعفرى فى جمادى الأولى سنة ٦٨٢ للهجرة وعدد ورقه ٢٠٤ ورقات .

٤ ـ كتاب الحماسة للبحترى

أبو تمام يسبق البحترى . فالبحترى الذى تأثر أستاذه الطائى فى شعره وطريقته وفى فنونه وأغراضه ، هو الذى يتأثره فى (كتاب الحماسة) . ولذا نجد البحترى قد ألف كتاباً سماه (الحماسة) وكان كتابه هذا أكثر تنظيماً فى موضوعات الحماسة من كتاب أبى تمام فالبحترى يجعل حوادث الحرب وسجايا المحاربين وسائل لإيراد الشعر فيها . وجملة هذه الموضوعات الحماسية يدور شعرها فى حمل النفس على المكروه والفتك ، وفى الإصحار للأعداء وفى الأنفة والامتناع ، وفى ركوب الموت خشية العار ، وفى التحريض على القتال . وقد أورد شعراً حماسيًّا فى ديات القتلى والامتناع من الصلح ، وأبه إلى شعور الفرار الذى يعترى الفرسان فى حومات الحروب ، فجاء بأشعار كثيرة فى ذم الفرار وفى الاعتذار منه ، والإقرار به ، وفى الفرار على الأرجل وعلى الخيل ، ولم يخل كتابه من خلجات النفوس كالحب والبغضاء ومن سجايا العرب كالكرم والوفاء والحفاظ والعقل ، فقد أثبت من هذه الخلجات والسجايا شعراً مختاراً ، إلى أن ختم حماسته بنماذج من شعر النساء فى الرثاء .

ويمتاز كتابه بطريقته العلمية من كتاب أبى تمام الذى جاء مضطرباً بغير طريقة ، فالبحترى قسم كتابه إلى أبواب كثيرة متعاقبة التعداد أوفت على الثلاثين باباً ، وبهذا التقسيم (العلمى) مكن الدارسين لحماسته أن يتتبعوا معانى الشعر الحماسى خلال شواهده المتشابهة ، ويروا تطورها بحسب العصور والقائلين . وقد ورد فى حماسته بعض القطع التى أوردها أبو تمام .

على أن البحترى ـ على الرغم من نشأته البدوية وضربه فى الصحراء العربية ومخالطته للأعراب حتى تملك زمام الفصحى ـ يظل فى حماسته دون حماسة الطائى ، ولا تشعر

---

(١) ورقة ٢ .

أبياته المنتقاةُ بذلك الروح الحربي الذى تشعره حماسة الطائى . ومن المفروض المقبول أنه فى حياته البدوية تمرسَ بحياة الصحراء وثقف المرانة بالرماح والسيوف ،وتعود ركوب الخيل ، ولقى شظف العيش الذى كان لزاماً للطبيعة البدوية فى عصره. وقد أفاده هذا فى إجادة وصف الخيل والسلاح والإبداع فى تصوير المعارك . وكان حافزاً له ومعيناً حين كان يترك العراق ودار الخلافة لزيارة أبى سعيد الثغرى فى أرمينيا ويقيم عنده ويشهد حروبه مع الروم فيصفها بأروع قصائده الحربية ثم يقفل بجوائزه الكثيرة .

أما طبعة الحماسة البحترية فقد صدرت بإشراف المستشرق مارغو ليوث الأستاذ بجامعة أكسفورد بصور فوتوغرافية عن نسخة الأصل وطبعت فى ليدن سنة ١٩٠٩.

ثم طبع المكتب الشرقى فى بيروت بوقوف الآباء اليسوعيين (حماسة البحترى) نقلاً عن نسخة مارغو ليوث الفوتوغرافية .

وظلت حماسة البحترى تالية ، وحماسة الطائى هى الأولى ، فإذا قيل(كتاب الحماسة) وقع فى الفهم كتاب واحد للحماسة هو (حماسة أبى تمام) .

٥ ــ حماسة الخالديين

وحماسة الخالديين التى ورد ذكرها فى هذا الكتاب ، تحمل اسماً آخر وهو (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين الجاهليين والمخضرمين) .

وقد أردت أن أذكرها هنا بعد حماسات الطائى لأظهر الفرق العظيم بين حماسة كتب لها الذيوع والطبع والشروح على ما فيها من عيب فنى ، ونقص علمى ، وبعد عن التاريخ الأدبى والنقد ، وبين حماسة كان قد ألفها الأخوان الخالديان (أبو عثمان المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة ، وأبو بكر المتوفى سنة ٣٨٠) . وكانا من الأدباء عند سيف الدولة الحمدانى ، وكانا ينغصان على أبى الطيب المتنبى نعمته فى حلب، ويحسدانه على شعره .

كان من عادتهما أن يؤلفا الكتاب معاً ، وهذه سابقة فى أدب العرب يبذ بها آداب الأمم الراقية ، فإن تأليف الأخوين كتاباً واحداً أمر نادر ، وقد عرف فى فرنسة بعصرنا الحديث أن الأخوين (جيروم وجان تارو) كانا يؤلفان الكتاب الواحد فى الأدب والسياسة والنقد وينشرانه ، وعليه اسماهما معاً . وفى أدبنا القديم كما ذكر ابن القارح والمعرى أن

القطربلى وابن أبى الأزهر ألفا معاً كتاباً عن المتنبى .

ومن عجيب هذا الكتاب الحماسى الذى ألفه الخالديان الحلبيان أنه حماسة فنية ، وذو طريقة علمية . فقد جعلاه مزاجاً طريفاً لنقد الشعر الحماسى وغير الحماسى مع مقابلته (بأشباهه ونظائره) ، هذا إلى ذكر المناسبات الأدبية والأخبار والتحقيق فى الروايات ، فمن أمثال طريقتهما قولهما :

بكره قلوبنا يا آل بكر نغاديكم بمرهفة القتال

ومثله قول الحسين بن الحمام المرى :

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

أخذه بعضهم فقال :

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى

وأخذه حرب بن مسعر فقال :

ولما دعانى لم أجبه لأننى خشيت عليه وقعة من مصمم

فأخذ هذا المعنى ديك الجن فقال فى جارية يحبها فقتلها :

قمر أنا استخرجته من دجنة لبليتى وجلوته من خدره

فقتلته وله علىّ كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره

ثم ذكر المؤلفان كيف أخذ المعنى أبو تمام والبحترى ، فلما ذكرا قول البحترى :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

قالا بعد ذلك :

« وبيت البحترى أطرف وأبدع من بيت المهلهل إلا أنه هو الذى أرشده إلى المعنى ودل عليه » .

فمن هذه النماذج التى أوردتها يتبين أن الخالديين أوردا بيتاً حماسيًّا للمهلهل ثم كرا بعده بأبيات لشعراء ، وقد زعما أن هؤلاء الشعراء أخذوا المعنى الأول واحداً عن الآخر . وهذا زعم يكثر عند الأوائل من نقدة الأدب العربى الذين لا تطيب نفوسهم إلى حسن الظن والقول (بتوارد الخواطر) وتواقع المعانى ، واتفاق التعابير .

وقد يورد المؤلفان صورة لطريقتهما فى النقد والعرض والمقابلة كقولهما :

« وقد ذكرنا بعض قصيدة عبد بنى الحسحاس التى سماها الفضل الديباج الخسروانى ، وتكلمنا على بعض ما أخذ من غيره، وأخذ منه من جاء بعده، وقصيدة الصمة القشيرى عندنا أظرف كلاماً منها وأملح ديباجة ، ونحن نختار منها ما نستملح » .

فإذا ختم الخالديان حماستهما هذه ردا الكلام إلى طريقتهما فى التأليف فذكرا بتواضع أنهما لم يكن لهما سوى الجمع والتأليف ثم عرضا نقصهما على من لعله يأتى بعدهما (فيرذل شيئاً مما اختاراه ويهجن شعراً نقلاه) فيقولان :

« وهذا غير مزر بنا ، ولا ناقص لنا ، لأن لكل إنسان اختياره » . فزاد عجبى حين انتهيت من دراسة هذه المخطوطة الشائقة التى أحسست فيها (بحياة الشعر) ووجدت فيها روح صاحبيها تدب نابضةً فى كل صفحة منها ، ورحت أزعم أن فى نشر هذا الكتاب خدمة للأدب العربى الرجيح فى آراء نقده وطريقة تأليفه وحسن عرضه ، مما يجعل قدمه جدة ، وقيمته ذخراً . فهو كتاب فى (أدب الحماسة) لا فى (نماذج من الشعر الحماسى) كالتى أوردها أبو تمام والبحترى ، ومن جرى على غرارهما فى حسن اختيار الشعر [1] .

---

(١) رجعت فى كتاب حماسة الخالديين إلى المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الكبرى بالقاهرة برقم ٥٨٧ آداب وكنت أول من دل عليها .

خاتمة

حين سفر عمرو بن العاص بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين قائد من قواد الروم ، قال له أحد الشاميين من بطانة القائد ، وهو يهم بالخروج :

– أحسنت يا عمرو الدخول فأحسن الخروج .

فاتخذ عمرو أهبة انفسه وخرج .

وليت شعرى هل أحسنت الدخول إلى موضوعى فأحسن الخروج ؟

وكيف اتفق الأمر ، فإن كتب الأدب المتدارسة بأساليب العلم لا بد لها من فواتح وخواتيم ، وهأنذا أختتم رسالتى ببحث الأمور الآتية :

(١) تلخيص أطوار الشعر الحربى

(٢) الفرق بينها فنيًّا وغائيًّا

(٣) ميزات عامة لشعر الحرب

(٤) مقترحات لاستمرار الدراسة

(٥) فكرة عامة من الأدب المقارن

(٦) ملحمة لسان الدين بن الخطيب والمعراج النبوى ونظم السيرة شعراً

* * *

لقد صدق « إيبوليت تين » من نقاد الأدب الفرنسى فى فاتحة عصرنا مستعينا بآراء (العالم كلود بيرنار) حين رد الأدب إلى ظواهر التطور الطبيعى ، فقال إن الأدب وكل آثار الفن والعقل كالحيوان والنبات تولد وتنمو فتعيش وتتحول أو تتقاعس فتموت . إنه أخضع الأدب والفن إلى مذهب التطور . ويجمل بى أن آخذ برأيه فى شعر الحرب والحماسة العربية ، فإن شعر الحرب عند العرب قد مر بأدوار التطور الطبيعى ، ولم يشذ فى الأدب أو يتمنع على مقاييس العلم : لقد بدأ فى جاهليته ساذجاً كحياة قائليه ، وقد كانت حياة الجاهلية منبسطة الآفاق، على نمط واحد فجاء شعر الحرب فيها مماثلاً لها . إنه فيها أبدا أنشودة حماسية بالفخر والبأس ، وبالعزة والبطولة والفروسية ، ممزوج ذلك بالكرم والسماحة والحفاظ على العرض والتفانى فى المروءات ، هذا من حيث المعانى التى كانت فى الحماسة الجاهلية ، وأما من حيث المبانى فقل ما شئت من جزالة وحوك حر مع إرسال للأسلوب على سجيته بغير تكلف أو تصنع إلا ما صدر عن الشعراء الناحتين أمثال زهير .

وقد تلقف شعراء الحماسة الأموية هذا الشعر الجاهلى من أهليه فساروا على غرارهم فيه ونسجوا مثل أبراده ، إذ كانت طوابع العصر الأموى عربية محضة ، وقد يصعب على دارسى الأدب أن يقفوا على تفاريق واضحة الخطوط بين الشعر الجاهلى والإسلامى فى الصور الأولى فى الديباجة والحبك .

أما المعانى فقد بدا فيها تطور ظاهر إذ تجلببت بأردية معاصرة ، وشاع فيها جانب من معانى القرآن الكريم والحديث الشريف وذكر الجنة والنار والثواب والعقاب وما إلى ذلك من المعانى الإسلامية ، وظهر هذا التطور بوضوح فى حماسة الهجائين .

وبدأ التطور ظاهراً بالمعنى والمبنى فى العصر العباسى ، فكان للتمازج الثقافى بين العرب والعجم أثر فى دقة المعانى وروعة الأخيلة ، أما أساليب القول فظلت مستمسكة بأمويتها حتى كان أبو تمام فخلع عليها تلاوين فنونه فى صناعته اللفظية والبديعية ، وبسط طوابع فنه الصناعى على كل شعر بعده ، ولما جاء أبو الطيب المتنبى بلغ بالحماسة العربية ذروتها .

فإذا صح وصف هذا التطور بأدوار فيكون : شعر الحرب فى العصر الجاهلى ، فى طور المولد والبداوة ، وفى العصر الأموى فى طول النمو والتحضر ، وفى العصر العباسى فى طريق التكامل ، حتى إذا دمرت الحروب الصليبية انحدر شعر الحرب إلى درك التقاعس على الرغم من وفرة الأسباب المعنوية ، لأن شعراء العرب فى عهد هذه الحروب كانوا فى دور ضعف وانخذال فى اللفظ والأسلوب ، وكان أغلبهم صاحب ركة فى القول وصناعته تضج بالكلفة . وحين انطفأت نار الحروب الصليبية بعد نور الدين وصلاح الدين خمد كل وقد فى الشعر الحربى عند العرب حتى فجر النهضة الحديثة غير نفحات فى شعر البارودى ومن بعده فى شعر شوقى ، فكان هذا التطور المعاصر عهد انبعاث بعد الفناء .

أما الفروق بين هذه الأطوار فقد تاوح فنية وتلوح غائية ، فإن قليلاً من شعر الحماسة قيل لوجه الفن وحده . وكثيراً منه قيل لغاية من غايات الفخر أو السياسة أو منازع الحزبية. وقد أنكرتُ على شعر الحرب عند العرب أموراً تتعلق ببواعثه ، ثم رأيتنى مضطراً أن أعظم هذا الشعر الذى جاء معبراً عن خلجات الأنفس العربية القديمة التى ما عرفت إلا الشجاعة والفداء ، والجود فى سبيل العلاء . وقد يكون فرق آخر بين فنية هذه الأطوار وبين غائيتها ، فنجد الشعر الحماسى فى كل أدواره وأطواره يبرز لنا فنه فى شكل (فخر مسلح)

وتتمثل لنا غايته فى صورة (عز مسلح) ، فإن أولئك الشعراء جميعاً كانوا يصوغون شعر الحماسة بفن الفخر . وكانت غايتهم جميعاً فى ذلك تخليد القوم والاعتزاز بالقوة .

وأما الميزات العامة التى يتميز بها شعر الحرب من سائر فنون الشعر العربى فهى كما أجدها .

(ا) متانة الديباجة وقوة التعبير ، وفخامة اللفظ ، لأن ذلك مقتضى المعانى الحماسية.

(ب) ذكر السلاح ووصف مضائه والبراعة فى مقارعته .

(ج) الإشادة بفروسية البطل ، أو إشادة البطل نفسه بفروسته وشجاعته إن كان من الشعراء .

(د) أغلب قصائد الحماسة وأروع الشعر الحربى قاله شعراء محاربون .

(ه) التشابه فى رواسمه وطوابعه ، بخلاف سائر الفنون الشعرية ، فقد نجد فوارق كبرى بين قصائد المديح ، وفوارق بين قصائد الوصف ، ولكن لا نجد كبير فرق بين قصائد شعر الحرب والحماسة من حيث الميسم العام الذى يسمها ، لأنه يقوم على ذكر البأس والنجدة والفخر بالسلاح والكراع ووصف المعارك والقتال .

(و) شعر الحماسة لون فاقع من ألوان الفخر ، فلو عرينا أية قصيدة حماسية من الفخر لم يبق منها فى أيدينا غير قعقعة السلاح وحمحمات الخيل .

وإذ كان عملى فى هذا الكتاب الجامعى هو تجربة أولى لدراسة شعر الحرب فى أدب العرب فإنى أرجو — كما ذكرت فى المقدمة — أن أوفق بعده إلى التوفر على أدب الحماسة العربية ، والكتابة عن عصر صلاح الدين والصليبيين ، ونفسى تجيش بهذا الأمل . كما أتمنى على علماء الأدب العربى أن يعنوا بدراسة هذا الوجه الحربى فى شعر العرب ، إذ كان ألصق الأشعار بهم وأنطقها بحقيقتهم فى كل أعصرهم ، فى ساح بداواتهم ، وميادين حضاراتهم ، لعل يوماً أغر محجلاً يكون فيه للعربية ملحمة جديدة تجمع بين مجدها التالد وعزها الطارف ، فتكمل بذلك ثمرات الشعر الحماسى فى أدبنا الحديث . وما رقيت آداب الأمم فى قديمها وحديثها إلا برقى شعر الحماسة . فهذه يونان لولا الإلياذة والأوديسة لما كان لها هذا الصوت الصارخ فى أدب العالم منذ عتيق الدهر إلى اليوم . وإنه ليحسن من دارسى الحماسة العربية أن يجعلوا الأدب المقارن ديدنا لهم ، فإن تمازج الثقافات يعطى أزاهير الأدب الخالد ، فكم بين أشعار هوميروس وشعر الحماسة العربية من أسباب لتشابه فى روعة المعانى

ونبل المقاصد تصلح أن تكون بحثاً رائعاً فى الأدب المقارن . وقد وجدنا الأمم الغربية فى قديمها وحديثها محتفية بشعر حربها حادبة على حماستها ، تجعل ذلك كنفاً لها فى الملمات ، وملاذاً وملجأ فى النهضات . وما أجمل يوماً يظل أمة العرب وهى تحت كل نجم مشدودة الأواصر بشعرها الحماسى تمتاح منه قواها ، وتقبس علاها ، وتشيع منه فى أنفس بنيها وبناتها وقدات البطولة ، وتبعث فيهم المروءة والنجدة مدى الأجيال الصاعدة .

وأما إنهاء الكلام على الملحمة العربية بعد معاناة بحثها طوال هذا الكتاب وتقصى فنونها وموضوعها عند الفرنجة والعرب . فأقول فيه إن العرب وإن تأخروا فى نظم الملحمة إلى اليوم وكان بمقدور بعضهم أن يبرع فيها ولكن شغلته شواغل كما اتفق لمسلم بن الوليد التى شغلته الحسان عن حلبات الفرسان وصرعته الغوانى بالأعين النجل فما فات شعراء العرب أن يحاولوا معرفة الملحمة وأن يجربوا نظمها ، كما فعل لسان الدين بن الخطيب فى ملحمته الكبيرة وابن عبد ربه . على أننا — إذا وسعنا معنى الملحمة إلى عالم الدين وعلونا بها عن محسوساتنا الدنيوية — وجدنا موضوع ملحمة رائعة فى آثارنا العربية وهى قصة المعراج ، ولولا ما فيها من أخيلة الواهمين ، لجاءت من أروع الملاحم العربية الدينية . وكذلك فإن بين مؤلفى السيرة النبوية من حاول نظمها ، ولكن كل ذلك لم يجئ كاملاً وكان فى طى المحاولات ، والأمل منعقد بشعراء يظلهم زماننا ، أو بعده سينظمون ملحمة العرب الكبرى وفق فنها الأسمى وطريقتها القويمة ، على غرار ما جاءت به كبريات الملاحم الشعرية التى بقيت سجل الفخر لأممها على الزمان .

ملحق

صنف القدامى كتباً فى (الحماسة) ، ولم يصنفوا كتباً فى (شعر الحرب) . فقد أثر عنهم حماسات كثيرة ، إنهم لم يجمعوا بحثاً ، ولم ينسقوه وفق التيارات الأدبية التى جرى فيها فيكون عملهم فنياً . لقد كانوا يحبون الإفراد والقطع فى هذا الضرب الذى ألفوا فيه ، فجمعوا شعر الحماسة من كل نوع منفرداً بعضه عن بعض ، منقطع الصلة بما قبله وما بعده ، وكان نظامهم فيه نظام (المجاميع) .

وإنه ليلاحظ الفرق بين معنى شعر الحرب ومعنى شعر الحماسة. فشعر الحرب حماسى بالطبع وليس كل شعر حماسى شعر حرب ، لأن الحماسة — كما ذكرت فى المقدمة — لها عند العرب المؤلفين كأبى تمام والخالديين وغيرهما معنى أعم وأشمل من الحرب ومقتضاها من سلاح وحيل وبأس وشجاعة .

فقد زاد هؤلاء على شعر الحرب فى معانى الحماسة شعر الفخر والغزل وما قيل فى الفضائل والمزايا . وأخذ بهذ الشمول أكثر مصنفى الأدب وباحثوه الأقدمون . وليس هذا بضائر حماسة العرب فإن كبريات الملاحم وأروعها حماسة أنشدت فى آياتها خفقات البنود ، وزمازم الجيوش وصلصلات السلاح إلى جانب آهات الأبطال العاشقين ولواعج الهوى بربات الجمال .

كذلك كانت مهمة الباحث الحديث فى شعر الفروسية وقصائد الحماسة مهمة شاقة فى أدب العرب تجعله ينظر إلى المؤلفين الغربيين بعين حسيرة ، وقد وفقوا فى مؤلفاتهم عن فروسية القرون الوسطى ، فصورو وأسهبوا فى وصف أولئك الشجعان الذين لزموا ظهور الخيل ، عليهم الحديد، تغوص رؤوسهم فى المغافر ، وتتحرك أجسامهم بصفحات الدروع رماحهم طوال وسيوفهم عراض ، ونعالهم مربوطة بنسوع تلف على الساق .

فيود الباحث العربى لو يغمس اليراع فى مداد تاريخ العرب فيكتب فصولا من الفن يصور فيها أبطال الجاهلية وفرسان الإسلام ، على رؤوسهم الكوفيات الملونة ، والعقل السود أو العمائم البيض ، تلف صدورهم دروع منسوجة من السلاسل ، خفاف لا يثقلهم حديد ،

يجولون كالنسور ، رماحهم العوالى ذوات الكعوب ، وسيوفهم الرقاق المعوجّات . ولهم زفيف فى وجه العدى كهبوب الريح ، أشعار الحماسة لسان حالهم وأفصح مقالهم ، أعربوا فيها عن معانى بطولة كأنها أسطورية . كان قوامها الشرف والحمية والنجدة ، ورعاية الذمام .

وأنا أبداً ، كما قرأت على حسام (آشيل) أدب هوميروس ، أسمع فى ليالى طروادة نجوى البطل (هيكطور) لزوجته (آندروماك) وعلى رأسها الجميل التاج الوهاج الذى أهدته إليها (آفروديت) .

وكذلك فإنى كما قرأت على سنان البطل (قطرى بن الفجاءة) أدب الخوارج ، فإنى أبداً أسمع نجواه لزوجته (أم حكيم) تحت ليالى العراق . وأحس فى لفحات اللهيب الخالد التى شعلها أبو الطيب المتنبي فى شعره الحرى نفحات روحه ، ونبضات هواه ، وهو يتوق إلى (خولة أخت سيف الدولة) منشداً شعره عند قلعة حلب وتحت أسوارها ، أو ماضياً على جواده مثل فارس وشاعر أسطورى فى بادية الشام . . .

المراجع والمصادر الأدبية

مرتبة على حروف الهجاء بأسماء المصنفات

أخبار أبى تمام للصولى طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ وفاة الصولى (٣٣٥)هـ
أدب الكاتب لابن قتيبة الدينورى طبعة الخانجى سنة ١٣٢٢ هـ وفاة ابن قتيبة (٢٧٦)
أسرار الحماسة لسيد على المرصفى الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩١٢ عصر المرصفى (النهضة الحديثة)
الإعجاز والإيجاز لأبى منصور الثعالبى الطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧ ، وفاة الثعالبى (٤٢٩)
الأغانى للأصفهانى طبع مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٣ تصحيح الشيخ الشنقيطى ، وفاة الأصفهانى (٣٥٠)
أجزاء الأغانى طبع دار الكتب المصرية حتى سنة ١٩٦١
إلياذة هوميروس مترجمة نظماً لسليمان البستانى طبعة الهلال بمصر سنة ١٩٠٤

(عصر هوميروس القرن التاسع ق . م) (عصر البستانى النهضة الحديثة)

تتمة يتيمة الدهر للثعالبى ط طهران سنة ١٣٥٣ هـ
التكملة لشعر الأخطل عن نسخة طهران الخطية وتعليق الأب صالحانى اليسوعى طبع بيروت سنة ١٩٣٨ ، وفاة الأخطل سنة (٩٠) هـ
جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى الطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٣ (وفاة القرشى سنة ١٧٠) هـ

حلية الفرسان وشعار الشجعان لعلى بن هذيل الأندلسى تصحيح لويس ميرسيه طبع باريس سنة ١٩٢٢ عصر ابن هذيل الأندلسى القرن الثامن للهجرة)
حماسة البحترى طبع المكتب الشرقى ببيروت بوقوف الأب لويس شيخو اليسوعى نقلا عن

الطبعة الفوتوغرافية التى أخرجها مارغو ليوث .

خزانة الأدب للبغدادى طبع بولاق بمصر سنة ١٢٩٩ هـ (وفاة البغدادى ١٠٩٣ هـ).

ديوان ابن الرومى الجزء الأول طبع الهلال بمصر سنة ١٩١٧م والجزء الثانى طبع مطبعة مصر بشرح محمد شريف سليم (وفاة ابن الرومى سنة ٢٨٣) .

ديوان ابن المعتز طبع المحروسة بمصر سنة ١٨٩١ م (وفاة ابن المعتز سنة ٣١٥ هـ)

ديوان أبى تمام الطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٢ هـ (وفاة أبى تمام ٢٣١) ، 846

ديوان أبى تمام طبع بيروت لشاهين عطية سنة ١٨٨٩ م

ديوان أبى الطيب المتنبي ضبط المعلم بطرس البستانى طبع بيروت سنة ١٨٦٠ (وفاة المتنبى سنة ٣٥٤) .

ديوان أبى الطيب المتنبى تصحيح الدكتور عبد الوهاب عزام طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٤ .

ديوان أبى فراس الحمدانى طبع بيروت سنة ١٩١٠ م (وفاة أبى فراس سنة ٣٥٧) .

ديوان البحترى طبع الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ (وفاة البحترى ٢٨٤) .

ديوان البحترى طبع هندية بمصر سنة ١٩١١ . م

ديوان جرير الطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ (وفاة جرير ١١١ هـ) .

ديوان الأخطل برواية أبى عبد الله اليزيدى طبع بيروت سنة ١٨٩١ للأب صالحانى اليسوعى (وفاة الأخطل سنة ٩٠ هـ) .

ديوان أشعار الحماسة للطائى طبعة الزهار ببيروت سنة ١٨٨٩ . م

ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات شرح الحسن السكرى للدكتور Rhodokanakis طبع فينا سنة ١٩٠٢ وفاة ابن قيس الرقيات (٨٥) وفاة شارحه (٢٧٥) .

ديوان عنترة بن شداد العبسى طبع هندية بمصر سنة ١٣١٥ هـ . وفاة عنترة (٦١٥ م) .

ديوان الطرماح نشر وتعليق كرانكو طبع لندن سنة ١٩٢٧ م وفاة الطرماح (٨٠) .

ديوان الفرزدق إملاء ابن حبيب عن ابن الأعرابى نقلا عن النسخة المخطوطة بأيا صوفيا فى القسطنطينية مع ترجمة فرنسية للمسيو (ر . بوشيه) طبع باريس سنة ١٨٧٠ م (نسخة بدار الكتب المصرية فى أربعة أجزاء رقم ٣٠٩٠ آداب . وفاة الفرزدق (١١٠) . هـ

ديوان القطامى إخراج بارت Barth طبع ليدن سنة ١٩٠٢ وفاة القطامى (١٠١) . هـ

ديوان مسلم بن الوليد طبع ليدن سنة ١٨٧٥ وفاة مسلم بن الوليد (٢٠٨) . هـ

رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى طبعة الكيلانى سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٥ . ورسالة ابن القارح مع هذه الطبعة ، وفاة أبى العلاء (٤٤٩) هـ .

رغبة الآمل فى كتاب الكامل لسيد على المرصفى طبعة النهضة بمصر سنة ١٩٢٧ .

الشاهنامة للفردوسى — رسالة دكتوراه للدكتور عبد الوهاب عزام طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ . عصر الفردوسى (٣٢٠–٤١١ هـ) .

شرح ديوان الحماسة للطائى لأبى زكريا التبريزى الطبعة الأوربية الأولى للدكتور فرايتغ سنة ١٨٢٨ وفاة التبريزى (٥٠٢) .

شرح ديوان حماسة البحترى طبع ليدن سنة ١٩٠٩ بصفحات فوتوغرافية بوقوف مارغو ليوث (وفاة البحترى $\frac{٢٨٤}{827}$) .

شرح القصائد العشر لأبى زكريا التبريزى طبع كلكته سنة ١٨٩٤ .

شرح ديوان كثير عزة لهنرى بيريس طبع باريس سنة ١٩٢٨ (وفاة كثير عزة ١٠٥) .

الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى طبع الخانجى سنة ١٣٢٢ هـ .

شعراء النصرانية فى دولة بنى أمية للأب لويس شيخو اليسوعى طبع بيروت سنة ١٩٢٥ (عصر الأب شيخو النهضة الأخيرة) .

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى وقوف Hell طبع ليدن سنة ١٩١٦ (وفاة ابن سلام ٢٣٢) .

العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين وقوف W. Ahlwardt

العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة سنة ١٣٥٣ بمصر الجزء الثالث (كتاب وقائع العرب وأيامها) .

العقد الفريد لابن عبد ربه طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٠
وفاة ابن عبد ربه (٤٢٦) هـ .
الجزء الأول (كتاب الفريدة فى الحروب) .

عيون الأخبار لابن قتيبة طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ .
الجزء الأول (كتاب الحرب) .

الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى طبع المعارف بمصر عن نسخة برلين سنة ١٣٢٨
وفاة أبى منصور البغدادى (٤٢٩) .

الفصل فى الملل والأهواء لابن حزم وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى .
الطبعة الأدبية بمصر سنة ١٣٢٠ هـ (وفاة ابن حزم ٤٥٦) (وفاة الشهرستانى ٥٤٨) .

الكامل للمبرد تصحيح محمد الأسيوطى طبع مصر سنة ١٣٠٩ هـ ، وفاة المبرد (٢٨٥) .

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين الموصلى طبع بولاق سنة ١٢٨٢ هـ .
وفاة ضياء الدين الموصلى سنة (٦٣٧) .

المبهج فى تفسير أسماء شعراء الحماسة لأبى الفتح بن جنى طبع دمشق الترقى سنة ١٣٤٨
وفاة ابن جنى (٣٩٢) .

مخطوط ديوان أبى فراس الحمدانى بدار الكتب المصرية رقم ١٨٣٢ خصوصى أدب
نسخة بخط محمد بن أحمد الخياط الشافعى (غير معروفة السنة) .

مخطوط الصبح المنبى عن حيثية المتنبى للشيخ يوسف البديعى
مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٣ أدب ، نسخة كتبت سنة ١٢٦٤ هـ (وفاة البديعى ١٠٧٣) .

مخطوط الصولى فى شرح ديوان الطائى الجزء الثالث . أوله ورقة (١) وآخره ورقة (٢٤٢)
إلى باب المراثى بخط كبير ، على الصفحة الأولى منه اسم محمود سامى الشهير بالبارودى
سنة ١٢٧٥ هـ . نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية (رقم ٥٧٣ آداب) .

معجم الأدباء لياقوت الرومى طبعة دار المأمون بمصر ج ١٩ وفاة ياقوت (٦٢٦) .

معجم الشعراء لأبى عبد الله المرزبانى ومعه المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وأنسابهم
للآمدى . وقوف الدكتور كرانكو. وفاة المرزبانى (٣٨٤)هـ طبع القاهرة سنة ١٣٥٤هـ
وفاة الآمدى (٣٧١) هـ .

المعلقات طبع برلين سنة ١٨٩١ وقوف الدكتور آبل .

المفضليات للضبى برواية أبى محمد الأنبارى تحقيق وشرح شاكر وهارون طبع دار المعارف
بمصر سنة ١٩٤٢ وفاة الضبى (١٦٨) . وفاة الأنبارى (٣٢٧) .

مفيد العلوم لجمال الدين بن أبى بكر الخوارزمى الطبعة الأولى العلمية بمصر سنة ١٣٦٠
عصره (أوائل القرن الخامس للهجرة) .

مقامات الهمذانى الطبعة الثانية لليسوعيين ببيروت شرح الشيخ محمد عبده (عصر الشيخ
محمد عبده) النهضة الحديثة ، وفاة الهمذانى (٣٩٨) .

الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى طبع الجوائب بالآستانة سنة ١٢٨٧ .
نقائض جرير والفرزدق لأبى عبيدة طبع ليدن سنة ١٩٠٥ لفيفيان ، وفاة أبى عبيدة (٢١٠)
نهاية الأرب فى فنون العرب للنويرى طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ السفر السادس (كتاب قادة الجيوش ومكايد الحروب ووصف الوقائع) والسفر التاسع ، طبعة الدار سنة ١٩٣٢ .
هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام للبديعى طبع مطبعة العلوم بمصر سنة ١٩٣٤ وفاة البديعى ١٠٧٣/1663
وفيات الأعيان لابن خلكان طبع البارون أوسلان بباريس سنة ١٨٣٨ ج ١ وفاة ابن خلكان ٦٨١/1282 .
يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبي طبعة إسماعيل الصاوى بمصر سنة ١٩٣٤ الجزء الأول وفاة الثعالبي ٤١٩/1038 .

المصادر التاريخية

تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى طبعة البابى الحلبى بمصر سنة ١٣٠٥ ت السيوطى (٩١١) .
تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس لحسين بن عمر الديار بكرى الطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٨٣ هـ ، ت الديار بكرى (٩٦٦) .
تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى الطبعة الأولى الحسينية بمصر ، ت الطبرى ٣١٠/921
تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى الطبعة الأوربية بليدن أعوام (١٨٧٩ — ١٩٠١) .
تاريخ مختصر الدول لغريغوريوس بن هرون الملطى المعروف بابن العبرى وقوف الأب صالحانى اليسوعى طبع بيروت سنة ١٨٩٠ ت غريغوريوس (١٢٨٦) .
تجارب الأمم لأحمد بن مسكويه الجزء الثانى طبع شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٩١٥ بوقوف أميدروز Amedroz ونشر لندن سنة ١٩٢١ ت ابن مسكوية ٤٢١/1030 .
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز . ترجمة الدكتور أبى ريده طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ .
الخطط للمقريزى طبعة مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ج ١ ت المقريزى ٨٤٥/1441 .

الدر المنتخب فى تاريخ حلب لمحمد بن الشحنة الحلبي وقوف اليان سركيس الدمشقى طبع بيروت سنة ١٩٠٩ ت ابن الشحنة ٨١٥/1412 .

السيرة النبوية رواية ابن هشام طبع هندية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ . ت ابن هشام (٢١٨) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى طبع القدسى بمصر سنة ١٣٥٠ ت الحنبلى (١٠٨٩) هـ .

صلة تاريخ الطبرى لعريب القرطبي طبع المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٨ ت عريب (٣٦٦ هـ) .

أجزاء من الطبقات لابن سعد طبع لجنة نشر الثقافة الإسلامية بمصر ١٣٥٨ ت ابن سعد ٢٣٠/845 .

فتوح البلدان لأحمد بن يحيي البلاذرى الطبعة الأولى بمصرسنة ١٩٠١ ت البلاذرى (٢٧٩)

فتوح الشام للواقدى بتعليقات وليم ناسوليس الإرلندى طبع كلكتة سنة ١٨٥٤ ت . الواقدى (٢٠٧) .

الكامل فى التاريخ لابن الأثير الطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠١ هـ ، ت ابن الأثير ٦٣٠/1234

مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على طبع لجنة الترجمة والتأليف والنشر بمصر سنة ١٩٣٨ .

المختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء المؤيد الطبعة الأولى الحسينية بمصر ، ت أبو الفداء ٧٣١/1331 .

مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن المسعودى طبع دار الرجاء بمصر ، ت المسعودى ٣٤٠/956 .

معجم ما استعجم للحافظ البكرى الطبعة الأوربية سنة ١٨٧٧ ت البكرى ٤٨٧/1094 .

مقدمة ابن خلدون الطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٨٦ ت ابن خلدون ٨٠٦/1406 .

النجوم الزاهرة لأبى المحاسن الأتابكى طبع دار الكتب المصرية ج ٢ ، ت أبو المحاسن ٨٧٤/1469

المصادر التاريخية الجغرافية

التنبيه والإشراف للمسعودى طبع ليدن سنة ١٨٩٣ بوقوف de goeje

مسالك الممالك لأبى إسحق الاصطخرى الكرخى طبع ليدن سنة ١٨٧٠ نشرة de goeje .
ت الاصطخرى ٣٤٠/951 .

المسالك والممالك لأبى القاسم بن خرداذبة طبع ليدن سنة ١٨٨٩ de goeje ت ابن خرداذبة (٣٠٠) .

المصادر الفرنجية

تأليف Rodolph Dvorak (فيه نص الثعالبي مع شرح دڤوراك ومقدمته) Abou Firâs
طبع ليدن سنة ١٨٩٥ .
Arabic lists of the Byzantine themes.
تأليف F.W. Brooks طبع صحيفة الدراسات الهيلينية 1901
Byzance et les Arabes, par Alexandre Vasiliev
الأسرة العمورية (820-867)
الترجمة الفرنسية عن الروسية طبع معهد التاريخ الشرقي فى بروكسل سنة ١٩٣٥
Histoire de l'empire byzantine par A. Vasiliev
طبع بيكار بباريس سنة ١٩٣٢ (الترجمة الفرنسية) (324-1081) tome 1
Histoire de la nation égyptienne par Gabriel Hanotaux et Gaston Wiet
طبع بلون بباريس سنة ١٩٣٧ Tome IV
La Civilisation byzantine, par Stevan Runciman
الترجمة الفرنسية عن الإنكليزية طبع بايو بباريس سنة ١٩٣٤
L'épopée Byzantine à la fin du dixième siècle
طبع هاشيت بباريس سنة ١٨٩٦
طبع مكتبة هاتيه بباريس ترجمة (جوركان) L'Illiade d'Homère
طبع مكتبة هاتيه بباريس ترجمة (جوركان) L'Odyssée d'Homère
Mutanabbi und Seifuddaula : Dieterici
طبع ليدن سنة ١٨٧٤ (فيه نص الثعالبي مع تعليق ديتيريسى ومقدمته وتحليله)
Pages choisies des grands écrivains (Homère) par Maurice Croisiet
طبع مكتبة أرمان كولان بباريس سنة ١٩٢٣ الطبعة السابعة
Patrologia Orientalis, Fascicule 3, tome VIII.
كتاب (العنوان) لأغابيوس المنبجي فى هذه المجلة نشر ڤاسيلييف طبع باريس سنة ١٩٠٨
وفى هذه المجلة Patrologia Orientalis, tome XV III

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ليحيي بن سعيد الأنطاكي نشر فاسيلييف وكراتشكوفسكي طبع باريس سنة ١٩٢٤ — وبذيل الصفحات ترجمتهما للنص العربي بالفرنسية : "Histoire de Jean l'Antiochitain"

Un empereur byzantin au dixième siècle "Nicephor Phocas".

طبع باريس سنة ١٨٩٠ Par Gustave Schlumberger

Un poète arabe du IVe siècle de l'Héjire (Xe siécle de j.c.).
About-tayyib al Motanabbi "Essai d'histoire littéraire".

إصدار مكتبة أمريكا والشرق بباريس سنة ١٩٣٥ Par. R. Blachère

Sayf al Daula : Recueil de textes relatif à l'Emir Sayfal Daula par Marius Canard.

طبعة جول كابونيل بالجزائر سنة ١٩٣٤

"Al Mutanabbi" recueil publié à l'occasion de son millénaire

طبع بيروت سنة ١٩٣٦

الإمبراطورية البيزنطية لأومان ، ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر طبعة الاعتماد بمصر ١٩٥٣ .


القسطنطينية
سيدونية
هرقليه
(اللفان)
أرمينيا
أماسيه
قولونية
صارجة
أنقرة
صاغري
الأبيق
درولية
سباستية
البقلار
خرشنة
ثغور الجزيرة
قباقب
طرونية
قيسارية
(إقليم المطامير)
جبال طوروس
عمورية
الناطلوق
نهر ميانذروس
ماشان
حصن الصقالبة
ثغور الشام
القبذوق
ملطيه
(الجزيرة)
آمد
ميافارقين
(ديار بكر)
زبطرة الحدث
مرعش
حصن منصور
سميساط
الرها
حران
اليساندوس
ايزونه
لارانده
المصيصة
عين زربة
جبال أمانوس
منبج
دلوك
(العواصم)
طرسوس
سلوقيه
الزرق
أنطاكيه
حلب
قنسرين
بالس
الرقة
الفرات
الرصافة
رودس
بحر الروم

الفهرس

صفحة

ملحق

الباب الثالث

شعر الحرب فى ظل الحمدانيين

صفحة

مؤلفات الحماسة القديمة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١